



الأيام

طه حسين



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

# الأيام

تأليف  
طه حسين



الأيام

طه حسين

الناشر مؤسسة هنداوي  
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة  
تلفون: +٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org  
الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٧٢٣ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٩.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور طه حسين.



Free for development. Licenses from \$499

<https://ironpdf.com/licensing/>

# المحتويات

|    |                  |
|----|------------------|
| ٩  | الجزء الأول      |
| ١١ | الفصل الأول      |
| ١٧ | الفصل الثاني     |
| ٢١ | الفصل الثالث     |
| ٢٣ | الفصل الرابع     |
| ٢٧ | الفصل الخامس     |
| ٣١ | الفصل السادس     |
| ٣٥ | الفصل السابع     |
| ٣٧ | الفصل الثامن     |
| ٣٩ | الفصل التاسع     |
| ٤٣ | الفصل العاشر     |
| ٤٧ | الفصل الحادي عشر |
| ٤٩ | الفصل الثاني عشر |
| ٥٣ | الفصل الثالث عشر |
| ٥٧ | الفصل الرابع عشر |
| ٦٣ | الفصل الخامس عشر |
| ٦٩ | الفصل السادس عشر |
| ٧٧ | الفصل السابع عشر |
| ٨١ | الفصل الثامن عشر |
| ٩١ | الفصل التاسع عشر |

|     |                  |
|-----|------------------|
| ٩٩  | الجزء الثاني     |
| ١٠١ | الفصل الأول      |
| ١٠٥ | الفصل الثاني     |
| ١٠٩ | الفصل الثالث     |
| ١١٥ | الفصل الرابع     |
| ١٢١ | الفصل الخامس     |
| ١٢٧ | الفصل السادس     |
| ١٣٥ | الفصل السابع     |
| ١٤١ | الفصل الثامن     |
| ١٤٧ | الفصل التاسع     |
| ١٥٣ | الفصل العاشر     |
| ١٥٧ | الفصل الحادي عشر |
| ١٦٣ | الفصل الثاني عشر |
| ١٦٧ | الفصل الثالث عشر |
| ١٦٩ | الفصل الرابع عشر |
| ١٧١ | الفصل الخامس عشر |
| ١٧٧ | الفصل السادس عشر |
| ١٨٣ | الفصل السابع عشر |
| ١٩١ | الفصل الثامن عشر |
| ١٩٧ | الفصل التاسع عشر |
| ٢٠٩ | الفصل العشرون    |
| ٢١٥ | الجزء الثالث     |
| ٢١٧ | الفصل الأول      |
| ٢٢٣ | الفصل الثاني     |
| ٢٢٩ | الفصل الثالث     |
| ٢٣٥ | الفصل الرابع     |

## المحتويات

|     |                  |
|-----|------------------|
| ٢٤١ | الفصل الخامس     |
| ٢٤٧ | الفصل السادس     |
| ٢٥٣ | الفصل السابع     |
| ٢٦١ | الفصل الثامن     |
| ٢٦٩ | الفصل التاسع     |
| ٢٧٧ | الفصل العاشر     |
| ٢٨٥ | الفصل الحادي عشر |
| ٢٩٣ | الفصل الثاني عشر |
| ٣٠١ | الفصل الثالث عشر |
| ٣٠٧ | الفصل الرابع عشر |
| ٣١٥ | الفصل الخامس عشر |
| ٣٢٢ | الفصل السادس عشر |
| ٣٢١ | الفصل السابع عشر |
| ٣٣٩ | الفصل الثامن عشر |
| ٣٤٥ | الفصل التاسع عشر |
| ٣٥٣ | الفصل العشرون    |



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

# الجزء الأول



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

# الفصل الأول

لا يذكر لهذا اليوم اسمًا، ولا يستطيع أن يضنه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتًا بعينه، وإنما يُقرّب ذلك تقريرًا. وأكبر ظنه أنَّ هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو في عشائه، ويرجح ذلك لأنه يذكر أنَّ وجهه تلقى في ذلك الوقت هواءً فيه شيءٌ من البرد الخفيف الذي لم تذهب به حرارة الشمس، ويرجح ذلك لأنَّه على جهله حقيقة النور والظلمة، يكاد يذكر أنَّه تلقى حين خرج من البيت نورًا هادئًا خفيفاً لطيفاً كأنَّ الظلمة تغشى<sup>١</sup> بعض حواشيه، ثم يرجح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يُؤنس<sup>٢</sup> من حوله حركة يَقْطَلة قوية، وإنما آنس حركة مُستيقظة من نومٍ أو مُقبلة عليه، وإذا كان قد بقى له من هذا الوقت ذكرى واضحةٌ بينةٌ لا سبيل إلى الشك فيها، فإنما هي ذكرى هذا السياج<sup>٣</sup> الذي كان يقوم أمامه من القصب،<sup>٤</sup> والذي لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطواتٌ قصارٌ. هو يذكر هذا السياج كأنَّه رأه أمس، يذكر أنَّ قصب هذا السياج كان أطول من قامته، فكان من العسير عليه أن يتخطأه إلى ما وراءه، ويدرك أنَّ قصب هذا السياج كان مقرباً

<sup>١</sup> تغشى: تُغطي.

<sup>٢</sup> آنس: أبصر.

<sup>٣</sup> السياج: ما يحيط بالشيء من خشب أو حديد أو شجر أو بناء.

<sup>٤</sup> القصب هنا: ضرب من النبت ذو كعوب جوفاء، كانت تتخذ منه الأقلام، ينبع على شواطئ الأنهر والترع.

كأنما كان متلاصقاً، فلم يكن يستطيع أن ينسّل<sup>٥</sup> في ثناياه، ويدرك أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية، وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً؛ فقد كانت تنتهي إلى قناءٍ عرّفها حين تقدّمت به السن، وكان لها في حياته – أو قُل في خياله – تأثيرٌ عظيم.

يدرك هذا كله، ويدرك أنه كان يحسد الأرانب التي كانت تخرج من الدار كما يخرج منها، وتتخطى السياج وتبًا من فوقه، أو انسياياباً<sup>٦</sup> بين قصبه، إلى حيث تقرّض<sup>٧</sup> ما كان وراءه من نبت أخضر، يذكّر منه الگُرْنَب خاصّةً.

ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غرّبت الشمس وتعشّى الناس، فيعتمد على قصب هذا السياج مفكراً في التفكير، حتى يردد إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافةٍ من شماله، والتف حوله الناس وأخذ يُنشدهم في نغمٍ عذبةٍ غريبةٍ أخبار أبي زيد وخليفةٍ ديار، وهم سكوتٌ إلا حين يستخفُهم<sup>٨</sup> الطّرب أو تستقرّ لهم الشهوة، فيستعيدون ويتمارون<sup>٩</sup> ويختصمون، ويُسكن الشاعر حتى يفرّغوا من لغتهم<sup>١٠</sup> بعد وقتٍ قصيرٍ أو طويل، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تقاد تتغيّر.

ثم يذكر أنه لا يخرج ليلةً إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرةٌ لاذعةٌ<sup>١١</sup> لأنّه كان يُقدر أن سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى، فتخرج فتشدّه من ثوبه فيمتنع عليها، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامـة،<sup>١٢</sup> وتعدو<sup>١٣</sup> به إلى حيث تُنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذِ أمّه، ثم تَعْمِد<sup>١٤</sup> هذه إلى عينيه المظلمتين

<sup>٥</sup> ينسـل هنا: ينفذ. وأثناء الشيء: تضاعيفه، الواحد ثـني، بالكسر.

<sup>٦</sup> الوثـب: القفز. والانسياب هنا: الدخـول.

<sup>٧</sup> تقرّض: تقطع.

<sup>٨</sup> استخفـه الأمر: أطربـه وحملـه على الخـفة والجهـل، واستقرـزه: استخفـه.

<sup>٩</sup> يتمارـون: يتجادـلون.

<sup>١٠</sup> اللـغـة: الصـوت والـجلـبة.

<sup>١١</sup> حـسرـة: تـلـهـفـ. ولـاذـعـة: شـدـيـدة مـؤـلـةـ.

<sup>١٢</sup> الثـمامـة: نـبت ضـعـيفـ شـبـيهـ بـالـخـوـصـ، يـُضـرـبـ بـهـ المـثـلـ لـمـاـ هـوـ هـيـنـ الـمـتـاـولـ.

<sup>١٣</sup> تعدـوـ: تـجـريـ.

<sup>١٤</sup> تعـمـدـ: تـقـصـدـ.

## الفصل الأول

فتفتحهما واحدةً بعد الأخرى، وتقطرُ فيهما سائلاً يُؤذيه ولا يُجدي عليه خيراً،<sup>١٥</sup> وهو يألمُ ولكنه لا يشكو ولا يبكي؛ لأنَّه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكاءً شكاً.<sup>١٦</sup>



ثم يُنقل إلى زاوية في حُجرة صغيرة فتنيمه أخته على حصيرة قد بُسط عليها لحافٌ، وتلقي عليه لحافاً آخر، وتذرُّه وإنَّ في نفسه لحسراتٍ، وإنَّه ليُمْدُّ سمعه مداً يكاد يخترق به الحائط لعلَّه يستطيع أن يصله بهذه النغمات الحلوة التي يرددُها الشاعر في الهواء الطلق تحت السماء. ثم يأخذه النوم، فما يُحسُّ إلا وقد استيقظ والناس نياً، ومن حوله

<sup>١٥</sup> لا يُجدي عليه خيراً: لا يُحدث له خيراً ولا يُنيله.

<sup>١٦</sup> بكاء شقاء: كثير البكاء والشكوى.

إخوته وأخواته يُغطون<sup>١٧</sup> في الغطيط، فيلقي اللحاف عن وجهه في خفية وتردد؛ لأنّه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه، وكان واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف، فلا بدّ من أن يعيث به عفريت من العفاريت الكثيرة التي كانت تعمّر أقطار البيت<sup>١٨</sup> وتملأ أرجاءه ونواحيه، والتي كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمس واضطرب الناس. فإذا أويت الشمس إلى كهفها، والناس إلى ماضعهم، وأطفئت السُّرُج، وهدأت الأصوات، صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركةً واضطرباً وتهاماً وصياحاً.

وكان كثيراً ما يستيقظ فيسمع تجاوبَ الدّيكة وتصایحَ الدّجاج، ويجهد في أن يميز بين هذه الأصوات المختلفة، فاما بعضها فكانت أصوات دِيَكَة حَقّاً، وأما بعضها الآخر فكانت أصوات عفاريت تتسلل بأشكالِ الدّيكة وتُقلّلُها عبّاً وكيداً، ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا يهابها؛ لأنّها كانت تصل إليه من بعيد، إنما كان يخافُ الخوفَ كلهُ أصواتاً أخرى لم يكن يتبيّنها إلا بمشقةٍ وجهدٍ، كانت تنبعث من زوايا الحُجرة نحيفَةٌ ضئيلةً، يمثل بعضها أزيز المِرْجَل<sup>١٩</sup> يغلي على النار، ويمثل بعضها الآخر حركةً متاعَ خفيٍّ يُنَقَلُ من مكان إلى مكان، ويمثل بعضها خشبًا ينقسم أو عوداً ينحطم.<sup>٢٠</sup>

وكان يخاف أشدَّ الخوف أشخاصاً يمتلأها قد وقفت على باب الحجرة فسَدَّته سداً وأخذت تأتي بحركاتٍ مختلفةٍ أشبه شيء بحركات المتصوّفة في حلقات الذّكُر. وكان يعتقد أن ليس له حصنٌ من كلّ هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكّرة؛ إلا أن يلتَفَّ في لحافه من الرأس إلى القدم، دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذًا أو ثُغْرَة، وكان واثقاً أنه إن ترك ثغرةً في لحافه فلا بدّ من أن تمتد منها يد عفريت إلى جسمه فتنهاله بالغمز والعبث.

لذلك كان يقضي ليه خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم، وما كان يغلبه النوم إلا قليلاً. كان يستيقظ مُبَكِّراً، أو قُلْ: كان يستيقظ في السّحر، ويقضى شطراً طويلاً من الليل في هذه الأهوال والأوجال<sup>٢١</sup> والخوف من العفاريت؛ حتى إذا وصلت إلى سمعه

<sup>١٧</sup> غط النائم: نخر وتردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله.

<sup>١٨</sup> أقطار البيت: نواحية.

<sup>١٩</sup> الرجل: القدر، وأزيزه: صوته.

<sup>٢٠</sup> ينقسم وينحطم: ينكسر.

<sup>٢١</sup> الأوجال: المخاوف، الواحد وَجَلَ، بالتحرير.

## الفصل الأول

أصوات النساء يُعْدِنَ إلى بيوتهنَ وقد ملأن جِرارَهُنَّ من القَناة وهنَّ يتغَنَّينَ: «الله يا ليل الله...» عَرَفَ أَنْ قد بَرَغَ الفجر، وأنْ قد هَبَطَتِ العفاريت إلى مستقرّها من الأرض السُّفلِيَّة، فاستحال هو عَفريتاً، وأخذ يتحَدَّث إلى نفسه بصوٍّت عالٍ، ويَتغَنَّى بما حِفظَ من نشيد الشاعر، ويَغْمِزَ مَنْ حولَه من إخوته وأخواته، حتى يُوقظهم واحداً واحداً. فإذا تمَّ له ذلك، فهناك الصِّياح والغناء، وهناك الضجيج والعجيج،<sup>٢٢</sup> وهناك الضوضاء التي لم يكن يضع لها حدًّا إلَّا نهوض الشيخ من سريره، ودعاؤه بالإبريق ليتوَضَّأ.

حيثَنَّ تخفَّت<sup>٢٣</sup> الأصوات وتهدأ الحركة، حتى يتَوَضَّأُ الشيخ ويُصلِّي ويقرأ ورُدَّه ويشرب قهوته ويمضي إلى عمله، فإذا أغلق الباب من دونه نهضت الجماعة كُلُّها من الفِراش، وانسابت<sup>٢٤</sup> في البيت صائحةً لاعبةً، حتى تختلط بما في البيت من طير وماشية.

<sup>٢٢</sup> الضجيج والعجيج: الصياح ورفع الصوت.

<sup>٢٣</sup> تخفت الأصوات: تسكن أو تضعف.

<sup>٢٤</sup> انسابت: جرت وجالت.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثاني

كان مطمئناً إلى أن الدنيا تنتهي عن يمينه بهذه القناة التي لم يكن بينه وبينها إلا خطواتٌ معدودة ... ولمَ لا وهو لم يكن يرى عرضاً هذه القناة، ولم يكن يُقدر أنَّ هذا العرض ضئيلٌ بحيث يستطيع الشاب النشيط أنْ يثبت من إحدى الحافتين فيبلغ الأخرى؟! ولم يكن يُقدر أن حياة الناس والحيوان والنبات تتصل من وراء هذه القناة على نحو ما هي من دونها، ولم يكن يُقدر أن الرجل يستطيع أن يعبر هذه القناة ممتلئةً دون أن يبلغ الماء إبطيه، ولم يكن يُقدر أن الماء ينقطع من حين إلى حين عن هذه القناة، فإذا هي حفرة مستطيلة يعبث فيها الصبيان، ويبحثون في أرضها الرخوة عما تخلَّف من صغار السمك فمات لانقطاع الماء عنه.

لم يكن يُقدر هذا كله، وإنما كان يعلم يقيناً لا يُخالطه الظن، أنَّ هذه القناة عالمٌ آخر مستقلٌ عن العالم الذي كان يعيش فيه، تعمره كائنات غريبة مختلفة لا تقاد تحصي؛ منها: التماسيح التي تزداد<sup>١</sup> الناس ازدراً، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء بياض النهار وسود الليل، حتى إذا أشرقت الشمس أو غربت طفوا يتنسَّمون الهواء،<sup>٢</sup> وهم حين يطفون خطرٌ على الأطفال وفتنة للرجال والنساء. ومنها: هذه الأسماك الطوال العراض التي لا تقاد تظفر ب الطفل حتى تزداده ازدراً، والتي قد يُتاح<sup>٣</sup> لبعض الأطفال أن يظفروا في بطونها بخاتم الملك؛ ذلك الخاتم الذي لا يكاد الإنسان يُديره في إصبعه حتى

<sup>١</sup> تزداد: تتبع.

<sup>٢</sup> طفوا: علو. وتنسَّم الهواء: تشمممه ووجد نسيمه.

<sup>٣</sup> يُتاح: يُهياً.

يسعى إليه دون لمح البصر خادمان من الجن يقضيان له ما يشاء، ذلك الخاتم الذي كان يختتمه سليمان فيسخر له الجن والريح وما شاء من قوى الطبيعة. وما كان أحب إليه أن يهبط في هذه القناة لعل سمكةً من هذه الأسماك تزدرده فيظفر في بطنها بهذا الخاتم؛ فقد كانت حاجته إليه شديدةٌ ... ألم يكن يطمع على أقل تقدير في أن يحمله أحد هذين الخادمين إلى ما وراء هذه القناة ليرى بعض ما هناك من الأعاجيب! ولكنه كان يخشى كثيراً من الأهوال قبل أن يصل إلى هذه السمكة المباركة.

على أنه لم يكن يستطيع أن يَلْتُو<sup>٤</sup> من شاطئ هذه القناة مسافةً بعيدة؛ فقد كان هذا الشاطئ محفوفاً عن يمينه وعن شماله بالخطر، فأما عن يمينه فقد كان هناك العَدَوِيُّون، وهم قومٌ من الصعيديين يقيمون في دار لهم كبيرة يقوم على بابها دائماً كلبان عظيمان لا ينقطع نباحهما، ولا تنقطع أحاديث الناس عنهم، ولا ينجو المارُّ منها إلا بعد عناء ومشقة، وأما عن شماله فقد كانت هناك خيام يقيم فيها «سعيد الْأَعْرَابِيُّ» الذي كان الناس يتحدثون بشّره ومكره وحرصه على سفك الدماء، وامرأته «كوابس» التي كانت قد اتخذت في أنفها حلقةً من الذهب كبيرة، والتي كانت تختلف<sup>٥</sup> إلى الدار وتُقْبَل صاحبنا من حين إلى حين، فلُؤْذِيه خَرَامَهَا ويروعه.<sup>٦</sup> وكان أخوَفَ الأشياء إليه أن يتقدّم عن يمينه فيتعرّض للكَبَّي العَدَوِيَّين، أو يتقدّم عن شماله فيتعرّض لشر «سعيد» وامرأته «كوابس». على أنه كان يجد في هذه الدنيا الضيقَة القصيرة المحدودة من كل ناحية ضرباً من اللهو والعبث تملأ نهاره كله.

ولكن ذاكرة الأطفال غريبة، أو قل: إن ذاكرة الإنسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة؛ فهي تمثل بعض هذه الحوادث واضحاً جلياً لأن لم يمض بينها وبينه من الوقت شيء، ثم يَمْحِي منها بعضها الآخر لأن لم يكن بينها وبينه عهد.

يذكر صاحبنا السياج، والمزرعة التي كانت تنبسط من ورائه، والقناة التي كانت تنتهي إليها الدنيا، و«سعيداً» و«كوابس» وكلاب العَدَوِيَّين، ولكنه يحاول أن يتذكر مصير هذا كله فلا يظفر من ذلك بشيء، وكأنه قد نام ذات ليلة ثم أفاق من نومه فلم ير سياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً ولا كوابس، وإنما رأى مكان السياج والمزرعة بيوتاً قائمة وشوارع

<sup>٤</sup> يَلْتُو: يختبر.

<sup>٥</sup> تختلف إلى الدار: تتردد عليها.

<sup>٦</sup> يروعه هنا: يخيفه.

## الفصل الثاني

منظمة، تتحدر كلها من جسر القناة ممتدًا امتدادًا قصيراً من الشمال إلى الجنوب، وهو يذكر كثيراً من الذين كانوا يسكنون هذه البيوت رجالاً ونساءً، ومن الأطفال الذين كانوا يعبثون في هذه الشوارع.

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدم يميناً وشمالاً على شاطئ القناة دون أن يخشى كلاب العدوين أو مكر سعيد وامرأته. وهو يذكر أنه كان يقضي ساعاتٍ من نهاره على شاطئ القناة سعيداً مبهجاً بما سمع من نغمات «حسن» الشاعر يتغنى بشعره في أبي زيد وخليفة ودياب، حين يرفع الماء بشادوفه ليسقي به زرعه على الشاطئ الآخر للقناة. وهو يذكر أنه استطاع غير مرة أن يعبر هذه القناة على كتف أحد إخوه دون أن يحتاج إلى خاتم الملك، وأنه ذهب غير مرة إلى حيث كانت تقوم وراء القناة شجراتٌ من التوت فأكل من توتها ثمراتٍ لذينة. وهو يذكر أنه تقدّم غير مرة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلم وأكل فيها غير مرة تفاحاً، وقطف له فيها غير مرة نعناعً وريحان، ولكنه عاجزٌ كلَّ العجز أن يتذكّر كيف استحالَت الحالُ وتغيّر وجه الأرض من طوره الأول إلى هذا الطور الجديد.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثالث

كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه، وخامس أحد عشر من أشقته، وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصاً يمتاز من مكان إخوته وأخواته. أكان هذا المكان يرضيه؟ أكان يُؤذيه؟ الحق أنه لا يتبيّن ذلك إلا في غموض وإبهام، والحق أنه لا يستطيع الآن أن يحكم في ذلك حكماً صادقاً. كان يُحس من أمّه رحمةً ورأفةً، وكان يجد من أبيه ليناً ورفقاً، وكان يشعر من إخوته بشيءٍ من الاحتياط في تحدّثهم إليه ومعاملتهم له. ولكنَّه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمّه شيئاً من الإهمال أحياناً، ومن الغلطة أحياناً أخرى. وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضاً، والازورار<sup>١</sup> من وقت إلى وقت، وكان احتياط إخوته وأخواته يُؤذيه؛ لأنَّه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيءٍ من الازدراء.

على أنه لم يلبث أن تبيّن سبب هذا كله، فقد أحْسَّ أن لغيره من الناس عليه فضلاً، وأن إخوته وأخواته يستطيعون ما لا يستطيعون، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له، وأحس أن أمّه تأذن لإخوته وأخواته في أشياء تحظرها عليه،<sup>٢</sup> وكان ذلك يُحفظه، ولكن لم تثبت هذه الحفيظة أن استحالَت إلى حزن صامت عميق؛ ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به، فعلم أنهم يرون ما لا يرى.

<sup>١</sup> الأزورار: الإعراض والانحراف.

<sup>٢</sup> تحظرها عليه: تحرمها عليه وتمنعه منها. ويُحفظه: يُغضبه، وما يبقى في نفس المرء من الغيظ والغضب يقال له: الحفيظة.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الرابع

كان من أول أمره طلعة<sup>١</sup> لا يحفل بما يلقى من الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم، وكان ذلك يكلفه كثيراً من الألم والعناء. ولكن حادثة واحدة حدّت ميله إلى الاستطلاع، وملأ قلبه حياءً لم يُفارقه إلى الآن، كان جالساً إلى العشاء بين إخوته وأبيه، وكانت أمه كعادتها تشرف على حفلة الطعام، ترشد الخادم وترشد أخواته اللائي كنَّ يشاركن الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطاعمون، وكان يأكل كما يأكل الناس، ولكن لأمرٍ ما خطر له خاطرٌ غريبٌ! ما الذي يقع لو أنه أخذ اللّقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة؟ وما الذي يمنعه من هذه التجربة؟ لا شيء. وإنْ فَقِدَ أخذ اللّقمة بكلتا يديه وغمسها من الطّبق المشترك ثم رفعها إلى فمه؛ فأمّا إخوته فأغرقوا في الضّحك.<sup>٢</sup> وأمّا أمّه فأجهشت<sup>٣</sup> بالبكاء، وأما أبوه فقال في صوت هادئ حزين: ما هكذا تؤخذ اللّقمة يا بُنْيَ ... وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته.

من ذاك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والإشراق والحياة لا حدّ له، ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادةً قوية، ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألواناً من الطعام لم تُبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين؛ حرم على نفسه الحساء والأرز، وكلَّ الألوان التي تُوكِلُ بالملاعق؛ لأنَّه كان يعرف أنه لا يُحسِّنُ اصطناع الملعقة، وكان يكره أن يضحك إخوته، أو تبكي أمّه، أو يعلّمه أبوه في هدوء حزين.

<sup>١</sup> طلعة: كثير التطلع. ولا يحفل بالشيء: لا يبالى به.

<sup>٢</sup> أغروا في الضحك: بالغوا فيه.

<sup>٣</sup> أجهشت بالبكاء: هُمِّت به وتهيأت له.

هذه الحادثة أعناته على أن يفهم حقاً ما يتحدث به الرواية عن أبي العلاء من أنه أكل ذات يوم دبساً،<sup>٤</sup> فسقط بعضه على صدره وهو لا يدري، فلما خرج إلى الدرس قال له بعض تلاميذه: يا سيدِي أكلت دبساً، فأسرع بيده إلى صدره، وقال: نعم، قاتل الله الشرّ! ثم حرم الدبس على نفسه طوال الحياة.

وأعناته هذه الحادثة على أن يفهم طوراً من أطوار أبي العلاء حق الفهم؛ ذلك أن أبو العلاء كان يتستر في أكله حتى على خادمه؛ فقد كان يأكل في نفق تحت الأرض، وكان يأمر خادمه أن يُعد له طعامه في هذا النفق ثم يخرج، ويخلو هو إلى طعامه فإذا خذ منه ما يشتهي. وقد زعموا أن تلاميذه تذكروا مرّة بطيخ حلب وجودته، فتكلف أبو العلاء وأرسل إلى حلب من اشتري لهم منه شيئاً فأكلوا، واحتفظ الخادم لسيده بشيء من البطيخ وضعه في النفق، وكأنه لم يضعه في المكان الذي تعود أن يضع فيه طعام الشيخ، وكره الشيخ أن يسأل عن حظه من البطيخ، فلبث البطيخ في مكانه حتى فسد ولم يذقه الشيخ. فهم صاحبنا هذه الأطوار من حياة أبي العلاء حق الفهم؛ لأنَّه رأى نفسه فيها، فكم كان يتمنى طفلًا لو استطاع أن يخلو إلى طعامه، ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يُعلن إلى أهله هذه الرغبة. على أنه خلا إلى بعض الطعام أحياناً كثيرة، ذلك في شهر رمضان وفي أيام الموسم الحافلة، حين كان أهله يتذمرون ألواناً من الطعام حلوة، ولكنها تؤكل بالملاءق؛ فكان يأبى أن يصيب منها على المائدة، وكانت أمه تكره له هذا الحِرْمان، فكانت تُفرِّد له طبقاً خاصاً وتختلي بيته في حجرة خاصة، يُغلقها هو من دونه حتى لا يستطيع أحدٌ أن يُشرف عليه وهو يأكل.

على أنه عندما استطاع أن يملك أمر نفسه اتّخذ هذه الخطة له نظاماً، بدأ بذلك حين سافر إلى أوروبا لأول مرة، فتكلف التعب وأبى أن يذهب إلى مائدة السفينة، فكان يحمل إليه الطعام في غرفته. ثم وصل إلى فرنسا فكانت قاعدته إذا نزل في فندق أو في أسرة أن يحمل إليه الطعام في غرفته دون أن يتتكلف الذهاب إلى المائدة العامة، ولم يترك هذه العادة إلا حين خطب قرينته، فأخرجته من عاداتٍ كثيرة كان قد ألغىها.

هذه الحادثة أخذته بألوان من الشدة في حياته، جعلته مضرب المثل في الأسرة وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية؛ كان قليل الأكل، لا لأنه كان

<sup>٤</sup> الدبس: عسل التمر وعسل التحل.

<sup>٥</sup> النفق: الحفير تحت الأرض.

قليل الميل إلى الطعام؛ بل لأنَّه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامر عليه إخوته، وقد آلمه ذلك أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن تعوده حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس. كان يُسرف في تصغير اللقمة، وكان له عُمٌ يغيظه منه كلما رأه فيغضب وينهره<sup>٦</sup> ويُلْحُ عليه في تكبير اللقمة، فيضحك إخوته، وكان ذلك سبباً في أن كره عمه كرهاً شديداً. كان يستحي أن يشرب على المائدة مخافة أن يضطرب القَدْحُ من يده، أو ألا يحسن تناوله حين يقدم إليه، فكان طعامه جافاً ما جلس على المائدة، حتى إذا نهض عنها ليغسل يديه من حنفيَّة كانت هناك، شرب من مائتها ما شاء الله أن يشرب، ولم يكن هذا الماء نقِيًّا دائمًا، ولم يكن هذا النوع من رِّي الظُّمَاء ملائماً للصحة، فانتهى به الأمر إلى أن أصبح ممعوداً<sup>٧</sup>، وما استطاع أحد أن يعرف بذلك سبباً.

ثم حَرَّمَ على نفسه من ألوان اللعب والعبث كلَّ شيء، إلا ما لا يكله عنه ولا يُعرّضه للضحك أو الإشراق، فكان أحبُ اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحي<sup>٨</sup> بها زاوية من البيت، فيجمعها ويفرقها ويقرع بعضها ببعض، ينفق في ذلك ساعات، حتى إذ سئمه وقف على إخوته أو أترابه وهم يلعبون، فشارکهم في اللعب بعقله لا بيده، وكذلك عرف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بحظٍ، وانصرافه هذا عن العبث حَبَّ إليه لوناً من ألوان اللهو؛ هو الاستماع إلى القصص والأحاديث؛ فكان أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر، أو حديث الرجال إلى أبيه، والنساء إلى أمه، ومن هنا تعلم حسن الاستماع. وكان أبوه وطائفة من أصحابه يحبون القصص حَبَّاً جمِّاً، فإذا صلوا العصر اجتمعوا إلى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتح، وأخبار عنترة والظاهر بيبرس، وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين، وكتباً في الوعظ والسنن. وكان أصحابنا يقعد منهم مَرْجَر<sup>٩</sup> الكلب وهو عنه غافلون، ولكنه لم يكن غافلاً عما يسمع، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر. فإذا غربت الشمس تفرق القوم إلى طعامهم، حتى

<sup>٦</sup> ينهره: يزجره.

<sup>٧</sup> ممعود: بمعدته داء.

<sup>٨</sup> ينتحي: يقصد.

<sup>٩</sup> أي قريباً منهم، ومزجر الكلب: المكان الذي يزجر فيه، وذلك أن الكلب يكون حول القوم عند الطعام فينهونه بالصوت ليبعد عنهم.

إذا صلّوا العشاء اجتمعوا فتحدثوا طرفةً من الليل، وأقبل الشاعر فأخذ ينشدهم أخبار الهلاليين والزناتيين، وصاحبنا جالس يسمع في أول الليل كما كان يسمع في آخر النهار. والنساء في قرى مصر لا يُحبّن الصمت ولا يملّن إليه؛ فإذا خلت إحداهن إلى نفسها ولم تجد من تتحدث إليه، تحدثت إلى نفسها ألواناً من الحديث، فغنت إن كانت فرحة، وعدّت<sup>١٠</sup> إن كانت محزونة، وكل امرأة في مصر محزونة حين تريد. وأحب شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن يذكرون آلامهن وموتاهم فيعدّن، وكثيراً ما ينتهي هذا التعديد إلى البكاء حقاً. وكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع إلى أخواته وهن يتغنين، وأمه وهي تعدّ، وكان غناء أخواته يغطيه ولا يترك في نفسه أثراً؛ لأنّه كان يجده سخيفاً لا يدل على شيء، في حين كان تعديداً أمه يهُرُّ هزاً عنيفاً، وكثيراً ما كان يبكيه. وعلى هذا النحو حفظ صاحبنا كثيراً من الأغاني، وكثيراً من التعديد، وكثيراً من جد القصص وهزله، وحفظ شيئاً آخر لم تكن بينه وبين هذا كله صلة؛ وهي الأوراد التي كان يتلوها جده الشيخ الضرير إذا أصبح أو أمسى.

كان جده هذا ثقيل الظل بغيضاً إليه، وكان يقضي في البيت فصل الشتاء من كل سنة، وكان قد صلّح ونسّك حين اضطرته الحياة إلى الصلاح والنسك، فكان يصلّي الخمس لأوقاتها، ولم يكن لسانه يفتر عن ذكر الله، وكان يستيقظ آخر الليل ليقرأ «ورْد السّحر»، وكان ينام في ساعة متأخرة بعد أن يصلّي العشاء ويقرأ ألواناً من الأوراد والأدعية. وكان صاحبنا ينام في حُجرةٍ مجاورةٍ لحجرة هذا الشيخ، فكان يسمعه وهو يتلو، حتى حفظ من هذه الأوراد والأدعية شيئاً كثيراً. وكان أهل القرية يحبون التصوف ويقيمون الأذكار، وكان صاحبنا يُحب منهم ذلك؛ لأنه كان يلهم بهذا الذكر، وبما ينشده المنشدون أثناءه. ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وَعَى من الأغاني والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملةً صالحةً، وحفظ إلى ذلك كله القرآن.

<sup>١٠</sup> التعديد: ذكر محسن الميت، والمراد هنا: ما تلهج به المرأة من بكاء موتاها أو ذكر أشجارها.

## الفصل الخامس

ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن، ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده، وإن كان يذكر من حياته في الكتاب مواقف كثيرة، منها ما يُضحكه الآن، ومنها ما يُحزنه؛ يذكر أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولاً على كتف أحد أخويه، لأن الكتاب كان بعيداً، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشياً تلك المسافة، ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكتاب. ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين يدي «سيّدنا» ومن حوله طائفة من النعال كان يعبث ببعضها، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرفع، وكان «سيّدنا» جالساً على دَكَّةٍ<sup>١</sup> من الخشب صغيرة ليست بالعلية ولا بالمنخفضة؛ قد وُضعت على يمين الداخل من باب الكتاب بحيث يمر كلُّ داخلٍ «بسيّدنا»، وكان «سيّدنا» قد تعودَ متى دخل الكتاب أن يخلع عباءته، أو بعبارة أدقَّ «دِفَنَتْهُ» ويأْلِفُها لفَّا يجعلها في شكل المخدّة، ويضعها عن يمينه، ثم يخلع نعله ويتربيع على دكته، ويشعل سيجارتة، ويببدأ في نداء الأسماء، وكان «سيّدنا» لا يُعفي نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بُدًّا، كان يرْقَعُهما من اليمين ومن الشّمال ومن فوق ومن تحت. وكان إذا أخلَّتْ به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكتاب وأخذ النعل بيده، وقال له: تذهب إلى «الحزين» وهو هنا قريب، فتقول له: «يقول لك سيدنا: إن هذه النعل في حاجة إلى لوزة من الناحية اليمنى». انظر أترى؟ هنا حيث أضع أصبعي، فيقول لك «الحزين»: «نعم سأضع هذه اللوزة». فتقول له: «يقول لك سيدنا: يجب أن تتخير

<sup>١</sup> تُطلق الدكة في مصر على سرير من الخشب يجلس عليه، له في جوانبه العليا ما عدا مقدمه سياج، وأصل الدكة — بفتح الدال — بناء يسطح أعلاه ويجلس عليه، فأطلقها المصريون على هذا السرير، ولكنهم يكسرن الدال.

الجلد متيناً غليظاً جديداً، وأن تحسن الرّقّع بحيث لا يظهر، أو بحيث لا يكاد يظهر.» فيقول لك: «نعم سأفعل هذا.» فتقول له: «ويقول لك سيدنا: إنه عميك منذ زمن طويل، فاستوص بالأجر خيراً!» ومهمما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش، ثم عد إلى مسافة ما أغمض عيني ثم أفتحها، وينطلق الصبي ويلهوا عنه سيدنا، ثم يعود وقد أغمض سيدنا عينه وفتحها مرةً ومرةً ومراتٍ.



على أن الرجل كان يستطيع أن يغمض عينه ويفتحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً، فقد كان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلاً جداً من النور في إحدى عينيه، يمثل له الأشباح دون أن يمكنه أن يتميزها، وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل ... وكان يخدع نفسه ويظن أنه من المبصرين ... ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت على الاثنين من تلاميذه، يبسط ذراعيه على كتفي كل واحد منهمما، ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا! قد أخذوها على المارة، حتى إنهم ليتنحّون لهم عنها.

وكان منظر سيدنا عجباً في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت صباحاً ومساءً، كان ضخماً بادئاً وكانت دفتيه تزيد في ضخامتها، وكان كما قدمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه، وكانوا ثلاثة يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً. وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتاً؛ ذلك أنه كان يحب الغناء، وكان يحب أن يعلم تلاميذه الغناء، وكان يتخير الطريق لهذا الدرس، فكان يغنى ويأخذ رفيقيه بمصاحبه حيناً، والاستماع له حيناً آخر، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر. وكان سيدنا لا يغنى بصوته ولسانه وحدهما، وإنما يغنى برأسه وببدنه أيضاً؛ فكان رأسه يهبط ويصعد، وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً، وكان سيدنا يغني بيديه أيضاً، فكان يوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه. وكان سيدنا يعجبه «الدُّور» أحياناً؛ ويرى أن المشي لا يلائمه فيقف حتى ينتمي، وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى صوته جميلاً، وما يظن صاحبنا أن الله خلق صوتاً أقبح من صوته، وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ إلا ذكر سيدنا وهو يوقع أبياتاً من «البردة» في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر، أو في طريقه إلى البيت منصراً من الكتاب. يرى صاحبنا نفسه، كما قدمنا، جالساً على الأرض يبعث بالنعال من حوله، وسيدنا يقرئه سورة الرحمن، ولكنه لا يذكر أكان يقرأها بادئاً أم معيناً.

وكأنه يرى نفسه مرة أخرى جالساً لا على الأرض ولا بين النعال، بل عن يمين سيدنا على دكة أخرى طويلة، وسيدنا يقرئه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وأكبر ظنه أنه كان قد أتم القرآن بدءاً وأخذ يعيده. وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفظ القرآن؛ فقد أتم حفظه ولما تعم التاسعة من عمره، وهو يذكر في وضوح وجلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن، ذلك أن سيدنا كان يتحدث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن، وعن أن أيام سنته يتجه به، وكان يضع لذلك شروطاً ويطالب بحقوقه، ألم يكن قد علم قبل صاحبنا أربعة من إخوته ذهب واحد منهم إلى الأزهر، والآخرون إلى المدارس، وصاحبنا هو الخامس! فكم لسيدنا على الأسرة من حقوق! وحقوق سيدنا على الأسرة كانت تمثل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً وملاء، فأماماً الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعشوة دسمة قبل كل شيء، ثم جبة وقطدان، وزوج من الأذني، وطربوش مغربي، وطاقية من هذا القماش الذي تُتَخَذ منه العمائم، وجنية أحمر، لا يرضي بشيء دون ذلك ... فإذا لم يؤدّ إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة، ولا يقبل منها شيئاً، ولا صلة بينه وبينها، وهو يقسم على ذلك

بمُحْرِجات الأَيْمَان،<sup>٢</sup> وكان هذا اليوم يوم أربعاء، وكان سَيِّدُنَا قد أَنْبَأَ فِي الصَّبَاح بِأَنَّ صَاحِبَنَا سَيَخْتَمُ الْقُرْآن فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَأَقْبَلُوا فِي الْعَصْرِ؛ يَمْشِي سَيِّدُنَا مَعْتَدِّاً عَلَى رَفِيقِهِ، وَيَمْشِي صَاحِبَنَا مِنْ وَرَائِهِ يَقُودُهُ يَتِيمٌ مِنْ أَيْتَامِ الْقُرْيَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا الْبَيْتِ دَفَعَ سَيِّدُنَا الْبَابَ دَفْعَةً، وَصَاحَ صِحَّتَهُ الْمُعَتَادَةُ: «يَا سَتَّارُ»، وَاتَّجَهَ إِلَى الْمَنَظَرَةِ، فَإِذَا فِيهَا الشَّيْخُ قَدْ انْفَتَلَ<sup>٣</sup> مِنْ صَلَةِ الْعَصْرِ وَهُوَ يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْأَدْعَيْةِ كَعَادَتْهُ، فَاسْتَقْبَلُوهُمْ مُبِتَسِّمًا مَطْمَئِنًّا، وَكَانَ صَوْتُهُ هَادِئًا، وَكَانَ صَوْتُ سَيِّدُنَا عَالِيًّا، وَكَانَ صَاحِبَنَا لَا يَقُولُ شَيْئًا، وَكَانَ الْيَتِيمُ مُبْتَهِجًا. أَجْلَسَ الشَّيْخُ سَيِّدُنَا وَرَفِيقِهِ، وَوَضَعَ فِي يَدِ الْيَتِيمِ قَطْعَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَدَعَا الْخَادِمَ أَمْرَهُ أَنْ يَأْخُذْ هَذَا الْيَتِيمَ إِلَى حَيْثُ يُصْبِبُ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ، وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ ابْنِهِ وَقَالَ: «فَتْحُ اللَّهِ عَلَيْكِ! انْصِرْ فِي أَمْكَنْ، وَقُلْ لَهَا: إِنْ سَيِّدُنَا هُنَا».

وَكَانَتْ أُمُّهُ قَدْ سَمِعَتْ صَوْتَ سَيِّدُنَا، وَكَانَتْ قَدْ أَعْدَّتْ لَهُ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي مَثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، وَهُوَ كُوْزٌ ضَخْمٌ طَوِيلٌ مِنَ السَّكَرِ الْمَذَابِ لَا شَيْءٌ عَلَيْهِ، أَخْرَجَ إِلَى سَيِّدُنَا هَذَا الْكَوْزَ فَعَبَّهُ عَبَّاً، وَشَرَبَ رَفِيقَاهُ كَوْبِينَ مِنَ السَّكَرِ الْمَذَابِ أَيْضًا، ثُمَّ أَخْرَجَتِ الْقَهْوَةَ فَشَرَبَهَا سَيِّدُنَا مَعَ الشَّيْخِ، وَكَانَ سَيِّدُنَا يُلْحُّ عَلَى الشَّيْخِ فِي أَنْ يَمْتَحِنَ الصَّبِيَّ فِيمَا حَفِظَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ الشَّيْخُ يَجِيدُ: «دَعْهُ يَلْعَبْ إِنْهُ صَغِيرٌ». ثُمَّ نَهَضَ سَيِّدُنَا لِيَنْصِرِفَ، فَقَالَ لِهِ الشَّيْخُ: «نَصْلِي الْمَغْرِبَ مَعًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ». وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الدُّعَوةُ إِلَى الْعَشَاءِ، وَمَا أَحْسَبَ أَنْ سَيِّدُنَا نَالَ شَيْئًا آخَرَ أَجْرًا عَلَى خَتْمِ صَاحِبَنَا لِلْقُرْآنِ؛ فَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ الْأَسْرَةَ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ لَهُ فِيهَا عَادَاتٌ غَيْرُ مَقْطُوْعَةٌ، وَكَانَتِ الْكُلْفَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مَرْفَوعَةٌ، وَكَانَ وَاثِقًا أَنَّ الْحَظْظَ إِنْ يُخْطِئَهُ مَعْهَا هَذِهِ الْمَرَّةِ فَلَنْ يُخْطِئَهُ مَرَّةً أُخْرَى.

<sup>٢</sup> محَرَّجات الأَيْمَان: الأَيْمَانُ الْمَغْلَظَةُ الَّتِي تَوَقَّعُ فِي الْحَرْجِ، وَهُوَ الإِثْمُ.

<sup>٣</sup> انْفَتَلَ: انْصِرَفَ.

## الفصل السادس

منذ هذا اليوم أصبح صبيّنا شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة؛ لأنَّه حفظ القرآن، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنُّه، دعاه أبوه شيخاً، ودعته أمّه شيخاً، وتعود سيدنا أن يدعوه شيخاً أمام أبيه، أو حين يرضي عنه، أو حين يريد أن يتراضاه لأمر من الأمور، فاما فيما عدا ذلك فقد كان يدعوه باسمه، وربما دعاه «باللَّوَادِ»، وكان شيخنا الصبيُّ قصيراً نحيفاً شاحباً زريِّاً الهيئَة<sup>١</sup> على نحو ما، ليس له من وقار الشيوخ ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو كثير، وكان أبواه يكتفيان من تمجيده وتتكبيره بهذا اللفظ الذي أضافاه إلى اسمه كبراً منهما وعجبًا لا تلطفاً به ولا تحببًا إليه. أما هو فقد أعجبه هذا اللفظ في أول الأمر، ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع؛ كان ينتظر أن يكون شيخاً حقًا، فيتَّخذ العمة ويلبس الجبة والقطن، وكان من العسير إقناعه بأنه أصغر من أن يحمل العمة، ومن أن يدخل في القُقطان ... وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن! وكيف يكون الصغير شيخاً! وكيف يكون من حفظ القرآن صغيراً! هو إذن مظلوم، وأيُّ ظلم أشد من أن يُحال بينه وبين حقه في العمة والجبة والقطن! وما هي إلا أيام حتى سئم لقب الشيخ، وكره أن يُدعى به، وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع.

<sup>١</sup> زريِّي الهيئَة: حقيرها.

ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء<sup>٢</sup> للقب الشيخ، وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الغرور والعجب، ثم لم يلبث أن نسي هذا كلّه فيما نسي من الأشياء. على أنه في حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يُدعى شيئاً، وإنما كان خليقاً رغم حفظه للقرآن أن يذهب إلى الكتاب كما كان يذهب، مُهمَّل الهيئَة، على رأسه طاقيته التي تُنْتَظَر يوماً في الأسبوع، وفي رجليه حداء يُجَدُّ مرَّةً في السنة، ولا يَدْعُه حتى لا يحتمل شيئاً، فإذا تركه فليمش حافياً أسبوعاً أو أسبوعين حتى ياذن الله له بحذاء جديد. كان خليقاً بهذا كلَّه؛ لأنَّ حفظه للقرآن لم يُدْمِ طويلاً ... أكان وحده ملوماً في ذلك؟ أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيدنا؟ الحق أن سيدنا أهمله حيناً وغُني بغيره من الذين لم يختموا القرآن؛ أهمله ليس تاريخ، وأهمله لأنه لم يتقدّم أجرًا على ختمه للقرآن. واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال، وأخذ يذهب إلى الكتاب يقضي فيه طوال النهار في راحة مطلقة ولعب متصل، ينتظر أن تنتهي السنة ويأتي أخوه الأزهرى من القاهرة، حتى إذا انتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة، استصحبه ليُصبح شيئاً حقاً، وليجاور في الأزهر.

ومضى على هذا شهرٌ وشهرٌ وشهر، يذهب صاحبنا إلى الكتاب ويعود منه في غير عمل، وهو واثق بأنه قد حفظ القرآن، وسيُدْنِي مطمئن إلى أنه حفظ القرآن، إلى أن كان اليوم المشئوم ... كان هذا اليوم مشئوماً حقاً؛ ذاق فيه صاحبنا لأول مرَّة مراة الخزي والذلة والضَّعة وگرِّ الحياة. عاد من الكتاب عصر ذلك اليوم مطمئناً راضياً، ولم يكُن يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ، فأقبل عليه ومعه صديقان له، فتلَّقاه أبوه مبتهاجاً، وأجلسه في رفق، وسألَه أسئلة عادية، ثم طلب إليه أن يقرأ «سورة الشعرا»، وما هي إلَّا أن وقع عليه هذا السؤال وَقَعَ الصاعقة، ففكَّر وقدر، وتحفَّز<sup>٣</sup> واستعاد بالله من الشيطان الرجيم، وسمَّى الله الرحمن الرحيم، ولكنه لم يذكر من سورة الشعرا إلا أنها إحدى سُورٍ ثلاثة، أولها «طسم»، فأخذ يردد: «طسم» مرَّةً ومرةً، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها، وفتح عليه أبوه بما يلي هذه الكلمة من سورة الشعرا، فلم يستطع أن يتقدّم خطوة. قال أبوه: فاقرأ سورة النمل، فذكر أن أول سورة النمل كأول سورة الشعرا «طس» وأخذ يردد هذا اللفظ، وفتح عليه أبوه، فلم يستطع أن يتقدّم

<sup>٢</sup> استحال إلى كذا: تحول وصار. وازدراء: احتقار.

<sup>٣</sup> تحفَّز: انتصب في قعدهه غير مطمئن، أو استوى جالساً على وركيه.

خطوة أخرى. قال أبوه: فاقرأ سورة القصص، فذكر أنها الثالثة، وأخذ يردد: ﴿طسم﴾ ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة، ولكنه قال له في هدوء: قم؛ فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن، فقام خجلاً يتصرف عرقاً، وأخذ الرجال يعتذران عنه بالخجل وصغر السن، ولكنه مضى لا يدري أيلوم نفسه لأنه نسي القرآن، أم يلوم سيّدنا لأنّه أهمله، أم يلوم أبوه لأنّه امتحنه!

ومهما يكن من شيء، فقد أمسى هذا اليوم شرّ مساء، ولم يظهر على مائدة العشاء، ولم يسأل عنه أبوه، ودعته أمه في إعراض إلى أن يتبعش معها فأبى، فانصرفت عنه ونام. ولكن هذا المساء المنكّر كان في جملته خيراً من الغد؛ ذهب إلى الكتاب، فإذا سيّدنا يدعوه في جفوة: ماذا حصل بالأمس؟ وكيف عجزت عن أن تقرأ سورة الشعرا؟ وهل نسيتها حقاً؟ أتّها علياً! فأخذ صاحبنا يردد: ﴿طسم﴾، وكانت له مع سيّدنا قصة كقصته مع أبيه، قال سيّدنا: عوّضني الله خيراً فيما أنفقت معك من وقت، وما بذلت في تعليمك من جهد، فقد نسيت القرآن ويجب أن تعидеه، ولكن الذنب ليس عليك ولا علياً، وإنما هو على أبيك؛ فلو أنه أعطاني أجرى يوم ختم القرآن لبارك الله له في حفظه، ولكنه منعني حتى فمها الله القرآن من صدرك.

ثم بدأ يُقرئه القرآن من أوّله، شأنه مع من لم يكن شيئاً ولا حافظاً.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السابع

وليس من شكٌ في أنه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً جيداً في مدة قصيرة جداً، فهو يذكر أنه عاد من الكتاب ذات يوم مع سيدنا، وكان سيدنا في هذا اليوم حريصاً على أن يعود معه، حتى إذا وصلوا إلى الدار عطف عليها سيدنا فدفع الباب فاندفع له، وصاحب صيحته المألوفة: «يا ستار!» وكان الشيخ كعادته في المنظرة قد فراغ من صلاة العصر. فلما استقر سيدنا في مجلسه، قال للشيخ: «زعمت أنَّ ابنك قد نسي القرآن، ولمتنى في ذلك لوماً شديداً، وأقسمتُ لك إنه لم ينس وإنما خجل، فكذبتك وعشت بلحيني هذه، وقد جئتُ اليوم لتمتحن ابنك أمامي، وأنا أقسم: لئن ظهر أنه لا يحفظ القرآن لأحلفن لحيتي هذه، ولأشحن معرة الفقهاء في هذا البلد». قال الشيخ: «هون عليك! وما لك لا تقول: إنه نسي القرآن ثم أقراته إيه مرأة أخرى!» قال: «أقسم بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته، وإنما استمعتُ له القرآن، فتلاه على كلامه الجاري، لم يقف ولم يتزدد». وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار<sup>١</sup>، وكان مقتنعاً أن أباً محقق وأن سيدنا كاذب، ولكنه لم يقل شيئاً، ولبث متظراً الامتحان.

وكان الامتحان عسيراً شاقاً، ولكن صاحبنا كان في هذا اليوم نجيباً بارغاً، لم يُسأل عن شيء إلا أجاب في غير تردد وقرأ في إسراع، حتى كان الشيخ يقول له: «على مهلك فإن الكرا في القرآن خطيبة». حتى إذا أتم الامتحان قال له أبوه: «فتح الله عليك! اذهب إلى أمك فقل لها: إنك حفظت القرآن حقاً». ذهب إلى أمه ولكنه لم يقل لها شيئاً ولم تسأله هي عن شيء، وخرج سيدنا في ذلك اليوم، ومعه جبة من الجوخ خلعوا عليه الشيخ.

<sup>١</sup> الحوار: المراجعة في الحديث.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثامن

وأقبل سيدنا إلى الكتاب من الغد مسروراً مبهجاً، فدعا الشیخ الصبی بلقب الشیخ هذه المرة قائلاً: أما اليوم، فأنت تستحق أن تدعى شیخاً؛ فقد رفعت رأسی وبیضت وجهی وشَرَفت لحیتی أمس، واخْطُرْ أبُوك إلى أن يعطینی الجُبَّة، ولقد كنت تتلو القرآن أمس كسلسل الذهب، وكنت على النار مخافَة أن تَرِلَ<sup>١</sup> أو تتحرف، وكنت أحصنك بالحی القيوم الذي لا ينام؛ حتى انتهى هذا الامتحان، وأنا أغفیك اليوم من القراءة، ولكن أريد أن آخذ عليك عهداً، فعدني بأن تكون وفياً! قال الصبی في استحياء: «لك على الوفاء». قال سیدنا: فأعطني يدک، وأخذ بيد الصبی، فما راع<sup>٢</sup> الصبی إلا شيء في يده غريب، ما أحسّ مثله قط، عريض يتجرج، ملؤه شعرٌ تغور فيه الأصابع، ذلك أن سیدنا قد وضع يد الصبی على لحیته، وقال: هذه لحیتي أسلمك إیاها، وأريد إلا تُهينها، فقل: «والله العظيم ثلاثاً، حَقَ القرآن المجيد لا أهينُها». وأقسم الصبی كما أراد سیدنا، حتى إذا فرغ من قسمه؛ قال له سیدنا: كم في القرآن من جزء؟ قال: ثلاثة، قال سیدنا: وكم نشتغل في الكتاب من يوم؟ قال الصبی: خمسة أيام. قال سیدنا: فإذا أردت أن تقرأ القرآن مرة في كل أسبوع، فكم تقرأ من جزء كل يوم؟ فكر الصبی قليلاً ثم قال: ستة أجزاء. قال

<sup>١</sup> يزل هنا: يغلط، ويقال: زل عن الصخرة ونحوها، إذ زلق عنها وسقط، وعن الصواب في منطق، إذا انحرف.

<sup>٢</sup> في استحياء: في خجل.

<sup>٣</sup> ما راعنى إلا كذا: أي ما شعرت إلا به.

<sup>٤</sup> يتجرج: يضطرب.

سَيِّدُنَا: فَتُقْسُمُ لِتَتْلُونَ عَلَى الْعَرِيفِ سَتَةُ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ، وَلِتَكُونَنَّ هَذِهِ التَّلَوَةُ أَوَّلَ مَا تَأْتِي بِهِ حِينَ تَصُلُ إِلَى الْكُتُبَ، فَإِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا فَلَا جُنَاحُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْهُو وَتَلْعَبَ، عَلَى أَلَّا تَصْرِفَ الصَّبِيَّانَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ. أَعْطِ الصَّبِيَّ عَلَى نَفْسِهِ هَذَا الْعَهْدَ، وَدُعَا سَيِّدُنَا الْعَرِيفَ فَأَخْذَ عَلَيْهِ عَهْدًا مِثْلَهِ، لَيُسْمَعَنَّ لِلصَّبِيِّ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَتَةُ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأُودِعَهُ شَرْفَهُ، وَكَرَامَةُ لَحِيَتِهِ، وَمَكَانَةُ الْكُتُبَ فِي الْبَلَدِ، وَقَبْلَ الْعَرِيفِ الْوَدِيعَةِ، وَانتَهَى هَذَا الْمَنْظَرُ وَصَبِيَّانُ الْكُتُبَ يَنْظُرُونَ وَيَعْجَبُونَ.

° الجُنَاحُ بضمِّ الجيمِ: الإِثْمُ.

## الفصل التاسع

من ذلك اليوم انقطعت صلة الصبي التعليمية «بسيدنا»، واتصلت بالعريف، ولم يكن العريف أقل غرابة من سيدنا؛ كان شاباً طويلاً نحيفاً أسود فاحماً، أبوه سوداني، وأمه مولدة، وكان سيء الحظ، لم يوفق في حياته لخير، جرب الأعمال كلها فلم يُفلح في شيء منها، أرسله أبوه عند كثير من الصناع ليتعلّم صنعة فلم يُفلح، وحاول أن يجد له في معمل السُّكُّر شغل العامل أو الخفير أو البواب أو الخادم، فلم يُفلح في شيء من هذا، وكان أبوه ضيق الصدر به، يمقته ويزدريه، ويؤثث<sup>١</sup> عليه إخوته الذين يعملون جميعاً ويكسبون، وكان قد ذهب إلى الكتاب في صباحه فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ سورة من القرآن لم يلبث أن نسيها، فلما ضاقت به الحياة وضاق بها أقبل إلى سيدنا فشكأ إليه أمره، قال له سيدنا: فتعال هنا فكن عريفاً، عليك أن تعلم الصبيان القراءة والكتابة وتلاحظهم وتمعنهم من العبث، وتقوم مقامي متى غبت، وعلى أن أقرئهم القرآن وأحفظهم إياه، وعليك أن تفتح الكتاب قبل أن تطلع الشمس، وتشرف على تنظيفه قبل أن يحضر الصبيان، وعليك أن تغلق الكتاب متى صليت العصر، وتأخذ مفتاحه، وعليك مع هذا كله أن تكون يدي اليمنى، ولك ربع ما يأتي به الكتاب من نقد، تقتضي ذلك في كل أسبوع أو في كل شهر، وتم هذا العقد بين الرجلين وقرأ عليه الفاتحة، وبدأ العريف عمله.

وكان العريف يبغض سيدنا بغضنا شديداً ويزدريه، ولكنه يُصانعه<sup>٢</sup>، وكان سيدنا يكره العريف كرهًا عنيفاً ويحتقره، ولكنه يتملّقه.

<sup>١</sup> يُؤثر عليه إخوته: يُفضّلهم عليه.

<sup>٢</sup> يُصانعه: يلدينه ويدارييه.

فأمّا العريف فكان يكره سيدنا؛ لأنَّه أثَرَ<sup>٢</sup> غشاش كذاب، يخفي عليه بعض موارد الكتاب، ويستأثر<sup>٤</sup> بخير ما يحمل الصبيان معهم من طعام، ويزدريه؛ لأنَّه كان ضريراً يتکلف الإبصار، وكان قبيح الصوت، يتکلف حُسْن الصوت. وأمّا سيدنا فكان يكره العريف؛ لأنَّه مكَارٌ داهيةٌ، ولأنَّه يخفي عليه كثيراً مما ينبغي أن يعلمه، ولأنَّه سارقٌ؛ يسرق ما يوضع بين يديهما من الطعام وقت الغداء، ويختلس أطايشه، ولأنَّه يأتُر<sup>٥</sup> مع كبار الصبيان في الكتاب، ويعبث معهم على غفلة منه، فإذا صُلِّيَت العصر وأغلق الكتاب كان بيته وبينهم مواعيده هناك عند شجر التوت، أو عند «القطنطرة» أو في «عمل السكر». ومن غريب الأمر أنَّ الرجلين كانوا صادقين مُصيَّبين، وأنهما كانوا مُضطَرِّرين إلى أن يتعاونا على كُرِهٍ ومَضَضٍ؛<sup>٦</sup> أحدهما محتاج إلى أن يعيش، والآخر محتاج إلى من يدير له أمور الكتاب.

اتصل صبينا بالعرieve، وأخذ يتلو القرآن بين يديه، ستة أجزاء في كل يوم، ولكن ذلك لم يستمر ثلاثة أيام، ضاق الصبي بهذه التلاوة منذ اليوم الأول، وضاق العريف بها منذ اليوم الثاني، وتکاشفا<sup>٧</sup> بهذا الضيق في اليوم الثالث، واتفقا منذ اليوم الرابع على أن يتلو الصبي في سرّه ستة أجزاء بين يدي العريف، حتى إذا أحَسَ اضطراباً، أو غاب عنه لفظ، سأله عنه العريف. وأخذ الصبي يأتي في كل يوم، فيسلِّمُ على العريف، ويجلس على الأرض بين يديه، ويحرك شفتيه مهمهما<sup>٨</sup> كأنَّه يقرأ القرآن، ويسائل العريف من حين إلى حين عن كلمة، فيجيبه مرة، ويთناقل عنه مرة أخرى. ويأتي سيدنا في كل يوم قبيل الظهر؛ فإذا سلم وجلس، كان أول عمل يأتيه أن يدعو الصبي فيسأله: أقرأت؟

- نعم.

- من أين إلى أين؟

<sup>٢</sup> أثر: يؤثر نفسه بالخير.

<sup>٤</sup> استأثر بالشيء: استبد به وخصّ به نفسه.

<sup>٥</sup> يأتُر معهم، هنا: يتشاور معهم على عمل شيء.

<sup>٦</sup> المضض: الألم.

<sup>٧</sup> تکاشفا: كشف كلُّ منها لآخر ما في نفسه.

<sup>٨</sup> الهممة: الكلام الخفي.

وكان الصبي يجيب: من البقرة إلى **﴿لَتَجَدَنَ﴾** في يوم السبت، ومن: **﴿لَتَجَدَنَ﴾** إلى **﴿وَمَا أُبَرِّئُ﴾** في يوم الأحد، وكذلك قسم القرآن ستة أقسام اصطلاح عليها الفقهاء، وخصص كل يوم من الأيام الخمسة، قسماً من هذه الأقسام يخبر به سيدنا متى سأله.

ولكن العريف لم يكن ليكتفي بهذا الاتفاق الذي يريده ويريح الصبي، وإنما كان يطمع في أن يستفيد من موقف الصبي بين يديه، وكان يُنذر الصبي من حين إلى حين بأنه سيخبر سيدنا أنه قد وجَد بعض السور «متعنة» سيئة الحفظ عند الصبي: «سورة هود»، أو «سورة الأنبياء»، أو «سورة الأحزاب»، وإذا كان القرآن كله «متعنة» عند الصبي؛ لأنَّه أهمل قراءته منذ أشهر، فقد كان يكره أن يمتحنه سيدنا، ويشتري صمت العريف بكل شيء، وكم دفع إلى العريف ما كان يملأ جيده من خبز، أو فطير، أو تمر! وكم دفع إليه هذا القرش الذي كان يعطيه إيمان أبوه من حين إلى حين، والذي كان يريد أن يشتري به أقراص النعناع! وكم احتال على أمه، ليأخذ منها قطعة ضخمة من السكر، حتى إذا وصل إلى الكتاب دفعها إلى العريف، وإنَّه ليشتته كلَّها أو بعضها، فيأخذها العريف ويدعو بالماء يغمس فيه السكر، ثم يمسُّه مصاً شديداً، ثم يزدرد السكر وقد ذاب أو كاد! وكم نزل عن طعامه الذي كان يحمل إليه من البيت ظهر كل يوم، وإنَّه لشديد الجوع، ليأكل العريف مكانه؛ لئلا يخبر سيدنا بأنَّ القرآن عنده «متعنة».

على أن هذه الصلات المستمرة لم تلبث أن ضمِنْتَ له موَدة العريف، فقد اتخذه العريف صديقاً، وأخذ يستصحبه إلى الجامع بعد الغداء ليصلي معه الظهر، ثم أخذ يعتمد عليه، ويثقُ به، ويطلب إليه أن يُقرئ القرآن بعض الصبيان، أو يسمعه من بعض الذين أخذوا يُعيدون ويحفظون. وهنا كان صاحبنا يسلك مع تلاميذه مسلك العريف معه بالدقة؛ كان يجلس الصبيان بين يديه، ويأخذهم بالتلاوة، ثم يتشغل عنهم بالحديث مع أترابه، حتى إذا فرغ من حديثه، التفت إليهم، فإذا آنس منهم عبئاً أو إبطاء أو اضطراباً؛ فالتنذير، ثم الشتم، ثم الضرب، ثم إخبار العريف. والحق أنه لم يكن أحسن حفظاً للقرآن من تلاميذه، ولكنَّ العريف قد اتَّخذ معه هذه الخطة، فيجب أن يكون هو عريفاً حقاً. وإذا كان العريف لا يشُمُّه ولا يضرره، ولا يرفع أمره إلى سيدنا؛ فذلك لأنَّه يدفع ثمن ذلك كله غالياً، وقد فهم الصبيان هذا فأخذوا يدفعون له الثمن غالياً أيضاً، وأخذ هو يستردُ بالرشوة ما كان يدفع إلى العريف. على أن رشوته كانت متنوعة؛ فلم يكن محرومًا في بيته، ولم يكن في حاجة إلى الخبز ولا إلى التمر ولا إلى السكر، ولم يكن يستطيع أن يقبل «الفلوس»، وماذا يصنع بالفلوس وهو لا يستطيع أن يُنفقها وحده! فهو إن قيل لها دلَّ على

نفسه، وافتُضْح أُمُرُه، وإنْ فَقِدْ كَانَ عَسِيرًا وَكَانَ إِرْضَاوَه شَاقًا، وَكَانَ الصَّبِيَانَ يَتَفَنَّنُونَ فِي إِرْضَاوَه فَيَشْتَرُونَ لَهُ أَقْرَاصَ النَّعْنَاعِ «وَالسَّكَرِ النَّبَاتِ» وَ«اللَّبَّ» وَ«الْفَوْلِ السُّودَانِيِّ»، وَكَانَ يَتَفَضَّلُ بِكَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَرِيفِ.

ولكِنَّ لَوْنًا مِنَ الرَّشْوَةِ خَاصًّا كَانَ يُعْجِبُه وَيَقْتَنِيه، وَيُشَجِّعُه عَلَى أَنْ يُهْمِلَ وَاجْبَه أَشْنَعِ إِهْمَالٍ، وَهَذَا اللَّوْنُ هُوَ الْقَصْصُ وَالْحَكَائِيَاتُ وَالْكُتُبُ، فَإِذَا اسْتَطَاعَ الصَّبِيُّ أَنْ يَقْصُّ عَلَيْهِ أَحَدُوَثَةً، أَوْ يَشْتَرِي لَهُ كِتَابًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَتَنَقَّلُ بِالْكُتُبِ فِي قُرَى الْرِّيفِ، أَوْ يَتَلوُ عَلَيْهِ فَصْلًا مِنْ قَصْةَ «الزَّيْرِ سَالِمَ» أَوْ «أَبِي زَيْدٍ»، فَهُوَ وَاثِقٌ بِمَا شَاءَ مِنْ رِضَاهُ، وَرَفِيقُه وَمُحَابِيَاهُ، وَكَانَ أَمْهَرُ تَلَامِيذهِ فِي هَذِهِ، صَبِيَّةً مَكْفُوفَةَ الْبَصَرِ، يَقَالُ لَهَا: نَفِيسَةُ، أَرْسَلَهَا أَهْلَهَا إِلَى الْكُتُبَ لِتَحْفَظَ الْقُرْآنَ حَفْظَهُ، وَأَتَقْدَتْ حَفْظَهُ، وَوَكَلَهَا<sup>٩</sup> سَيِّدَنَا إِلَى الْعَرِيفِ وَوَكَلَهَا الْعَرِيفُ إِلَى صَاحِبِنَا، وَأَخْذَ صَاحِبَنَا يَسْلُكُ مَعَهَا مَسْلَكَ الْعَرِيفِ مَعَهُ، وَكَانَ أَهْلُ هَذِهِ الْفَتَاهُ أَغْنِيَاءُ، وَلَكُنُوهُمْ مِنَ الْمُحْدَثِيَنِ، كَانَ أَبُوهَا حَمَارًا ثُمَّ أَصْبَحَ تَاجِرًا مُثْرِيًّا، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ، وَيُسْبِغُ<sup>١٠</sup> عَلَيْهِمْ سَعْةً غَرِيبَةً مِنَ الْعِيشِ، فَلَمْ تَكُنْ تَنْقُطْعَ الْفَلَوْسُ مِنْ يَدِ نَفِيسَةِ، وَكَانَتْ أَقْدَرُ الصَّبِيَانِ عَلَى تَخْيُرِ الرِّشَا، ثُمَّ كَانَتْ أَحْفَظُهُمْ لِلْقَصْصِ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْاخْتِرَاعِ، وَأَحْفَظُهُمْ لِلْأَلْوَانِ الْمُفْرَحِ، «وَالتَّعْدِيدُ الْمُبْكِيُّ»، وَكَانَتْ تَحْسِنُ الْغَنَاءَ وَالتَّعْدِيدَ مَعًا. وَكَانَتْ غَرِيبَةُ الْأَطْوَارِ، فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الاضْطَرَابِ، فَكَانَتْ تُلْهِي صَاحِبَنَا أَكْثَرَ وَقْتِهِ بِحَدِيثِهَا وَتَعْدِيدهَا، وَأَقَاصِيصُهَا وَالْأَلْوَانُ رَشْوَتُهَا، وَبَيْنَمَا كَانَ صَاحِبَنَا يَرْشُو وَيَرْتَشِي، وَيَخْدُعُ وَيُخْدُعُ، كَانَ الْقُرْآنُ يُمْحَى مِنْ صَدْرِهِ آيَةً آيَةً وَسُورَةً سُورَةً، حَتَّى كَانَ الْيَوْمُ الْمُحْتَومُ ... وَيَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ!

<sup>٩</sup> وَكَلَهَا إِلَيْهِ: تَرَكَهَا لَهُ وَجَعَلَ أَمْرَهَا إِلَيْهِ.

<sup>١٠</sup> أَيْ يُضَفِّيَهَا عَلَيْهِمْ وَيُوَسِّعُهَا.

## الفصل العاشر

كان يوم الأربعاء، وكان صاحبنا قد قضاه فرحاً مسروراً، زعم لسيّدنا في أول النهار أنه قد أتمَ الختمة، ثم فرغ بعد ذلك لاستماع القصص والأحاديث، وعَبَثَ آخر النهار.

فلما انصرف من الكتاب لم يذهب إلى البيت، وإنما ذهب مع جماعة من أصحابه إلى الجامع ليصلّي العصر، وكان يحبُ الذهاب إلى الجامع، والصعود في المئذنة، والاشتراك مع المؤذن في التسليم؛ «وهو النداء الذي يلي الأذان الشرعي».

ذهب في ذلك اليوم وصعد في المئذنة، واشترك في الأذان وصلّى، وأراد أن يعود إلى البيت، ولكنه افتقد نعله فلم يجدها، كان قد وضعها إلى جانب المئذنة، فلما فرغ من الصلاة ذهب يلتمسها فإذا هي قد سرقت. أحزنه ذلك بعض الشيء، ولكنه كان فرحاً مبهجاً هذا اليوم، فلم يجزع ولم يُقدّر للأمر عاقبة، وعاد إلى البيت حافياً، وما كان أبعد المسافة بين البيت والجامع! ولكن ذلك لم يرُعِه<sup>١</sup>، فكثيراً ما مشي حافياً.

دخل البيت، وإذا الشيخ في المنظرة كعادته يدعوه: وأين نعلاك؟ فيجيب: نسيتها في الكتاب، فلا يحفل الشيخ بهذا الجواب، ثم يهمل الصبي حيناً ريثما يدخل فيتحدث إلى أمه وإخوته قليلاً، ويأكل كسرة من الخبز؛ كان من عادته أن يأكلها متى عاد من الكتاب، ثم يدعوه الشيخ، فيسرع إلى إجابته، فإذا استقرَّ به مكانه، قال له أبوه: ماذَا تلَوتَ اليوم من القرآن؟ فيجيب: ختمته وتلَوتُ الأجزاء الستة الأخيرة. قال الشيخ: وما زلت تحفظه حفظاً جيداً؟ قال: نعم. قال الشيخ: فاقرأ لي سورة سباء. وكان صاحبنا قد نسي سورة سباء، كما نسي غيرها من السور، فلم يفتح الله عليه بحرف، قال الشيخ: فاقرأ سورة فاطر،

<sup>١</sup> لم يرُعِه: لم يفزعه ولم يخفه.

فلم يفتح الله عليه بحرف. قال الشيخ في هدوء وسخرية: وقد زعمت أنك مازلت تحفظ القرآن! فاقرأ سورة يس. ففتح الله عليه بالأيات الأولى من هذه السورة، ولكن لسانه لم يلبث أن انعقد، وريقه لم يلبث أن جفَّ، وأخذته رعدةٌ منكرةٌ تصيبُ على أثرها في وجهه عرقٌ بارد، قال الشيخ في هدوء: قمْ واجتهد في أن تنسى نعليك كلَّ يوم، فما أرى إلا أنك أضعتهما كما أضعت القرآن، ولكنَّ لي مع سيدك شأنًا آخر.



خرج صاحبنا من المنظره مُنكَس الرأس مضطرباً يتعرّ، ومضى في طريقه حتى وصل إلى الكَرَار – والكرار: حجرة في البيت كانت تُدَخَّرُ فيها ألوان من الطعام، وكان يُربَّى فيها الحمام – وكانت في زاوية من زواياها القرمة – وهي قطعة ضخمة عريضة من الخَشَب كأنها جذع شجرة – كانت أمُّه تقطع عليها اللحم، وكانت تَدْعُ على هذه القرمة طائفة من السكاكين؛ منها الطويل، ومنها القصير، ومنها الثقيل ومنها الخفيف.

مضى صاحبنا حتى وصل إلى الكرار، وانعطف إلى الزاوية التي فيها القرمة، وأهوى إلى الساطور، وهو أغاظ ما كان عليها من سكين وأحدّه وأثقله، فأخذه بيمناه وأهوى به إلى قفاه ضرباً! ثم صاح، وسقط الساطور من يديه، وأسرعت أمه إليه، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مرّ بها، فإذا هو واقف يضطرب والدم يسيل من قفاه! والساطور ملقي إلى جانبه ... وما أسرع ما ألقته أمه نظرة إلى الجرح! وما أسرع ما عرفت أنه ليس شيئاً! وما هي إلا أن أنهالت عليه شتماً وتأنيباً، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به إلى زاوية من زوايا المطبخ، فألقته فيها إلقاءً، وانصرفت إلى عملها. ولبث صاحبنا في مكانه لا يتحرك ولا يتكلم ولا يبكي ولا يفجّر كأنه لا شيء، وإخوته وأخواته من حوله يضطربون ويلعبون، لا يحفلون به ولا يلتفتون له.

وقربت المغرب، وإذا هو يُدعى ليجيب أباه، فخرج خزيان متعثراً حتى انتهى إلى المنظرة، فلم يسأله أبوه عن شيء، وإنما ابتدره سيدنا بهذا السؤال: ألم تقرأ على اليوم الأجزاء الستة من القرآن؟ قال: بلى. قال: ألم تقرأ على أمس سورة سباء؟ قال: بلى. قال: فما بالك لم تستطع أن تقرأها اليوم؟ فلم يجب، قال سيدنا: فاقرأ سورة سباء، فلم يفتح الله عليه منها بحرف، قال أبوه: فاقرأ السجدة، فلم يحسن شيئاً. هنا اشتد غضب الشيخ، ولكن على سيدنا لا على الصبي، قال: إذن فهو يذهب إلى الكتاب لا ليقرأ ولا ليحفظ، ولا لمعنى به أو تلتفت إليه، وإنما هو لعبٌ وعبثٌ! ولقد عاد اليوم حافياً، وزعم أنه نسي نعليه في الكتاب، وما أظن عنايتك بحفظه للقرآن، إلا كعنایتك بمشيه حافياً أو ناعلاً!

قال سيدنا: أقسم بالله العظيم ثلاثة ما أهملته يوماً، ولو لا أني خرجت اليوم من الكتاب قبل انصراف الصبيان، لما رجع حافياً، وإنه ليقرأ على القرآن مرة في كل أسبوع: ستة أجزاء في كل يوم، أسمعها منه متى وصلت في الصباح. قال الشيخ: لا أصدق من هذا شيئاً. قال سيدنا: امرأتي طالق ثلاثة ما كذبتُ قطُّ، وما أنا بكافرٍ الآن، وإنني لأسمع له القرآن مرة في كل أسبوع. قال الشيخ: لا أصدق. قال سيدنا: أفتظن أن ما تدفع إلي في كل شهر أحب إلي من امرأتي؟ أم تظن أنني في سبيل ما تدفع إلي أستحل الحرام، وأعيشه مع امرأة طلقتها ثلاثة بين يديك؟ قال الشيخ: ذلك شيء لا شأن لي به، ولكن هذا الصبي لن يذهب إلى الكتاب منذ غد. ثم نهض سيدنا فانصرف كئيباً محزوناً، وظلّ صاحبنا في مكانه لا يفجّر في القرآن ولا فيما كان، وإنما يفجّر في مقدرة سيدنا على الكذب، وفي هذا الطلاق المثلث الذي ألقاه كما يُلقي سيجارته متى فرغ من تدخينها!

ولم يظهر الصبيُّ في هذه الليلة على المائدة، ومكث ثلاثة أيام يتجمَّب مجلس أبيه ويتجنَّب المائدة، حتى إذا كان اليوم الرابع دخل أبوه عليه في المطبخ حيث كان يحبُّ أن ينزوِي إلى جانب الفرن؛ فما زال يكلمه في دعابة وعطف ورفق، حتى أنس الصبيُّ إليه، وانطلق وجهه بعد عبوسه. وأخذه أبوه بيده فأجلسه مكانه من المائدة، وعُنِى به أثناء الغداء عنایةً خاصة، حتى إذا فرغ الصبي من طعامه ونهض لينصرف، قال أبوه هذه الجملة في مزاحٍ قاسٍ لم ينسُهْ قط؛ لأنَّه أضحك منه إخوته جميعاً، ولأنَّهم حفظوها له، وأخذوا يغيطونه بها من حين إلى حين، قال له: «أحفظت القرآن؟»

## الفصل الحادي عشر

وانقطع الصبيُّ عن الكتاب، وانقطع سيدنا عن البيت، والتمس الشيخ فقيهًا آخر يختلف إلى البيت<sup>١</sup> في كل يوم؛ فيتلو فيه سورة من القرآن مكان سيدنا، ويقرئ الصبيُّ ساعة أو ساعتين. وظلَّ الصبيُّ حرامًّا يعبث ويلعب في البيت متى انصرف عنه الفقيه الجديد، حتى إذا كان العصر أقبل عليه أصحابه ورفاقه مُنصرِّفهم<sup>٢</sup> من الكتاب، فيقصُّون عليه ما كان في الكتاب، وهو يلهو بذلك، ويعبث بهم وبكتابهم، وبسيدهنا وبالعريف، وكان قد خُيل إليه أن الأمر قد انبَّت<sup>٣</sup> بينه وبين الكتاب ومن فيه، فلن يعود إليه، ولن يرى الفقيه ولا العريف، فأطلق لسانه في الرجلين إطلاقًا شنيعًا، وأخذ يُظهر من عيوبهما وسيئاتهما ما كان يُخفيه، وأخذ يلعنهما أمام الصبيان ويصفهما بالكذب والسرقة والطمع، ويتحدَّث عنهما بأشياء مُنكرة؛ كان يجد في التحدث بها شفاءً لنفسه، ولذة لهؤلاء الصبيان. وما له لا يطلق لسانه في الرجلين، وليس بيته وبين السفر إلى القاهرة إلَّا شهر واحد؟ فسيعود أخوه الأزهريُّ من القاهرة بعد أيام، حتى إذا قضى إجازته استصحبه إلى الأزهر، حيث يُصبح مجاورًا، وحيث تنقطع عنه أخبار الفقيه والعريف.

الحقُّ أنه كان سعيدًا في هذه الأيام؛ كان يشعر بشيء من التفوق على رفاقه وأترابه؛ فهو لا يذهب إلى الكتاب كما يذهبون، وإنما يسعى إليه الفقيه سعيًا، وسيسافر إلى القاهرة

<sup>١</sup> يختلف إلى البيت: يتعدد عليه.

<sup>٢</sup> منصرفهم: وقت انصرافهم.

<sup>٣</sup> انبت: انقطع.

حيث الأزهر، وحيث «سيدنا الحسين»، وحيث «السيدة زينب» وغيرهما من الأولياء، وما كانت القاهرة عنده شيئاً آخر، إنما كانت مستقر الأزهر، ومشاهد الأولياء والصالحين.

ولكن هذه السعادة لم تدم إلا ريثما يعقبها شقاء شنيع؛ ذلك أن سيدنا لم يطق صبراً على هذه القطيعة، ولم يستطع أن يحتمل انتصار الشيخ عبد الجواب عليه، فأخذ يتسلل بفلان وفلان إلى الشيخ، وما هي إلا أن لانت قناه<sup>٤</sup> الشيخ، وأمر الصبي بالعودة إلى الكتاب متى أصبح. عاد كارهاً مقدراً ما سيلقاها من سيدنا وهو يقرئه القرآن للمرة الثالثة، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد؛ فقد كان الصبيان ينقلون إلى الفقيه والعريف كلَّ ما يسمعون من أصحابهم. والله أوقات الغداء طوال هذا الأسبوع، وما كان سيدنا ينال به الصبي من لوم، وما كان العريف يُعيد عليه من الفاظه، تلك التي كان يطلق بها لسانه مقدراً أنه لن يرى الرجلين!

في هذا الأسبوع تعلم الصبي الاحتياط في اللفظ، وتعلم أن من الخطأ والحمق<sup>٥</sup> الاطمئنان إلى وعيid الرجال، وما يأخذون أنفسهم به من عهد، ألم يكن الشيخ قد أقسم لا يعود الصبي إلى الكتاب أبداً؟ وهذا هو ذا قد عاد! وأيُّ فرق بين الشيخ يقسم ويحدث! وبين سيدنا يرسل الطلاق والأيمان إرسالاً، وهو يعلم أنه كاذب؟ وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه، فيشتمون له الفقيه والعريف، ويُغرونون<sup>٦</sup> بشتمهما، حتى إذا ظفروا منه بذلك، تقربوا به إلى الرجلين، وابتغوا<sup>٧</sup> به إليهما الوسيلة، وهذه أمه تضحك منه، وتُغري به سيدنا حين أقبل يتحدث إليها بما نقل إليه الصبيان، وهؤلاء إخوته يشتمون به، ويعيدون عليه مقالة سيدنا من حين إلى حين، يغيظونه ويثيرون سخطه، ولكنه كان يحتمل هذا كلَّه في صبر وجذ، وما له لا يصبر ولا يتجلَّ وليس بينه وبين فراق هذه البيئة<sup>٨</sup> كلها إلا شهر أو بعض شهر!

<sup>٤</sup> لين القناة هنا: نهاية عن الرضا.

<sup>٥</sup> الخطأ والحمق: قلة العقل وفساده.

<sup>٦</sup> أغراه به: أولعه به وحشه عليه.

<sup>٧</sup> ابتغوا: طلبوا. الوسيلة: ما يُقرَب به إلى الغير.

<sup>٨</sup> البيئة بالكسر: اسم من تبوأ المكان إذا حل، ويراد بها: المكان الذي يأويه الإنسان وكل ما يحيط به فيه.

## الفصل الثاني عشر

ولكن الشهر مضى، ورجع الأزهري إلى القاهرة، وظل صاحبنا حيث هو كما هو، لم يسافر إلى الأزهر، ولم يتّخذ العِمَّة ولم يدخل في جُبَّة أو قفطان.

كان لا يزال صغيراً، ولم يكن من اليسير إرساله إلى القاهرة، ولم يكن أخوه يحب أن يحمله، فأشار بأن يبقى حيث هو سنة أخرى، فبقي ولم يُحْفَل أحد برضاه أو غضبه. على أنَّ حياته تغيَّرت بعض الشيء؛ فقد أشار أخوه الأزهري بأن يقضي هذه السنة في الاستعداد للأزهر، ودفع إليه كتابين يحفظ أحدهما جملة، ويستظهر من الآخر صُحْفاً مُختلفة.

فأمَّا الكتاب الذي لم يكن بدُّ من حفظه كُلُّه فألفيَّة ابن مالك، وأمَّا الكتاب الآخر فمجموع المتون. وأوصى الأزهري قبل سفره بأن يبدأ بحفظ الألفيَّة، حتى إذا فرغ منها وأتقنها إتقاناً، حفظ من الكتاب الآخر أشياء غريبة، بعضها يسمَّى «الجوهرة»، وبعضاً يسمَّى «الخريدة»، وبعضاً يسمَّى «السراجية»، وبعضاً يسمَّى «الرَّحْبَيَّة»، وبعضاً يسمَّى «لاميَّة الأفعال»، وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الصبي مواقعٍ تيهٍ وإعجاب؛ لأنَّه لا يفهم لها معنىًّا، ولأنَّه يقدِّر أنها تدل على العلم، ولأنَّه يعلم أنَّ أخاه الأزهري قد حفظها وفهمها فأصبح عالماً وظفر بهذه المكانة الممتازة في نفس أبيه وإخوته وأهل القرية جميعاً، ألم يكونوا جميعاً يتهدثن بعودته قبل أن يعود بشهر، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فرحين مبهجين متطلفين! ألم يكن الشيخ يشرب كلامه شُرباً، ويعيده على الناس في إعجابٍ وفخار! ألم يكن أهل القرية يتتوسلون إليه أن يقرأ لهم درساً في التوحيد أو الفقه؟ وماذا عسى أن يكون التوحيد؟ وماذا عسى أن يكون الفقه؟ ثم ألم يكن الشيخ يتتوسل إليه، مُلِحًا مستعطفاً مسرفًا في الوعد، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأماني، ليلقِي على

الناس خطبة الجمعة! ثم هذا اليوم المشهود يوم مولد النبي، ماذا لقي الأزهرى من إكرامٍ وحفاوة، ومن تجلة وإكبار! كانوا قد اشتروا له قفطاناً جديداً، وجبةً جديدةً وطربوشًا جديداً، و«مركتوباً» جديداً، وكانوا يتحدون بهذا اليوم وما سيكون فيه قبل أن يُظلهم<sup>١</sup> بأيام، حتى إذا أقبل هذا اليوم وانتصف، أسرعت الأسرة إلى طعامها فلم تصب منه إلا قليلاً، ولبس الفتى الأزهرى ثيابه الجديدة، واتخذ في هذا اليوم عمامة خضراء، وألقى على كتفيه شالاً من الكشمير، وأمه تدعوه وتتلوا التعاوين، وأبوه يخرج ويدخل جذلان مضطرباً، حتى إذا تم للفتى من زيه وهيته ما كان يريد، خرج فإذا فرسٌ ينتظره بالباب، وإذا رجالٌ يحملونه فيpusعونه على السرير، وإذا قومٌ يكتنفونه<sup>٢</sup> من يمين ومن شمال، وأخرون يسعون بين يديه، وأخرون يمشون من خلفه، وإذا البنادق تطلق في الفضاء، وإذا النساء يزغرن من كل ناحية، وإذا الجو يتارج<sup>٣</sup> بعرف البخور، وإذا الأصوات ترتفع متغيرةً بمدح النبي، وإذا هذا الحفل كله يتحرك في بطء وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دور. كل ذلك لأن هذا الفتى الأزهرى قد اتَّخذ في هذا اليوم خليفة، فهو يُطاف به في المدينة وما حولها من القرى في هذا المهرجان الباهر. وما باله اتَّخذ خليفة دون غيره من الشبان؟ لأنه أزهرى قدقرأ العلم وحفظ الألafia والجوهرة والخريدة! فلِم لا يبتهج الصبي حين يرى أن سيقرأ من العلم ماقرأ أخيه، وأن سيمتاز من رفاته وأترابه بحفظ الألafia والجوهرة والخريدة؟!

وكم كان فرحاً مختالاً حين غدا إلى الكتاب يوم السبت، وفي يده نسخة من «الألafia»! لقد رفعته هذه النسخة درجات، وإن كانت هذه النسخة ضئيلةً قدرةً سيئة الجلد؛ ولكنها على ضالتها وقدارتها، كانت تعدل عنده خمسين مصحفاً من هذه المصاحف التي كان يحملها أترابه.

المصحف! لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئاً، وكثيرٌ من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحدٌ، ولا ينتخبون خلفاء يوم المولد النبوى.

<sup>١</sup> يظلهم: يأتيهم ويعشاهم.

<sup>٢</sup> يكتنفونه: يحيطون به من كل جانب.

<sup>٣</sup> تأرج الجو والمكان: فاحت فيه رائحة طيبة ذكية. والعَرْف: الرائحة.

## الفصل الثاني عشر



ولكن الألفية! وما أدرك ما الألفية؟! وحسبك أنَّ سيدنا لا يحفظ منها حرفاً، وحسبك أن العريف لا يحسن أن يقرأ الأبيات الأولى منها، والألفية شعر، وليس في المصحف شعر. الحق أنه ابتهج بهذا البيت:

قال محمدُ هو ابْنُ مالِكٍ      أَحَمَدُ رَبِّي اللَّهُ خَيْرُ مالِكٍ

ابتهاجاً لم يشعر بشيء مثله أمام أيٍّ سورة من سور القرآن.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثالث عشر

وكيف لا يبتهج وقد أحسَّ منذ اليوم الأوَّل أنه ارتفع درجات؛ أصبح «سِيدُنَا» لا يستطيع أن يُشرف على حفظه للألفية، ولا أن يُقرئه إِيَّاهَا، بل ضاق الكتاب كله بالألفية، وكُلُّ الصبيُّ أن يذهب في كل يوم إلى المحكمة الشرعية؛ ليقرأ على القاضي ما يريد أن يحفظه من الألفية. القاضي عالم من علماء الأزهر، أكبر من أخيه الأزهريٌّ، وإن كان أبوه لا يؤمن بذلك، ولا يرى أن القاضي يُكافئ ابنه، هو على كل حال عالم من علماء الأزهر، وهو قاضي الشرع – بقاف ضخمة وراء مفخمة – وهو في المحكمة لا في الكتاب، وهو يجلس على دكة مرتفعة، وقد وُضعت عليها الطنافس والوسائل، لا تقاس إليها دكة سِيدُنَا، وليس حولها نعالٌ مرقعةٌ، وعلى بابه رجلان يقومان مقام الحاجب، ويسمِّيهما الناس هذا الاسم البديع، الذي لم يكن يخلو من هيبة: «الرُّسُل».

نعم، كان يجب على الصبي أن يذهب إلى المحكمة في كل صباح، فيقرأ على القاضي باباً من أبواب الألفية، وكم كان القاضي يحسن القراءة! وكم كان يملأ فمه بالقاف والراء! وكم كان صوته يتهدَّج<sup>١</sup> بقول ابن مالك:

كلامُنا لفظٌ مفیدٌ كاستقْمٌ  
واسمُ و فعلُ ثمَّ حرفُ الكلمٌ  
وكلمةٌ بها كلامٌ قد يُؤمِّ

<sup>١</sup> تهدَّج صوته: تقطَّع في ارتعاش.

ولقد استطاع القاضي أن يُؤثِّر في نفس الصبي، ويملأه تواضعًا حين قرأ هذه الأبيات:

فَائِقَةُ الْفَيَّاءِ ابْنُ مُعْطَى  
مُسْتَوْجِبٌ ثَنَائِيُّ الْجَمِيلَا  
لِي وَلَهُ فِي دِرَجَاتِ الْآخِرَةِ  
وَتَقْتَضِي رِضَا بِغَيْرِ سُخْتٍ  
وَهُوَ بِسُبْقٍ حَائِزٌ تَفْضِيلًا  
وَاللَّهُ يَقْضِي بِهَبَاتٍ وَافْرَةً

قرأ القاضي هذه الأبيات بصوت يحطم البكاء حطمًا، ثم قال للصبي: من تواضع الله رفعه، أتفهم هذه الأبيات؟ قال الصبي: لا. قال القاضي: إن المؤلف رحمة الله تعالى، عندما بدأ في نظم ألفيته أغتر وأخذه الكبر فقال: «فَائِقَةُ الْفَيَّاءِ ابْنُ مُعْطَى»، فلما كان الليل رأى فيما يرى النائم أن ابن معط قد أقبل يعاتبه عتابًا شديداً، فلما أفاق من نومه أصلح من هذا الغرور وقال: «وَهُوَ بِسُبْقٍ حَائِزٌ تَفْضِيلًا».

وكم كان الشيخ مبتهجًا فرحاً حين عاد إليه الصبي عصر ذلك اليوم؛ فقصّ عليه ما سمع من القاضي، وقرأ عليه الأبيات الأولى من الألفية! فكان يقطع هذه الأبيات بهذه الكلمة التي يعبر بها الناس عن الاستحسان: «الله! الله!» على أنَّ لكل شيء حداً، فقد مضى صاحبنا في حفظ الألفية فرحاً مبتهجًا حتى انتهى إلى باب المبدأ، ثم فترت همته، وكان أبوه يسألها عصر كل يوم: هل ذهبت إلى المحكمة؟ فيجيب: نعم.

- فكم حفظت؟ فيقرأ له ما حفظ.

ولكن الأمر ثقل عليه منذ باب المبدأ، فأخذ يحفظ ويدهب إلى المحكمة متناقلًا متباطئاً، حتى وصل إلى باب المفعول المطلق، ثم لم يستطع أن يتقدم خطوةً قصيرةً ولا طويلاً، ولبث يذهب إلى المحكمة في كل يوم، ويقرأ على القاضي فصلاً من فصول الألفية، حتى إذا عاد إلى الكتاب ألقى الألفية في ناحية، وانصرف إلى عبته ولعبه، وإلى قراءة القصص والأحاديث.

فإذا كان العصر وسأله أبوه: هل ذهبت إلى المحكمة؟

أجاب: نعم.

- فكم حفظت من بيت؟

أجاب: عشرين.

- من أي باب؟

- من باب الإضافة، أو من باب النعت، أو من باب جمع التكسير.  
فإذا قال له: أقرأ علىَّ ما حفظت، قرأ عليه عشرين بيّناً من المائتين الأوّلين، مرّةً من  
المغرب والمبنيُّ، وأخرى من النكرة والمعرفة، وثالثة من المبتدأ والخبر، والشيخ لا يفهم  
شيئاً، ولا يلاحظ أن ابنه يخدعه؛ وإنما يكتفي بأن يسمع كلاماً منظوماً، وهو مطمئن إلى  
القاضي. ومن غريب الأمر أن الشيخ لم يفكّر مرة واحدة في أن يفتح الألفية، ويقابل على  
الصبيِّ وهو يقرأ، ولو قد فعل يوماً من الأيام، ل كانت للصبي قصة كقصته مع سورة  
الشعراء، أو سباء، أو فاطر.

على أنَّ الصبيَّ تعرَّض لهذا الخطر مرّةً، ولو لا أن أمّه شَفَعَتْ فيه لكان له مع أبيه  
موقف مشهود.

كان له أخٌ يختلف إلى المدارس المدنية، فعاد من القاهرة ليقضي فصل الصيف،  
وأتفق أنه حضر هذا الامتحان اليومي أيامًا متصلة؛ فسمع الشيخ يسأل الصبيَّ: أيَّ بَابٍ  
قرأت؟ فيجيب الصبيُّ: بَابُ الْعَطْفِ، مثلاً، فإذا طلب إليه أن يعيد ما قرأ، أعاد عليه بَابَ  
الْعَلَمِ أو بَابَ الْصَّلَةِ والموصولِ.

سكت الشاب في أول يوم، وفي اليوم الذي يليه، فلما كثر ذلك انتظر حتى انصرف  
الشيخ، وقال للصبيِّ أمّام أمّه: إنك تخدع أباك وتذكِّر عليه، وتلعب في الكتابَ، ولا تحفظ  
من الألفية شيئاً. قال الصبيُّ: إنك كاذب! وما أنت وذاك؟ وإنما الألفية للأزهريين لا لأبناء  
المدارس! وسلَّ القاضي يُبَيِّنُ بُيُّنَكَ بأني أذهب إلى المحكمة في كل يوم. قال الشاب: أيَّ بَابٍ  
حفظتَ اليوم؟ قال الصبيُّ: بَابُ كذا. قال الشاب: ولكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك،  
وإنما قرأتَ عليه بَابُ كذا، وهاتِ نسخة الألفية أَمْتَحَنُكَ فيها! بُهْتَ الصبيُّ وظهر عليه  
الوجوم، وهمَّ الشابُ أن يقصَّ القصة على الشيخ، ولكنَّ أمّه توسلَتْ إليه، وكان الشاب  
رفيقاً بأمّه رعوفاً بأخيه، فسكت. وظلَّ الشيخ على جله حتى عاد الأزهريُّ، فلما عاد  
أَمْتَحَنَ الصبيَّ، وما هي إلا أن عرف جليّة الأمر، فلم يغضب ولم يُنذر ولم يُخْبرَ الشيخَ،  
وإنما أمر الصبيَّ أن ينقطع عن الكتابَ والمحكمة، وأنحفظه الألفية كلها في عشرة أيام.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الرابع عشر

للعلم في القرى ومدن الأقاليم جلالٌ ليس له مثُلٌ في العاصمة ولا في بيوتها العلمية المختلفة، وليس في هذا شيء من العجب ولا من الغرابة، وإنما هو قانون العرض والطلب، يجري على العلم كما يجري على غيره مما يباع ويُشترى. فبينما يروح العلماء ويغدون في القاهرة لا يحفل بهم أحد، أو لا يكاد يحفل بهم أحد، وبينما يقول العلماء فيكترون في القول، ويتصرّفون في فنونه، دون أن يلتفت إليهم أحد غير تلاميذهم في القاهرة، ترى علماء الريف، وأشياخ القرى ومدن الأقاليم، يغدون ويروحون في جلال ومهابة، ويقولون فيستمع لهم الناس مع شيء من الإكبار مؤثِّر جَذَابٌ، وكان صاحبنا متأثراً بنفسية الريف، يكبر العلماء كما يكبرهم الريفيون، ويكاد يؤمن بأنهم فطروا<sup>١</sup> من طينة نقية ممتازة، غير الطينة التي فطر منها الناس جميعاً.

وكان يسمع لهم وهو يتكلّمون، فيأخذه شيء من الإعجاب والدهش، حاول أن يجد مثلاً في القاهرة أمام كبار العلماء، وجلة الشيوخ فلم يُوفَقْ.

كان علماء المدينة ثلاثة أو أربعة؛ قد تقسّموا فيما بينهم إعجاب الناس ومودّتهم، فاما أحدهم فكان كاتباً في المحكمة الشرعية، قصيراً ضخماً، غليظ الصوت جَهُورِيًّا، يمتلئ شِدَّقه بالألفاظ حين يتكلّم، فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة كصاحبها، غليظة ك أصحابها، وتصدمك معانيها كما تصدمك مقاطعها. وكان هذا الشيخ من الذين لم يُفلحوا في الأزهر؛ قضى فيه ما شاء أن يقضى من السنين، فلم يُوفَقْ للعالمية ولا للقضاء، فقنع بمنصب الكاتب في المحكمة، على حين كان أخوه قاضياً ممتازاً، قد جُعل إليه قضاء

<sup>١</sup> فطروا: خلقوا.

أحد الأقاليم. ولم يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس في مجلس إلا فخر بأخيه، وذم القاضي الذي هو معه. كان حنفي المذهب، وكان أتباع أبي حنيفة في المدينة قليلين، أو لم يكن لأبي حنيفة في المدينة أتباع؛ فكان ذلك يغrieve ويحثنه على خصومه العلماء الآخرين، الذين كانوا يتبعون الشافعى أو مالكًا، ويجدون في أهل المدينة صدى لعلمهم، وطلاباً للفتوى عندهم، فكان لا يدع فرصة إلا مجَّد فيها فقه أبي حنيفة، وغضَّ فيها من فقه مالك والشافعى. وأهل الريف مَكَرَّةُ أذكياء؛ فلم يكن يخفى عليهم أن الشیخ إنما يقول ما يقول، و يأتي ما يأتي من الأمر، متأنِّا بالحقد والمُوجَدة،<sup>٢</sup> فكانوا يعطفون عليه، ويضحكون منه، وكانت المنافسة شديدة عنيفة بين هذا الشیخ وبين الفتى الأزهري، كان الفتى الأزهري يُنتَخَب خليفةً في كل سنة، فغاظه أن يُنتَخَب هذا الفتى خليفة دونه، ولما تحدَّث الناس أن الفتى سيلقي خطبة الجمعة سمع الشیخ هذا الحديث ولم يقل شيئاً، حتى إذا كان يوم الجمعة وامتلأ المسجد بالناس؛ وأقبل الفتى يريد أن يصعد المنبر، نهض الشیخ حتى انتهى إلى الإمام، وقال في صوت سمعه الناس: إن هذا الشاب حديث السن، وما ينبغي له أن يصعد المنبر ولا أن يخطب، ولا أن يصلي بالناس وفيهم الشیوخ وأصحاب الأسنان، ولئن خُلِّيَّ بينه وبين المنبر والصلوة لأنصرفنَ. ثم التفت إلى الناس وقال: ومن كان منكم حريصاً على ألا تبطل صلاته فليتبعوني. سمع الناس هذا فاضطربوا، وكادت تقع بينهم الفتنة لو لا أن نهض الإمام فَخَطَّبَهُمْ وصَلَّى بِهِمْ، وحيل بين الفتى والمنبر هذا العام. ومع ذلك فقد كان الفتى أجهد نفسه في حفظ الخطبة واستعدَّ لها الموقف أياماً متصلة، وتلا الخطبة على أبيه غير مرة، وكان أبوه ينتظر هذه الساعة أشدَّ ما يكون إليها شوقاً، وأعظم ما يكون بها ابتهاجاً، وكانت أمه مشفقة تختلف عليه العين، فما كاد يخرج إلى المسجد ذلك اليوم، حتى نهضت إلى جَمْرٍ وضعته في إماء وأخذت تُلْقِي فيه ضرباً من البخور، وتطفو به البيت حُجْرَةً حُجْرَةً، تقف في كل حُجْرَةٍ لحظاتٍ وتهتمُّ بكلمات، وظلَّت كذلك حتى عاد ابنها، فإذا هي تلقاه من وراء الباب مبخرة مهمهمة، وإذا الشیخ مُغضَّب يلعن هذا الرجل الذي أكل الحسدُ قبله، فحال بين ابنه وبين المنبر والصلوة.

وكان في المدينة عالم آخر شافعى، كان إمام المسجد، وصاحب الخطبة والصلوة، وكان معروفاً بالتقوى والورع، يذهب الناس في إكثاره وإجلاله إلى حدٍ يشبه التقديس؛

---

<sup>٢</sup> الموجدة: الغضب.



كانوا يتبركون به، ويلتمسون عنده شفاء مرضاهם وقضاء حاجاتهم. وكأنه كان يرى في نفسه شيئاً من الولاية، وظلّ أهل المدينة بعد موته سنين يذكرونه بالخير، ويتحدثون مقتنعين بأنه عندما أنزل في قبره قال بصوت سمعه المшиيعون جميعاً: اللهم اجعله منزاً مباركاً، وكانوا يتحدثون بما رأوا فيما يرى النائم من حظ هذا الرجل عند الله، وما أعد له في الجنة من نعيم.

وشيخ ثالث كان في المدينة، وكان مالكيّ المذهب، ولم يكن ينقطع للعلم ولا يتخذه حرفة، وإنما كان يعمل في الأرض، ويتجّر، ويختلف إلى المسجد فيؤدي الخمس، ويجلس إلى الناس من حين إلى حين، فيقرأ لهم الحديث، ويُفْقِهُم في الدين متواضعاً غير تيّاه ولا فخور، ولم يكن يحفل به إلا الأقلّون عدداً.

هؤلاء هم العلماء، ولكنَّ علماء آخرين كانوا مُنْبِثِين<sup>٣</sup> في هذه المدينة وقرابها وريفها، ولم يكونوا أقلَّ من هؤلاء العلماء الرسميين تأثيراً في دهماء الناس وتسليطاً على عقولهم؛ منهم هذا الحاج ... الخياط الذي كان دكَّانه يكاد يقابل الكتاب، والذي كان الناس مجتمعين على وصفه بالبخل والشح، والذي كان متصلًا بشيخ من كبار أهل الطرق، والذي كان يزدرى<sup>٤</sup> العلماء جميعاً؛ لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ، والذي كان يرى أنَّ العلم الصحيح إنما هو العلم اللَّدُنِي<sup>٥</sup>؛ الذي يهبط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب، بل دون أن تقرأ أو تكتب.

ومنهم هذا الشيخ ... الذي كان في أول أمره حمَّاراً ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم، ثم أصبح تاجراً، واقتصرت حُمُرُه على نقل تجارتة، والذي كان الناس مجتمعين على أنه أكل أموال اليتامي، وأثرى<sup>٦</sup> على حساب الضعفاء، والذي كان يكثر من تردید هذه الآية وتفسيرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظَلَمُوا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاٰ﴾، والذي كان يكره الصلاة في المسجد الجامع؛ لأنه كان يكره الإمام ومن إليه من العلماء، ويؤثر الصلاة في جامع صغير لا قيمة له ولا مكانة.

ومنهم هذا الشيخ ... الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يحسن قراءة الفاتحة، ولكنه كان شازلياً من أصحاب الطريق، كان يجمع الناس إلى الذكر، ويفتح لهم في أمور دينهم ودنياهم.

ثم منهم الفقهاء الذين كانوا يقرءون القرآن ويُقرئونه للناس، والذين كانوا يُميّزون أنفسهم من العلماء ويُسمّون: «حملة كتاب الله»، والذين كانوا يتصلون بدهماء الناس والنساء منهم خاصة. كانت جمهرتهم من المكتوفين، فكانوا يدخلون البيوت يتلون فيها القرآن، وكان النساء يتحدثنَّ إليهم، ويستفتيهن في أمور الصوم والصلاحة وما إلى ذلك من أمورهنَّ. وكان لهؤلاء الفقهاء علم مخالف كلَّ المخالف لعلم العلماء، الذين يأخذون علمهم من الكتب، والذين بينهم وبين الأزهر سبب قويٌّ أو ضعيف، وكان علمهم مخالفًا أيضًا لعلم أصحاب الطرق وأهل العلم اللَّدُنِي<sup>5</sup>، كانوا يأخذون علمهم من القرآن مباشرة،

<sup>٣</sup> مُنْبِثِين: منتشرين.

<sup>٤</sup> ازدراء: احتقره واستخفَّ به.

<sup>٥</sup> أثرى: كثُر ماله.

## الفصل الرابع عشر

يفهمونه كما يستطيعون، لا كما هو ولا كما ينبغي أن يفهم. يفهمونه كما كان يفهمه سيدنا، وكان من أذكي الفقهاء، وأشدتهم علمًا وأقدرهم على التأويل، سأله الصبي ذات يوم: ما معنى قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُمْ أَطْوَارًا﴾؟ فأجاب هادئاً مطمئنًا: خلقكم كالثيران لا تعقلون شيئاً! أو يفهمونه كما يفهمه جد هذا الصبي نفسه، وكان من أحافظ الناس للقرآن، وأبرعهم في فهمه وتفسيره وتأويله، سأله حفيده ذات يوم عن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَانَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةً انْكَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾، فقال: «على حرف دكة، على حرف مصطبة ... فإن أصابه خير فهو مطمئن في مكانه، وإن أصابه شر انكفا على وجهه». وكان صبيانا يختلف<sup>١</sup> بين هؤلاء العلماء جميعا، ويأخذ عنهم جميعا، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض.

<sup>١</sup> يختلف هنا: يتعدد.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الخامس عشر

وشيوخ الطريق، وما شيوخ الطريق؟! كانوا كثيرين مُنْبئين<sup>١</sup> في أقطار الأرض، لا تكاد تخلو منهم المدينة أسبوعاً، وكانت مذاهبهم مختلفة، وكانوا قد تقسّموا الناس فيما بينهم فجعلوهم شيئاً، وفرقوا أهواهم تفريقاً عظيماً، وكانت المنافسة حادة في الإقليم بين أسرتين من أصحاب الطريق، لإدحاماً أعلاه وللآخر أسفلاً.

وإذا كان أهل الإقليم ينتقلون ولا يأبون على أنفسهم الهجرة من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة داخل الإقليم، فقد كان يتّفق أن ينزل أتباع إحدى الأسرتين حيث تتسلّط الأسرة الأخرى، وكان زعماء الأسرتين ينتقلون في الإقليم يزورون أتباعهم وأشياعهم، والله ما كان يحدث من الخصومات يوم يهبط صاحب العالية إلى الساقفة، أو يصعد صاحب الساقفة إلى العالية! وكان أبو الصبي من أتباع صاحب العالية، أخذ عنه العهد، وأخذ عنه أبوه من قبل. وكانت أم الصبي من أتباع صاحب العالية أيضاً، بل كان أبوها من أنصاره وحوارييه<sup>٢</sup> المقربين إليه، ومات صاحب العالية وخلفه على الطريق ابنه الحاج ... وكان أنشط من أبيه، وأقدر على الكيد واللؤم، وأنهض للخصومة، كان أقرب من أبيه إلى الدنيا، وأبعد من أبيه عن الدين.

وكان أبو الصبي قد هبط إلى الساقفة واستقر فيها، فكانت لصاحب العالية عادة أن يزوره مرّة في كل سنة، وكان إذا أقبل لم يُقبل وحده، ولم يُقبل في نفرٍ قليل، وإنما أقبل في جيش ضخم؛ إن لم يبلغ المائة فليس ينحط عنها إلا قليلاً. ولم يكن يتّخذ قطر

<sup>١</sup> أي منتشرين في نواحي الأرض.

<sup>٢</sup> الحواري: الناصر.

السكة الحديدية ولا سفن النيل، وإنما كان يَتَّخذ الجياد والبغال والحمير، يسيراً ومن حوله أصحابه فيمرون بالقرى والدساكير، ينزلون ويرحلون في أَبْهَةٍ وضخامة، منتصرين حيث لا سلطان إلا لهم، مُتَّحِّدين<sup>٢</sup> حيث لخصومهم شيء من القوة. وكانوا إذا زاروا أسرة الصبي أقبلوا حتى ينزلوا، فإذا الشارع ممتلئ بهم وبخيالهم وبغالهم وحُمْرُهم، قد أخذوه من القناة إلى أقصاه الجنوبي، وإذا الشَّاء تذبح، وإذا السُّمْطُ، ممدودةٌ في الشارع، وإذا هم إلى طعامهم في شرَه لا يعدله شرَه، والشيخ جالس في المنظرة ومن حوله أصفياؤه وأولياؤه، وبين يديه صاحب البيت وأخْصاؤه يأتُّرونَ أمره،<sup>٣</sup> فإذا فرغوا من الغداء انصرفوا عنه، فنام حيث هو، ثم نهض فتوضاً. فانظر إلى الناس يَسْتِيقُونَ ويختصمونَ أَيُّهم يصب عليه الماء! فإذا فرغ فانظر إليهم يستبقون ويختصمون أيهم يصيِّب من وَضْوءِ<sup>٤</sup> الشيخ جَرْعَةً! والشيخ عنهم في شغل، يصلي فيطيل الصلاة، ويدعو فيطيل الدعاء، حتى إذا فرغ من هذا كَلَّه جلس للناس وهم يتقدّرون عليه؛ منهم من يقبِّل يده وينصرف خاسعاً، ومنهم من يتحدَّث إلى لحظة أو لحظاتٍ، ومنهم من يسأل حاجة، والشيخ يجيب أولئك وهؤلاء بـاللفاظ غريبة غامضة، يذهبون في فهمها وتاويها المذاهب.

أدخل عليه الصبي، فمسح رأسه وتلا قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، من ذلك اليوم اقتتنع أبو الصبي بأن سيكون لابنه شأن، فإذا صُلِّيَ المغرب مُدَّتْ الموارد وأكل الناس، ثم تُصْلَّى العشاء، ثم يُنصَبُ المجلس.

ونَصْبُ المجلس عبارة عن اجتماع الناس إلى حلقة الذكر، يذكرون الله قاعدين ساكين، ثم تتحرك رءوسهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تتحرّك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تنبعث في أجسامهم رعدة فإذا هم جميعاً وقوف؛ قد دُفعوا في الهواء كما حركهم لولبٌ، وقد انبثَ في الحلقة شيوخ يُنشدون شعر ابن الفارض وما يُشبهه من الشعر. وكان لهذا الشيخ خاصة كَلْفٌ بقصيدة معروفة، فيها ذكر الإسراء والمعراج، أولها:

<sup>٢</sup> التحدى: طلب المباراة للغلبة.

<sup>٤</sup> السُّمْطُ: جمع سمات بالكسر، وهو ما يُبسط ليُوضع الطعام عليه.

<sup>٥</sup> ائتمرأمره: امتهنه.

<sup>٦</sup> الْوَضْوءُ بفتح الواو: الماء الذي يُتوضاً منه.

## مِنْ مَكَّةَ وَالْبَيْتِ الْأَمْجَدِ      لِلْقُدُسِ سَرَى لِيَلًا أَحْمَدٌ

كان الشيوخ يرثّلونها ترتيلًا، وكان الذاكرون يحركون أجسامهم على هذا الترتيل، ينحنون ويستقيمون كأنما يرقصهم هؤلاء الشيوخ ترقيساً.

ومهما ينس الصبي فلن ينسى ليلة غلط فيها أحد المنشدين فوضع لفظاً مكان لفظ من القصيدة، وإذا الشيخ قد ثار وفار، وأرغى وأزيد<sup>7</sup>، وصاح بملء صوته: يا بني الكلاب! لعن الله آباءكم وآباء آباء أبيائكم إلى آدم! أتریدون أن تُخبروا بيت الرجل!

ومهما ينس الصبي فلن ينسى تأثير هذه الغضبة في نفوس الذاكرين، وفي نفوس الناس من حولهم، وكأن الناس قد اقتنعوا بأن الغلط في هذه القصيدة مصدر شئم لا يشبهه شئم، وأظهر أبو الصبي تأثراً وفزعاً، ثم اطمئناناً وهدوءاً. فلما انصرف الشيخ من الغد وتذكريت الأسرة ما كان من أمره، وما كان من قصته مع الذاكرين والمنشدين، ضحك صاحب البيت ضحكة لم يشكّ الصبي بعدها في أن إيمان أبيه بهذا الشيخ لم يكن خالصاً من الشك والازدراء ... نعم من الشك والازدراء! فقد كان طمع الشيخ وحرصه أظهر من أن ينخدع بهما من له حظ من أناة وتفكير.

وكان من أشد الناس مقتاً للشيخ وسخطاً عليه أمُ الصبي، كانت تكره زيارته، وتستقلّ ظلة، وتؤدي ما تؤدي، وتُعدُّ ما تُعدُ وهي كارهة ساخطة، لا تكاد تمسك لسانها إلا في مشقة وعنة؛ ذلك لأن زيارة الشيخ كانت ثقيلة على هذه الأسرة التي كانت تعيش من سعة، ولكنها كانت فقيرة على كل حال.

كانت زيارة الشيخ تستهلك كثيراً من القمح والسمن والعسل وما إلى ذلك، وكانت تتكلّف صاحب البيت الاقتراض لشراء ما لا بدّ منه من الضأن والمعن، وكان الشيخ لا يلُم بهذه الأسرة إلا ارتحل من غده وقد أخذ شيئاً راقه وأعجبه؛ يأخذ في هذه المرة بساطاً، وفي هذه شالاً من الكشميم، وعلى هذا النحو.

كانت زيارة هذا الشيخ وأصحابه شيئاً ترغب فيه الأسرة رغبة شديدة، لأنه يمكنها من الفخر ورفع الرأس، ومناؤة الأشباه والنظائر، وتكرهه كرهًا شديداً لأنه يكلفهم ما

<sup>7</sup> أرغى وأزيد: ضَجَّ غَضْبًا، وَتَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ.

يكلفها من المال والمشقة. كانت شرّاً لا بدّ منه جرت به العادة، وصادف هوّي في الناس. وكان اتصال الأسرة بهذا البيت من بيوت الطريق قوياً متيناً، ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص، وأحاديث الكرامات والمعجزاً. وكانت أم الصبي وأبوه يجدان لذةً في أن يتحدّثا إلى أبنائهما بهذه الأخبار والأحاديث، ولم تكن أم الصبي تدع فرصة إلا قصّت فيها هذه القصة: «حج أبي ومعه جدّتي مع الشيخ خالد مرّة، وكان الشيخ قد حجَّ ثلث مرات تبعه فيها أبي، واستصحب أمّه في هذه المرّة، فلما فرغوا من الحج وانصرفوا إلى المدينة، وقعت الشيحة في بعض الطريق من الرّحل<sup>٨</sup>، فانحطّم ظهرها انحطاماً، وعجزت عن المشي والحركة، وأخذ ابنتها يحملها وينقلّها من مكان إلى مكان، ويجد في ذلك من المشقة والعناء ما شakah إلى الشيخ ذات يوم، فقال له الشيخ: ألسْت تزعم أنها شريفة من نسل الحسن بن علي؟ قال: بل، قال: فهي ذاهبة إلى جدها، فإذا انتهيت بها إلى المسجد النبوّي فضعها في ناحية منه، وخلّ بينها وبين جدها يصنع بها ما يشاء. وكذلك فعل الرجل؛ وضع أمّه في ناحية من نواحي المسجد، وقال لها في لغة الفلاح الجافية يملؤها مع جفوتها الحب والإشفاقي: أنتِ وجذك، فليس لي بكم شأن. ثم تركها وتبع شيخه يريد أن يطوف بقبر النبي. قال الرجل: فوالله ما خطوت خطوات حتى سمعت أمي تناديني، فالتفت فإذا هي قائمة تسعى، وأبكيتْ أن أعود إليها، فإذا هي تudo من ورائي عدوّاً، وإذا هي تسبني إلى الشيخ وتطفو مع الطائفين».

وكان أبو الصبي لا يدع فرصة إلا ذكر فيها عن الشيخ هذه القصة: ذكر أمّه أن الغزالي قال في بعض كتبه: إن النبي لا يمكن أن يرى فيما يرى النائم، فغضب الشيخ وقال: والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي! لقد رأيته بعيني رأسي هذا راكباً بغلته. وذكر له ذلك مرة أخرى فقال: والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي، لقد رأيته بعيني رأسي هذا راكباً ناقته، وكان أبو الصبي يستنبط من ذلك أن الغزالي قد أخطأ، وأن عامة الناس يستطيعون أن يروا النبي فيما يرى النائم، وأن الأولياء والصالحين يستطيعون أن يرون وهم أيقاظ. وكان أبو الصبي يثبت هذا بحديث يرويه كلّما ذكر هذه القصة، وهو: «من رأني في المنام فقد رأني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي».

<sup>٨</sup> الرحل للبعير كالسرج للفرس.

## الفصل الخامس عشر

وعلى هذا النحو حفظ الصبيُّ ألوانًا من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفية، وكان إذا أراد أن يتحدث بشيءٍ من ذلك إلى أترابه ورفاقه في الكتاب قصوا عليه أمثاله؛ يضيفونه إلى صاحب السافلة ويؤمنون به إيمانًا شديداً.

كانت لأهل الريف؛ شيوخهم وشُبابُهم وصبيانهم ونسائهم عقليةٌ خاصةٌ فيها سذاجةٌ وتصوّفٌ وغفلةٌ، وكان أكبر الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطريق.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السادس عشر

على أنَّ صِيَّنَا لم يلبث أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم لوئاً آخر جديداً، وهو علم السحر والطلاسم؛ فقد كان باعة الكتب يتنقلون في القرى والمدن بخليله من الأسفار، لعله أصدق مثل لعقيدة الريف في ذلك العهد؛ كانوا يحملون في حقائبهم: مناقب الصالحين، وأخبار الفتوح والغزوـات، وقصة القط والفار، وجوار السـلك والوابور، وشمس المعارف الكبرى في السـحر، وكتاباً آخر لـست أدرـي كـيف كان يـسمـى، ولكـنه كان يـعرف بـكتاب «الـدـيـرـيـبيـ»، ثم أوراداً مـختـلـفةـ، ثم قـصـصـ المـولـدـ النـبـويـ، ثم مـجمـوعـاتـ من الشـعـرـ الصـوـفيـ، ثم كـتـبـاـ فيـ الـوعـظـ والإـرـشـادـ، وأـخـرـيـ فيـ الـمـاحـضـراتـ وـعـجـائـبـ الـأـخـبـارـ، ثم قـصـصـ الـأـبـطـالـ منـ الـهـلـالـيـنـ وـالـزـنـاتـيـنـ، وـعـنـتـرـةـ، وـالـظـاهـرـ بـبـيرـسـ، وـسـيفـ بـنـ ذـيـ يـرـنـ، ثم القرآن الكريم مع هذا كلـهـ. وكان الناس يـشـتـرونـ هـذـهـ الـكـتـبـ كـلـهـ، وـيـلـتـهـمـونـ ماـ فـيهـاـ التـهـاماـ، وـكـانـ عـقـليـتـهـمـ تـتـكـوـنـ مـنـ خـلاـصـةـ ماـ كـانـواـ يـأـكـلـونـ وـيـشـرـبـونـ.

وقد قـرـئـ لـصـاحـبـناـ منـ هـذـاـ كـلـهـ فـحـفـظـ مـنـهـ الشـيءـ الـكـثـيرـ وـلـكـنهـ عـنـيـ بشـيـئـينـ عـنـاـيةـ خـاصـةـ: عـنـيـ بـالـسـحـرـ، وـعـنـيـ بـالـتـصـوـفـ. وـلـمـ يـكـنـ فـيـ الجـمـعـ بـيـنـ هـذـيـنـ الـلـوـنـيـنـ مـنـ الـعـلـمـ شـيءـ مـنـ الغـرـابةـ وـلـاـ مـنـ الـعـسـرـ؛ فـإـنـ التـنـاقـضـ الـذـيـ يـظـهـرـ بـيـنـهـمـ لـيـسـ إـلـاـ صـورـيـاـ فـيـ حـقـيقـةـ الـأـمـرـ، أـلـيـسـ الصـوـفـيـ يـزـعـمـ لـنـفـسـهـ وـلـلـنـاسـ أـنـهـ يـخـتـرـقـ حـجـبـ الـغـيـبـ، وـيـنـبـئـ بـمـاـ كـانـ وـمـاـ سـيـكـونـ، كـمـاـ أـنـهـ يـتـعـدـىـ حدـودـ الـقـوـانـينـ الطـبـيـعـيـةـ وـيـأـتـيـ بـضـرـوبـ الـخـوارـقـ وـالـكـرـامـاتـ؟ـ وـالـسـاحـرـ مـاـذـاـ يـصـنـعـ؟ـ أـلـيـسـ يـزـعـمـ لـنـفـسـهـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ الإـخـبـارـ بـالـغـيـبـ، وـتـجاـوزـ حدـودـ الـقـوـانـينـ الطـبـيـعـيـةـ أـيـضاـ، وـالـاتـصـالـ بـعـالـمـ الـأـرـواـحـ؟ـ بـلـ، كـلـ مـاـ يـوـجـدـ مـنـ الفـرقـ بـيـنـ السـاحـرـ وـالـصـوـفـيـ هـوـ أـنـ هـذـاـ يـتـصـلـ بـالـمـلـائـكـةـ، وـذـلـكـ يـتـصـلـ بـالـشـيـاطـيـنـ.ـ وـلـكـنـ يـجـبـ أـنـ

نقرأ ابن خلدون وأمثاله لِنَصلِّ إلى تحقيق مثل هذا الفرق، ونرتب عليه نتائجه الطبيعية من تحريم السحر والتغريب عنه، وتحبيب التصوف والتغريب فيه.



وما كان أبعد صبينا وأترابه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون! إنما كانت تقع في أيديهم كتب السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء، فيقرءون ويتأثرون، ثم لا يلبثون أن يتتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة، وإذا هم يسلكون مناهج الصوفية، ويأتون ما يأتيه السحرة من ضروب الفن، وكثيراً ما يختلط في عقولهم السحر والتصوف، فيصبح كلاهما شيئاً واحداً، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله. وكذلك كان الأمر في نفس صاحبنا، فقد كان يتصوّف ويتكلّف السحر، وهو واثق بأنه سيرضي الله، ويظفر من الحياة بأحب لذاتها إليه.

وكان من القصص التي تكثر في أيدي الصبيان يحملها إليهم باعة الكتب، قصة اقتطعت من «ألف ليلة وليلة» وتُعرف بقصة «حسن البصري»، في هذه القصة أخبار

ذلك المجنوسي الذي كان يحول النحاس ذهباً، وأخبار ذلك القصر الذي كان يقوم من وراء الجبل على عمود شاهقة في الهواء، وتقيم فيه بنات سبع من بنات الجن، والذي أوى إليه حسن البصري، ثم أخبار حسن هذا وما كان من رحلته الطويلة الشاقة إلى دور الجن، وبين هذه الأخبار خبر ملأ الصبي إعجاباً؛ وهو أن قضيماً أهدى إلى حسن هذا في بعض رحلته وكان من خواص هذا القضيماً أن تضرب به الأرض فتنشق ويخرج منها تسعة نفراً يأترون أمر<sup>١</sup> صاحب القضيماً، وهم بالطبع من الجن أقوياء خفاف يطيرون ويعدون، ويحملون الأثقال، ويقتلون الجبال، ويأتون من عجيب الأمر ما لا حد له. فُتن الصبي بهذه العصا، ورغم في أن يظفر بها رغبة شديدة قوية أرق<sup>٢</sup> ليله ونغضت يومه، فأخذ يقرأ كتب السحر والتصوف، يلتمس عند السحرة والمتصوفين وسيلة تمكّنه من هذه العصا.

وكان له قريب صبي مثله يرافقه إلى الكتاب، فكان أشد منه كلّاً بهذه العصا، وما هي إلا أن جدَّ الصبيان في البحث حتى انتهي إلى وسيلة يسيرة تمكّنها مما يريدان، وجداها في كتاب الديربني، وهي أن يخلو الفتى إلى نفسه وقد تظهر ووضع بين يديه ناراً ومقداراً من الطيب، ثم يأخذ في تردید هذا الاسم من أسماء الله «يا لطيف يا لطيف» ملقياً في النار شيئاً من الطيب من حين إلى حين، فيمضي في تردید هذه الكلمة وتحريق هذا الطيب، حتى تدور به الأرض، وينشق أمامه الحائط، ويتمثل أمامه خادم من الجن موكل بهذا الاسم من أسماء الله، فيطلب إليه ما يريده، وال الحاجة مقضية من غير شك. ظفر الصبيان بهذه الوسيلة، فاعتمذا أن يستخدمها، وما هي إلا أن اشتريا ضرورياً من الطيب، وخلا صبياناً إلى نفسه في المنظرة، أغلق بابها من دونه ووضع بين يديه قطعاً من النار وأخذ يلقي فيها الطيب، ويردد: «يا لطيف! يا لطيف!» وطال به هذا وهو ينتظر أن تدور به الأرض وينشق له الحائط ويمثل الخادم بين يديه، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، وهنا تحول صبياناً الساحر المتصوف إلى نصاب.

<sup>١</sup> ائتمر أمره: امتهله وعمل به.

<sup>٢</sup> الأرق: ذهاب النوم بالليل، والمراد أن هذه الرغبة الشديدة أرقته هو في ليله ونغضته في يومه، ولكن الكاتب قد سلك سبيل المجاز في الإسناد، فجعل التأريق واقعاً على الليل والتنغيص واقعاً على اليوم، ليدلّ على أن التأريق استغرق ليله كله وأن التنغيص استغرق يومه كله.

خرج من المنظرة مضطرباً يمسك رأسه بيديه ولا يكاد لسانه ينطلق بحرف واحد، فتلقاًه صاحبه الصبيُّ يسأله: هل لقي الخادم؟ وهل طلب إليه العصا؟ وصاحبنا لا يجيب إلا مضطرباً مرتجفاً، تصطك أسنانه اصطاكاً، حتى روع رفيقه الصبيُّ، وبعد لأيٍ<sup>٣</sup> أخذ صاحبنا يهدأ ويجيب في الفاظ متقطعة، وبصوت متهدج: «لقد دارت بي الأرض حتى كدتُ أسقط، وانشقَّ الحائط وسمعت صوتاً ملاً الحجرة من جميع نواحيها، ثم أغمي علىَّ، ثم أفقت فخرجت مسرعاً».

سمع الصبي هذا! فامتلاً فرحاً وإعجاباً بصاحبِه، وقال له: هون عليك؛ فقد أصابك الربع وملك الخوف عليك أمرك، فلنبحث في الكتاب عن شيء يؤمّنك ويشجعك على أن تثبت للخادم وتطلب منه ما تشاء. واستأنفا البحث في الكتاب، وانتهى بهما البحث إلى أنَّ صاحب الخلوة يجب أن يصلٍّ ركعتين قبل أن يجلس إلى النار ويأخذ في تردید هذا الاسم، وكذلك فعل الصبي من غده، وأخذ يلقي الطيب في النار ويردد دعاء «اللطيف» ينتظر أن تدور به الأرض، وينشق له الحائط، ويمثلُ الخادم بين يديه، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. وخرج الصبي إلى صاحبه هادئاً مطمئناً، فأخبره أن قد دارت الأرض وانشقَّ الحائط ومثلَّ الخادم بين يديه وسمع منه حاجة، ولكنه لم يشاً أن يجيئ إليها حتى يمرُّ على هذه الخلوة، ويكثر من الصلاة وإطلاق البخور وذكر الله، وضرب له موعداً لقضاء هذه الحاجة شهراً كاملاً يأتي فيه هذا الأمر في نظام؛ فإنْ فسد هذا النظام فلا بدًّ من استئناف الأمر شهراً كاملاً آخر. وصدق الصبي صاحبه، وأخذ يلُّح عليه في كل يوم أن يخلو إلى النار ويردد الدعاء. وأخذ الصبي يستغلُّ من صاحبه هذا الضعف، ويكلِّفه ما شاء من مشقة وعناء، فإنْ أبي أو أظهر الإباء أعلن إليه صاحبه أنه لن يخلو إلى النار، ولن يدعوه «اللطيف»، ولن يلتمس العصا؛ فيذعن إذعاً سريعاً.

على أن صاحبنا لم يكن يميل وحده إلى السحر والتتصوف، وإنما كان يدفع إلى ذلك دفعاً، يدفعه إليه أبوه؛ ذلك أنَّ الشيخ كان كثير الحاجات عند الله، كان له أبناءُ كثيرون، وكان يحرص على تعليمهم وتهذيبهم، وكان فقيراً لا يستطيع أن يؤدّي نفقات ذلك التعليم، وكان يستدين من حين إلى حين ويثقلُ عليه أداء الدين، وكان يطمع في أن يُزداد راتبه من حين إلى حين، وكان يطمع في أن يتقدّم درجةً ويتنقل من عملٍ إلى

<sup>٣</sup> بعد لأي: بعد بطءٍ واحتباس، أو بعد جهد.

عمل، وكان يلتمس هذا كله عند الله بالصلوة والدعاء والاستخارة، وكان أحب وسائل الالتماس إليه «عِدْيَة يَسٌ». وكان يطلب «عِدْيَة يَسٌ» هذه إلى ابنه الصبيٌّ؛ لأنَّه صبيٌّ ولأنَّه مكفوفٌ، وهو بهاتين المَزَيْتَيْنِ أَثْيُرٌ٤ عند الله رفيع المكانة عنده، وهل يرضى الله أن يرُدَّ صبيًّا مكفوِّفًا حين يطلب إليه أمراً من الأمور مُتوسلاً بقراءة القرآن!

وكانت «عِدْيَة يَسٌ» مَرَاتٌ: أولاً: أن يخلو الإنسان إلى نفسه فيقرأ هذه السورة من سور القرآن أربع مرات، ثم يطلب ما يشاء وينصرف. والثانية: أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة سبع مرات، ثم يطلب ما يشاء وينصرف. والثالثة: أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة إحدى وأربعين مرّة لا يفرُغ من قراءتها مرّة حتى يتبعها بدعاء يَسٌ: «يَا عُصْبَةَ الْخَيْرِ بِخَيْرِ الْمَلَلِ»، فإذا أتَمَ القراءة طلب ما شاء وانصرف. والبخار محظوم في هذه المرتبة الثالثة، وكان الشيخ يُكلِّف ابنه العَدِيَّة الصغرى في صغار الأمور، والوسطى في الأمور الهامة، والكبيرى في الأمور التي تمسُّ حياة الأسرة كلها؛ فإذا سعى في أن يُدخل أحد أبنائه في المدرسة مجاناً فالعَدِيَّة الصغرى، وإذا التمس إلى الله أداء دَيْنَ ثقيل فالعَدِيَّة الوسطى، وإذا رغب في أن ينتقل من عمل إلى عمل وأن يُزداد راتبه جنِيَّاً أو بعض الجنِيَّه فالعَدِيَّة الكبرى. وكان لكل عَدِيَّة أَجْرٌ: فَأَمَّا العَدِيَّة الصغرى فأجرها قطعةٌ من السكر أو الحلوى، وأَمَّا العَدِيَّة الوسطى فأجرُها خمسة مليمات، وأَمَّا العَدِيَّة الكبرى فأجرها عشرةٌ، وكثيراً ما خلا الصبي إلى نفسه وقرأ سورة يَسٌ أربعًا أو سبعًا أو إحدى وأربعين، ومن عجيب الأمر أن الحاجات كانت تُقضى دائمًا، وما هي إلا أن تَمَّ اقتناع الشيخ بأن ابنه مباركُ، وبأنه أثير عند الله.

ولم يكن أمر السحر والتتصوف مقصوراً على قضاء الحاجات والتنبؤ بما سينجي عنه الغيب، وإنما كان يتتجاوز هذا كله إلى دفع المكروه واتقاء النكبات. وقد نسي الصبيُّ أشياء كثيرة، ولكنه لم ينس هذا الرعب الذي ملأ قلوب الناس جميعاً في المدينة وما حولها من القرى؛ حين وصلت إليهم الأخبار من القاهرة بأن نجمًا ذا ذنب سيظهر في السماء بعد أيام؛ حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر مسَّ الأرض بطرف من ذنبه فإذا هي هشيمٌ تذروه الرياح. فَأَمَّا النساء وعامة الناس فلم يحفلوا بهذا أو لم يكادوا يحفلون به، وإنما كانوا يشعرون بشيء من الرعب كلما تحدثوا بهذه النازلة أو سمعوا

<sup>٤</sup> أثيرٌ عند الله: مقرب مكرم.

<sup>٥</sup> الهشيم: اليابس المتكسر من النبات والشجر.

الحديث عنها، ثم لا يلبيثون أن ينصرفوا إلى ما هم فيه من حياة عملية. وأما المتفقهون في الدين وحملة القرآن وأصحاب الطرق وتلاميذهم فكانوا هَلِعِينَ<sup>٦</sup> مروعيين حقاً، لا تكاد تستقر قلوبهم بين جنوبهم، وكانوا يتحاورون<sup>٧</sup> في ذلك تحاوراً مُتَّصلًا؛ فمنهم من يزعم أن هذه الكارثة لن تقع؛ لأنها مخالفة لما عرف من أشرطة<sup>٨</sup> الساعة، وما كان للأرض أن تفني قبل أن تظهر الدابة والنار والدجال، وقبل أن يهبط المسيح إلى الأرض فيملأها عدلاً بعد أن ملئت جوراً. ومنهم من كان يظن أن الكارثة من أشرطة الساعة. ومنهم من كان يتحدث بأن هذه الكارثة قد تقع فتصيب الأرض بشيء من التدمير دون أن تأتي عليها جميئاً. كانوا يتحاورون طول النهار، حتى إذا أقبل الليل وصَلَّيت المغرب اجتمعوا حلقاً في المسجد وأمام الدور، وأخذوا يُرِيدُون هذه الكلمة: ﴿أَرْزَقْتَ الْأَرْضَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، حتى تُصلَّى العشاء. وانقضت الأيام، وجاءت الساعة المحتومة، ولم يظهر في السماء نجم ذو ذنب، ولم يُصِب الأرض دمار قليل ولا كثير؛ فانقسم المتفقهون في الدين وحملة القرآن وأصحاب الطرق: فاما أهل العلم الذين يستمدون علمهم من الكتب وينتمون<sup>٩</sup> إلى الأزهر فانتصروا، وقالوا: «ألم نقل لكم: إن هذه الكارثة لا يمكن أن تقع قبل أن تظهر أشرطة الساعة؟ ألم ندعكم إلى تكذيب المنجمين؟» وأما حملة القرآن فقالوا: «كلاً! لقد كادت تقع الكارثة لو لا أن لطف الله بالرَّضُّع والحوامل والبهائم، وسمع لدعاء الداعين، وتضرع المتضرعين». وأما أهل التصوف والعلم اللُّدُنِي ف قالوا: «كلاً! لقد كادت تقع الكارثة لو لا أن توسط القطب المُتَوَلِّ بين الناس والله، فصرف عن الناس هذا البلاء، واحتمل عنهم أوزارهم».<sup>١٠</sup>

وأنت تستطيع أن تقول: إن هذا الدافع الذي كان يدفع الناس إلى التحصن من «الخمسين» كان سحرًا أو تصوفاً، أما أنا فلا أستطيع إلا أن أحذّك بما يذكر الصبي من أن الأيام التي كانت تسبق أيام شم النسيم كانت أيامًا غريبة؛ يختال فيها قلوب النساء والصبيان وحملة القرآن شيء من الفرح والخوف، كانوا إذا أظلمهم يوم الجمعة

<sup>٦</sup> هَلِعِينَ: جَزِيعِينَ أَشَدُ الْجَزْعِ، وَالْجَزْعُ: ضَدُ الصَّبْرِ. وَمَرْوِعِينَ: مَفْزِعِينَ خَائِفِينَ.

<sup>٧</sup> يتحاورون: يراجعون الكلام بينهم.

<sup>٨</sup> أشرطة الساعة: علامات قيامها.

<sup>٩</sup> ينتمون: ينتسبون.

<sup>١٠</sup> الأوزار: الآثم والذنوب، الواحد وزير بكسر فسكون.

أسرفوا في الأكل وفي ألوان خاصة من الطعام، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا في أكل البيض الملوّن. وكان الفقهاء قد استعدوا لهذا اليوم استعداداً خاصاً فاشتروا ورقة أبيض صقيلاً، وقطعوه قطعاً صغاراً دققاً وكتبوا على كل قطعة «اللهم ص» ثم يطونون هذه القطع ويمليئون بها جيوبهم، حتى إذا كان يوم السبت <sup>الموافق بالدور</sup><sup>١١</sup> كانوا يتصلون بها، ففرقوا هذه القطع من الورق على أهلها، وطلبوا إلى كل واحد أن يبتلع منها أربعاً قبل أن يُلم <sup>١٢</sup> بطعم أو شراب، وكانوا يزعمون للناس أنَّ ابتلاع هذه القطع من الورق يصرف عنهم ما تأتي به «الخمسين» من المكره، ويصرف عنهم الرَّمَد بنوع خاص. وكان الناس يصدقونهم ويتبعون هذا الورق و يؤدون إلى الفقهاء ثمنه بيضاء أحمر وأصفر. وليس يدرى الصبي ماذا كان يصنع سيدنا بما كان يجتمع له من البيض في يوم سبت النور؛ فقد كان كثيراً يتجاوز المثاث، على أنَّ استعداد الفقهاء لهذا اليوم لم يكن يقف عند إعداد هذه القطع من الورق، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى شيء آخر: كانوا يشترون الورق الأبيض الصقيل، ويقطعونه قطعاً طويلاً عريضاً بعض العرض، ويكتبون عليها مُخْلَفات النبي:

**مُخَلَّفُ طه سُبْحَاتِنْ وَمُصَحَّفُ وَمُكْحَلَّةُ سَجَادَاتِنْ رَحِيْ عَصَا**

حتى إذا فرغوا من هذه المخلفات أضافوا إليها دعاء آخر يبتدئ بهذه الكلمات التي كان الفقهاء يقولون إنها سريانية: «دبى دبندى، كرى كرندى، سرى سرندى، سبرى سبريتونا، واحسبيوا البعيد عننا لا يأتينا، والقريب منا لا يؤذينا ... إلخ.» ثم يطونون هذه الأوراق على أنها حجب وتمائم، يفرقونها في البيوت على النساء والصبيان، ويتقاضون أثمانها دراهم وخبزاً وفطيراً وضروباً من الحلوي، ويزعمون للناس أنَّ اتخاذ هذه التمائيم والحجب يدفع عنهم أذى هذه الشياطين التي تحملها رياح الخمسين. وكان النساء يتلقين هذه الحجب مطمئناتٍ إليها، ولكن ذلك لم يكن يمنعهن من اتقاء العفاريت يوم شم النسيم بشق البصل وتعليقه على أبواب الدور، وأكل الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام في هذا اليوم.

<sup>١١</sup> الموافق بالدور هنا: زاروها.

<sup>١٢</sup> أي قبل أن يُصيب منه.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السابع عشر

وأراد الله أن يُشْقِي «سَيِّدُنَا» بِتَلْمِيذه شَقَاءً غَيْرَ قَلِيلٍ؛ فلم تَكُفْه تِلْكَ الْحَوَادِثُ الَّتِي كَانَتْ تَحْدُثُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ عِنْدَمَا كَانَ الشَّيْخُ يَمْتَحِنُ الصَّبِيَّ، وَلَمْ تَكُفْه هَذِه النَّكَبَاتُ الْمُتَصَلَّةُ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْ عَنْيَةِ الصَّبِيِّ بِحَفْظِ الْأَلْفَيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنِ الْمَقْوِنِ، وَجَعَلَتِ الصَّبِيُّ ثَقِيلًا سَمْجًا يَتَعَالَى عَلَى أَطْرَابِه وَعَلَى سَيِّدِه، وَيُرَى لِنَفْسِه مَكَانَةُ الْعِلْمَاءِ، وَيَعْصِي أَوْامِرَ الْعَرِيفِ، لَمْ يَكُفِه هَذَا كُلُّهُ، بَلْ كَانَتْ نَكَبَةُ أُخْرَى لَمْ يَكُنْ الرَّجُلُ يَنْتَظِرُهَا حَقًّا، وَكَانَتْ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ النَّكَبَاتِ الْأُخْرَى؛ لَأَنَّهَا مَسَّتْهُ فِي صَنَاعَتِهِ، ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْقَاهِرَةِ هَبَطَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي يَوْمٍ مِنِ الْأَيَّامِ عَلَى أَنَّهُ مُفْتَشٌ لِلطَّرِيقِ الزَّرَاعِيِّ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ فِي مَوْتَسِطِ عُمْرِهِ، وَكَانَ «مَطْرِبِشَا» يَتَكَلَّمُ فِي الْفَرَنْسِيَّةِ، وَكَانَ يَقُولُ إِنَّهُ تَخْرُجٌ فِي مَدْرَسَةِ الْفَنُونِ وَالصَّنَائِعِ، وَكَانَ خَفِيفُ الظَّلِّ جَذَابًا، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَحَبَّهُ النَّاسُ وَدَعَوْهُ إِلَى دُورِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ، وَمَا لَبِثَ أَنْ اتَّصَلَتِ الْمَوْدَةُ بَيْنِهِ وَبَيْنِ أَبِيهِ الصَّبِيِّ.

وَكَانَ قَدْ رَتَبَ سَيِّدُنَا فِي بَيْتِهِ يَقْرَأُ لَهُ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَجَعَلَ لَهُ عَشْرَةَ قَرُوشًا فِي كُلِّ شَهْرٍ، وَهُوَ الْأَجْرُ الْمُرْتَقِعُ الَّذِي كَانَ يَدْفَعُهُ وَجْهُ النَّاسِ، فَكَانَ سَيِّدُنَا مُحِبًّا لِهَذَا الرَّجُلِ مُثْتَنِيًّا عَلَيْهِ. وَلَكِنَّ رَمَضَانَ أَقْبَلَ، وَكَانَ النَّاسُ يَجْتَمِعُونَ فِي لِيَالِيِّ رَمَضَانَ عَنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَجِيَّهٍ يَعْمَلُ فِي التَّجَارَةِ، وَكَانَ سَيِّدُنَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَنْهُ هَذَا الرَّجُل طَوَالَ الشَّهْرِ، وَكَانَ الصَّبِيُّ يَرَافِقُ سَيِّدُنَا وَيَرِيْحَهُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ بِقِرَاءَةِ سُورَةِ أَوْ جَزِءِ مَكَانَهُ، فَقَرَأَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَسَمِعَهُ هَذَا المُفْتَشُ، فَقَالَ لِأَبِيهِ: إِنَّ ابْنَكَ لِشَدِيدِ الْحاجَةِ إِلَى تَجْوِيدِ الْقُرْآنِ. قَالَ الشَّيْخُ: سَيُجَوَّدُهُ مَتَى ذَهَبَ إِلَى الْقَاهِرَةِ عَلَى شِيخٍ مِنْ شِيوخِ الْأَزْهَرِ. قَالَ المُفْتَشُ: فَإِنَا أَسْتَطِعُ أَنْ أَجُودَ لَهُ الْقُرْآنَ عَلَى قِرَاءَةِ حَفْصٍ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ

إلى الأزهر كان قد ألمَ بأصول التجويد<sup>١</sup>، وسهل عليه أن يفرغ للقراءات السبع أو العشر أو الأربع عشرة. قال الشيخ: وهل أنت من حملة القرآن؟ قال المفتش: ومن المُجودين، ولو لا أنني مشغول لاستطعت أن أقرئ ابنك القرآن على الروايات جميعاً، ولكنني أحب أن أخصص له ساعة في كل يوم فأقرئه رواية حفص، وأدرّس له أصول الفن، وأعدّه بذلك للأزهر إعداداً صحيحاً. قال القوم: وكيف لمطربِش يتكلم الفرنسيبة بحفظ القرآن ورواية القراءات؟ قال المفتش: أنا أزهري تقدّمت في دراسة العلوم الدينية إلى مدى بعيد، ثم انصرفت عنها إلى المدارس، فتخرّجت في مدرسة الفنون والصناعات. قالوا: فاقرأ لنا شيئاً! فنزع الرجل نعليه وترّبّع ورثّل لهم سورة هود ترتيلًا ما سمعوا مثله، فلا تسأل عن إعجابهم به وإنك بارهم إيه، ولا تسأل عما أصاب سيدنا من الحزن والغيظ؛ فقد قضى الرجل ليته كأنه مصعوق<sup>٢</sup>.

وأصبح الشيخ فأمر ابنه بأن يختلف<sup>٣</sup> إلى بيت المفتش في كل يوم، وفرح الصبيُّ بهذا فرحاً شديداً، فأعاده على أترابه في الكتاب وتحدّث به الصبيان، ولا تسأل عن مقدار ما كان يترك هذا الحديث في نفس سيدنا من الحزن؛ فقد نهرَ الصبيُّ وأمره ألا يذكر اسم المفتش مرة في الكتاب.

وذهب الصبيُّ إلى بيت المفتش، واتصل ذهابه إلى هذا البيت، وأقرأه المفتش «تحفة الأطفال»، وشرح له أصول التجويد؛ علمَه المد والغن والإخفاء والإدغام وما يتصل بهذا كلّه. وكان الصبي معجبًا بهذا العلم، وكان يتحدث به إلى أترابه في الكتاب، وكان يبين لهم أن سيدنا لا يحسن المد ولا يتقن الغن، ولا يعرف الفرق بين المد الكلمي والحرفي، ولا بين المد المثلث والمخفف، وكانت أصداء هذا كله تصل إلى سيدنا فتغممه وتحزنه وتخرجه أحياناً عن طوره.

وأخذ الصبي يقرأ القرآن على المفتش من أوله، وأخذ المفتش يُعلّمه مواضع الوقف والوصل، وأخذ الصبي يقلد المفتش في ترتيله ويعاكِي نَغْمه، وأخذ يقرأ القرآن على هذا

<sup>١</sup> ألمَ بأصول التجويد: عرفها.

<sup>٢</sup> مصعوق: أصابته صاعقة.

<sup>٣</sup> يختلف هنا: يتردّد.

<sup>٤</sup> نهره: زجره.

النحو في الكتاب، وجعل أبوه يمتحنه، فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أُعجب وطرب وأثنى على المفتّش. وما كان شيء يغيب سيدنا مثلما كان يغيبه هذا الثناء. وقضى الصبي سنة كاملة يتردّد على هذا البيت، ويقرأ القرآن على المفتّش، حتى أتقن التجويد برواية حفص، وكاد يبدأ في رواية ورش لولا أن حدث حادث وسافر الصبي إلى القاهرة.

أكان الصبي يحب الاختلاف إلى هذا البيت لأنّه كان يعجب بالمفتش، ولأنّه كان يحرص على إتقان القرآن وتجويده، وعلى أن يغيب سيدنا ويظهر التفوق على أترابه؟ نعم! في الشهرين الأوّلين من هذه السنة، فأمّا بعد هذين الشهرين فقد كان يجذبه إلى بيت المفتّش ويرحب به فيه شيء آخر!

كان المفتّش متوسط العمر قد بلغ الأربعين إن لم يكن قد جاوزها، وكان قد تزوج من فتاة لم تبلغ السادسة عشرة، ولم يكن له ولد، ولم يكن يعمر بيته الكبير إلا هذه الفتاة وجدة لها قد جاوزت الخمسين. فأما حين بدأ الصبي يختلف إلى هذه الدار فقد كان يذهب ويعود دون أن يلتقي إليه أحد غير المفتّش، وما هي إلا أن كثر تردد الصبي حتى أخذت الفتاة تتحدث إليه وتسأله عن نفسه وعن أمّه وعن إخواته وعن داره، وأخذ الصبي يجيبها مستحيياً، ثم متسبطاً، ثم مطمئناً. واتصلت بين هذه الفتاة وهذا الصبي مودة سازجة كانت حلوة في نفس الصبي لذيذة الموضع في قلبه، وكانت ثقيلة على نفس هذه الشيخة، وكان المفتّش يجهلها جهلاً تاماً.

وأخذ الصبي يذهب إلى دار المفتّش قبل الميعاد ليظفر بساعة أو بعض ساعة يتحدث فيها إلى هذه الفتاة، وأخذت الفتاة تنتظره، حتى إذا أقبل أخذته إلى غرفتها، فجلست وأجلسته وتحدثاً. وما هي إلا أن استحال الحديث إلى لعب — إلى لعب كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل — ولكنه كان لعباً لذيذًا. وقصص الصبي هذا كله على أمّه، فضحت ورثت الفتاة قائلة لأخت الصبي: طفلة زوجت من هذا الشيخ لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد، فهي ضيقة الصدر في حاجة إلى الله والعبث.

ومن ذلك اليوم سعت أم الصبي في التعرّف إلى هذه الفتاة، ودعّتها إلى البيت وإلى أن تكثر التردد عليها.

<sup>٥</sup> رثت الفتاة: رحّمتها ورقت لها.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثامن عشر

وكذلك اتصلت أيام الصبي بين البيت والكتاب والمحكمة والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر، لا هي بالحلوة ولا هي بالمرأة، ولكنها تحلو حيناً وتتمُّر حيناً آخر، وتمضي فيما بين ذلك فاترة سخيفة. حتى كان يوم من الأيام ذاق الصبي فيه الألم حقاً، وعرف منذ ذلك أن تلك الآلام التي كان يشقى بها ويكره من أجلها الحياة لم تكن شيئاً، وأن الدهر قادر على أن يؤلم الناس ويؤذيهم، ويحجب إليهم الحياة ويهون من أمرها على نفوسهم في وقتٍ واحدٍ. كانت للصبي أختٌ هي صغرى أبناء الأسرة، كانت في الرابعة من عمرها، كانت خفيفة الروح طلقة الوجه فصيحة اللسان عذبة الحديث قوية الخيال. كانت لهو الأسرة كلها، كانت تخلو إلى نفسها ساعات طوالاً في لهوٍ وعبثٍ؛ تجلس إلى الحائط فتحدث إليه كما تتحدث أمها إلى زائرتها، وتبعث في كل اللعب التي كانت بين يديها روحًا قوياً وتنسب إليها شخصية؛ فهذه اللعبة امرأة، وهذه اللعبة رجل، وهذه اللعبة فتى، وهذه اللعبة فتاة، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعاً تذهب وتجيء، وتصل بينها الأحاديث مرّةً في لهوٍ وعبثٍ، وأخرى في غيظٍ وغضبٍ، ومرةً ثالثةً في هدوءٍ واطمئنانٍ، وكانت الأسرة كلّها تجد لذةً قويةً في الاستماع إلى هذه الأحاديث والنظر إلى هذه الألوان من اللعب دون أن ترى الطفلة، أو تستمع، أو تحسّ أن أحداً يرقبها.

فما هي إلا أن أقبلت بوادر عيد الأضحى في سنة من السنين، وأخذت أمُّ الصبي تستعد لهذا العيد؛ تهيئ له الدار وتعد له الخبز وألوان الفطير. وأخذ إخوة الصبي يستعدون لهذا العيد؛ يختلف كبارهم إلى الخياط حيناً، وإلى الحذاء حيناً آخر، ويلهوا

صغارهم بهذه الحركة الطارئة على الدار، فينظر صبينا إلى أولئك وهؤلاء في شيء من الفلسفة كان قد تعوده؛ فلم يكن في حاجة إلى أن يختلف إلى خيّاط أو حذاء، وما كان ميلاً إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة، وإنما كان يخلو إلى نفسه ويعيش في عالم من الخيال يستمد من هذه القصص والكتب المختلفة التي كان يقرؤها فيُسرفُ في قراءتها.

أقبلت بوادر هذا العيد، وأصبحت الطفلة ذات يوم في شيء من الفتور والهمود لم يك يلتفت إليه أحد. والأطفال في القرى ومدن الأقاليم معزّضون لهذا النوع من الإهمال، ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد، وربّة البيت كثيرة العمل. ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها إثماً، يشكون الطفل، وقلما تعني به أمه... وأيُّ طفل لا يشكون؟ إنما هو يوم وليلة ثم يُفيق وَيُبِلُّ<sup>١</sup>، فإن عنيت به أمه فهي تزدرى الطبيب أو تجهله، وهي تعتمد على هذا العلم الآثم؛ علم النساء وأشباه النساء. وعلى هذا النحو فقد صبيُّنا عينيه؛ أصابه الرمد فاَهْمَلَ أياماً، ثم دُعِيَ الحلاقُ فعالجه علاجاً ذهب بعينيه. وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة؛ ظلت فاترَةً هامدةً محمومةً يوماً ويوماً، وهي ملقة على فراشها في ناحية من نواحي الدار، تُعْنِي بها أمها أو أختها من حين إلى حين، تدفع إليها شيئاً من الغذاء، الله يعلم أكان جيداً أم رديئاً؟ والحركة متصلة في البيت؛ يُهياً الخبز والفطير في ناحية، وتتنفس المنظرة وحجرة الاستقبال في ناحية أخرى، والصبيان في لهوهم وعبثهم، والشبان في ثيابهم وأحذيتهم، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه آخر النهار وأول الليل.

حتى إذا كان عصر اليوم الرابع وقف هذا كله فجأة، وقف وعرفت أم الصبي أن شبحاً مخيفاً يحلق على هذه الدار، ولم يكن الموت قد دخل هذه الدار من قبل، ولم تكن هذه الأمُّ الحنون قد ذاقت لذعَ الألم الصحيح، نعم! كانت في عملها وإذا الطفلة تصيح صيحاً منكراً، فتدعُ أمها كلَّ شيء وتسرع إليها، والصياح يتصل ويُشتدُّ، والطفلة تتلوى وتتضطرّب بين ذراعي أمها، فيدعُ الشيخ أصحابه ويسرع إليها، والصياح يتصل ويُشتدُّ، والطفلة ترتعد ارتعاداً منكراً ويتبَّصَّ وجهها ويتصبّب العرق عليه، فينصرف الصبيان والشبان عما

<sup>١</sup> أبلَّ من مرضه: شُفِيَ منه.

هم فيه من لهو وحديث ويسرعن إليها، ولكن الصياح لا يزداد إلا شدة، وإذا هذه الأسرة كلها واجمة مبهوتة<sup>٢</sup> محيطة بالطفلة لا تدري ماذا تصنع! ويُتَّصل ذلك ساعة وساعة، فاماً الشيخ فقد أخذه الضعف الذي يأخذ الرجال في مثل هذه الحال، فينصرف مُهْمِهِماً<sup>٣</sup> بصلوات وأيات من القرآن يتولى بها إلى الله، وأماً الشبان والصبيان فيتسللون في شيء من الوجوم لا يكادون ينسون ما كانوا فيه من لهو وحديث ولا يكادون يستأنفونه، هم كذلك حيَّارَى في الدار! وأمهم جالسة واجمة تحدق في ابنتها وتستقيها ألواناً من الدواء لا أعرف ما هي، والصياح متصل مشتد، والاضطراب مستمر متزايد.

ما كنت أحسب أنَّ في الأطفال — ولَا يتجاوزوا الرابعة — قوَّةً تعدل هذه القوة. وتأتي ساعَة العَشَاء وقد مَدَّت المائدة، مَدَّتها كبرى أخوات الصبي، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا إليها، ولكنَّ صياح الطفلة متصل، فلا تُمْدِد إلى طعام، وإنما يتفرقون جميعاً، وترفع المائدة كما مَدَّت، والطفلة تصيح وتتضطرب، وأمها تحدق إليها حيناً وتبتسط يدها إلى السماء حيناً آخر، وقد كشفت عن رأسها وما كان من عادتها أن تفعل! ولكن أبواب السماء كانت قد أغلقت في ذلك اليوم، فقد سبق القضاء بما لا بُدَّ منه، فيستطيع الشيخ أن يتلو القرآن، و تستطيع هذه الأم أن تتضرع، ومن غريب الأمر أن أحداً من هؤلاء الناس جميعاً لم يفكر في الطبيب، وتقدم الليل وأخذ صياح الفتاة يهدأ، وأخذ صوتها يخفت،<sup>٤</sup> وأخذ اضطرابها يخفُّ، وحُلِّي إلى هذه الأم التعرُّسَةَ أن قد سمع الله لها ولزوجها، وأن قد أخذت الأزمة<sup>٥</sup> تنحلُّ. وفي الحق أنَّ الأزمة كانت قد أخذت تنحلُّ، وأن الله كان قد رأف بهذه الطفلة، وأن خُوفَّ الصوت وهدوء هذا الاضطراب كانا آيتين هذه الرأفة. تنظر الأم إلى ابنتها فيخيل إليها أنها ستنام، ثم تنتظر فإذا هدوء متصل لا صوت ولا حركة، وإنما هو نفس خفيف شديد الخفة يتَرَدَّد بين شفتين مفتوحتين قليلاً، ثم ينقطع هذا النفس وإذا الطفلة قد فارقت الحياة.

ما زالت علتها؟ كيف ذهبت بحياتها هذه العلة؟ الله وحده يعلم هذا.

<sup>٢</sup> واجمة: عابسة مطرقة لشدة الحزن. ومبهوتة: مُتحيرة.

<sup>٣</sup> المهمة: الكلام الخفي.

<sup>٤</sup> يخفت: يضُعُّف ويسكن.

<sup>٥</sup> الأزمة: الشدة.

وهنا يرتفع صياح آخر ويتصل ويشتد، وهنا يظهر اضطراب آخر ويتصل ويشتد، ولكنه ليس صياح الطفلة ولا اضطرابها، وإنما هو صياح هذه الأم وقد رأت الموت، واضطرابها وقد أحست <sup>٦</sup> الثكل. وإذا الشبان والصبيان قد فزعوا إلى أمّهم وسبقهم إليها الشيخ، وإذا هي في جزء وهلع ينطلق لسانها بألفاظ لا صلة بينها، ويقطع الدمع صوتها تقليعاً، وإذا هي تلطم خديها في عنف متصل، وزوجها ماثل أمامها لا ينطق لسانه بحرف، وإنما تنهر دموعه انهماراً، وإذا الجارات والجيران قد سمعوا هذا الصياح فأقبلوا مسرعين. فاما الشيخ فينصرف إلى الرجال يتقبل عزاءهم في قوة وجده. وأما الشبان والصبيان فيتفرقون في الدار، قد قست قلوب بعضهم فنام، ورققت قلوب بعضهم فسهر، وأما الأم ففيما هي فيه من جزء وهلع، أمامها ابنتها هامدة جامدة، تولول <sup>٧</sup> وتخمش وجهها وتتصك صدرها، ومن حولها بناتها وجاراتها يصنعن صنيعها؛ يولولن ويختشن الوجوه وييُصْكُن الصدور حتى ينقضي الليل كله.

وما أشد نُكُر هذه الساعة التي أقبل فيها بعض الناس واحتملوا الطفلة ومضوا بها إلى حيث لا تعود! كان ذلك اليوم يوم الأضحى، وكانت الدار قد هيئت للعيد، وكانت الضحايا قد أعدت، فيها له من يوم! ويَا لها من ضحايا! ويَا نكرها من ساعة حين عاد الشيخ إلى داره مع الظهر وقد وارى ابنته في التراب!

منذ ذلك اليوم اتّصلت الأوّاصر <sup>٨</sup> بين الحزن وبين هذه الأسرة؛ فما هي إلا أشهر حتى فقد الشيخ أباه الهرم، وما هي إلا أشهر أخرى حتى فقدت أمُّ الصبي أمّها الفانية. <sup>٩</sup> وإنما هو حِداداً <sup>١٠</sup> متصل وألم يقفوا <sup>١١</sup> ببعضه بعضًا، منه اللاذع ومنه الهادئ، حتى كان هذا اليوم المنكر الذي لم تعرف الأسرة يوماً مثله، والذي طبع حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها، والذي ابىض له شعر الآبوبين جميعاً، والذي قضى على هذه الأم أن تلبس

<sup>٦</sup> الثكل: الموت والهلاك، وفقدان الحبيب أو الولد.

<sup>٧</sup> الولولة: الإعوال والبكاء. الخمس: اللطم والضرب. والصك هنا: الضرب الشديد.

<sup>٨</sup> الأوّاصر هنا: العلاقات والصلات.

<sup>٩</sup> الفانية: التي بلغت أرذل العمر.

<sup>١٠</sup> حَدَّت المرأة، تَحَدَّت المرأة تَحَدُّ - كضرب ونصر - حَدًّا وحداداً: تركت الزينة لموت زوج أو حبيب، والمراد بالحداد هنا: الحزن.

<sup>١١</sup> يقفون: يتبعون.

السوداد إلى آخر أيامها، وألأ تذوق للفرح طعمًا، ولا تضحك إلّا بكت إثْرَ ضَحِكَها، ولا تنام حتى تريق بعض الدموع، ولا تُفْقِي من نومها حتى تريق دموًّا أخرى،<sup>١٢</sup> ولا تَطْعَمْ فاكهة حتى تُطِعِّمَ منها الفقراء والصبيان، ولا تبتسم لعید، ولا تستقبل يوم سرور إلا وهي كارهة راغمة.

كان هذا اليوم يوم ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢، وكان الصيف منكراً في هذه السنة، وكان وباء الكوليرا قد هبط إلى مصر ففتَّ أهلها فتكاً ذريعاً،<sup>١٣</sup> ودمَّر مدنَا وقرى، ومحاً أُسراً كاملة. وكان «سيِّدنا» قد أكثَرَ من الحُجُبِ وكتابَةِ المُخْلَفاتِ، وكانت المدارس والكتاتيب قد أُقْفلَتْ، وكان الأطباء ورُسُلُ مصلحة الصحة قد ابْتَثَوا<sup>١٤</sup> في الأرض ومعهم أدواتهم وخيماتهم يحيجنون فيها المرضى، وكان الهلع قد ملأ النفوس واستثار بالقلوب، وكانت الحياة قد هانت على الناس، وكانت كل أسرة تتحدث بما أصاب الأسر الأخرى وتنتظر حظها من المصيبة. وكانت أمُّ الصبي في هلع مستمرٍ، وكانت تسأل نفسها ألف مرة في كل يوم بمن تنزل النازلة من أبنائهما وبناتها! وكان لها ابن في الثامنة عشرةَ جميل المنظر رائع الطلعة، نجيب ذكيُّ القلب، وكان أئْجُوب الأُسْرَةِ وأذكَاهَا وأرْقَهَا قليلاً، وأصفها طبعاً، وأبَرَّها بآمه، وأرافقها بِصغارِ إخوته وأخواته، وكان مبتهجاً دائمًا، وكان قد ظفر بشهادة «البكالوريا» وانتسب إلى مدرسة الطب، وأخذ ينتظِر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة، فلما كان هذا الوباء، اتصل بطبيب المدينة وأخذ يرافقه، ويقول: إنه يتمنى على صناعته، حتى كان يوم ٢١ أغسطس.

أقبل الشاب آخر هذا اليوم كعادته باسماً، فلاظف أمه وداعبها وهدأً من رُؤُوها، وقال: لم تُصب المدينة اليوم بأكثر من عشرين إصابة، وقد أخذت وطأة الوباء تخفُّ. ولكنه مع ذلك شكا من بعض الغثيان،<sup>١٥</sup> وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحدثه كعادته، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقاهم إلى حيث كان يذهب معهم في كل يوم عند شاطئ الإبراهيمية. فلما كان أول الليل عاد وقضى ساعة في ضحك وعبث مع إخوته، وفي هذه الليلة زعم لأهل

<sup>١٢</sup> الإراقَةُ: الصُّبُّ، يُرِيدُ حينها تذرف دموًّا غزيرَة.

<sup>١٣</sup> ذريعاً: سريعاً فاشياً.

<sup>١٤</sup> ابْتَثَوا: انتشروا.

<sup>١٥</sup> غثَت النفس غثيَاً وغثيَاً: خبَثَتْ واضطربتْ حتى تکاد تتقيأ.

البيت جمِيعاً أَنْ فِي أَكْلِ الثُّومِ وَقَايَةً مِنَ الْكُولِيرَا، وَأَكْلِ الثُّومِ وَأَخْذِ كَبَارَ إِخْوَتِهِ وَصَغَارَهُمْ بِالْأَكْلِ مِنْهُ، وَحَاوَلَ أَنْ يُقْنِعَ أَبُوهِيهِ بِذَلِكَ فَلَمْ يُؤْفَقْ.

وَكَانَتِ الدَّارُ هَادِئَةً مُغْرِقَةً فِي النَّوْمِ كَبَارُهَا وَصَغَارُهَا وَحِيوانُهَا عِنْدَمَا انتَصَفَ اللَّيلُ، وَلَكِنَّ صِيَحةً غَرِيبَةً مَلَأَتْ هَذَا الْجَوَّ الْهَادِئَ، فَهَبَ<sup>١٦</sup> لَهَا الْقَوْمُ جَمِيعًا. فَأَمَّا الشَّيخُ وَزَوْجَتِهِ فَكَانَا فِي هَذَا الدَّهْلِيزَ الْمُبَسَطِ الَّذِي تَظَلَّلُهُ السَّمَاءُ يَدْعُونَ أَبْنَاهُمَا بِاسْمِهِ. وَأَمَّا الشَّبَانُ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ فَكَانُوا يَتَبَعُّونَ مِنْ فَرَاشَهُمْ مُسْرِعِينَ إِلَى حِيثُ الصَّوْتِ. وَأَمَّا الصَّبِيَّانُ فَكَانُوا يَجْلِسُونَ يَحْكُّونَ أَعْيُنَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ يَحَاوِلُونَ أَنْ يَتَبَيَّنَوْا فِي شَيْءٍ مِنَ الْهَلْعِ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي الصَّوْتُ وَمَاذَا كَانَتِ الْحَرْكَةُ الْغَرِيبَةُ؟!

وَكَانَ مَصْدَرُ هَذَا كَلْهَ صَوْتُ هَذَا الْفَتِيِّ وَهُوَ يَعَالِجُ الْقَيَّ. وَكَانَ الْفَتِيُّ قَضَى سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ يَخْرُجُ مِنَ الْحَجَرَةِ عَلَى أَطْرَافِ قَدَمِيهِ وَيَمْضِي إِلَى الْخَلَاءِ لِيَقِيءَ مَجْتَهِدًا لَا يَوْقُظُ أَحَدًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْعَلَةُ مِنْهُ أَقْصَاهَا لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقِيءَ فِي لَطْفٍ، فَسَمِعَ أَبُوهَا هَذِهِ الْحَشْرَجَةَ فَفَزَعَ لَهَا، وَفَزَعَ مَعَهُمَا أَهْلَ الدَّارِ جَمِيعًا.

إِذْنَفَدَ أَصْبَابُ الشَّابِ، وَوَجَدَ الْوَبَاءَ طَرِيقَهُ إِلَى الدَّارِ، وَعَرَفَتْ أُمُّ الْفَتِيِّ بِأَبْنَائِهَا تَنْزَلُ النَّازِلَةَ. لَقَدْ كَانَ الشَّيخُ فِي تِلْكَ الْلَّيْلَةِ خَلِيقًا بِالْإِعْجَابِ حَقًّا، كَانَ هَادِئًا رَزِينًا مَرْوِعًا مَعَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَكَانَ فِي صَوْتِهِ شَيْءٌ يَدِلُّ عَلَى أَنَّ قَلْبَهُ مَفْطُورٌ، وَعَلَى أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ جَلْدٌ مَسْتَعْدٌ لِاحْتَمَالِ النَّازِلَةِ. آوَى ابْنَهُ إِلَى حَرْجَتِهِ، وَأَمَرَ بِالْفَصْلِ بَيْنِهِ وَبَيْنِ بَقِيَّةِ إِخْوَتِهِ، وَخَرَجَ مَسْرَعًا فَدَعَا جَارِيَّنَ مِنْ جِيرَانِهِ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّى عَادَ وَمَعَهُ الطَّبِيبَ.

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كَانَتْ أُمُّ الْفَتِيِّ مَرْوِعَةً جَلْدَةً مَؤْمَنَةً تُعْنَى بِابْنَهَا، حَتَّى إِذَا أَمْهَلَهُ الْقَيَّ خَرَجَتِ إِلَى الدَّهْلِيزَ فَرَفَعَتْ يَدَهَا وَوَجَهَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَفَنِيتْ فِي الدُّعَاءِ وَالصَّلَاةِ، حَتَّى تَسْمَعَ حَشْرَجَةُ الْقَيَّ فَتَسْرِعُ إِلَى ابْنَهَا تُسْنِدَهُ إِلَى صَدْرِهَا وَتَأْخُذُ رَأْسَهُ بَيْنِ يَدِيهِ، وَلِسَانُهَا مَعَ ذَلِكَ لَا يَكُفُّ عَنِ الدُّعَاءِ وَالْابْتِهَالِ.

وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحُولَ بَيْنَ الصَّبِيَّانِ وَالشَّبَانِ وَبَيْنَ الْمَرِيضِ، فَمَلَئُوا عَلَيْهِ الْحَجَرَةَ وَأَحَاطُوا بِهِ وَاجْمِينَ، وَهُوَ يَدْعَبُ أَمَّهُ كَلَمَا أَمْهَلَهُ الْقَيَّ، وَيَعْبِثُ مَعَ صَغَارِ إِخْوَتِهِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الطَّبِيبُ فَوَصَّفَ مَا وَصَفَ وَأَمَرَ بِمَا وَانْصَرَفَ عَلَى أَنْ يَعُودَ مَعَ الصَّبِحِ. لَزِمَّتْ

<sup>١٦</sup> هَبَ الْقَوْمُ: انتَبِهُمْ مِنَ النَّوْمِ.

أم الفتى حجرة ابنها، وجلس الشيخ قريباً من هذه الحجرة واجماً لا يدعوا ولا يصلّي ولا يجتب أحداً من الذين كانوا يتحدثون إليه.

وأقبل الصبح بعد لامي، وأخذ الفتى يشكو ألمًا في ساقيه، وأقبلت إليه أخواته يذلّنّ له ساقيه، وهو يشكو صائحاً مرّة كاتماً ألمه، ومرة أخرى القيءُ يُجهده ويخلع في الوقت نفسه قلب أبويه. وقضت الأسرة كلّها صباحاً لم تقضِ مثله قط؛ صباحاً واجماً مظلماً فيه شيءٌ مُفزعٌ مُرّوعٌ. فاماً خارج الدار فكان يزدحم بالناس، أقبلوا إلى الشيخ يواسونه. وأما داخل الدار فكان يزدحم بالنساء أقبلن يواسين أم الفتى. وكان الشيخ وزوجه عن أولئك وهؤلاء في شغل، وكان الطبيب يتربّد بين ساعة وساعة، وكان الفتى قد طلب أن يُبرق إلى أخيه الأزهري في القاهرة وإلى عمه في أعلى الإقليم، وكان يطلب الساعة من حين إلى حين ينظر فيها كأنه يتعرّجَ الوقت، وكأنه يشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشابَ وعمّه الشيخ، يا لها من ساعة مُنكرة، هذه الساعة الثالثة من الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢!

انصرف الطبيب من الحجرة يائساً، وكأنه قد أسرَ إلى رجلين من أقرب أصحاب الشيخ إليه بأنَ الفتى يُختَضر،<sup>١٧</sup> فأقبل الرجال حتى دخلا الحجرة على الفتى ومعه أمه، ظهرت في هذا اليوم لأول مرة في حياتها أمام الرجال.

والفتى في سريره يتضور؛<sup>١٨</sup> يقف ثم يُلقي بنفسه، ثم يجلس ثم يطلب الساعة، ثم يعالج القيء، وأمه واجمة، والرجلان يواسيانه وهو يجيبهما: لستُ خيراً من النبي، أليس النبي قد مات! ويدعوا أباه يريد أن يواسيه فلا يجيبه الشيخ، وهو يقوم ويقعد ويُلقي نفسه في السرير مرة ومن دون السرير مرة أخرى، وصبينا منزو في ناحية من هذه الحجرة، واجمُكثبْ دهشٍ يمزق الحزن قلبه تمزيقاً.

ثم ألقى الفتى نفسه على السرير وعجز عن الحركة، وأخذ يئن ألينا يخفُّ من حين إلى حين، وكان صوت هذا الأنين يبعد شيئاً فشيئاً، وإنَ الصبيَ ليُنسى كلَ شيء قبل أن ينسى هذه الآنة الأخيرة التي أرسلها الفتى نحوه ضئيلاً طويلاً ثم سكت. في هذه

<sup>١٧</sup> يختَضر: يحضره الموت.

<sup>١٨</sup> يتضور: يتلوّى.

اللحظة نهضت أمُ الفتى وقد انتهى صبرها وَوَهَى<sup>١٩</sup> جَلْدُها، فلم تك تقف حتى هَوَتْ<sup>٢٠</sup> أو كادت، وأسندتها الرجلان، فتمالكت نفسها وخرجت من الحجرة مطرقةً ساعية في هدوء، حتى إذا جاوزتها ابنته من صدرها شَكَاةً، لا يذكرها الصبيُّ إلا انخلع لها قلبَه انخلاغاً. واضطرب الفتى قليلاً، ومررت في جسمه رعدة تبعها سكت الموت. وأقبل الرجلان إليه فهياه وعَصَباه وألقيا على وجهه لثاماً، وخرجا إلى الشيخ، ثم ذُكِرَ أنَّ الصبيَّ مُنْزِوٍ في ناحية من نواحي الحجرة، فعاد أحدهما إليه فجذبه جذباً وهو ذاهل، حتى انتهى به إلى مكان بين الناس فوضعه فيه كما يُوضعُ الشيء.



<sup>١٩</sup> وهي: ضعف.

<sup>٢٠</sup> هَوَى: سقط.

وما هي إلّا ساعة أو بعض ساعةٍ حتّى هُيئ الفتى للدفن وخرج الرجال به على  
أعناقهم.

فيما للقضاء! ما كادوا يبلغون به باب الدار حتى كان أول من لقي النعش هذا العُمُر  
الشيخ الذي كان الفتى يتمهّل الموت دقائق ليراه.  
من ذلك اليوم استقر الحزن العميق في هذا الدار، وأصبح إظهار الابتهاج أو السرور  
بأيّ حدث منحوات شيئاً ينبعي أن يتجلّبه الشبان والأطفال جميّعاً.

من ذلك اليوم تَعَوَّدَ الشيخ ألا يجلس إلى غدائه ولا إلى عشاءه حتّى يذكر ابنه  
ويبيكيه ساعة أو بعض ساعة، وأمامه امرأته تُعينه على البكاء، ومن حوله أبناءه وبناته  
يحاولون تعزية هذين الأبوين فلا يبلغون منها شيئاً، فِيُجْهِشُونَ جميّعاً بالبكاء<sup>٢١</sup>.  
من ذلك اليوم تعودت هذه الأسرة أن تعبّر النيل إلى مقر الموتى من حين إلى حين،  
وكانت من قبل ذلك تعيب الذين يزورون الموتى.

ومن ذلك اليوم تغيّرت نفسية ص比نا تغيّراً تاماً ... عرف الله حَفَّا، وحرّص على أن  
يتقرّب إليه بكل ألوان التقرّب؛ بالصدقة حيناً، وبالصلوة حيناً آخر، وبتلاؤ القرآن مرة  
ثالثة، ولقد شهد الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوف ولا إشفاق ولا إيثار للحياة، ولكنّه  
كان يعلم أن أخيه الشاب كان من أبناء المدارس، وكان يُقصّر في أداء واجباته الدينية؛  
فكان الصبي يأتي ما يأتي من ضروب العبادة يريد أن يُحَطّ عن أخيه بعض السيئات.  
كان أخوه في الثامنة عشرة من عمره، وكان الصبي قد سمع من الشیوخ أن الصلاة  
والصوم فرض على الإنسان متى بلغ الخامسة عشرة، فقدّر الصبي في نفسه أن أخيه  
مدین لله بالصوم والصلوة ثلاثة أعوام كاملة، وفرض الصبي على نفسه ليصلّي الخمس  
في كل يوم مرتين: مرّة لنفسه ومرة لأخيه، وليصوم من السنة شهرين: شهراً لنفسه  
وشهراً لأخيه، وليكتمن ذلك عن أهله جميّعاً، ول يجعل ذلك عهداً بينه وبين الله خاصة،  
وليطعمنَّ فقيراً أو يتيمًا مما تصل إليه يده من طعام أو فاكهة قبل أن يأخذ بحظه  
منه. وشهد الله لقد وَفِي الصبي بهذا العهد أشهرًا، وما غير سيرته هذه إلّا حين ذهب إلى  
الأُزهُر.

من ذلك اليوم عرف الصبي أرق الليل؛ فكم أنفق سواد الليل كاملاً يفكّر في أخيه  
أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف المرات، ثم يهب ذلك كله لأخيه، أو ينظم شعراً على نحو

٢١ أَجْهَشَ بالبكاء: هُمْ به وتهيأً له.

هذا الشعر الذي كان يقرؤه في كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه، معنياً بـأَلَّا يفرُغ من قصيدة حتى يصلي في آخرها على النبي، واهبًا ثواب هذه الصلاة لأخيه.

نعم! ومن ذلك اليوم عرف الصبي الأحلام المروعة؛ فقد كانت علَّة أخيه تتمثل له في كل ليلة. واستمرَّت الحال كذلك أعواًماً، ثم تقدمت به السن، وعمل فيه الأزهر عمله، فأخذت علَّة أخيه تتمثل له من حين إلى حين. وأصبح فتى ورجلًا، وتقلَّبت به أطوار الحياة، وإنه لعلى ما هو عليه من وفاء لهذا الأخ، يذكره ويراه فيما يرى النائم مرَّة في الأسبوع على أقلّ تقدير.

ولقد تعزَّى عن هذا الفتى إخوته وأخواته، ونسيه من نسيه من أصحابه وأترابه، وأخذت ذكراه لا تزور أباه الشيخ إلا لماًماً، ولكنَّ اثنين يذكراه دائماً، وسيذكرانه أبداً أولَ الليل من كلِّ يوم، هما: أمُّه وهذا الصبيُّ.

## الفصل التاسع عشر

«أَمَّا في هذه المَرَّة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك، وستصبح مُجاورًا، وستجتهد في طلب العلم. وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيًّا وأراك من علماء الأزهر، قد جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حُلْقة واسعة بعيدة المدى».

قال الشيخ ذلك لابنه آخر النهار في يوم من خريف سنة ١٩٠٢، وسمع الصبي هذا الكلام فلم يصدق ولم يكذب، ولكنه آثر<sup>١</sup> أن ينتظر تصديق الأيام أو تكذيبها له، فكثيرًا ما قال له أبوه مثل هذا الكلام، وكثيرًا ما وعده أخوه الأزهري مثل هذا الوعد، ثم سافر الأزهري إلى القاهرة، ولبث الصبي في المدينة يتربَّد بين البيت والكتاب والمحكمة ومجالس الشيوخ.

وفي الحق أنه لم يفهم لماذا صدق وعد أبيه في هذه السنة؛ فقد أخبر الصبي ذات يوم أنه مسافر بعد أيام. وأقبل يوم الخميس، فإذا الصبي يرى نفسه يتأنب للسفر حَقًّا، وإذا هو يرى نفسه في المحطة ولَا تشرق الشمس، وهو يرى نفسه جالسًا القرفصاء منكس الرأس كثييرًا محزونًا، ويسمع أكبر إخوته ينهره في لطفٍ قائلاً له: لاتنكُس رأسك هكذا، ولا تأخذ هذا الوجه الحزين فتحزن أخاك. ويسمع أباً يشجّعه في لطفٍ قائلاً: ماذا يحزنك؟ ألسنت رجلًا؟ ألسنت قادرًا على أن تفارق أمك؟ أم أنت تريد أن تلعب؟ ألم يفكك هذا اللعب الطويل؟!

شهد الله ما كان الصبي حزيًّا لفارق أمه، وما كان الصبي حزيًّا لأنه لن يلعب، إنما كان يذكر هذا الذي ينام هنالك من وراء النيل، كان يذكره، وكان يذكر أنه كثيرًا

<sup>١</sup> آثر: فضل.



ما فكر في أنه سيكون معهما في القاهرة تلميذاً في مدرسة الطب. كان يذكر هذا كله فيحزن، ولكنه لم يقل شيئاً ولم يظهر حزناً، وإنما تكأّف الابتسام، ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكي ولأبكى من حوله آباء وأخويه.

وانطلق القطار ومضت ساعات، ورأى صاحبنا نفسه في القاهرة بين جماعة من المجاورين قد أقبلوا إلى أخيه فَحَيَّهُ، وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام. انقضى هذا اليوم، وكان يوم الجمعة، وإذا الصبيُّ يرى نفسه في الأزهر للصلوة، وإذا هو يسمع الخطيب شيخاً ضخم الصوت عاليه، فخم الراءات والقافات، لا فرق بينه وبين خطيب المدينة إلا في هذا. فأماماً الخُطبَة فهي ما كان تعود أن يسمع في المدينة. وأما الحديث فهو هو، وأما النعْت فهو هو، وأما الصلاة فهي هي؛ ليست أطول من صلاة المدينة ولا أقصر.

وعاد الصبيُّ إلى بيته أو قل إلى حجرة أخيه، خائب الظن بعض الشيء، وسألَه أخيه: مارأيك في تجويد القرآن ودرس القراءات؟ قال الصبيُّ: لست في حاجة إلى شيء من هذا؛ فاما التجويد فأنا أتقنه، وأما القراءات فلست في حاجة إليها، وهل درست أنت القراءات؟ أليس يكفيوني أن أكون مثلك؟ إنما أنا في حاجة إلى العلم، أريد أن أدرس الفقه وال نحو والمنطق والتوجيه.

قال أخيه: حسبُك! يكفي أن تدرس الفقه وال نحو في هذه السنة. وكان يوم السبت، فاستيقظ الصبيُّ مع الفجر، وتوضأً وصَلَّى، ونهض أخيه فتوضاً وصَلَّى كذلك، ثم قال له: ستذهب معي الآن إلى مسجد كذا، وستحضر درساً ليس لك وإنما هو لي، حتى إذا فرغنا من هذا الدرس ذهبتك إلى الأزهر، فالتمست لك شيئاً من أصحابنا تختلف إليه وتأخذ عنه مبادئ العلم. قال الصبيُّ: وما هذا الدرس الذي سأحضره؟ قال أخيه ضاحكاً: هو درس الفقه وهو: «ابن عابدين على الدر»، قال ذلك يملاً به فمه. قال الصبيُّ: ومن الشيخ؟ قال أخيه: هو الشيخ ... وكان الصبيُّ قد سمع اسم الشيخ ... ألف مرة ومرة، فقد كان أبوه يذكر هذا الاسم، ويفتخر بأنه عرف الشيخ حين كان قاضياً للإقليم، وكانت أمُّه تذكر هذا الاسم، وتذكر أنها عرفت امرأته فتاة هوجاء جلة، تتکلف زَيَّ أهل المدينة وما هي من زَيَّ أهل المدن في شيء. وكان أبو الصبيُّ يسأل ابنه الأزهريَّ كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه، وكان ابنه الأزهريُّ يحذثه عن الشيخ ومكانته في المحكمة العليا وحلقته التي تُعدُّ بالمائتين. وكان أبو الصبي يلح على ابنه الأزهري في أن يقرأ الشيخ، فيحاول الفتى تقليده، فيضحك أبوه في إعجاب وإكبار. وكان أبو الصبي يسأل ابنه: أيُعرفُكُمُ الشيخ؟ فيجيب الفتى: وكيف لا! وأنا ورفاقِي من أَخْصُ تلاميذه وأَثْرَهم<sup>٢</sup> عنده! نحضر درسه العام ثم نحضر عليه درساً خاصاً في بيته، وكثيراً ما نتغدى لِنعمل معه بعد ذلك في كتبه الكثيرة التي يؤلفها. ثم يمضي الفتى في وصف بيت الشيخ وحجرة استقباله ودار كتبه، وأبوه يسمع ذلك معجباً، حتى إذا خرج إلى أصحابه قصَّ عليهم ما سمع من ابنه في شيء من التي والفارخار.

كان الصبيُّ إذن يعرف الشيخ، وكان سعيداً بالذهاب إلى حلقة والاستماع له، وكم كان مبهجاً حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرخام ثم على

٢ آثرهم عنده: أكرمهم وأفضلهم.

هذا البساط الرقيق الذي فُرش به المسجد، وكم كان سعيداً حين أخذ مكانه في الحلقة على هذا البساط إلى جانب عمود من الرخام، لسه فأحباب ملاسته ونعمته، وأطال التفكير في قول أبيه: «إنني لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً وأراك صاحب عمود في الأزهر». وفيما هو يفكر في هذا ويتمى أن يمس أعمدة الأزهر ليرى أهي كأعمدة هذا المسجد، وللطلاب من حوله دَوِيُّ غريبٌ، أحس أن هذا الدَّوِيُّ يخفت ثم ينقطع، وغمزه أخوه بيده قائلاً في صوت خافت: لقد أقبل الشيخ. اجتمعت شخصية الصبي كلها حينئذ في أذنيه وأنصت، ماذا يسمع؟ يسمع صوتاً خافتاً هادئاً رزيناً ملؤه شيء؛ قل: إنه الكبير، أو قل: إنه الجلال، أو قل: إنه ما شئت، ولكنه شيء غريب لم يحبه الصبي، ولبث الصبي دقائق لا يميز مما يقول الشيخ حرفًا، حتى إذا تعودت أذناه صوت الشيخ وصدى المكان سمع وتبيّن وفهم، وقد أقسم لي بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم؛ سمع الشيخ يقول: «ولو قال لها أنت طَلَاقٌ أو أنت ظَلَامٌ أو أنت طَلَالٌ أو أنت طَلَاهُ، وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ». يقول ذلك متغنىً به مرتلاً له ترتيلًا في صوت لا يخلو من حشرجة، ولكن صاحبه يحتال أن يجعله عذباً. ثم يختم هذا الغناء بهذه الكلمة التي أعادها طوال الدرس: «فاهر يا أَدْعَ!» وأخذ الصبي يسأل نفسه عن «الْأَدْعَ» هذا ما هو؟ حتى إذا انصرف عن الدرس سأل أخاه: ما الأَدْعَ؟ فقهقه أخوه وقال: الأَدْعَ: الجدع في لغة الشيخ. ومضى به أخوه بعد ذلك إلى الأزهر، فقدمه إلى أستاذه الذي علمه مبادئ الفقه والنحو سنة كاملة.

## الفصل العشرون

إنك يا ابنتي لساندجٌ سليمة القلب طيبة النفس، أنت في التاسعة من عمرك، في هذه السن التي يعجب فيها الأطفال بأبائهم وأمهاتهم، ويتخذونهم مُثلاً علياً في الحياة: يتأثرونهم<sup>١</sup> في القول والعمل، ويحاولون أن يكونوا مثلكم في كل شيء، ويفاخرون بهم إذا تحدثوا إلى أقرانهم أثناء اللعب، ويخيل إليهم أنهم كانوا أثناء طفولتهم كما هم الآن مُثلاً علياً يصلحون أن يكونوا قدوةً حسنة وأسوةً صالحةً.

أليس الأمر كما أقول؟ ألسنت ترين أن أباك خير الرجال وأكرمهم؟ ألسنت ترين أنه قد كان كذلك خير الأطفال وأنبلهم؟ ألسنت مقتنة أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً مما تعيشين؟ ألسنت تحبين أن تعيشي الآن كما كان يعيش أبوك حين كان في الثامنة من عمره؟ ومع ذلك فإن أباك يبذل من الجهد ما يملك وما لا يملك، ويتكلف من المنشقة ما يطيق وما لا يطيق، ليجنِّبك حياته حين كان صبياً.

لقد عرفته يا ابنتي في هذا الطور من أطوار حياته، ولو أني حدثتك بما كان عليه حينئذ لكذبت كثيراً من ظنك، ولخييت كثيراً من أملي، ولفتحت إلى قلبك الساذج ونفسك الحلوة باباً من أبواب الحزن، حرام أن يفتح إليهما وأنت في هذا الطور اللذيد من الحياة، ولكنني لن أحذرك بشيء مما كان عليه أبوك في ذلك الطور الآن، لن أحذرك بشيء من هذا حتى تتقدم بك السن قليلاً فتستطيعين أن تقرئي وتفهمي وتحكمي، ويومئذ تستطيعين أن تعرفي أن أباك أحبك حقاً، وجداً في إسعادك حقاً، ووفق بعض التوفيق لأن يجنِّبك طفولته وصباها.

<sup>١</sup> تأثره: تبع أثره.

نعم يا ابنتي! لقد عرفتُ أباك في هذا الطّور من حياته، وإنني لأعرف أن في قلبك رقة وليناً، وإنني لأخشى لو حدثتك بما عرفتُ من أمر أبيك حينئذٍ أن يملك الإشراق وتأخذك الرأفة فتُجهشِي بالبكاء.

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر أبيك وهو يقصُّ عليك قصة «أوديب ملّا»، وقد خرج من قصره بعد أن فَقَأ عينيه لا يدرِّي كيف يسير، وأقبلت ابنته «أنتيجون» فقادته وأرشدته، رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبهجة من أولها، ثم أخذ لونك يتغيّر قليلاً قليلاً، وأخذت جبّهتك السمحّة تَرْبِد<sup>٢</sup> شيئاً فشيئاً، وما هي إلّا أن أجهشت بالبكاء وانكببت على أبيك لثماً وتقبّيلاً، وأقبلت أمك فانتزعتك من بين ذراعيه، وما زالت بك حتى هدا روعك، وفهمت أمك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضاً أنك إنما بكيت؛ لأنك رأيت أوديب الملك كأبيك مكفوفاً لا يُبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحده، فبكّيت لأبيك كما بكّيت «لأوديب».

نعم! وإنني لأعرف أنَّ فيك عبّث الأطفال وميلهم إلى اللهو والضحك وشيئاً من قسوتهم، وإنني لأخشى يا ابنتي إن حدثتك بما كان عليه أبوك في بعض أطوار صباحه أن تصحّكي منه قاسية لاهية، وما أحب أن يضحك طفل من أبيه، وما أحب أن يلهو به أو يقسّو عليه، ومع ذلك فقد عرفتُ أباك في طور من أطوار حياته أستطيع أن أحدثك به دون أن أثير في نفسك حزناً، ودون أن أغريك بالضحك أو اللهو.

عرفته في الثالثة عشرة من عمره حين أُرسّل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر، إنْ كان في ذلك الوقت صبيًّا جدًّا وعَمَلٌ<sup>٣</sup>، كان نحيفاً شاحب اللون مهملاً الذي أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتحمه العين اقتحاماً في عباءته القدرة وطاقتيه التي استحال بياضها إلى سواد قاتم، وفي هذا القميص الذي يبيّن من تحت عباءته وقد اتّخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام، ومن نعليه الباليتين المرقعتين، تقتحمه العين في هذا كله، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثّة<sup>٤</sup> وبصر

<sup>٢</sup> تربد: تغيير وتعبس.

<sup>٣</sup> أي إنه كان في ذلك الوقت صبيًّا جدًّا وعَمَلٌ، فـ«إن» هي المؤكدة وقد حُففت بالتسكين، وإذا خففت بطل عملها ولكن معناها وهو التوكيد باق، وتثبت لام في الجملة بعدها لتدل على ذلك، ومن ذلك في القرآن: «وَإِنْ كَادُوا لَيَقِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أي إنهم كادوا يفتنونك.

<sup>٤</sup> تقتحمه العين: تحقره وتزدريه.

<sup>٥</sup> حال رثّة: سخيفة.

مكفوف، واضح الجبين مبتسم الثغر مسرعاً مع قائدته إلى الأزهر، لا تختلف خطاه ولا يتردد في مشيته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى<sup>١</sup> عادة وجوه المكفوفين، تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه في شيء من الرفق، حين تراه في حلقة الدرس مُصغيًا<sup>٢</sup> كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً، مبتسمًا مع ذلك لا متأللاً ولا متبرّماً<sup>٣</sup> ولا مظهراً ميلًا إلى لهو، على حين يلهم الصبيان من حوله أو يُشيرُبُون<sup>٤</sup> إلى الله، عرفته يا ابنتي في هذا الطور، وكم أحب لو تعرفيه كما عرفته، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق. ولكن أنى لك هذا وأنت في التاسعة من عمرك ترين الحياة كلها نعيمًا وصفوة!  
عرفته يُنفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً، يأخذ منه حظه في الصباح، ويأخذ منه حظه في المساء، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً، ولا مفكراً في أن حاله خلقة بالشكوى. ولو أخذت يا ابنتي من هذا اللون حظاً قليلاً في يوم واحد لأشفقت أمك ولقدّمت إليك قدحاً من الماء المعدي، ولانتظرت أن تدعوه الطبيب.  
لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الأزهر، وويل للأزهريين من خبز الأزهر! إن كانوا<sup>٥</sup> ليجدون فيه ضرباً من القش وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات.

وكان يُنفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمض هذا الخبز إلا في العسل الأسود، وأنت لا تعرفين العسل الأسود، وخير لك ألا تعرفيه.  
كذلك كان يعيش أبوك جاداً مبتسمًا للحياة والدروس، محرومًا لا يكاد يشعر بالحرمان، حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبيوه، وأقبلًا عليه يسألاته كيف يأكل؟ وكيف يعيش؟ أخذ ينْظِم لهما الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص، فيحدثهما بحياة كلها رغد ونعم، وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حب الكذب؛ إنما كان يرتفق بهذين الشيخين ويكره أن ينبعهما بما هو فيه من حرمان. وكان يرافق بأخيه الأزهرى، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن، كذلك كانت حياة أبيك في الثالثة عشرة من عمره.

<sup>١</sup> تغشى: تغطي.

<sup>٢</sup> مصغيًا: ميلًا لأنني للاستماع.

<sup>٣</sup> متبرّماً: متضجرًا.

<sup>٤</sup> اشرأب: رفع رأسه ومد عنقه لينظر، ويعني هنا يتطلّعون.

<sup>٥</sup> إن، هي المؤكدة المخفة، أي إنهم كانوا يجدون ...

فإن سألتني كيف انتهى إلى حيث هو الآن؟ وكيف أصبح شكله مقبولاً لا تقتصره العين ولا تزدريه؟ وكيف استطاع أن يهبي لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية؟ وكيف استطاع أن يثير في نفوس كثيرون من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة، وأن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع؟ إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال، فاستطاع أن أجيبك! وإنما هناك شخص آخر هو الذي يستطيع هذا الجواب، فسليه يُنبعُ.

أتعرفينه؟ انظري إليه! هو هذا المَلَك القائم الذي يحنو على سريرك إذا أمسكت ل تستقبلي الليل في هدوءٍ ونومٍ لذِيْنِ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت ل تستقبلي النهار في سرور وابتهاج، ألسْتْ مدینةً لهذا المَلَك بما أنت فيه من هدوء الليل وببهجة النهار؟! لقد حنا يا ابنتي لهذا المَلَكُ على أبيك، فَبَدَّله من البؤس نعيمًا، ومن اليأس أملًا، ومن الفقر غنىًّا، ومن الشقاء سعادةً وصفوةً.

ليس دينُ أبيك لهذا المَلَك بأقلَّ من دينك، فلتتعاونا يا ابنتي على أداء هذا الدِّين؛ وما أنتما ببالَّغِينَ من ذلك بعض ما تريdan.

## الجزء الثاني



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

# الفصل الأول

أقام في القاهرة أسبوعين أو أكثر من أسبوعين، لا يعرف من أمره إلا أنه ترك الريف وانتقل إلى العاصمة؛ ليطيل فيها المقام طالباً للعلم مختلفاً إلى مجالس الدرس في الأزهر، وإلا أنه يقضى يومه في أحد هذه الأطوار الثلاثة التي يتخيّلها ولا يتحققها.

فهو يسكن بيته غريباً يسلك إليه طريقاً غريبة أيضاً، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر، فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل، وتفتح في وسطه فجوة ضيقة بعد أن تُصلى العشاء، فإذا تجاوز هذا الباب أحاس عن يمينه حرّاً خفيّاً يبلغ صفة وجهه اليمين، ودخانًا خفيّاً يداعب خياشيمه، وأحس من شمالي صوتاً غريباً يبلغ سمعه ويثير في نفسه شيئاً من العجب.

وقد ظل أيامًا يسمع هذا الصوت إذا عاد من الأزهر مصباً وإذا عاد منه ممسياً، يسمعه وينكره، ويستحيي أن يسأل عنه، ثم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدحّنها بعض تجار الحي، ويجهّلها صاحب القهوة التي كان ينبعث منها ذلك الحر الخفييف وذلك الدخان الرقيق. فإذا مضى أمامه خطوات وجاؤ ذلك المكان الرطب المسقوف الذي لم تكن تستقر فيه القدم لكثره ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء، خرج إلى طريق مكشوفة، ولكنها ضيقة قذرة تنبعث منها رواحة غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يتحققها، تنبعث هادئة بغية في أول النهار وحين يقبل الليل، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار ويشتد حر الشمس.

وكان صاحبنا يمضي أمامه في هذه الطريق الضيقة، وقلما كانت تستقيم له هذه الطريق، وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات اليمين أو ذات الشمال ليتجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك! فكان يسعى حينئذ مستعرضاً قد أدار وجهه نحو هذا البناء عن يمين أو ذلك البناء عن شمال، حتى إذا جاوز هذه العقبة استقلَّ الطريق كما بدأها

ساعياً أمامه في خطى رقيقة قلقة، تأخذ أنفه تلك الروائح المنكرة، وتأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة تنحدر من على وتصعد من أسفل، وتتبعد من يمين وتبعد من شمال وتلتقي كلها في الجو؛ فكأنما كانت تتعقد فتؤلف من فوق رأس الصبي سحاباً رقيقاً ولكنه متراكم قد غشى بعضه بعضاً.

وكانت هذه الأصوات مختلفة أشد الاختلاف: أصوات النساء يختضنن، وأصوات الرجال يتنادون في عنف ويتحدثون في رفق، وأصوات الأثقال تُحْطَّ وَتُعْتَلُ، وصوت السقاء يتغنى ببيع الماء، وصوت الحوذى يزجر حماره أو بعله أو فرسه، وصوت العربية تئز عجلاتها أزاً، وربما شق هذا السحاب من الأصوات نهيق حمار أو صهيل فرس.

وكان صاحبنا يمضي بين هذا كله مشرداً النفس قد غفل أو كاد يغفل عن كل أمره، حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكاناً بعينه سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله، فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذي سيتهي به إلى حيث يقيم. وكان هذا السلم متواصلاً ليس بشديد الوعورة ولا بشديد الضيق، قد اتخذ درجه من الحجر، ولكن كثُر التصعيد فيه والهبوط منه ولم يتعهَّد بالغسل ولا بالتنظيف، فتراكم عليه تراب كثيف، ثم انعقد ولزم بعضه بعضاً حتى استخفى الحجر استخفاً، وحُيِّل إلى المصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سُلُّاماً من الطين.

ومع أن الصبي كان كِلَفَاً بإحصاء الدَّرَج كلما صعد في سُلُّمٍ أو هبط منه، فقد أقام ما شاء الله له أن يقيم في ذلك المكان، وصعد في ذلك السُّلُّم وهبَط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط، ولم يخطر له قط أن يُحصي درج هذا السلم، وإنما علم بعد أن اتخذه مرتين أو مراتٍ أنه إذا صعد منه درجات فلا بدًّ من أن ينحرف قليلاً نحو الشمال ليمضي في التصعيد تاركاً عن يمينه فجوة لم يلْجُها قط، ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدي إلى الطبقة الأولى من ذلك البناء الذي أقام فيه أعواماً طوالاً.

كان يترك إذن عن يمينه مدخل تلك الطبقة من الطبقات التي لم يكن يسكنها طلاب العلم، وإنما كان يسكنها أخلاط من العمال والباعة، ويمضي مُصعداً حتى يبلغ الطبقة الثانية، فلا يكاد يبلغها حتى تجد نفسه المكدودة شيئاً من الراحة يأتيه من هذا الهواء الطلق الذي كان يبيح له التنفس بعد أن كاد يختنق في ذلك السلم القذر، وتأتيه من صوت تلك الببغاء التي كانت تصوَّت في غير انقطاع، كأنما تُشهد الناس جميعاً على ظلم صاحبها الفارسي الذي سجنها في ذلك القفص البغيض، لبيعيها غداً أو بعد غدٍ

## الفصل الأول

لرجلٍ آخر يسجّنها في قفصٍ بغيضٍ؛ حتى إذا تخفَّف منها وقبض ثمنها نقداً اشتري بدلها خليفة تقوم في ذلك السجن مقامها وتدعوه فيه دعاءها وتنتظر فيه مثل ما كانت تنتظر صاحبتها؛ أن تنقل من يدٍ إلى يدٍ ومن قفصٍ إلى قفصٍ، وأن ينتقل معها دعاؤها الحزين الذي يبتهر الناس به من مكانٍ إلى مكانٍ.

كان أصحابنا إذا بلغ أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه، ودعاه صوت الببغاء إلى أن ينحرف نحو اليمين، فيفعل ويمضي في طريق ضيقة فيمز أمام بيتهن يسكنهما رجلان من فارس: أحدهما لا يزال شاباً، والآخر قد تقدمت به السن، في أحدهما شراسة وغلظة وانقباض عن الناس، وفي الآخر دعة ورقه وتبسط للناس.

ثم يبلغ الصبي بيته، فيدخل إلى غرفة هي أشبه بالدهليز، قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت، وهي تنتهي به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت، وهي على ذلك غرفة النوم، وغرفة الطعام، وغرفة الحديث، وغرفة السمر، وغرفة القراءة والدرس، فيها الكتب وفيها أدوات الشاي، وفيها بعض رقائق الطعام. وكان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفاً محدوداً كمجلسه من كل غرفةٍ سكنها واختلف إليها، كان مجلسه عن شماليه إذا دخل الغرفة، يمضي خطوة أو خطوتين فيجد حصيراً قد بسط على الأرض ألقى عليه بساطٌ قديم ولكنه قيم. هناك يجلس أثناء النهار، وهنالك ينام أثناء الليل؛ تُلقى له وسادة يضع عليها رأسه ولحاف يلتقط فيه. وكان يحاذى مجلسه من الغرفة مجلس أخيه الشيخ، وهو أرقى في مجلسه قليلاً أو كثيراً؛ حصيراً قد بسط على الأرض وألقى عليه بساط لا بأس به، ثم ألقى على البساط فراش آخر من اللبد، ثم ألقى من فوق هذا الفراش حشية طويلة عريضة من القطن، ثم بُسطت من فوقها ملاءة. على هذه الحشية كان يجلس الفتى الشيخ وإنما كانوا أصفياوأه، ولم يكونوا يسندون ظهورهم إلى الحائط كما كان يفعل الصبي، وإنما كانوا يسندونها إلى وسائل قد رُصّت على الحشية رصاً؛ فإذا كان الليل استحال هذا المجلس سرياً ينام عليه الفتى الشيخ.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثاني

لم يكن الصبي يعرف من بيته القريبة أكثر من هذا. فأما الطور الثاني من أطواره فقد كان اضطرابه في الطريق بين هذه البيئة وبين الأهراء. وكان يخرج من ذلك المكان المسقوف، فيجد حرج التهوة على صفحة وجهه من شمال، وتبليغ قرقة الشيشة أذنه اليمنى، فيستقبل حانوتاً كان له في حياته أثر عظيم؛ حانوت الحاج فiroz الذي كان يبيع لأهل الحي أكثر ما كانت تقوم عليه حياتهم من الغذاء: يبيع لهم ألوان الفول المدمس إذا أصبحوا. وكان الفول عنده كما هو عند غيره ألواناً مختلفة، ولكنه كان يتمتع بإتقانه ويغالي بثمنه؛ فقد كان يبيع الفول صرفاً، وكان يبيعه بالزيت على اختلاف الوانه، وكان يبيعه بالسمن، وكان يبيعه بالزبد، وكان يضيف إليه عند الحاجة فنوتاً من التوابل تُرغّب فيه وتغري به وتدفع طلاب العلم إلى أن يُسرفوا على أنفسهم إذا طعموا منه، ثم يتقلون بعد ذلك عن درس الضحى وينامون أثناء درس الظهر.

فإذا أقبل المساء فقد كان الحاج فiroz يبيع لأهل الحي طعامهم من الجبن والزيتون والطحينة والعسل؛ وربما باع للمترفين منهم علب التونة والسردين، وربما باع لبعضهم حين يتقدّم الليل أشياء لم تكن تُسمى ولم تكن تُؤكل، وإنما كان يتحدث المتحدثون عنها همساً ويتنافسون فيها تنافساً شديداً.

وكان الصبي يسمع لهذا الهمس فيفهم حيناً، ويستغلل الأمر عليه في أكثر الأحيان، حتى إذا مضت الأيام وتبعتها الأيام وشبّ الصبي وأتيح له أن يفهم عن الملغزين وأصحاب الرمز، علم ما علم، فتغيرت في نفسه قيمة كثيرة من الأشياء، ومعايير كثيرة من الأحكام، وأقدار كثيرة من الناس.

وكان الحاج فiroز رجلاً أسود فاحمًا طويلاً قليلاً الكلام، فإذا تكلم لم يكُن يُبَيِّن، وإنما كان يلتوى لسانه بالعربية التواءً غريباً ترك في نفس الصبي أثراً لا يُمحى؛ فهو لا يقرأ في «البيان والتبيين» قصة زياد مع غلامه حين أراد أن يقول له: «أهدي إلينا حمار وحش». فجعل الحاء هاءً في الكلمتين، وأنكر زياد عليه ذلك فقال له: «وilyk! قل أهدي إلينا عير». فلما قال الغلام ذلك جعل العين همزة، فارتاع زياد ورده إلى حمار الوحش. لا يقرأ هذه القصة إلا ذكر الحاج فiroز. وكان للحاج فiroز في الحي وبين طلاب العلم من أهله خاصة خطر عظيم؛ فإليه كانوا يفزعون إذا تقدم الشهر أو تأخر الراتب أو نفت النقود؛ يفزعون إليه ليُطعمهم نسيئة، ويفزعون إليه ليقرضهم القرش أو القروش، ويفزعون إليه في كثيرٍ من شئونهم؛ ولذلك كان اسمه يدور على ألسنتهم كما كانت تدور عليها أسماء كثيرة من شيوخهم الأعلام في الأزهر الشريف.

وكان للحاج فiroز خطر عظيم آخر في حياة هؤلاء الطلاب؛ فباسمه كانت تُرسل إليهم الرسائل التي تحمل إليهم أخبار الأسر، والتي تحمل إليهم في طياتها أحياناً تلك الورقة الضئيلة التي كانوا يذهبون بها إلى مكتب البريد فيدخلون وجيبوهم خالية، ويخرجون وللفضة في جيوبهم زنين حسن الواقع في آذانهم وفي قلوبهم أيضاً.

ومن هنا لم يكن بـ«لكل واحد منهم من أن يمر بالحاج فiroز ليحييه إذا أصبح، وليرحبيه إذا أمسى، وليلقى في أثناء ذلك نظرة سريعة خاطفة إلى ذلك المكان الذي كانت الرسائل تنتظر فيه أصحابه. وما أكثر ما كان أحدهم يعود إلى بيته وفي يده ذلك الغلاف المقلل قد أصحابه كثير من وضر الزيت والزبد! وإن هذا الغلاف على قذارته لآخر عنده من هذه الملزمة أو تلك من هذا الكتاب أو ذاك من كتب الفقه أو كتب النحو أو كتب الأصول. كان الصبيُّ إذن يستقبل حانوت الحاج فiroز إذا خرج من ذلك الممر المسقوف، وربما خطا مع صاحبه خطواتٍ فحبياً الحاج فiroز والتتس عنده رسالة فوجدها أو لم يجدوها، فانصرف مبتسمًا أو عابسًا، واستدار إلى الشمال فمضى أمامه في ذلك الشارع الطويل الضيق المزدحم بالمارة من الطلاب والتجار والباعة والعمال وعجلات الحمل تجرها الحمر أو تجرها الخيل أو تجرها البغال، ويصبح بها الحوذية زاجرين حيناً متلاحين حيناً آخر ومخاصمين لمن يعترض طريقهم من الرجال والنساء والصبية أحياناً. وعن يمين هذا الشارع وعن شماله حوانيت مختلفة، منها ما يهياً فيه طعام القراء والبائسين، فيحمل الهواء منها روائح كريهة، ولكنها مع ذلك كانت محبية إلى كثير من هؤلاء المارة بين طلاب العلم والعاملين بأيديهم والحاملين على ظهورهم

وكواهلهم. منهم من كان يعطف على هذه الحوانيت فيشتري منها القليل يلتهمه في مكانه التهاماً أو يحمله إلى بيته ليستأثر به أو يشارك فيه. ومنهم من تبلغه هذه الروائح فتُثيره ولكنها لا يثير، وتدعوه ولكنها لا يُجيب؛ قد رأت عينه وشم أنفه وتحركت شهوته، ولكن قصرت يده وخانه جيبيه، فمضى وفي نفسه حاجة وفي قلبه موجودة وحفيظة، وفيه مع ذلك رضا بالقضاء وإذعان للقدر.

ومن هذه الحوانيت ما كانت تدار فيه تجارة هادئة مطمئنة صامدة لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً؛ فإن نطقت فإنما تنطق همساً لا يكاد يسمع، وتنطقه في ظرفٍ وأدبٍ وفي رقةٍ وتلطفٍ، وهي على هذا كله بل لهذا تغلّ على أهلها الثراء الضخم والمال الكبير، وكانت أكثر هذه الحوانيت إنما تدار فيها تجارة البن والصابون، وربما أديرت في بعضها تجارة السكر والأرز أيضاً.

وكان الصبي يسعى بين هذا كله يحسُّه إحساساً قوياً ويجعله جهلاً شديداً، لولا أن صاحبه كان يفسر له بعض ذلك من حين إلى حين. وما يزال الصبي ماضياً في طريقه، تعدل مواطئ أقدامه حيناً وتعوج حيناً آخر، وهو يسعى حسن السعي ما اعتدلت له الطريق، ويسعى متعرجاً في أذياله حين تعوج أو تضطرب، حتى يبلغ موضعًا ينحرف فيه قليلاً نحو الشمال، ثم يندفع في طريقٍ ضيقة أشد الضيق، ملتوية أشد الالتواء، قذرة أشد القذارة، قد استقر فيها هواء فاسد كل الفساد، انعقدت فيه روابط كريهة منكرة، وانبعثت فيه بين حين وحين أصواتٍ نحيلةٍ ضئيلةٍ تصور البؤس وتبيّن عن الخمر وتلحف في السؤال، يبعثها وقع الخطى لأن أصحابها لا يحسون الحياة إلا باذانهم، فهم يدعونها كلها سمعوها، وتتجاوب فيها أصواتٍ أخرى قصيرة غليظة مختنقة متقطعة، هي أصوات هذه الطير التي تحب الظلمة وتأنس إلى الخلوة وتتألف من الخراب. وربما اختلطت هذه الأصوات بخفق الأجنحة، وربما دنا هذا الخفق من أذن الصبي أو من وجهه فأخافه وأزعجه، وإذا يده ترتفع فجأة وعلى غير إرادة لتحمي وجهه أو أذنه، وإذا قلبه يخفق خفقاً خفيقاً متصلاً.

وهو يمضي مع صاحبه في هذه الطريق الضيقة المظلمة الملتوية، يصعد قليلاً ليُنحدر قليلاً، ويمضي أمامه ليُعطف عن يمينه، ثم يمضي أمامه ليُعطف عن شماله، وهذه الأصوات المنكرة المختلفة تدعوه مرة وتشيّعه مرة أخرى وتؤذيه دائمًا، حتى يشعر بعد حين بأن قلبه قد هدا، وبأن صدره قد اتسع، وبأن طريق التنفس قد استقام له، فيُبقي من جوفه نفساً طويلاً كأنه يحمل كلَّ ما استقر في نفس الصبي من ألوان الذعر والألم والحزن.

ثم يتنفس حراً طليقاً كأنما يستنشق الحياة في هذا الهواء الطلق الذي أخذ يغمره منذ خرج من «حارة الوطاويط»، ومضي أمامه في تلك الطريق المنحدرة التي لا تعدل لقدميه، ولكن ما هي إلا لحظات قصيرة، حتى تعدل الطريق وتستوي الأرض لقدميه؛ فهو يسعى معتدلاً مطمئناً، قد تهيأ نفسه لشيء من الفرح والفرح تحمله إليه هذه الأصوات الغربية المختلطة التي يسمعها حين يسعى في ذلك الشارع الهدائى الحلو، وعن شماله مسجد سيدنا الحسين، وعن يمينه هذه الحوانىت الصغيرة التي طالما وقف عند بعضها حين تقدّمت به الأيام فذاق من طيباتها ما شاء الله له أن يذوق.

ذاق التين المرطب وشرب نقیعه في أثناء الصيف، وذاق البسبوسة واستمتع بما تبعه من الحرارة في الأجواء أثناء الشتاء. وربما وقف عند بعض الباعة من السوريين فذاق أولاناً من الطعام؛ منها الحار ومنها البارد، ومنها الحلو ومنها اللحم، كان يجد في ذوقها لذة لا تقدر، ولو قدّمت إليه الآن لأشفق أن تتحمل إليه العلة أو تُغرى به الموت. وكان يمضي في طريقه هذه حتى يبلغ مكاناً تختلط فيه الأصوات وترتفع، ويشعر بأن الطريق قد افترقت فيه؛ فهو يستطيع أن يمضي أمامه، وأن يمضي عن يمين، وأن يمضي عن شمال، وأن يعود أدراجه.

وكان صاحبه يقول له: هذه هي المفارق الأربع، إن مضيّ عن يمينك إلى السكة الجديدة ثم الموسكي ثم العتبة الخضراء، وإن مضيّ عن شمالك فهي الدّرّاسة، ولكننا سنمضي أمامنا فنسلك شارع الحلوجي، وهو شارع العلم والحدّ والعمل، ضيق تقاد تبلغ جانبيه إذا مددت يديك عن يمين وشمال، ولكنك تمضي بين حوانىت صغيرة تُباع فيها الكتب جديدة وقديمها، جيدها وردتها، مطبوعها ومخطوطها، وكم كانت للصبي في ذلك الشارع الضيق وقفات خصبة ممتعة لم ينسها قط حين تقدّمت به الأيام واختلفت عليه أطوار الحياة، ولكنه عجلُ فيجب أن يبلغ صاحبه الأزهر قبل أن يبتدىء الدرس. وهذا هو ذا قد بلغ «باب المزيّنين»، فخلع نعليه وخالف بينهما وأخذهما في يده ومضى مع صاحبه، فلما تقدّم قليلاً تخطّى عتبة قليلة الارتفاع، ثم انفرج له صحن الأزهر هادئاً مطمئناً يترقرق فيه نسيم بارد هو نسيم الصباح، وهو الآن في الطّور الثالث من أطوار حياته الأولى.

## الفصل الثالث

وكان هذا الطّور أحبّ أطوار حياته تلك إليه وآثراها عنده، كان أحبّ إليه من طوره ذاك في غرفته التي كان يشعر فيها بالغرابة شعوراً قاسياً؛ لأنّه لا يعرفها ولا يعرف مما اشتملته من الآثار والمتاع إلا أقلّه وأدنّاه إليه؛ فهو لا يعيش فيها كما كان يعيش في بيته الريفي وفي غرفاته وحجراته تلك التي لم يكن يجهل منها ومما احتوت عليه شيئاً، وإنما كان يعيش فيها غريباً عن الناس وغريباً عن الأشياء؛ وضيقاً حتى بذلك الهواء الثقيل الذي كان يتنفسه فلا يجد فيه راحة ولا حياة؛ وإنما كان يجد فيه أمّا وثقلًا.

وكان أحبّ إليه من طوره الثاني في طريقه تلك بين البيت والأزهر؛ فقد كان في ذلك الطّور مشرداً مفترقاً النفس مضطرباً الخطي ممتنع القلب بهذه الحيرة المضلة الباهظة التي تفسد على المرء أمره وتجعله يتقدم أمامه لا على غير هدى في طريقه المادي وحدها — فقد كان ذلك محظوماً عليه — بل على غير هدى في طريقه المعنوية أيضاً؛ فقد كان مصروفاً عن نفسه بما يرتفع حوله من الأصوات وما يضطرب حوله من الحركات، وقد كان مستخدماً في نفسه من اضطراب خطاه وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهدائة ومشيية صاحبه المهدية العازمة العنيفة.

فأمّا في طوره الثالث هذا فقد كان يجد راحة وأمناً وطمأنينةً واستقراراً. كان هذا النسيم الذي يترقرق في صحن الأزهر حين تصلي الفجر يتلقّى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمّا وأمّا، وما كان يشبّه وقع هذا النسيم على جبهته التي كانت تتدى بالعرق من سرعة ما سعى، إلا بتلك القبلات التي كانت أمه تتبعها على جبهته بين حين وحين في أثناء إقامته في الريف حين يقرئها آياتٍ من القرآن أو يمتعّها بقصبةٍ مماقرأ في الكتب أثناء عبته في الكتاب، أو حين كان يخرج ضعيفاً شاحباً من خلوته تلك التي كان يتولّ فيها إلى الله بعديّة يس لينقضي هذه الحاجة أو تلك من حاجات الأسرة.

كانت تلك القبلات تُعش قلبه وتشيع في نفسه أمناً وأملاً وحناناً، وكان ذلك النسيم الذي كان يتلقاه في صحن الأزهر يُشيع في نفسه هذا كله ويرده إلى الراحة بعد التعب، وإلى الهدوء بعد الاختطاف، وإلى الابتسام بعد العبوس. ومع ذلك فلم يكن يعلم من أمر الأزهر شيئاً، ولم يكن يعرف مما يحتويه الأزهر شيئاً، وإنما كان يكتفيه أن تمسّ قدميه الحافيتين أرض هذا الصحن، وأن يمس وجهه نسيم هذا الصحن، وأن يُحسّ الأزهر من حوله نائماً يريد أن يستيقظ، وهادئاً يريد أن ينשط ليعود إلى نفسه أو لتعود إليه نفسه، وإذا هو يشعر أنه في وطنه وبين أهله، لا يحس غربة ولا يجد أمراً، وإنما هي نفسه تتفتح من جميع أنحائها، وقلبه يتسوق من جميع أقطاره ليتلقى ... ليتلقى ماذا؟ ليتلقى شيئاً لم يكن يعرفه، ولكنه كان يحبه ويدفع إليه دفعاً، طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء هذا الاسم، وهو العلم.

وكان يشعر شعوراً غامضاً ولكنه قويًّا بأن هذا العلم لا حدّ له، وبأن الناس قد ينفقون حياتهم كلها ولا يبلغون منه إلا أيسره. وكان يريد أن ينفق حياته كلها وأن يبلغ من هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن في نفسه يسيراً. وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له، فلم يأخذ هذا الكلام على أنه تشبيه أو تجzon، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق. وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يُلقي نفسه في هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقاً، وأيُّ موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذي يأتيه من العلم ويأتيه وهو غرّ في العلم!

كانت هذه الخواطر كلها تثور في نفسه الناشئة فجأة، فتملؤها وتملكها وتensiها تلك الغرقة الموحشة وتلك الطريق المضطربة المليوية، بل تensiها الريف ولذات الريف، وتشعرها بأنها لم تكن مخطئة ولا غالبة حين كانت تتحرق شوقاً إلى الأزهر وضيقاً بالريف.

وكان الصبي يسعى أمامه مع صاحبه حتى يقطع الصحن ويصعد هذه الدرجة اليسيرة التي يبتدي بها الأزهر نفسه، فيمتلى قلبه خشوعاً، وخضوعاً، وتمتلئ نفسه إكباراً وإجلالاً. ويخفف الخطو على هذه الحُصُر المبوسطة البالية التي كانت تنفرج أحياناً عمّا تحتها من الأرض، لأنها تريد أن تتيح لأقدام الساعين عليها شيئاً من البركة بلمس هذه الأرض المطهرة. وكان الصبي يحب الأزهر في هذه اللحظة حين ينفلت المصلون من صلاة الفجر وينصرفون وفي عيونهم النعاس، ليتحلقوا حول هذا العمود

### الفصل الثالث

أو ذاك، وينتظروها هذا الأستاذ أو ذاك، فيسمعوا منه درس الحديث أو درس التفسير أو درس الأصول أو درس التوحيد.

كان الأزهري في هذه اللحظة هادئاً لا ينعقد فيه ذلك الdoi الغريب الذي كان يملؤه منذ تطلع الشمس إلى أن تُصلِّي العشاء، وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهمس بها أصحابها، وربما سمعت فتَّ يتلَو القرآن في صوت هادئ معتدل، وربما مررت إلى جانب مصلٍ لم يدرك الجماعة أو أدركها ولكنها مضى في التنفُّل بعد أن أدى الفريضة. وربما سمعت أستاداً هنا أو هناك يبدأ درسه بهذا الصوت الفاتر، صوت الذي استيقظ من نومه فأدار صلاته ولم يطعم بعد شيئاً يبعث في جسمه النشاط والقوه، فهو يقول في صوت هادئ حلو منكسر بعض الشيء: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، قَالَ الْمُؤْلَفُ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَنَفَعَنَا بِعِلْمِهِ، أَمِينٌ!»

والطلاب يسمعون لهذا الصوت في هدوء وفتور يشبهان هدوء الشيخ وفتوره، وما أكثر ما كان الصبي يوازن في نفسه بين أصوات الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة في درس الفجر، وأصواتهم حين ينطقون بها في درس الظهر! فاما أصوات الفجر فكانت فاترةً حلوة فيها بقية من نوم. وأما أصوات الظهر فكانت قوية عنيفة ممتلئة فيها شيء من كسل أيضاً، تصور امتلاء البطون بما كانت تمتلك به من طعام الأزهريين في ذلك الوقت الذي كان الأزهريون يعيشون فيه على الفول والمخلل وما يشبه الفول والمخلل من ألوان الطعام.

كان في أصوات الفجر دعاء للمؤلفين يشبه الاستعطاف، وكان في أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدواً، وكانت هذه الموازنة تعجب الصبي وتثير في نفسه لذةً ومتاعاً.

وكان يسعى مع صاحبه حتى يرقى هاتين الدرجتين اللتين يبتدئ بهما الليوان، وهناك إلى جانب عمود من هذه الأعمدة المباركة قد شُدَّ إليه كرسٌ يجلسه غليظة يُجلسه صاحبه ويقول له: انتظر هنا فستسمع درساً في الحديث، فإذا فرغت من درسي فسأعود إليك.

وكان درس صاحبه في أصول الفقه، وكان أستاذ صاحبه الشيخ راضي رحمة الله، وكان الكتابُ الذي يدرّسه الشيخ راضي كتاباً «التحرير» للكمال بن الهمام، وكان الصبي يسمع هذه الألفاظ كلها فيمتلئ لها قلبه رهباً ورغباً ومهابةً وإجلالاً؛ أصول الفقه!

عسى أن يكون هذا العلم؟ الشيخ راضي! من عسى أن يكون هذا الشيخ؟ التحرير! ما معنى هذه الكلمة؟ الكمال بن الهمام! ما أعظم هذين الأسمين! حقاً إن العلم بحر لا ساحل له، والخير كلُّ الخير للرجل الذي أني يغرق فيه، وكان إجلال الصبي لهذا الدرس خاصة يزداد ويعظم من يوم إلى يوم حين كان يسمع أخاه ورفاقه يطالعون الدرس قبل حضوره فيقرءون كلاماً غريباً ولكن حلو الموضع في النفس.

كان الصبي يسمعه فيتحرق شوقاً إلى أن تتقدم به السن ستة أعوام أو سبعة ليستطيع أن يفهمه وأن يحل الغازه ويفك رموزه، ويتصرف فيه كما كان يتصرف فيه أولئك الشبان البارعون، ويجادل فيه أستاذته كما كان يجادل فيه أولئك الشبان البارعون، ولكنه الآن مضطرب إلى أن يسمع ولا يفهم، وما كان أكثر ما يقلب في نفسه هذه الجملة أو تلك لعله يجد وراءها شيئاً فلا يظفر بطاول، ولا يزيد ذلك إلا إكباراً للعلم، وإجلالاً للعلماء، وإصغاراً لنفسه، واستعداداً للعمل والجدا!

وقد سمع جملةً بعينها شهد الله أنها أرقته غير ليلة من لياليه، ونفخت عليه حياته غير يوم من أيامه، ولعلها أن تكون قد صرحته عن غير درس من دروسه اليسيرة؛ فقد كان يفهم دروسه الأولى في غير مشقة، وكان ذلك يُغريه بالانصراف عن حديث الشيخ إلى التفكير في بعض ما سمع من أولئك الشبان النجباء.

وكانت هذه الجملة التي ملأت نفسه وقلبه غريبة في حقيقة الأمر، وقعت على أذنه وهو في أول النوم وأخر اليقظة، فرددته إلى اليقظة ليله كله، وهي: «والحق هدم الهدم». ما معنى هذا الكلام؟ كيف يهدم الهدم؟ وما عسى أن يكون هذا الهدم؟ وكيف يكون الهدم حقاً؟ وجعلت هذه الجملة تدور في رأسه كما يدور هذيان الحمى في رأس المريض، حتى صُرِفَ عنها ذات يوم بإشكال من إشكالات الكفراوي، أقبل عليه ففهمه وجادل فيه، وأحس أنه بدأ يشرب من ذلك البحر الذي لا ساحل له وهو بحر العلم.

وكان الصبي يجلس إلى جانب ذلك العمود، يبعث بتلك السلسلة، ويسمع للشيخ وهو يلقى دروسه في الحديث، فيفهم عنه في وضوح وجلاء، ولا ينكر منه إلا تلك الأسماء التي كانت تساقط على الطلبة يتبع بعضها بعضاً، تسبقها كلمة «حدثنا» وتفصل بينها كلمة «عن».

وكان الصبي لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتباعها ولا لهذه «العنونة» الملة، وكان يتمنى أن تنتقطع هذه العنونة وأن يصل الشيخ إلى الحديث، فإذا وصل إليه سمعه

الصبي مُلقياً إليه نفسه كَلَّها فحفظه وفهمه، وأعرض عن تفسير الشيخ؛ لأنَّه كان يُذكَّر ما كان يسمع في الريف من إمام المسجد، ومن ذلك الشيخ الذي كان يعلِّمه أوليات الفقه. وبينما كان الشيخ يمضي في دروسه كان الأزهر يستيقظ شيئاً فشيئاً، لأنَّما كانت تنبهه أصوات أولئك الشيوخ الذين كانوا يُلْقون دروسهم، وما كان يثور بينهم وبين طلابهم من حوار يبلغ العنف أحياناً، فهوَلَاءُ الطَّلَابِ يُقْبِلُونَ، وهذه الأصوات ترتفع، وهذا الْدُّوَيُّ ينعقد، وهوَلَاءُ الشَّيْوخِ ترتفع أصواتهم لتبلغ آذان التلاميذ، بل هوَلَاءُ الشَّيْوخِ يضطرون أن ينطقوها بهذه الصيغة التي تؤذن بانتهاء الدرس، وهي: «وَالله أعلم»؛ لأنَّ الطَّلَابَ قد أقبلوا ينتظرون درس الفقه من شيخ غير هذا الشيخ، أو من الشيخ نفسه؛ فلا بُدُّ من أن ينتهي درس الفجر ليبدأ درس الصبح.

هناك كان يُقبل على الصبي صاحبُه فیأخذَه بيده في غير كلام ويُجذبه في غير رفق، ويمضي إلى مجلس آخر فيضعه فيه كما يضع المتع وينصرف عنه.

وقد فهم الصبي أنه قد نُقل إلى درس الفقه، وأنَّه سيسمع هذا الدرس وسيفرغ منه، وسينصرف الشيخ ويتفرقُ الطَّلَابُ، ويبقى هو في مكانه لا يتحوَّل عنه حتى يعود إليه صاحبه من سيدنا الحسين حيث كان يسمع درس الفقه الذي كان يلقيه الشيخ بخيت رحمة الله.

وكان الشيخ بخيت يحب الإطالة في الدرس، وكان طلابه يلحون عليه في الجدال؛ فلم يكن يقطع درسه حتى يرتفع الضحى، وهناك يعود إلى الصبي صاحبُه فیأخذَه بيده في غير كلام، ويُجذبه في غير رفق، ويمضي به حتى يخرجه من الأزهر وحتى يرددَه إلى طوره الثاني، فيقطع به الطريق بين الأزهر والبيت، ثم إلى طوره الأول، فيلقيه في مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم الذي أُلْقِيَ على حصير بالِ عتيق.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الرابع

ولم يكن الصبي يفرغ لنفسه إذا أخذ مجلسه على ذلك البساط في ركن من أركان الغرفة، واعتمد بيده أو بساعديه على النافذة عن شماليه، وإنما كان يستعرض الخواطر التي كانت تملأ رأسه: خواطر الطريق، وخواطر صحن الأزهر، وخواطر ما سمع من أستاذ الحديث وما سمع من أستاذ الفقه. كان يستعرض هذه الخواطر ويعيش معها لحظات لا تطول؛ فإن أخاه لم ينصرف عنه حين ألقاه في مجلسه ذاك ليفرغ لنفسه وحده، أو درسه وحده، وإنما انصرف عنه ليعد طعام الإفطار.

وكان هذا الإفطار يختلف بين يوم ويوم لا في مادته، فقد كان الفول يُغرقه السمن أو يُغرقه الزيت، ولكن فيما يحيط به من الظروف والأطوار؛ فقد كان هذا الإفطار صامتاً يوماً وناظقاً مصطخاً يوماً آخر، صامتاً حين يخلو الصبي إلى أخيه فيفطران معًا إفطاراً سريعاً مُظللاً قاتماً لا يكاد أحدهما ينطق فيه بشيءٍ، وإنما هي جمل متقطعة قصار يرددُها الصبي على الشيخ الفتى، وكانوا ثلاثة حيناً وأربعة حيناً، وربما بلغوا خمسة في بعض الأيام، ولكنَّ لخامسهم هذا شأنَا آخر، فالخيرُ لا يُذكر الآن.

هناك كان هؤلاء الشباب من طلاب العلم ينفقون ساعة حلوة من ساعات حياتهم، وكان الصبي يُهمَل إهمالاً تاماً لا تُلقى إليه جملة، ولا يحتاج إلى أن يرجع على أحد جواباً.

وكان ذلك أحب إليه وأثر عنده؛ فقد كان يروقه أن يسمع، وما أكثر ما كان يسمع! وما أغرب ما كان يسمع! وما أشد اختلاف ألوان الأحاديث التي كان يسمعها حول هذه المائدة المستديرة المنخفضة التي كانوا يسمونها «الطَّبْلَيَّة» والتي كان يجلس الطاعمون من حولها على الأرض وقد وضع في وسطها طبق عظيم مُلئ بالفول والسمن أو الزيت، وإلى جانبه إناء عظيم مليء بألوان المخلل الغارقة في ماء يعب فيه هؤلاء الشباب قبل

أن يأخذوا في طعامهم، يبدأ أحدهم، ثم يُدار الإناء على سائرهم، ولكنه لا يعرض على الصبي. حتى إذا أخذوا حظهم من هذا الماء الملح الحار الذي كان يُحرّش المعدة فيما يقولون مخلصين، أقبلوا على طعامهم. وقد أُقيت على المائدة جماعات من الأرغفة، منها ما يُشرى ومنها ما أخذ جرایة من الأزهر، والشباب يتنافسون: أيُّهم يقهر أصحابه في الأكل؟ يقهرهم في عدد ما يلتهم من الأرغفة، ويقهرهم في مقدار اللقمة التي يقتطعها، ويقهرهم في مقدار ما يغترف فيها من الفول وما يبلها به من السمن أو الزيت، ويقهرهم فيما يستعين به على هذا كله من اللّفت أو الفلفل أو الخيار.

وهم يتنافسون ويزدحمون في أصوات مرتفعة، وضحكاتٍ تملأ الغرفة، وتخترق النافذة عن شمال فترتدد في الحرارة من ورائها، وتخترق الباب عن يمين فترتدد في «الربع»، وتهبط إلى الطبقة السفلی حيث نساء العمال يختصمون أو يتناجيان أو يتtagين، فتنقطع لهذه الضحكات خصومتهن ومناجاتهن ومناغاتهن، وإذا هُنَّ قد فرغن لهذه الأصوات المرتفعة وهذه الضحكات المضطربة التي يحملها إليهن الهواء، كأنما يجدن في الاستماع لها والاستماع بها لذَّةً لا تعدلها إلا اللذة التي يجدها هؤلاء الشباب فيما يلتهمون ويلتقمون من الطعام.

والصبي جالس بينهم قد أطرق إلى الأرض، وحنى ظهره حتى كأنه القوس، ويده تذهب وتجيء في أناة وخوف واستحياء بين هذا الرغيف قد أُلقي أمامه على المائدة، وهذا الطبق قد قام بعيداً عنه في وسط المائدة، ويده تصطدم بهذه الأيدي الكثيرة المسرعة التي تهوي لترتفع، وترتفع لتهوي وتتنزح الطبق في أثناء ذلك نزحاً، والصبي معجب بذلك منكراً له، لا يكاد يلائم في نفسه بين هذا التهالك على الفول والمخلل، وذلك التهالك على العلم والدرس وما كانت تعرف به هذه الجماعة من النجابة والنشاط وحدة الذكاء. ولم يكن هذا الإفطار يستغرق من هؤلاء الشباب وقتاً طويلاً، وإنما هي لحظات لا تتجاوز ربع الساعة وقد فرغ ما كان في الطبق، ونظفت المائدة إلا من فُتات ضئيل، ومن نصف الرغيف الذي كان قد أُلقي أمام الصبي فلم يستطع أو لم يُرد أن يتجاوزه نصفه. وما هي إلا لحظة حتى ترتفع المائدة وينذهب بها ذاهب إلى خارج الغرفة فينقِيها مما كان عليها، ثم يعود بها إلى مكانها نظيفة ملساء إلا مما كان قد تقاطر عليها من السمن أو ماء المخلل. وقد ذهب أحد هؤلاء الشبان فاستخرج مقداراً من الفحم؛ فحم الخشب، وأعدَّ أدلة الشاي، هذه الأداة التي يصطفعها الفرس والروس، فأوقد فيها النار بعد أن ملأها بالماء، وعاد بها وقد صَفت جذوها، فوضعها من المائدة مكان الطبق،

وصفَ على حافة المائدة أكواب الشاي، وأخذ مجلسه ينتظر أن يغلي الماء، وأخذ الشبان يتحدون حديثاً هادئاً فاتراً يضطربون إلى هدوئه وفتوره اشتغال بطونهم بما ألقوا فيها من الجامد والسائل، ومن البارد والحار، ولكن ماذا؟ لقد خفت الأصوات ثم سكتت، ثم ملأ الغرفة صمتٌ رهيب، ثم تردد فيها صوتٌ ضئيلٌ جداً، نحيلٌ جداً، متقطع أول الأمر، متصل بعد ذلك.

وإذا هؤلاء الشبان قد تحركوا حركة الطرب، ثم انفتحت أفواههم في وقت واحد عن كلمة واحدة يقولونها في صوت هادئ متصل مستقر وهي «الله» يمدون بها أصواتهم مدائً، كأنما أشاعت الطرب في نفوسهم موسيقى حلوة تأتيم من بعيد، ولا غرابة في ذلك؛ فقد سمعوا أزيز الماء وهو يدور من حول هذا الموقن الذي تضطرم فيه تلك الجذوة الهادئة الصافية، وقد فرغ لأداة الشاي صاحب الشاي، فجعل يتبعها بقلبه وعينه وأذنه، حتى إذا استحال أزيز الماء غلياناً أخذ هو إبريقاً من الخزف فقرّبه من هذه الأداة وأدار مفتاحها في رفقٍ، فجرى في الإبريق بعض هذا الماء الذي يغلي ويضطرب، ثم أدار المفتاح فانقطع جريان الماء، ثم رد على الإبريق غطاءه، ثم هزه هزاً رفيفاً ليبلغ ما فيه من الماء السخن أجزاءه كلها، ثم قام فألقى ما في الإبريق بعد تدفّته؛ فما ينبغي أن يجد الشاي برد الخزف أو برد المعدن لأن ذلك يفسده، ثم انتظر بهذا الشاي ثوانٍ، ثم صبَّ عليه الماء في رفق دون أن يملأ الإبريق إلى غايته، ثم انتظر به قليلاً، ثم عمد إلى علبة الشاي الأحمر فأخذ منه مقداراً ووضعه في الإبريق، ثم صب الماء في الإبريق حتى يمتليء، ثم رفع الإبريق في تلطف ورفق فوضعه على النار ثوانٍ، ثم حطه عنها، ثم أهاب بأصحابه أن قدموا أكوابكم.

كان ذلك يجري والقوم سكوت، ينظرون ويتبعون حركات أصحابهم مراقبين لها حراساً على لا ينحرف في بعضها عن الجادة. فإذا ملئت الأكواب وأديرت فيها الملاعق الصغار، فسمع لها صوت منسجم لا يخلو من جمال حسن الموقف في الأذن يأتي من هذه المداعبة الخفيفة الهادئة بين المعدن والزجاج، رفع القوم أكوابهم إلى أفواههم، فجروا الشاي منها بشفاههم جراً طويلاً يُسمع له صوت منكر ينافق صوت الملاعق حين كانت تداعب الأكواب. ومضوا في شربهم لا يكادون ينطقون إلا بهذه الجملة التي لم تكن تتغير، ولم يكن بُدُّ من أن ينطق أحدهم بها ويُقرّه عليها الآخرون: «هذا هو الذي سيُطْفِئ نار الفول». فإذا فرغوا من هذه الدورة الأولى ملئت لهم الأكواب مرة أخرى، وقد أعيد إلى أداء الشاي ما فقدت من ماء، ولكنَّ القوم ينصرفون الآن إلى شايهم عن هذا

الماء المسكين الذي ترسل النار عليه حرارتها فيئن ثم يتغنى شاكّيًّا، ثم يُجهش بالغليلان باكيًا. ولكن القوم لا يحفلون به ولا يطربون لخنائه ولا لبكائه، قد شغلوا عنه بالشاي وبدورته الثانية خاصة؛ فقد كانت الدورة الأولى مطفئة لنار الفول، فأمّا الدورة الثانية فقد جعلت تخلص لهم ولأعصابهم، وجعلوا يجدون لها بعض اللذة في أنفواههم وحلوقهم ورءوسهم أيضًا. حتى إذا فرغوا من هذه الدورة ثابوا إلى عقولهم أو ثابت عقولهم إليهم، فهذه السنناتهم تتحرّك، وهذه شفاههم تبتسم وهذه أصواتهم ترتفع، ولكنهم لا يتحدّثون الآن عن طعام ولا عن شراب، لقد نسوا الطعام والشراب وذكروا أنفسهم، لقد فرغوا من بطونهم والتقطوا إلى عقولهم، فهم يستعيديون ما سمعوا من الشيخ في درس الصبح، وهم يسخرون من هذا مرة ومن ذاك أخرى، وهم يُعيديون اعتراض أحدهم على هذا الشيخ أو ذاك، أو اعتراض غيرهم على هذا الشيخ أو ذاك، وهم يُجادلون في هذا الاعتراض، يراه بعضهم قويًا مُفحّمًا، ويراه بعضهم سخيفًا لا يعني شيئاً. وقد أخذ أحدّهم مكانَ الشيخ المقرر، وأخذ أحدّهم مكانَ الطالب المعارض، وأقام سائرهم حكمًا في هذه الماظرة، وربما تدخل الحَكْمُ في الماظرة بين حين وحين يرد أحد المتناظرَيْن إلى القصد إن جار عنه، أو يُؤيد أحد المتناظرَيْن بحجة قد أهملها أو دليل قد نَدَّ عنه، وصاحب الشاي مشتركٌ في هذا كله، ولكنه في الوقت نفسه ملتفٌ إلى الشاي لا يُهمله ولا ينساه؛ فقد أضاف إلى الإبريق شايًّا على شاي وماءً على ماء، وقد فرغت الأكواب ثم امتلأت؛ فالشاي لا يتم إلا بالدورة الثالثة؛ لأن نصاب الشاي ثلاثة أقداح لا ينبغي أن ينقص، ولا بأس بأن يزيد.

والصبي مطرقٌ منحنٌ في مكانه، يُقدّم له نصيبيه من الشاي في صمتٍ، فيشربه مترفّقاً في صمتٍ أيضًا، وهو يلحظ ما يجري حوله، ويسمع ما يقال حوله، فيفهم منه قليلاً ويعجزه أكثره عن الفهم، ولكنه يُعجب بما فهم وبما لم يفهم ويسأل نفسه متحرّقاً متى يستطيع أن يقول كما يقول هؤلاء الشباب، وأن يُجادل كما يُجادلون؟

وقد مضت ساعة أو نحو ساعة، واستوفى القوم نصيبيهم من الشاي، ولكن المائدة ستبقى حيث هي، وستبقى أدّاة الشاي في وسطها والأكواب مصطفة على حافتها؛ فقد قربت الظهر ولا بدّ من أن يتفرق القوم ليلاقي كل منهم نظرة سريعة على درس الظهر قبل أن يذهبوا لاستماعه. وهم قد أعدّوه معًا منذ أمس، ولكن لا بأس من المراجعة السريعة، ومن الوقوف عند هذه القولة أو تلك، فهي لا تخلو من غموض أو التواء، ومع ذلك فالمتن واضح والشرح جليٌّ، ولكن «البنان» يُصعب السهل ويعُقد المنحل، والسيد الجرجاني نافذة البصيرة يستخرج من الأشياء الواضحة أسراراً غامضة، فأما

عبد الحكيم فيفهم حيناً وتلتوى عليه الأمور أحياناً، فاما المقرر فجاهل لا يدري ما يقول. ولم يبق على الظهر إلا دقائق، فلنسرع إذن إلى الأزهر، فسيدعون المؤذنون إلى الصلاة، وستقام الصلاة، ونحن في الطريق، حتى إذا بلغنا الأزهر كان المصلون قد فرغوا من صلاتهم وأخذ الطالب يتحلّقون حول شيوخهم، ولا بأس إن فاتتنا صلاة الجمعة فسنُقيم الصلاة بعد الدرس، وسنُقيمها جماعة أيضاً. والخير لا تؤدي الصلاة قبل الدرس؛ فإن النفس تشغّل عن العبادة بهذا الدرس وما فيه من صعوبة ومن مشكلاته تحتاج إلى الحل، فإذا ألقى الدرس وسمعناه وجادلنا فيه وشفينا نفوسنا من مشكلاته ومعضلاته، فرغنا للصلاة فأديناها وقد خلصت لها النفوس والقلوب.

وهذا أخو الصبي يدعوه بهذه الجملة التي ما زال يدعوه بها أعماماً وأعوااماً: «يا الله يا مولانا!» فينهض الصبي متثاقلاً فيمضي مع أخيه متعرضاً حتى يبلغ الأزهر، فيجلسه أخوه في مكانه من حلقة النحو، ويمضي هو إلى درس الشيخ الصالحي في زاوية العميان. وقد سمع الصبي درس النحو ففهمه في غير جهد، وطال عليه إلحاح الشيخ في الإعادة والتفسير، ثم انقضى الدرس وتفرق الطلاب، وظل الصبي في مكانه حتى يعود أخوه فيجذبه في غير كلام وفي غير رفق، ويمضي به حتى يُخرجه من الأزهر وحتى يقطع به الطريق التي قطعها به في الصباح والضحى، وحتى يُلقيه في مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم قد بسط على حصیر بالٍ عتيق، ومنذ ذلك الوقت يتلهي الصبي لاستقبال حظه من العذاب.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الخامس

وكانت الوحدة المتصلة مصدر ذلك العذاب؛ فقد كان الصبي يستقر في مجلسه من الغرفة قبيل العصر بقليل، ثم ينصرف عنه أخوه فيذهب إلى غرفة أخرى من غرفات «الربع» عند أحد أصحابه.

وكان مجلس الجماعة لا يستقر في غرفة بعینها من غرفاته، وإنما هو عند أحدهم إذا أصبحوا، وعند ثانٍ منهم إذا أمسوا، وعند ثالث منهم إذا تقدم الليل، وكان أخو الصبي يتركه في غرفته بعد درس الظهر ويذهب إلى حيث يلقي أصحابه في إحدى الغرفات، فينفرون وقتاً طويلاً أو قصيراً في شيء من الراحة والدعابة والتتدرُّب بالشيوخ والطلاب، وكانت أصواتهم ترتفع وضحكاتهم تتدوّي في «الرَّبِيع» تدويةً فتبليغ الصبي وهو جاثم في مكانه، فتبتسم لها شفتاه ويحزن لها قلبه؛ لأنَّه لا يسمع كما كان يسمع في الضحى ما أثارها من فكاهة أو نادرة، ولأنَّه لا يستطيع كما كان يستطيع في الضحى أن يشارك صامتاً بابتسامة نحيلة ضيقة في هذا الضحك الغليظ العريض.

وكان الصبي يعلم أنَّ القوم سيجتمعون حول شاي العصر إذا أرضاً حاجتهم إلى الراحة وإلى التتدرُّب بالشيوخ والزماء، وسيستأنفون حول هذا الشاي حديثاً هادئاً منتظمَاً، ثم يستعيدون ما يرون أنَّ يستعيدهوه من درس الظهر مجاذلين مناظرين، ثم يعودون درس المساء الذي يلقيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في كتاب «دلائل الإعجاز» في بعض أيام الأسبوع، وفي تفسير القرآن الكريم في بعضها الآخر. وسيتحدثون أثناء إعدادهم لهذا الدرس عن الأستاذ الإمام، وسيستعيدون ما كانوا يسمعون من نوادره وما كانوا يحفظون من رأيه في الشيوخ ومن رأي الشيوخ فيه، وما كانوا يحفظون من أقوابه التي كان يلقاها لبعض السائرين له والمعرضين عليه فيفهمهم ويُضحك منهم زملاءهم الطلاب.

وكان الصبي لهذا كله محباً وبه كلفاً وإليه مشوقاً متحرقاً. وربما أحس الصبي في دخيلة نفسه الحاجة إلى كوب من أكواب الشاي تلك التي تدار هناك، فقد كان هو أيضاً قد كلف بالشاي وشعر بالحاجة إلى أن يشربه مصباحاً وممسياً، وإلى أن يستكمل منه النصاب. ولكنه حرم هذا كله؛ فهولاء القوم يتذمرون ويتناظرون ويدرسون ويشربون الشاي غير بعيد، وهو لا يستطيع أن يشارك في شيء من هذا، ولا يستطيع أن يطلب إلى أخيه الإن له بأن يحضر مجلس هؤلاء الشباب، ويستمتع بما فيه من لذة العقل والجسم معاً.

لا يستطيع أن يطلب ذلك؛ فأبغض شيء إليه أن يطلب إلى أحد شيئاً، ولو قد طلب ذلك إلى أخيه لرده عنه رداً رفيقاً أو عنيفاً، ولكنه مؤلم له، مؤذ لنفسه على كل حال، فالخير في أن يملك على نفسه أمرها، ويكتم حاجة عقله إلى العلم، وحاجة أذنه إلى الحديث، وحاجة جسمه إلى الشاي، ويظل قابعاً في مجلسه مطرقاً مغرقاً في تفكيره. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد ترك أخوه بباب الغرفة مفتواحاً إلى أقصى غايته، وهذه أصوات القوم تبلغه، وهذه ضحكاتهم تصل إليه، وهذه دقات مصممة تنتهي إليه فتؤذنه بأن صاحب الشاي يحطم الخشب ليوقد النار. وكل هذه الأصوات التي تنتهي إليه تثير في نفسه من الرغبة والرهبة، ومن الأمل واليأس، ما يعنيه ويضئيه، ويملاً قلبه بؤساً وحزناً، ويزيد في بؤسه وحزنه أنه لا يستطيع حتى أن يتحرّك من مجلسه، وأن يخطو هذه الخطوات القليلة التي تمكّنه من أن يبلغ بباب الغرفة ويقف أمامه حيث يكون أدنى إلى هذه الأصوات، وأجدر أن يسمع ما تحمله مما يتحدث به القوم، لقد كان ذلك خليقاً أن يسرّه ويسليه، ولكنه لا يستطيع أن ينتقل من مكانه، لأنّه يجهل الطريق إلى الباب، فقد كان حفظاً هذه الطريق، وكان يستطيع أن يقطعها متمهلاً مستائياً، ولكن لأنّه كان يستحيي أن يفاجئه أحد المارة فيarah وهو يسعى متمهلاً مضطرب الخطى. وكان يشقق أن يفاجئه أخوه الذي كان يلُم بالغرفة من حين إلى حين؛ ليأخذ كتبًا أو أدأة، أو لوناً من ألوان الطعام التي كانت تُتَّخِّر ليتبَلَّغ بها أثناء الشاي في غير أوقات الإفطار أو العشاء.

وكان كل شيء أهون على الصبي من أن يفجأه أخوه وهو يسعى مضطرباً حائراً فيسأله: ما خطبك؟ وإلى أين تريد؟ فكان إذن يرى الخير في أن يبقى في مكانه ويؤثر العافية، ويردد في نفسه تلك الحسرات اللاذعة التي كان يجدها، وحسرات أخرى لم تكن أقل منها لذغاً وإيلاماً؛ حسرات الحنين إلى منزله ذلك، في قريته تلك من قرى الريف، هنالك حين كان يعود من الكتاب وقد أرضى حاجته إلى اللعب، فيتبَلَّغ بكسرة من الخبر

المجفف، مازحًا مع أخواته قاصًا على أمه ما أحب أن يقص عليها من أنباء يومه في الكتاب. فإذا بلغ من ذلك ما أراد خرج من الدار فأغلق الباب وراءه، ثم مضى حتى يبلغ جدران البيت الذي كان يقوم أمامه فلزمه ماضيًّا نحو الجنوب، حتى إذا بلغ مكانًا بعينه انحرف إلى يمين، ثم مضى أمامه خطواتٍ حتى ينتهي إلى حانوت الشيخ محمد عبد الواحد وأخيه الشاب الحاج محمود، فجلس هناك متهدلاً مُتدبراً مستمعاً لما كان يقوله المشترون من الرجال، والمشتريات من النساء من هذه الأحاديث الريفية الساذجة التي تمت باختلافها وطراحتها وسذاجتها أيضًا.

وربما قلل الطارئون على الحانوت من المشتريات، فخلا للصبي أحد صاحبي الحانوت، وجعل يتحدث إليه أو يقرأ له في كتاب من الكتب. وربما عدل الصبي عن السعي إلى الحانوت وخرج من داره فجلس على المصطبة الملاصقة لها مطرقاً يسمع حديث أبيه الشيخ مع أصحابه في مجلسهم ذاك الذي كانوا يعقدونه منذ تُصلَّى العصر إلى أن يدعوهم مؤذن المغرب إلى العشاء.

وربما عدل الصبي عن الخروج من داره وخلا إلى رفيق من رفاقه في الكتاب، قد أقبل عليه ومعه هذا الكتاب أو ذاك من كتب الوعظ، وهذه القصة أو تلك من قصص المغازي، فجعل يقرأ له حتى يدعوه غروب الشمس إلى العشاء. هنالك لم يكن الصبي يشعر بالوحدة، ولم يكن يضطر إلى السكون، ولم يكن يجد ألم الجوع، ولم يكن يجد ألم الحرمان، ولم يكن يتحرق إلى كوب من أ��واب الشاي.

كانت كلُّ هذه الحسرات تضطرب في نفس الصبيِّ أشد الاضطراب وهو ساكن أشد السكون. وربما صرفة عنها لحظة صوت المؤذن حين كان يدعو إلى صلاة العصر في جامع بيبرس، ولكنه كان صوتاً منكراً أشد النُّكُر، فكان يذَّكر الصبي بصوت المؤذن في بلده، ولم يكن خيراً من هذا الصوت ولكنه كثيراً ما أتاح للصبي ألواناً من اللهو واللعب، فكم صعد المنارة مع المؤذن، وكم أذن مكانه وكم شاركه في هذا الدعاء الذي يُدعى به بعد الأذان! ولكنه هنا في هذه الغرفة لا يستحب هذا الصوت، وهو لم يدخل قط مسجد بيبرس، وهو لا يعرف الطريق إلى مئذنته، وهو لم يَبْلُدْ درَج هذه المئذنة، ولم يعرف أستقيم للمسجد فيها وتنسخ له أم تلتوي به وتضيق عليه كشأن مئذنته في الريف.

لا يعرف شيئاً من ذلك ولا سبيل إلى أن يعرف منه شيئاً، إنما هو السكون، والسكون المتصل الطويل، يا للألم! إن العلم ليكفل طلابه أهواً ثقلاً.

وكان هذا السكون يطول على الصبي فيجهده، وربما أخذته إغفاءة وهو جالس في مكانه، وربما اشتدت عليه هذه الإغفاءة فاضطرره إلى أن يستلقى ويسلم نفسه للنوم، وكان يسمع من أمه أن نوم العصر بغيض مؤذ للأجسام والمنفوس، ولكن كيف السبيل إلى أن يرد عن نفسه هذا النوم البغيض! ولكنه يهُبْ فَزِعًا مذعوراً؛ فقد سمع صوتاً يدعوه بهذه الكلمة التي رنَّتْ في آذانه أعواماً وأعواماً: «مولانا أنائم أنت؟» يهُبْ فَزِعًا مذعوراً لأن أخيه أقبل ينظر إليه ويسأله عن شأنه ويحمل إليه عشاءه. وكان عشاوه لذيداً حقاً؛ فقد كان يتألف من رغيف وقطعة من الجبن الذي يُسمى الجبن الرومي، أو قطعة من الحلاوة الطحينية، كان هذا عشاءه في أثناء الأسبوع، فكان أخوه يضع ذلك أمامه ويؤدّعه منصراً عنه ليذهب إلى الأزهر فيحضر درس الأستاذ الإمام.

وكان الصبي يُقبل على طعامه راغباً عنه حيناً وراغباً فيه حيناً آخر، ولكنه كان يستنفده على كل حال. كان يبيح لنفسه الإقلال من الطعام إذا أكل مع أخيه، ولم يكن أخوه يكلمه في ذلك أو يسأله عنه. فأما إذا خلا إلى طعامه فقد كان يأتي عليه كله حتى ولو رغب عنه أو ضاق به؛ مخافة أن يُبقي منه شيئاً، ويعود أخوه ويرى ذلك فيظن به المرض أو يظن به الحزن، وكان أبغض شيء إليه أن يثير في نفس أخيه هماً أو قلقاً.

كان إذن يقبل على طعامه، حتى إذا فرغ منه عاد إلى سكونه وجموده في ركته الذي اضطر إليه، وقد أخذ النهار يتصرّم وأخذت الشمس تنحدر إلى مغربها، وأخذ يتسرّب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين، ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة، فيعرف الصبي أن الليل قد أقبل، ويقدر في نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه، ويقدر في نفسه أن لو كان معه في الغرفة بعض المبصرين لأنّيَ المصباح ليطرد هذه الظلمة المتکاثفة، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون، وإن كان لي raham مخطئين في هذا الظن؛ فقد كان ذلك الوقت يفرّق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور، وكان يجد في المصباح إذا أضيَّ جليساً له ومؤنساً، وكان يجد في الظلمة وحشةً لعلها كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب. والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه، صوتاً متصلًا يشبه طنين البعض لولا أنه غليظ ممتليء، وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما، ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً، وإذا هو مضطرب إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء، ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفي رأسه بين يديه، ويسلم نفسه لهذا الصوت الذي يأخذه من كلّ مكان. ومع أن سكون العصر كان كثيراً ما يضطرب إلى النوم فقد كان سكون العشية يضطرب إلى اليقظة التي لا تشبهها يقظة.

وكان ينتهي إلى أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه. ولكن في الغرفة أصواتاً أخرى كانت تُفزعه وتُروعه، أصوات مختلفة؛ فقد كانت هذه الغرفة من غرفات الأقواف، ومعنى ذلك أنها كانت قديمة، قد طال عليها العهد، وبعد بها الأمد، وكثرت في جدرانها الشقوق، وعمرت هذه الشقوق طوائف من الحشرات وغيرها من صغار الحيوان، وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما وُكّلت بالصبي إذا أقبل الليل عليه وهو قابع وحده في ذلك الركن من أركان الغرفة؛ فهي تبعث من الأصوات الضئيلة، وتأتي من الحركات الخفيفة السريعة حيناً والبطيئة حيناً آخر ما يملأ قلب الصبي هلعاً ورعباً، فإذا أقبل أخوه وحده أو مع أصحابه فأضيء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات لأنها لم تكن، وكان الصبي من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى غير هذا لا يجرؤ على أن يذكر من أمر هذه الأصوات والحركات شيئاً، وأيسر ما كان يخاف إن تحدث ببعض ذلك أن يسْفَه رأيه وأن تُطْنَب بعقله وبشجاعته الظنوُنُ، فكان يؤثر العافية ويكتوم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان.

وهذا المؤذن يدعو إلى صلاة العشاء، فيثير في نفس الصبي أملاً قصيراً يتبعه يأس طويل؛ فقد انتهى درس الأستاذ الإمام، وسيقبل أخو الصبي بعد قليل فيضي المصباح ويوضع محفظته في مكانها، ويأخذ ما يحتاج إليه من كتاب أو أداة أو طعام، ويشيع في الغرفة في أثناء ذلك شيئاً من الأنس، ويطرد من الغرفة في أثناء ذلك تلك الوحدة المنكرة، ولكنه سيلقي إلى الصبي تلك الوسادة التي سيضع عليها رأسه، وذلك اللحاف الذي سيلتف فيه لينام، وسيشهد التفافه في لحافه ووضُعَ رأسه على وسادته، ثم يطفئ المصباح وينصرف، ويغلق الباب من ورائه ويدير فيه المفتاح، ويمضي وهو يظن أنه أسلم الصبي إلى النوم، وإن كان لم يسلمه إلا إلى أرقٍ متصل مخيف.

وسيعود بعد ساعتين أو بعد ساعات، وقد طعم وشرب الشاي، وناظر أصحابه وأعاد معهم ما شاء الله أن يعده من درِّس للغد، فيدير المفتاح ثم يضي المصباح، وهو يظن أن الصبي مغرق في نوم هادئ لذذ، وما ذاق الصبي في حقيقة الأمر نوماً، وإنما انتظر جزاً فرعاً عودة أخيه.

إذا استلقى أخوه على فراشه بعد أن أطفأ مصباحه وأخذ تنفسه المضطرب أو المنتظم يدل على أنه نام، فقد أخذ الصبي يحسُّ الأمن والدعة، ويدير في نفسه خواطر الْأَمْنِ الْوَادِعِ وتنكير الْهَادِئِ الْمَطْمَئِنِ.

وهناك تتصل يقظته الآمنة بنومه اللذذ دون أن يشعر بهذا الاتصال.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السادس

ولكن صوتين غريبين يرددانه فجأة إلى يقظة فزعة؛ أحدهما: صوت عصا غليظة تضرب الأرض ضرباً عنيفاً، والآخر: صوت إنساني متهدج مضطرب لا هو بالغليظ ولا هو بالخفيف، يذكر الله ويسبح بحمده، ويمد ذكره وتسبيحه مداً طويلاً غريباً، وقد سكن كل شيء وشمل هدوء الليل كلّ شيء، وجعل هذا الصوت الإنساني ينبعث بين حين وحين متهدجاً مرجعاً، تقطعه ضربات العصا على الأرض، وهو يبدو قوياً فـيدينع في الليل الهدائ شيئاً يشبه الاضطراب، ثم يدنو قليلاً قليلاً حتى يكاد يبلغ غرفة الصبي، ثم ينحرف ويضعف شيئاً فشيئاً حتى يكاد ينقطع، ثم يبدو مرة أخرى قوياً متصلاً بعد أن هبط صاحبه سلم «الربع» واستقامت له طريقه في الحارة، ثم يبعد شيئاً فشيئاً حتى ينقطع.

وقد ارتاع الصبي لهذا الصوت أو لهذين الصوتين حين سمعهما لأول مرة، وأنتع نفسه في التفكير فيهما والبحث عن مصدرهما، ولكنه لم يظفر من بحثه بطائل، إلا أنه فقد النوم وأتم ليله مؤرقاً مروقاً حتى رد الأمان والطمأنينة إلى قلبه صوت المؤذن وهو ينادي: «الصلاحة خير من النوم». فهب الصبي مترفقاً، وهب أخوه عنيفاً عجلأ، وما هي إلا دقائق حتى كانا يهبطان السلم ويجدان في طريقهما إلى الأزهر؛ ليسمع أحدهما درس الأصول، وليسمع الآخر درس الحديث.

يجعل هذان الصوتان يواظبان الصبي كلّ يوم في أول الثالث الأخير من الليل، وجعل الصبي يرعا لهذين الصوتين ولا يعرف لهما مصدرًا، ولا يجرؤ على أن يسأل أخاه أو غير أخيه عنهم، حتى كانت ليلة الجمعة، فأيقظه الصوتان وروعاًه كدأبهما في كل ليله، ورد المؤذن إليه الأمن والهدوء كدأبه في كل صباح، ولكن الصبي لم يهب مترفقاً، ولكن

أخاه لم يهب عجلًا عنِّيًّا؛ فليس في فجر الجمعة ولا في صباحه دروس، وليس الشيخ الفتى ولا الشيخ الصبي في حاجة إلى أن يقطعوا نومهما.

فأما نوم الصبي فقد قطعه هذان الصوتان، وأما أخيه فلم يسمعهما هذه الليلة كما لم يسمعهما من قبل، ولبث الصبي في فراشه ضيقاً بهذا السكون، عاجزاً عن الحركة، مشفقاً أن يوقظ أخيه. حتى صلَّى الفجر وانتشر ضوء الشمس ونفذت أشعتها إلى الغرفة فاترة، وإذا الصبي يسمع هذين الصوتين مرة أخرى، ولكنه يسمعهما هادئين رفيقين، فأما العصا فتداعب الأرض مداعبة يسيرة، وأما الصوت فيصافح الهواء مصافحة حلوة لا تخلو من فتور، والصبي يعجب لهذين الصوتين اللذين يعنfan حين يسكن الليل وينام الناس ويحسن الرفق، وللذين يرقان ويلطفان حين ينشط النهار ويستيقظ الناس ويتحل للأصوات أن ترتفع وأن تأخذ حظها من الحرية والنشاط، وهو مع ذلك مضطرب إلى سكونه، مشفقاً إن تحرك أن يتبهأ أخيه، حتى تشتد حرارة الشمس على رأسه فيستوي جالساً في أناة، ويترنح من مكانه في رفق حتى يبلغ مكاناً لا تلفحه حرارة الشمس فيستقر فيه دون أن يتحرك.

وهو بهذا ضيق، وله كاره، وعليه مكره، وأخوه مغرق في نومه لا يفيق، ولكن الباب يطرق طرقة عنِّيًّا وصوت من ورائه ينادي مرتقاً ساخطاً صاحباً: «هل يا هؤلاء، هلم يا بهائم، أفيقوا إلى متى تنامون! أعود بالله من الكفر، أعود بالله من الضلال! طلاب علم ينامون حتى يرتفع الضحى لا يؤدون الصلاة لوقتها، هل يا هؤلاء! هل يا بهائم، أعود بالله من الكفر، أعود بالله من الضلال!»

ويد هذا الصوت تقع الباب وعصاه تقع الأرض، ومن حوله ضحكات ترافقه.

وقد هب الشيخ الفتى لأول نبأة، ولكنه ظل في مكانه ساكناً ثابتاً يُعرق في ضحك مكتوم مكظوم، كأنه يستحب ما يسمع ويستزيد منه ويريد أن يتصل. فأما الصبي فقد عرف هذا الصوت وهذه العصا، إنه الصوت الذي كان يضطرب في الليل، وإنها العصا التي كانت تقع الأرض لتوقعها من نومها، من عسى أن يكون هذا الرجل؟ وما عسى أن تكون عصاه؟ وما هذا الضحك الذي يتبعه؟ وقد نهض الفتى جاهراً بضحكه فسعى إلى الباب ففتحه، واندفع منه هذا الرجل صاحباً: «أعود بالله من الكفر! أعود بالله من الضلال! اللهم اصرف عنا الأذى، أعدنا من الشيطان الرجيم. أناسٌ أنتم أم بهائم! أ المسلمون أنتم أم كفار، أتعلمون على شيوخكم هديًّا أم ضللاً!»

وقد اندفع معه الشباب من أصحاب الفتى وهم يجأرون بالضحك ويفرقون فيه. وهنالك عرف الصبي هذا الرجل، وهو عمّي الحاج عليٌّ.

وكان عمى الحاج عليٌّ رجلاً شيخاً قد تقدمت به السن حتى جاوز السبعين، ولكنه احتفظ بقوته كلها: احتفظ بقوة عقله فهو ماكُرٌ ماهرٌ ظريفٌ لبُّقٌ، واحتفظ بقوه جسمه فهو معتدل القامة، شديد النشاط، متين البنية، عنيف إذا تحرك، عنيف إذا تكلم، لا يعرف الهمس، ولا يحسن أن يخافت صوته، وإنما هو صائحٌ دائمًا، وكان عمى الحاج علي فيما مضى من دهره — كما علم الصبي فيما بعد — رجلاً تاجراً، قد ولد في الإسكندرية وشب فيها، واحتفظ بما لأهل الإسكندرية من قوة وعنف، ومن صراحة وظرف، وكان يتَّجر في الأرض؛ ومن أجل ذلك سُميَّ عمى الحاج علي الرزاز. فلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت التجارة عنه، وكان له بيت في القاهرة يُغلَّ عليه شيئاً من مال، فاتخذ لنفسه غرفة في هذا الربع الذي لم يكن يسكنه من غير المجاورين إلا هذا الرجل، وهذا الفارسيان اللذان ذكرنا في بعض هذا الحديث.

ولم يكِن عمى الحاج علي يستقر في غرفته في آخر الربيع عن شمال إذا صعدت السُّلَم حتى لفت إليه هؤلاء الشباب من طلاب العلم، أضحكهم وراقوه، فاتصلت بينه وبينهم مودة حلوة متينة نقية، فيها ظرف كثير، وفيها رقة وتحفظ يؤثران في القلوب حُقاً. فقد كان هذا الشيخ يعرف من هؤلاء الشباب حبَّهم للعلم، وحِدَّهم في الدرس، وصدوقيَّهم عن العبث، وكان يحب منهم ذلك. فإذا بدأ أسبوع العمل لم يسع إليهم، ولم يعرض لهم، حتى كأنه لا يعرفهم إلا أن يسعواهم إليه، أو يُلْحُّوا لهم عليه في أن يشهد معهم طعاماً أو يشاركهم في الشاي، فإذا كان يوم الجمعة لم يمهلهم ولم يُخلِّ بينهم وبين أنفسهم، وإنما انتظر بهم حتى يتقدَّم النهار، وحتى يعلم أنهم قد أرضاوا نفوسهم من النوم والراحة. هنا لك يخرج من غرفته فيبدأ بأقرب غرف هؤلاء الشباب إليه، فيوقظ صاحبها في هذا العنف والضجيج اللذينرأيتهما، ثم ينتقل إلى الغرفة التي تليها ومعه صاحبه الذي أيقظه. وما يزال كذلك حتى يبلغ غرفة أخي الصبي فييقظه على هذا النحو. الشباب من حوله فرحون مرحون، يستقبلون يوم راحتهم مبهجين، قد ابتسموا للحياة وابتسمت لهم الحياة.

إلى هذا الشيخ كان تدبِّر طعامهم ولهوهم البرئ في يوم الجمعة؛ فهو الذي يقترح عليهم طعام الإفطار، وقد يعده لهم في غرفته أو في غرفة أحدهم. وهو الذي يقترح عليهم طعام العشاء، ويشير عليهم بما ينبغى أن يصنعوا لإعداده، ويشرف على هذا الإعداد، ويقولُ منه ما يمكن أن يعوج، يصحبهم صاحبهم، ثم يفارقهم ليصلِي الجمعة، ثم يصحبهم، حتى إذا وجبت العصر فارقهم لحظة، ثم يعود إليهم فيشاركهم في عشاءِهم

وفيما يكون بعده من الشاي، ثم إذا وجبت المغرب أَمْهم في صلاتهم، فإذا وجبت العشاء فارقهم ليعدوا الدروس التي سيسمعونها من الغد.

وكان عمي الحاج عليٌّ يتكلّف التقى والورع، ويظهر ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس تكلفهم وتصنعهم. يبدأ بهذه الغزوة التي يجدها في الثلث الأخير من كل ليلة، فيخرج من غرفته صاحبًا صائحاً بذكر الله والتسبيح بحمده، ضارباً الأرض بعصاه حتى يبلغ مسجد سيدنا الحسين، فيقرأ فيه ورد السحر، ويشهد فيه صلاة الفجر، ثم يرجع ممتّماً مهمّهمًا مداعبًا الأرض بعصاه فيستريح في غرفته. فإذا وجبت الصلوات أَدَّها في غرفته وقد فتح بابها وجهر بالقراءة والتكبير ليسمعه أهل الربع جميّعاً. فإذا خلا إلى أصحابه الشباب على طعامهم أو على شايهم أو في بعض سرورهم، فهو أسرع الناس خاطراً، وأظرفهم نكته، وأطولهم لساناً، وأخفهم دعاية، وأشدّهم تتبعاً لعيوب الناس، وأعظمهم إغراقاً في الغيبة، لا يتحفظ في لفظ، ولا يتحرّج من كلمة نابية، ولا يتردّد في أن يجري على لسانه المنطلق دائمًا وبصوته المرتفع دائمًا أشنع الألفاظ، وأشدّها إغراقاً في البناء، وأدلّها على أبغض المعاني وأقبح الصور.

وكان أولئك الشباب يحبونه على ذلك، أو يحبونه من أجل ذلك، أو قل: إنهم يحبون ذلك منه أشدّ الحب، ويُكثرون به أعظم الكلف، كأنه كان يخرجهم من أبوارهم، ويريحهم من جحود العلم والدرس، ويفتح لهم باباً من اللهو ما كانوا يستطيعون أن يلحوه حين كانوا يخلون إلى أنفسهم، بل ما كانوا يستطيعون أن يلحوه حين كانوا يتلقّون حول هذا الرجل الشيخ، وحين كان يصب عليهم هراءه هذا بغير حساب، كانوا يسمعون ذلك منه ويضحكون له، حتى إن جنوبهم لتکاد تنقد من الضحك، ولكنهم على ذلك لم يكونوا يعودون على الشيخ كلمة من كلماته البذيئة أو لفظاً من ألفاظه النابية، فكأنما كانوا يرون شيئاً يعجبهم ويلهיהם فيستمتعون به من بعيد، ولا يبيحون لأنفسهم أو لا تبيح لهم ظروفهم أن يدّنوا منه أو يسعوا إليه.

ولم يكن ذلك يدل على أقل من هذه الصفة الغريبة الخلقة بالإعجاب والرحمة معاً، والتي كان هؤلاء الشبان يمتازون بها من كثير من زملائهم وأقرانهم؛ وهي كظم الشهوات وأخذ النفس بألوان من الشدة تُمكّنهم من المضي في الدرس على وجهه، وتُرددُهم عن التورّط فيما كان كثير من زملائهم يتورطون فيه من هذا العبث السهل الذي يفلّ الحدّ ويفتر العزائم ويفسد الأخلاق.

وكان الصبي يسمع لهذا كله فيفهم ويحفظ ويعجب، ويسأل نفسه كيف يجتمع طلب العلم وما يحتاج إليه من الجد مع هذا التهالك على الهزل والتساقط على السخف في غير تحفظ ولا احتياط؟! وكان يعاده نفسه على أنه إذا شبّ وبلغ طور هؤلاء الطلاب الذين يُكثّرهم ويقدّر ذكاءهم فلن يسير سيرتهم ولن يتھالك على العبث كما يتھالكون عليه.

وكان يوم الجمعة يوم البطون في حياة هؤلاء الطلاب وفي حياة صديقهم الشيخ، فكانوا إذا أصبحوا اجتمعوا إلى إفطار غزير دسم صاحب، قوامه الغول والبيض ثم الشاي، وما كانوا قد اذخرموا من هذه الفطائر الجافة التي كانت أمهاطهم يزوّدنهما بها ويَضَعُنَّ في صنعها وفي تعبئتها قلوبهن الساذجة وما يملؤها من حب وعطف وحنان. وكم ذكر الصبي جهد أبيه في كسب ما لم يكن بدًّ من كسبه من النقد ل تستطيع أمه أن تهيء لابنيها زادهما، وجَدًّا أمه في صنع هذا الزاد وتتكلّفها الفرح وهي تهيئه، وحزنها الصامت وهي تعبئه، ودموعها المنمرة وهي تسلّم أحماله إلى من سيذهب به إلى القطار. كم ذكر الصبي هذا كله حين كان هؤلاء الشباب يلتهمون هذا الزاد التهاماً، يغمونه في الشاي كما كان يوصيهم الشيخ، أو يقضموه بأسنانهم وأضراسهم قضمًا، ثم يبعون في أكواب الشاي ليُبْلُووه في أفواههم ولتسقّيهم حلوقهم بعد ذلك سهلاً هيناً، وهم في أثناء ذلك يتضاحكون من دعابة الشيخ وكفافته، لا يذكرون آباءهم وما جَدُوا، ولا يذكرون أمهاطهم وما احتملُوا من كدٍّ وما ذرفَوا من دموع.

وكان الشيخ وأصدقاؤه الطلاب يُدَبِّرون عشاءهم أثناء الدورة الثانية والثالثة من الشاي الذي يُقبلون عليه بعد الإفطار. وكان تدبيرهم لهذا العشاء يقبض نفس الصبي ويملؤها خجلًا، فلما فَكَرَ فيه بعد أن تقدّمت به السنُّ وجد لذكراه حناناً وإعجاباً. كانوا يتداولون ويتشاركون، ولم يكن ميدان مداولاتهم ومشاوراتهم واسعاً ولا عريضاً، وإنما هما لونان من ألوان الطعام لم يشذوا عنهما قط: إِما البطاطس في خليط من اللحم والطماطم والبصل، وإِما القرع في خليط من اللحم والطماطم والبصل وشيء من الحمص. وكانوا يتتفقون على أقدار ما يشترون من هذه الأصناف كلها، ثم يُقدّرون ثمن ما سيشترون، ثم يُخرج كلُّ منهم حصته من هذا الثمن إلا الشيخ فكانوا يخرجونه من هذه الغرامة. فإذا اجتمع لهم ما يحتاجون إليه من نقد، ذهب أحدهم فاشترى لهم طعامهم، فإذا عاد بما اشتري نهض أحدهم إلى موقفه فأوقف فيه ناره من هذا الفحم البلدي، حتى إذا صَفَتْ جذوته أقبل على الطعام يهيهه وأصحابه ينظرون إليه مجتمعين

أو متفرقين، والشيخ يلقي إليه نصائحه بين حين وحين، حتى إذا تم له من تهيئة الطعام ما أراد خلّي بيته وبين هذه النار تنضجه على مهل، واجتمع القوم إلى صديقهم الشيخ يعبثون، أو إلى أنفسهم يدرسون، وطاهيهم يخطف نفسه بين حين وحين ليلقي نظرة على هذا الطعام مخافةً أن يحترق أو يفسد، وليلقي عليه بين حين وحين قطرات من ماء. وكلهم يتتسّم هذه الرائحة الذكية التي تبعثها النار من هذا الطعام كلما تقدمت به إلى الإنضاج، وكلهم يجد في تنسم هذه الرائحة مقدمةً لذينة لعشاء لذيد، ومن المحقق أنهم لم يكونوا وحدهم يصططعون هذا الطعام، وإنما كان لهم في الربع زملاء يصططعون مثله ويتنسمون رائحته مثلهم، ومن المحقق أيضًا أن قد كان لهم في الربع زملاء تصرّ بهم ذات أيديهم عن أن يصنعوا لأنفسهم من الطعام مثل ما كانوا يصنعون، ومن المحقق أيضًا أن هؤلاء العمال الذين كانوا يسكنون الدور السفلي من الربع كانت تقصّر بهم ذات أيديهم عن أن يُطرفوا أنفسهم وأبناءهم ونساءهم بمثل هذا الطعام. وأكبر الظن أنهم كانوا يجدون من نسائهم لهذا الحرمان همًا ثقيلاً. وأكبر الظن أن هؤلاء المحروميين من الطلاب والعامل كانوا يجدون في هذه الروائح التي كانت تملأ الربع يوم الجمعة لذة مؤللةً أو أللًا لذيدًا.

وكانت نار هذا الفحم البلدي بطبيعة طويلة البال، فكان ذلك يطيل لذة قوم ويمد ألم آخرين، حتى إذا صليت العصر ودعيت الشمس إلى الغروب كان الطعام قد نضج، فاجتمع القوم حول مائدتهم وأقبلوا على طعامهم في نشاط يشبه الجدّ الهازلي أو الهزل الجاد، كلهم حريص على أن يستوفي حظه من هذا الطعام، وكلهم يراقب أصحابه أن يسبقوه أو يشتتوا عليه، وكلهم يستحيي أن يظهر هذا الحرصن أو يبدي هذه المراقبة. ولكن الشيخ معهم، فصراحته تغنى عن صراحتهم، وهرله يفضح ما أسرّوا من الجد، فهو يراقبهم جميعاً، وهو يقسم الطعام بينهم بالعدل، وهو يصد أحدهم إن همَّ أن يجور على أصحابه، لا يخفى ذلك ولا يتحفظ فيه، وإنما يعلنه صاخباً كعادته، منبهًا هذا إلى أنه يخدع نفسه عن قطعة البطاطس بقطعة اللحم، ومنبهًا ذاك إلى أنه يسرف على نفسه وعلى أصحابه بما يغترف في لقنته الغليظة من جامد الطعام أو سائله، مرسلًا ألفاظه إلى هذا وذاك في هزل يَخْفُ على أسماعهم ويسعد موقعه من نفوسهم، ويضحكهم، ولا يؤذيهم فيما ينفي لهم من الحياة.

والصبي في أثناء هذه المعركة الضاحكة خجلًا وجّل، مضطرب النفس مضطرب حرقة اليد، لا يحسن أن يقطع لقنته، ولا يحسن أن يغمسها في الطبق، ولا يحسن أن

يبليغ بها فمه، يخِيلُ إلى نفسه أن عيون القوم جميعاً تلحظه، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه في خفيَّة، فيزيدُه هذا اضطراباً، وإذا يده ترتعش، وإذا بالمرق يتقاطر على ثوبه، وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيَّه. وأكبر الظن؛ بل المحقق أنَّ القوم كانوا في شغلٍ عنه بأنفسهم، وأية ذلك أنَّهم يفكرون فيه ويلتفتون إليه ويحرّضونه على أن يأكل ويقدمون إليه ما لا تبلغه يده، فلا يزيدُه ذلك إلا اضطراباً واحتلاطاً، وإذا هذه المعركة الضاحكة مصدر ألم لنفسه وحزن لقلبه، وكانت خليةً أنْ تسره وأنْ تضحكه، ولكنها إن آدته في أثناء الطعام فقد كانت تسره وتسلية، وتضطربه أحياناً إلى أنْ يضحك وحده إذا خلا إلى نفسه بعد أن يشرب الجماعة شايهم وينتقلوا إلى حيث يدرسون أو يسخرون. وكذلك أفق هؤلاء الشباب أعواماً طويلة مع هذا الشيخ. وشبَّ الصبيُّ في هذه الحياة الضاحكة بفضل الشيخ علىٰ، على رغم ما كان يعترض طريقها من أسباب الألم والأسى.

ثم تفرَّقت الجماعة، وذهب كُلُّ من هؤلاء الشباب لوجهه، وتركوا الرَّبَّع واستقرُوا في أطراف متباعدة من المدينة، وقلَّ زيارتهم للشيخ، ثم انقطعت، ثم تناَسَوه، ثم نسُوه. وفي ذات يوم حُملَ إلى أفراد هذه الجماعة نَعْيُ الشيخ، فحزنت قلوبهم ولم يبلغ الحزن عيونهم، ولم يرسم آياته على وجوههم، وأخبر المخبر الصادق أن آخر كلمة نطق بها الشيخ وهو يُختَصرُ إنما كانت دعاءه لأنَّي الصبي.

فرحم الله عَمِّي «الحاج علىٰ»! لقد كان ظله على الصبي ثقيلاً وإن ذكره ليملأ قلبه بعد ذلك رحمةً وحناناً.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السابع

ولم يكن هؤلاء الشباب يَسْتَمِعُون فرّحهم ومرحّهم من ذلك الشّيخ وحده، وإنما كان لفرحهم ومرحّهم مصدر آخر في بعض الأحيان. ولكن فرّحهم كان مقتضىً ومرحّهم كان هادئاً إذا جاءهم من هذا المصدر الآخر. كانوا يفرّحون بمقدار، ويمرحون من وراء ستار، إذا لُقُوا صاحبهم ذاك الذي كان يسكن غرفةً في أقصى الربع من يمين، كما كان الشّيخ في أقصى الربع من شمال. وكان صاحب الغرفة اليمني رجلاً متوجّس السن قد جاوز الأربعين من غير شكٍ ولكنّه لم يبلغ الخمسين. وكان طالب علم، وقد أنفق في الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يظفر بدرجة العالمية بعد، ولم يستثن من الظرف بها، ولكنه لم يقصر عليها جهده ولم يقف عليها حياته، وإنما كان يطلبها ويطلب معها أشياء أخرى هي التي يطلبها الناس في حياتهم؛ فقد كان له زوج وكان له بنون، وكان يمنح زوجه وأبناءه من وقته إجازة الصيف وإجازة الصوم. وهذه الإجازات القصار التي كانت تتخلل دراسة الأزهريين أحياناً. وكان أهله يُقيمون في القرية قريباً من القاهرة؛ فلم يكن الانتقال إليهم والارتحال عنهم يكلّفان الرجل جهداً ثقيلاً أو نفداً كثيراً. وكان كثيرون من أهل إقليميه يملكون قطعاً أو قطعاً صغيرةً من الأرض، وقد أصهر إلى رجل يملك قطعاً أو قطعاً من الأرض أيضاً، فلم يكن فقير الحال كما كان يُقال في ذلك الوقت، ولكنه لم يكن عظيم اليسار؛ وكان قبل كلّ شيء مقتضياً يوشك اقتصاده أن يبلغ البخل. وكان حبه للعلم معتدلاً، وكانت رغبته في العلم متواضعة، وكان إقباله على الدرس ضئيلاً جدّاً، وكان ذكائه أضالل من إقباله على الدرس، واستعداده لفهم العلم أقل من إقباله عليه، وكان مع ذلك يرى نفسه ذكيّاً، ويرى نفسه مظلوماً؛ لأنّه تقدّم لنيل الدرجة فرداً عنها واشتبّطت عليه اللجنة في الامتحان، فقد أنفق في الأزهر أكثر من عشرين

سنة ولم يتقدّم للامتحان، وكان يستطيع أن يتقدّم بعد اثنتي عشرة سنة، ولكنه لم يفعل؛ لأنّه كان يرى الأزهر من وراء منظار قاتم أو شاحب. كان يُسيء الظن بالطلاب، وكان يرى — مخطئاً أو مصيبة، وأكبر الظن أنه كان مخطئاً — أن الدرجات لا تناول في الأزهر بالذكاء والبراعة، ولا بالجد والتحصيل، وإنما تناول من جهة بالحظ والمصادفة، ومن جهة أخرى بالتملّق وحسن الحيلة والمهارة في التوسل إلى المحتذين. وكان يرى أن الحظ قد ظلمه وتحول عنه لسببٍ مجهول، وأنه مُحقق إن تقدم إلى الامتحان؛ فالخير في ~~الآلا~~ يتقدّم.

وكان يبتديء عامة الأزهري مصمماً على أن يتأهّب للامتحان، فيتفق مع جماعة من أصدقائه على أن يقرأ معهم طائفة من الكتب التي لم يكن بدُّ من إتقانها قبل التقدّم للامتحان، ثم لا يمضي شهر أو شهرين حتى يشعر بأنّ الحظ لا يُواتيه، فيهمل ثم يكسل ثم ينصرف عن الدرس إلى غيره من شؤون الحياة. وكان يعتقد أن الحظ قد ظلمه مرة أخرى، فلم يمنحه من نباهة الذكر ومن هذا الذكاء الخداع ما يلفت إليه الشيوخ، كما منح فلاناً وفلاناً من أصدقائه، مع أنه في حقيقة الأمر ليس أقل من أصدقائه فهماً للعلم، ولا قدرة على التصرف فيه.

ولم يكن يُخفي إذا تحدّث إلى أصدقائه الشباب أنه كان يعرف الطريق المأمونة المضمونة إلى الدرجة، وأنه كثيراً ما راود نفسه عن سلوكيها، ولكنَّ نفسه لم تطب قطُّ عن بيع قيراط أو قيراطين ليظفر بهذه الدرجة التي تمنّه لقلب العالم، وتزيد جرائمه أرغفة، وتُغلِّ عليه آخر الشهر خمسة وسبعين قرشاً.

وكان من أجل هذا كله ينتظر أن تصفو له الأيام، ويبتسم له وجه الحظ، كما ابتسם لصديقه ومواطنه فلان في العام الماضي؛ فقد أقام صديقه هذا طالباً للعلم ربع قرن، وكان ذكياً بارعاً، ثم تقدّم فجأة إلى الامتحان فلم يجُزْه ناجحاً فحسب، ولكنه ظفر بالدرجة الثانية لا بالدرجة الثالثة، ولو أنه أحسن التقرُّب إلى فلان من أعضاء اللجنة لظفر بالدرجة الأولى.

فليتظر إذن كما انتظر صديقه، ولعل الحظ أن يواتيه كما واتي صديقه، فالأمر كله إلى الحظ أيها الأصدقاء؛ فقد درست كما تدرسون وتعرب كما تتربون، وأنا أتمنى أن يكون حظكم خيراً من حظي وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمئن فيه.

وكان هؤلاء الشباب يسمعون من أصحابهم هذه الأحاديث فيحفظونها ويُثبّتون في أنفسهم طريقة في إلقائها، وكانت طريقة طريفة حقاً؛ فقد كان يتحدث في هدوء شديدٍ

وصوت هو إلى الخفوت أقرب منه إلى الجهر، وكان يعتمد على ألفاظه كأنما يريد أن يثبتها في آذان سامعيه. وكان يفصل بين أحاديثه هذه بكثير من الفكاهات والنوارد التي كان يراها غريبة مضحكة، فيضحك لها ويُطيل الضحك، وقد مرّت على أصدقائه فلم تضحكهم ولم تلفتهم، ولكنهم رأوه يضحك فوجموا، ثم رأوا ضحكه متصلًا فضحكوا، ثم رأوا إغرائه في الضحك فأغرقوا فيه. وكان ضحكه غريباً مُضحّكاً حقاً إن جاز هذا التعبير؛ فقد كان يبده عاليًا ثم يقطعه ويضحك صامتاً لحظة، ثم يستأنفه عاليًا ثم يقطعه ويمضي فيه صامتاً، ثم يستأنفه، وهكذا.

وكان الطلاب إذا خلوا إلى أنفسهم أعادوا أحاديثه، ورددوا ألفاظه، وقلدوا ضحكه وقضوا في ذلك ساعةً مسلية سارةً.

ولكنَّ الذي كان يُعجب هؤلاء الشباب من صديقهم هذا شيء آخر؛ فقد كان صاحب لذة بل صاحب إغراء في اللذة وتهاك عليها. وكان يحب الحديث عن لذاته، ويستمتع بتفاصيل هذا الحديث كما يستمتع بذاته نفسها أو أكثر مما يستمتع بذاته نفسها. وكانت الذات التي يمعن فيها ويتحدث عنها بريئة إن شئت، وأنثمة إن شئت أيضًا. كان يذكر لذاته إذا خلا إلى أهله ويفصّل ذلك تفصيلاً منكراً يقطعه بضحكه الغريب. وكان يذكر لذاته إذا جلس إلى طعامه الدسم في القرية وإلى طعامه الخشن في المدينة، ويفصّل ذلك بفكاهاه النادرة الفاترة وضحكه المتقطع المتصل.

وكان يذكر لذاته إذا سعى في شوارع المدينة وفي حاراتها، وإذا وقف في الربع نفسه يستنشق الهواء وألقى عينيه إلى الطبقة السفل، فلم يكن يرى امرأة في الشارع أو الحارة أو الربع إلا فصّلها بعينيه تفصيلاً، وحللها في نفسه تحليلاً، وجرّدتها من ثيابها تحريراً، ووجد في هذا الجهد الآثم لذة لا تقل عنده إثماً. ولم يكن يُسمّي المرأة امرأة ولا سيدة ولا أنثى، ولا شيئاً مما تعود الناس أن يسموها، وإنما كان يُسمّيها فخذلاً. ولم تكن المرأة النحيلة تعدل عنده شيئاً، وإنما المرأة كل المرأة من ضخمت حتى اكتظت أعضاؤها بالشحم واللحم، وكان يشبهها بالوسائل حيناً وبالحشايا حيناً آخر.

وكان يستدل على مذهبها هذا بقول كعب بن زهير في صاحبته سعاد:

هيفاءٌ مُقبلاً عجزاءً مدبرةً لا يُشتكي قصر منها ولا طول

وكان يقول لأصدقائه: ألا ترون أنه لم يذكر أن صاحبته كانت هيفاء إذا أقبلت حتى استدرك أمره وقوّم رأيه فذكر أنها عجزاء إذا أدبرت! ثم يمضي بعد ذلك في ألوان

شنيعة من التفصيل، ثم يقص الفكاهات وينثر النوادر، ويُرسل الضحك ثم يُمسكه، وقد ملك على هؤلاء الشباب أمرهم بما يُلقي إليهم من حديث، وأي شيء أبلغ أثراً في نفوس الشباب المحرمون هذه اللذات بريئها وأثمنها من هذا الحديث!

وكان الصبيُّ يسمع ذلك وهو في ركته منحنٍ مطروقًّا كأنه ليس مع القوم، وما يقوته من حديث القوم لفظ، وما تشد عنه من أصوات القوم نبرة. وكان يقول في نفسه: لو عرف هؤلاء الرجال مقدار ما أسمع لهم وما آخذ عنهم لاجتنبوا أن يُديروا مثل هذه الأحاديث بمحضرِ من الصبية الناشئين.

وقد أنفق الرجل منذ عرفة الصبيَّ أعواماً في الربع اختلفت عليه فيها شئون كانت كلها تُضحك في ظاهر الأمر، ولكنها تُحزن وتثير الأسى عند الرؤية والتفكير.

كان فلاحاً بأدق ما تؤدي هذه الكلمة من معاني الحب للأرض، والحرص على المال، والجزع كل الجزع أن يُغلب في بيع أو تأجير أو شراء. وكان المال، والمال وحده، يسيطر على أمره كله إذا ذهب إلى قريته أو فكر فيها أو لقي أحداً من أهلها. وكان صاحب لذةٍ بأدق ما تؤدي هذه الكلمة من معاني الاستجابة للحس والطلب لهذه المتع القريبة التي لا تحتاج إلى رقة نفس ولا إلى دقة عاطفة ولا إلى صفاء ذوق. وكان طلبه للعلم وانتظاره للدرجة وسيلة من وسائله – أو قُل غاية من غاياته – يستريح إليها إذا جدَّ في تحصيل المال حتى أعياد الجُّدد، وإذا تهالك على الاستمتاع باللذة حتى أضناه الاستمتاع. هناك يعود إلى زَبْعِيه ويستقر في غرفته، ويُفكِّر في زملائه وشيوخه ودرجته، ويتحدث إلى أصدقائه هؤلاء، ويشاركونه في بعض الطعام ويشاركونه في بعض الشاي. ولكنه كان على هذا كله مؤمناً شديداً بالإيمان، له نزعات صوفية غريبة تخرجه بين حين وحين عن أطواره هذه كلها، وتتردّه زاهداً متقدشاً يأخذ نفسه بالشدة والعنف، ويفرض عليها عذاب الحرمان والجوع.

وقد اختلف مع حَمِيمِيه ذات يوم في بعض الأمور، وزهد في زوجه الفلاحة، وطمح إلى أن يتخد لنفسه زوجاً من أهل القاهرة، ويُصهر إلى أسرة متحضرة متأنقة، فطلق امرأته. وكان يتحدث بآماله هذه إلى أصدقائه مُفصلاً لهم في أصرح الألفاظ وأبشعها ما يكون من الفروق بين نساء المدينة ونساء الريف. ولكنه أصبح ذات يوم وقد صُرِّف عن المال وصرف عن نساء المدينة ونساء الريف، وصرف عن لذة الطعام والشاي؛ لأنَّه أحسن أن الحظ سيواتيه إن تقدم للامتحان، فلا بدَّ إذن من أن يتقدَّم، ولا بدَّ إذن من أن يتهمياً لهذا الصراع بينه وبين الشيوخ، وأمامه أشهر يستطيع أن يستعدَّ فيها، فليتعَبَّ أصدقاءه

وزملاءه القدماء والمحدين، وليفرغ للأصول والفقه وللبلاغة والنحو والتوحيد، ولهذه المواد التي كان يتألف منها «التعيين». وقد فعل، وتقىم لامتحان وكان يوم امتحانه يوماً مشهوداً.

أقبل على اللجنة مع الصباح وانصرف عنها عند المساء، فأتعبهما وأتعبه، وكان قد دَبَّر لنفسه حيلة ظريفة يسْتَرِيغ بها من اللجنة إن اشتبَطَت عليه، فاشترى بطيخة أو جماعة من البطيخ وتركها قريباً من غرفة الامتحان، وزعم اللجنة حين أدخل عليها أنه مريض بسلس البول، واستأنفها في أن ينصرف كلما اضطرته علتة إلى الانصراف، وقد رحمته اللجنة وأذنت له أن ينصرف كلما دعته إلى ذلك. فكان يأخذ في تقرير الدرس ويأخذ في محاورة الممتحنين إن ألقى عليهم أحدهم هذا السؤال أو ذاك، ثم يقطع تقريره أو حواره فجأة ويسْتَأْذِنُ في الخروج، فإذا خرج لم يذهب إلى حيث يرضي حاجة أو يَشْفَى علة، وإنما ذهب إلى حيث يصِيب مقداراً من البطيخ ببرد به قلبه ويشحذ به ذهنه ويسْتَرِدْ به خاطره كما كان يقول، ثم عاد إلى اللجنة فاستأنف التقرير أو الحوار من حيث قطع التقرير أو الحوار. وما زال باللجنة وما زالت اللجنة به حتى انقضى أكثر النهار، وعاد إلى غرفته سعيداً موفوراً؛ فقد أتيح له النجاح وظفر بالدرجة الثالثة وأصبح من العلماء.

وتفرق عنه أصدقاؤه مع الصيف، فلما لَقُوه من الخريف كان قد فارق غرفته في الربع وحقق آماله تلك، فأصهر إلى أسرة من المدينة، وأقام معها غير بعيد من مسكنه القديم.

وقد أخذته نزعته الصوفية ذات يوم، فاعتزم أن يعتكف في المسجد أيامًا يرопض نفسه فيها على الصلاة والصوم وذكر الله. وقد فعل، فلزم الخلوة أيامًا لا أدرى كم عددها ولكنها لم تكن قليلة؛ فقد خرج من الخلوة نحيلًا منهومًا. فلما عاد إلى أهله أنكروه، ولعلهم سخروا من رجولته، فعادت إليه نفسه الفلاحة المتهاكلة على اللذات، وأدراكه حميتة الريفية، فخرج مع الصباح حتى أتى مطعماً أو قهوة فأسرف على نفسه أشد الإسراف فيما أطْفَأَ به نار هذا الإفطار من شاي، ثم أضاف إلى كل ما ألقى في جوفه من سائل وجامدٍ شيئاً من هذه الأشياء التي كان أمثاله يُشيرون إليها ولا يسمونها؛ فلما استقرَّ هذا كله — أو اضطرب — في جوفه عاد إلى أهله فائراً ثائراً، فأنكروا قوته واتقوه، وانتهى أمره إلى أن همَّ بأن يثبت من النافذة لولا أن أدركه بعض أعضاء الأسرة فردوه عن ذلك بعد جهد وأوثقوه، وإذا هو مجنون قد ذهب عقله.

وما ينسى الصبي ذلك الصوت الذي كان يصل إليه ذات ليلة بعد أن صُلِّيَت العشاء، والذي وقف له أولئك الشباب من الطلاب وأجميين محزونين تزيد دموعهم أن تنهل فلا يمسكها إلا الحباء. وكان ذلك الصوت صوت ذلك الرجل الذي أخذه الجنون وأطلق لسانه فهو يتغنى بأبشع الهذيان، فلما أصبح ذهب به أصهاره إلى المستشفى هناك حيث يُداوى أمثاله. وقد أقام في هذا المستشفى أسبوعاً، ثم خرج منه وقد تغيرت حاله كلَّ التغيير؛ فانخفض صوته أكثر مما كان منخفضاً، وهدأت حركاته وانقطع ضحكه، وأصبح يبعث في نفس من يلقاء شيئاً غريباً من الخوف منه والإشراق عليه.

وقد مضت الأيام بما تمضي به من الأحداث، وتفرق عن هذا الرجل أصدقاؤه الشباب، وزهب كل منهم لوجه من وجوه الحياة، وقلَّ لقاوهم لهذا الرجل ثم انقطع، وجعلت أخباره تصل إليهم متقطعة، ثم انقطعت هي أيضاً، وأنباء المتبع ذات يوم بأنه قد مات.

فسمع أصدقاؤه هذا النبأ فحزنت نفوسهم لحظة، ولكن عيونهم لم تذرف دمعة، ولكن وجوههم لم تنقبض إلا قليلاً، وإنما انطلقت ألسنتهم بهذه الآية الكريمة التي تتلوها دائماً كلما انتهى إليها النَّغْيُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

## الفصل الثامن

وغرفة أخرى من غرفات هذا الربع كانت تقوم فيه غير بعيد عن شمالك إذا صعدت السلم، وكانت مصدر فكاهة ودعاية لهؤلاء الشباب أيضاً. كان يسكنها شاب لعله كان أكبر من هؤلاء الطلاب شيئاً، وقد كان أقدم منهم عهداً بالأزهر، ولكنه كان من جيلهم ومن طبقتهم على كل حال. كان نحيف الصوت يكفي أن تسمعه لتضحك من صوته، وكان ضيق العقل لم يأذن الله للون من ألوان العلم أن يستقر في رأسه؛ لأن عقله كان محدوداً محصوراً. وكان قصير الذكاء لم يأذن الله لذهنه أن ينفذ إلى أقرب شيء وراء ما كان يقرأ في الكتب على اختلافها. وكان مع ذلك واسع الثقة بنفسه بعيد الطمع في مستقبله مطمئناً في غير تكليفٍ إلى أنه ك أصحابه هؤلاء الذين يعيشون معهم ويشاركون في أكثر ما يختلفون إليه من الدروس.

كان يشهد معهم درس الفقه ودرس البلاغة ودرس الأستاذ الإمام. ولم يكن يخفُّ درس الأصول؛ لأن هذا الدرس كان يقتضيه أن يخرج من غرفته مع الفجر، وقد كان لراحةه مؤثراً وبها ضئيناً. وكان يشارك أصحابه في بعض مطالعاتهم، وكان يشاركونهم بنوع خاص في هذه المطالعات التي لا تتصل بالدروس المنظمة ولا بالكتب التي كان الشيوخ يقرءونها.

فقد كان هؤلاء الشبان يضيقون بكتب الأزهر ضيقاً شديداً، يتأنرون في ذلك برأي أستاذهم «الإمام» في كتب الأزهر ومناهجه. وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حين يشهدون درسه أو حين يزورونه في داره أسماء كتب قيمة في النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضاً، وكانت هذه الكتب القيمة بغية إلى شيخ الأزهر؛ لأنهم لم يألفوها، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب؛ لأن الأستاذ الإمام قد ذللَ عليها ونوه بها. وكان الذين ينافسون الأستاذ الإمام من الشيوخ الأعلام يحاولون أن يذهبوا مذهبهم فيدللون طلابهم

على كتب قيمة أخرى، لا تقرأ في الأزهر؛ لأن الأزهريين لم يألفوا قراءتها. وكان هؤلاء الطلاب لا يكادون يسمعون اسم كتاب من هذه الكتب حتى يسرعوا إلى شرائه إن وسعهم ذلك، وربما كلفوا أنفسهم في هذا الشراء جهدا ثقيلاً وحرمانا شديداً، فإن أعياده ذلك استعاروه من مكتبة الأزهر، ثم أقبلوا عليه ينظرون فيه، ثم انقروا على أن يقرءوه جماعة، ويتعاونوا على فهمه.

كان يدفعهم إلى ذلك حبهم الصادق للأستاذ الإمام ورغبتهم الصادقة في العلم والاطلاع. وربما دفعهم إلى ذلك مع هذه العاطفة شيء من غرور الشباب؛ فقد كانوا يفخرون بتلمذتهم للأستاذ الإمام وللشيخ بخيت وللشيخ أبي خطوة وللشيخ راضي، وكانوا يملئون أفواههم بأنهم تلاميذ هؤلاء الأنئمة وبأنهم من تلاميذهם المقربين المصطفين. ولم يكونوا يكتفون بالاختلاف إلى هؤلاء الشيوخ في دروسهم، وإنما كانوا يزورون شيوخهم في بيوتهم، وربما شاركوه في بعض البحث، وربما استمعوا منهم دروساً خاصة في يوم الخميس بعد أن تصلّى الظهر أو بعد أن تصلّى العشاء. وكانوا لا يكرهون أن يعرف عنهم زملاؤهم هذا كلّه، وأن يتحدث عنهم زملاؤهم بأنهم يقرءون بينهم هذا الكتاب أو ذاك في هذا الفن أو ذاك، وكانوا قد وصلوا بهذا كله إلى شيء ظاهر من الامتياز بين زملائهم، حتى عرفوا في الأزهر كله بأنهم أنجب طلاب الأزهر وأخلقهم بالمستقبل السعيد. فكان من العقول أن يسعى إليهم الأوساط من زملائهم وأصفيائهم، ويلتمسون الاتصال بهم والامتياز حين يعرف الناس أنهم من أصدقائهم وأصفيائهم، ويلتمسون بذلك الوسيلة إلى أن يتصلوا ببار الشيوخ وأئمة الأساتذة. وكان صاحبنا من هؤلاء الطلاب الأوساط، قد اتصل بهذه الجماعة من الطلاب؛ ليقول زملاؤه إنه واحد منهم، ولسيططع بحكم هذه الصلة أن يصبحهم في زياراتهم للأستاذ الإمام أو الشيخ بخيت. وكان غرور الشباب يحب إلى هذه الجماعة هذا النوع من الامتياز، وبهون عليها قبول هؤلاء الطفليين في العلم من ضعاف الطلاب وأوساطهم، ثم يتتيح لهم بعد ذلك، حين يخلون إلى أنفسهم وقد أحصوا على هؤلاء الزملاء جهالاتهم وسخافاتهم وأغلاطهم الشنيعة، أن يعيدوا ذلك وأن يضحكوا منه ملء أفواههم وملء جنوبهم أيضاً. وأكبر الظن أن أصحابهم هذا قد عرفهم في بعض الدروس، فما زال يدny نفسه منهم حتى اتصل بهم فزارهم. ثم أعجبه ربّعهم وأعجبه جواره لهم في هذا الربع، فاتخذ فيه غرفة وأصبح واحداً منهم، يشاركون في الدرس، ويشاركون في الشاي، ويشاركون في الزيارات

ويشاركهم في بعض الشهرة. ولكن الله لم يفتح عليه قط بأن يشاركهم في العلم والفهم، وفي الإبارة والإيضاح. ويظهر أنه كان أوسع منهم يداً، وأكثر منهم مالاً، أو قد: إنه كان يقترب على نفسه إذا خلا إليها، فإذا اتصل بأصحابه يسرّ على نفسه وأنفق عن سعة. وربما كان يشعر بحاجتهم إلى النقد لشراء كتاب، أو لأداء دين عاجل، أو لإرضاء حاجة ملحة؛ فيقدم إليهم من ذلك ما يريدون رفيقاً بهم متلطفاً لهم. وكانوا يعرفون ذلك له ويحمدونه، ولكنهم لم يكونوا يطيقون جهله، وربما لم يملكون أنفسهم فضحكوا من هذا الجهل بمحضر منه، ورددوا عليه سخفه رُدًّا عنيفاً فيه كثير من الازدراء القاسي، ولكنه كان يقبل ذلك راضياً، ويلاقاه باسماً، وما أظن أنهم قد عرفوا في وجهه الغضب يوماً على كثرة ما كانوا يتلقون عليه بالغضب منه والازدراء له. وكان أجمل ما كانوا يتذرون به عليه علمه بالعروض، أو جهله بالعروض فكلاهما سواء. كان يطالع معهم كتاباً في النحو، فلا يكاد يعرض لهم شاهد - وما أكثر ما تعرض الشواهد في كتب النحو - حتى يكون أسرعهم إلى رد هذا الشاهد إلى بحر من أبحر العروض، لم يكن يختلف قط وإنما كان «البسيط» دائمًا، وقد يكون البيت من «الطوبل»، وقد يكون من «الوافر»، وقد يكون من أيّ بحر من أحبر الشعر، ولكنه كان «بسيطًا» دائمًا.

والغريب أنه لم يكن يكتفي بالإسراع إلى إعلان أن هذا البيت من البسيط، وإنما كان يسرع فجأة في تقطيع البيت يرده إلى البسيط، مهما يكن وزنه، فيقطع على الجماعة درسهم، ويدفعهم إلى بحر من الضحك لا يكاد يعرف له حدٌ. وقد كثر منه ذلك حتى أغري به أصحابه وأطعمهم فيه؛ فكانوا كلما عرض لهم بيت من الشعر أظهروا العجز عن رده إلى وزنه حتى ينبعهم صاحبهم بأنه من البسيط، فإذا فعل أظهروا العجز عن تقطيع البيت حتى يأخذ صاحبهم في تقطيعه فيرده إلى البسيط، وهناك يستأنفون الضحك، ويستأنفون الاستهزاء، ويلقاهم هو بهذه الابتسامة الراضية التي لا تعرف الغضب ولا الغيظ.

وقد أقام هذا الشاب على ذلك مع أصدقائه أعواماً طوالاً لم يغاضبهم ولم يغاضبوا. وكأنه أحسن آخر الأمر أنه ليس من تلك الحلة، وأنه لا يستطيع أن يجري في ذلك الميدان؛ فأخذ يتخلّف قليلاً قليلاً عن الدروس، ويتكلّف التعلّات والمعاذير، لا يشارك القوم في مطالعتهم، ويكتفي بالمشاركة في الشاي والطعام أحياناً، والزيارات دائمًا.

وقد تقدمت السنُّ بالصبي في أثناء ذلك، وتقدمَ به الدرس أيضاً، وإذا هذا الشاب يُظهر العطف عليه والقدر له، وإذا هو يعرض عليه أن يقرأ معه الكتب، ويُعرض عن

مشاركة أقرانه وأنداده إلى مشاركة هذا الغلام الناشئ، ويأخذ الغلام في أن يقرأ معه كتاباً في الحديث وأخرى في المنطق وأخرى في التوحيد، ولكنه لا يجد عنده غناء. وليس الغلام فارغاً للضحك منه والتندر به، وليس هو قادرًا على ذلك ولا راغباً فيه، وإذا هو يحتال في التخلص منه والمضي لشأنه.

إذا هذا الرجل يترك العلم أو يتركه العلم، ولكنه يظل محسوباً على الأزهر طالباً فيه مشاركاً لأصحابه في الناحية الاجتماعية من حياتهم، وقد ارتفت حياتهم بعض الشيء؛ رقاها ذكاؤهم وجدُّهم وتفوقهم ورضاء الأستاذ الإمام عنهم وتقربيه إياهم، وإذا هم يتصلون بفلان وفلان من أبناء الأسر الغنية الثرية الذين كانوا يطلبون العلم في الأزهر إذ ذاك، وإذا الزيارات تتصل بينهم وبين هؤلاء الشبان الأغنياء الآثرياء، وصاحبهم معهم يزور ويزار، وترتقي حياته الاجتماعية كما ارتفت حياة أصحابه. ولكن أصحابه لا يحسون هذا الارتفاع ولا يقادون يشعرون به، وهم إذن لا يتحدون به ولا يتمددون بزياراتهم لتلك البيوت الممتازة وجلوسيهم إلى أصحابها النابحين، وإنما يرون ذلك شيئاً طبيعياً مألوفاً. فأما صاحبهم فهو الذي يراه المجد كل المجد، ويستمد منه الغبطة كل الغبطة والغرور كل الغرور، ويستغله لبعض منافعه المادية أحياناً، ويتحدث به دائمًا إلى من أراد أن يسمع له ومن لم يرد.

وتمضي الأيام ويتفرق هؤلاء الطلاب، وقد أخذ كل واحد منهم طريقه في الحياة. ولكن هذا الرجل لا ينساهم ولا يسمح لهم أن ينسوه، قد عجز عن تتبعهم في العلم فليتبعهم في غيره مما تمتى به الحياة؛ يزورهم وإن لم يزوروه، ويلقاهم في زيارتهم عند فلان أو فلان من أصحاب المنزلة والثراء.

وقد خرج الأستاذ الإمام من الأزهر في تلك المحنة السياسية المعروفة، وإذا صاحبنا متصل بالأستاذ وشيعته، متصل بخصوص الأستاذ الإمام وشيعتهم أيضاً. وقد أخذ الأزهر يضطرب، ودخلت السياسة في ذلك الاضطراب، واحتضنت فيه السلطان، وإذا صاحبنا يتصل بالمضربيين مشاركاً لهم في الإضراب، ويتصل بخصوص الإضراب مفشيًّا لهم أسرار المضريين، ويكتشف الأمر ذات يوم، ويا له من يوم! عن أن صاحبنا قد كان متصلة بالمحافظة، فتقطع الصلة قطعاً عنيفاً بينه وبين أصدقائه، ويرد عن البيوت التي كان يسعى إليها ويستقبل فيها، ويقع في غرفته تلك في الرابع قد خسر الناس جميعاً ولم يخسر أحد. وقد قصرت به همته عن درجة الأزهر فهو ينفق حياته الخامدة وحيداً بائساً محتملاً خموله على مضض مكتسباً عيشه في مشقة.

## الفصل الثامن

ثم يُنبئ النبئ ذات يوم بأنه قد مات، أمات من علة؟ أمات من حسرة؟ أم مات من الحرمان؟ ولكن أصدقاءه يسمعون النَّعْيَ فلا يأخذهم وجوم، ولا يمس نفوسهم حزن، وإنما يتلون هذه الآية الكريمة التي نتلوها دائمًا حين يُنْعَى إلينا الناس: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل التاسع

وكان الربع خالياً أو كالخالي حين أقبل الصبي عليه لأول مرة، لم يكن أهله قد عادوا إليه بعد إجازة الصوم. وقد عرف الصبي بعد ذلك أن طلاب الأزهر كانوا يستحبون الإبطاء في العودة إلى القاهرة بعد هذه الإجازة خاصة، ففي هذا الوقت كانت تبدأ السنة الأزهرية، وكأن الطلاب والعلماء كانوا يجدون شيئاً من المしゃقة والجهد في مفارقة أهلهم وأوطانهم، فكانتوا يطيلون إجازتهم يومين أو أيامًا، وربما أطالواها أسبوعاً أو أكثر من أسبوع. ولم يكن عليهم من ذلك بأس؛ فقد كان الأزهر حينئذ في آخر أيام السعيدة التي لم يكن النظام يُحصي فيها على الأساتذة والطلاب أيام العمل وأيام الراحة، والتي لم يكن فيها النظام يأخذ الأساتذة والطلاب بهذه المواظبة القاسية على الدرس في جميع أيامه وفي جميع أوقاته. وإنما كان الأمر هينًا سهلاً؛ تُعين المشيخة آخر الإجازة وأول العمل، والأساتذة أحراز يبدعون متى أرادوا أو متى استطاعوا. والطلاب أحراز يُقبلون على الدروس متى أحبوا أو متى أتاحت لهم ظروفهم أن يُقبلوا عليها.

كان الأمر هينًا سهلاً، وكان يعتمد على الرغبة والإرادة أكثر مما يعتمد على الدقة المقررة والنظام المحتوم، وكان أجدر أن يميز أصحاب الجد والعمل من أصحاب الكسل والعبر، وأن يدفع الطلاب إلى العلم حبًّا فيه وطموحًا إليه لا طاعةً للأمر ولا إشفاقًا من العقاب.

وكان الأساتذة والطلاب يستمتعون بهذه الحرية الحلوة السمححة في قصدٍ واعتدال، فكان الأسبوعان الأولان من أيام الدرس أسبوعيًّا حرية وسعة، كما كانا أسبوعيًّا مودة وتعارف وبر.

يقبل الطلاب من بلادهم على مهلٍ، فإذا أقبلوا تزاوروا وبر بعضهم بعضاً، ثم سعوا إلى دروسهم على مهلٍ أيضًا. ويقبل الأساتذة من بلادهم في آناء ورَبِّيَّث، فإذا أقبلوا هيئوا

منازلهم للإقامة الطويلة، ثم سعى بعضهم إلى بعض بالتحية والود، ثم بدءوا دروسهم لا معجلين ولا مرهقين. على أن كثيراً من الأساتذة والطلاب كانوا يؤثرون العلم على أهلهم وأوطانهم، فمنهم من يُقيم في القاهرة أثناء الإجازة دارساً في بيته أو في الأزهر نفسه أو في غيره من المساجد. ومنهم من كان يتوجّل العودة إلى القاهرة متى سُنحت له الفرصة وسمحت له الظروف؛ ليأخذ من الدرس الحرّ الخاص نصيباً قبل أن يبدأ في الدرس المنظم المشترك.

من أجل هذا كان الرابع خالياً أو كالخالي حين أقبل عليه الصبي وأخوه، لم يكن يعمره إلا عَمِي الحاج عليٌ وزميلان من زملاء الشيخ الفتى وهذان الفارسيان. ثم لم يكد الصبي يستقر في الرابع يوماً ويوماً، حتى أخذ أهله يعودون إليه منفردين ومحتمعين مع الصباح ومع المساء، وحتى أخذ الرابع يتمتّع بالحركة والنشاط، وترتفع فيه الأصوات من يمين وشمال، ويأخذ شكل المكان المزدحم بأهله أشد الازدحام. وقد كان مزدحماً بأهله حَقاً: فقد كان بعض غرفاته يكتظُ بالطلاب على نحو غريبٍ، حتى لقد كان يسكن غرفة من هذه الغرفات عشرون طالباً.

كيف كانوا يجلسون؟ كيف كانوا يدرسون؟ كيف كانوا ينامون؟ هذه أسئلة ألقاها الصبي على نفسه ولكنه لم يجد لها جواباً، وإنما عرف أن أجر الغرفة لم يكن يزيد عن خمسة وعشرين قرشاً، وربما نزل إلى العشرين في كل شهر، فكان الطالب يسكن بقرش واحدٍ في الشهر على هذا النحو.

وهذا يُصور حال هذه الجماعات الضخمة من أبناء الريف التي كانت تَفْدُ على القاهرة لتدرس العلم والدين في الأزهر؛ فتصيب من العلم والدين ما تستطيع، ولكنها تصيب معها ألواناً من علل الأجسام والأخلاق والعقول أيضاً. وكانت الغرفة التي تلي غرفة الصبي من جهة اليمين خاليةً أثناء الأسبوع الأول، لم يسمع الصبي من قِيلها صوتاً أو حركة. ثم انقضى الأسبوع وأقبل أسبوع آخر، فلم تُشغِل الغرفة ولم تأت من قِبَلها حركة أو صوت، حتى أخذ الطلاب يتساءلون عن الشيخ الذي كان يسكنها قبل الصوم: ما خطبه؟ ويقول بعضهم لبعض: لعله تحوّل عن هذا الرابع إلى مكان آخر. ولكن الصبي استيقظ في ليلة من ليالي الجمعة على صوت عمي الحاج علي يشق الليل وعلى صوت عصاه تضرب الأرض، ففكرا كما كان يُفكِّر، وانتظر صوت المؤذن كما كان ينتظره، وأنذن مع المؤذن في نفسه كما كان يفعل. وانقطع الصوت، وجعلت نفس الصبي تتبع المصلين في المسجد وهم يقبلون على صلاتهم، منهم المتعجل النشيط ومنهم المتأقل المتبدّل، وإذا

صوت غريب مرتفع يشق الحائط من وراء الصبي ويبلغ أذنه، فيبعث في جسمه رعدة تجري فيه من رأسه إلى قدميه. ولم ينس الصبي قط هذا الصوت، ولم يذكره قط إلا ضحكت له نفسه وإن شغل الحِدُّ شفتيه عن الابتسام. كان صوتاً غريباً، ملأ الصبي رعباً أول الأمر، ثم دفعه إلى ضحك مرتفع لم يستطع أن يملكه على ما كان يخاف من إيقاظ أخيه: أَلَّا... أَلَّا... الله الله الله أَكَّ... أَلَّا... الله أَكَّ... الله أَكَّ... الله أكبر ...

كذلك وصل الصوت إلى الصبي، فأنكر أوله وأنكر ترددده، وعرف آخره. ولكن الصوت لم ينقطع عند انتهاء التكبير، وإنما استئنف بعد ذلك مرة ومرة، حتى استقرَّ آخر الأمر وقد أخذت حروف التكبير مواضعها من فم المصوٌّت بها ومن الهواء ومن أذن الصبي ونفسه أيضاً، ومضى الصوت من وراء الحائط بعد ذلك يقرأ الفاتحة، فعرف الصبي أنه صوت رجل يُصلِّي، ومضى الصوت يقرأ الفاتحة حتى بلغ قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فوقف عند السين ولم يستطع أن يتقدم، وإذا هو يستأنف التكبير على نحو ما بدأه: «أَلَّا... أَلَّا... الله أَكَّ... أَلَّا...» هنالك لم يملك الصبي نفسه فاندفع في ضحك مرتفع متصل استيقظ له أخوه فزعاً، وسأل الصبي ما به؟ فلم يستطع الصبي جواباً، ولكن أخاه لم يحتاج إلى هذا الجواب فقد سمعه من وراء الحائط، فاندفع هو أيضاً في ضحكٍ مكملاً، ثم قال للصبي في صوت خافت: مهلاً؛ فهذا جارنا الشيخ فلان قد عاد وهو يُصلِّي الصبح وهو شافعي.

واستأنف الشيخ الفتى صمته وهدوءه يدعوه إليه النوم. وضبط الصبي نفسه وتتبع صوت الشيخ من وراء الحائط حتى أتم صلاته بعد جهد ثقيل. ولكن سؤلاً قد استقرَّ في نفس الصبي: ما بال هذا الشيخ الشافعي يُكلّف نفسه هذا الجهد وهذا العناء ولا يتم صلاته إلا بعد هذه المشقة التي لا تُطاق؟ فلما أصبح سألاً أخيه متشجعاً، فعرف منه أن الشيخ موسوس بعض الشيء، وأنه يريد أن يتحقق نية الصلاة، وأن يخلص قلبه ونفسه وضميره لله إذا أقبل على صلاته وفي أثناء مُضييه فيها. فإذا رأيته يتعدد ويعود من حيث بدأ ويقطع الصلاة ليبيتها، فاعلم أنه قد أحس عارضاً من أمور الدنيا عَرَضَ لنفسه فصرفها عَمَّا ينبغي أن تخصل له من ذكر الله.

وكان هذا الشيخ هادئاً أشدَّ الهدوء، لا يكاد يُسمع له صوت ولا تكاد تُسمع له حركة إلا إذا صلَّى الفجر، وقد احتاج الصبي إلى أيام وأيام ليعود نفسه هذا الصوت، وليس معه دون أن يضحك منه أو يرثى لصاحبه من شر الوسواس الخناس الذي يُوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

ولم يبق في نفس الصبي من هذا الشيخ بعد أن مضت الأعوام إلا ذكرى هذا الصوت، وذكرى قصتين شهد إدحاماً بنفسه وتحدث إليه بالأخرى الرواة، فاما الأولى: فقد كانت للصبي مع الشيخ حين تقدمَ به السنُّ وحين تقدَّمَ به الدرس وحين بدأ يسمع دروس البلاغة، فقد ذهب يحضر درس الشيخ وسمعه يُفسِّر الجملة المشهورة في «التلخيص»: «ولكل كلمة مع صاحبها مقام». وما أكثر ما يقال حول هذه الجملة من كلام في «المختصر» و«المطول» و«الأطول» وفي الشروح والحواشى والتقارير، وهي على ذلك واضحة جلية لا تعمية فيها ولا غموض. وكان الشيخ كغيره من شيوخ الأزهر يُقبل على تفسير هذه الجملة وتقرير ما يُقال حولها من كلام كثير، مجهوداً مكروداً قد بُحَّ صوته وخارت قواه وتصبَّ جبينه عرقاً، وأمانة العلم كما تعرف ثقيلة جدًا لا ينهض بها إلا الأقواء، وقليلٌ ما هم.

فأخذ الغلام يناقش الأستاذ في بعض ما كان يقول كأنه مع أساندته جميعاً، ولكن الشيخ رد عليه فأفحمه وألجمه وملاً قلبه في وقت واحد غيظاً وازدراءً وخجلًا. قال الشيخ للغلام: دع عنك هذا يا بُنْيَّ، فإنك لا تحسنه وإنما تحسن هذه القشور التي تُقبل عليها في الضحى، فاما اللباب فلم تُخلق له ولم يُخلق لك. وضحك الشيخ وتضاحك الطلاب، واستحينا الغلام أن يقوم عن الدرس قبل تمامه، فأقام على مضض حتى انصرف مع غيره من الطلاب. وكانت القشور التي عرَّض بها الشيخ والتي كان الغلام يُقبل عليها في الضحى دروس الأدب وكتاب «الكامل» للمبرد خاصة. ومنذ ذلك الوقت سقط الشيخ في نفس الغلام وبُغضِّ إليها، وقد كان الغلام يُحبه ويُكرهه. وأصبح الشيخ موضوعاً من موضوعات الفكاهة التي كان الغلام يلهو بها مع أترابه في الضحى قبل درس القشور، وعند الظهر بعد درس القشور. وجاءت القصة الأخرى من قصتي الشيخ، فلم تُزدِّ الغلام إلا عبثاً به وتندراً عليه وتفكُّها مع أترابه بقول الشعر فيه. ومع ذلك فقد كانت قصة يسيرة لا غرابة فيها، ولكن أيُّ شيء أيسر من ضحك الشباب!

كان للشيخ ابن لا يظهر عليه الذكاء ولا يدل شيء من أمره على أنه قد خُلق لطلب العلم. ولكنه مع ذلك كان يطلب العلم، وكان يعيش مع أبيه في غرفته هادئاً كأبيه، صامتاً كأبيه، حسن الجوار كأبيه. وأقبل ذات يوم أو ذات ليلة على أبيه نفرٌ من أصدقائه يزورونه، فطلب القهوة إلى ابنه وقدمت القهوة بعد لحظات، وأقبل الشيوخ على فناجينهم في شرِّه إليها كعادتهم، فعيَّوا فيها، أو قل: مصوّهاً مصاً طويلاً له صوت طويل، ولكنهم لم يكادوا يبلغون حلوتهم بما مصوّوا حتى رَدَّته حلوتهم رداً عنيفاً، وإذا

هم جميعاً يسعون وينحنون مت Hwyf in لذلك يريدون أن يُبرئوا حلوهم مما أصابها، وقد جرت القهوة واللعل على لحاظهم وتصورهم وهم يسعون ويطردون اضطراباً شديداً؛ ذلك لأنهم لم يشربوا قهوة البن، وإنما شربوا قهوة النشوق، أخطأ الفتى علبة البن، وأخذ مكانها علبة النشوق.

وكانت لقصة الغلام مع الشيخ في درس البلاغة عاقبها؛ فقد انصرف عن الشيخ إلى شيخ آخر كان مجاوراً له في الرَّبِيع، وكانت غرفته تلي غرفة الشيخ الموسوس، وكان شافعيًّا مثله ولكنه لم يكن موسوساً. وكان أهداً الناس وأرزن الناس وأطيبهم قلباً وأقلهم كلاماً، لم يسمع الصبي صوته إلا حين كان يُلقي السلام عليه أو على من يمر به من أصحابه. فلما انصرف الغلام عن درس الشيخ الأول ذهب من غده إلى درس الشيخ الثاني، وكان يُلقي درسه في تلك القبة من جامع محمد بك أبي الذهب، وكان الغلام يعرف هذا الجامع حق المعرفة، سمع دروس النحو والمنطق في جميع أماكنه وزواياه، وكانت له قصص قد نلم بها في هذا الحديث.

فأقبل الغلام إذن مع الظاهر منصوره من درس القشور، فصعد هذه الدرجات التي كان يألفها، ثم خلع حذاءه ومشي في هذا المر بين حلقتين من حلقات الدرس طالما عرفهما. وتحطى عتبة القبة وجلس في حلقة الشيخ. فلم ينتظر إلا قليلاً، حتى أقبل الشيخ هادئاً كعادته، فحمد الله وصَلَّى على نبيه وأخذ يقرأ قول المؤلف في تنكير المبتدأ وفي نكته ومزاياه، ثم مضى حتى وصل إلى استشهاد المؤلف بالآية الكريمة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، فجعل يعال مع المؤلف والشارح والمحشى والمقرر تنكير الرضوان بكلام لم يعجب الغلام ولم يقع من نفسه، ولم يستطع الغلام أن يصبر على ما كان يسمع، فأخذ يجادل الشيخ، ولكنه لم يك يفعل حتى قطع الشيخ عليه كلامه وقال في صوته الهادئ المطمئن: «اسكت يا بُني، فتح الله عليك وغفر لك ووقانا شرك وشر أمثالك، اتق الله فيينا ولا تُشاركونا في هذا الدرس فتفسد علينا أمراً، وانصرف إلى ما أنت فيه من هذه القشور الضالة المضلة التي تُقبل عليها في الضحى!»

وتضاحك الطلاب، ووجه الغلام، واستأنف الشيخ قراءاته وتفسيره في صوته الهادئ المطمئن الرزين. وأقام الغلام على مضض حتى انصرف الطلاب، فانصرف معهم ثائراً محزوناً وقد أعرض عن دروس البلاغة وأنفق بقية عامه يخرج من درس القشور إذا كان الظهر، فيمضي إلى دار الكتب في باب الخلق فيمكث فيها إلى أن يحين إغلاقها قبيل الغروب.

أكان اتفاق الشيختين على رد الغلام عن علمهما مصادفةً أم كان أمراً مُدبراً؟ لم يعرف الغلام ذلك، ولكن ذكرى هاتين القصتين الآن تعجلُ للحوادث دعا إليه الاستطراد، فالخير أن نعود إلى الربع ومن كان فيه، وما كان فيه، حين أقبل عليه الصبيُّ لأول عهده بطلب العلم.

## الفصل العاشر

وفي زاوية الرَّبع من يمين كانت تقوم غرفة سكتتها أسرة لم يعرف الصبيُّ قط كيف صعدت إلى هذا الرَّبع، ولا كيف استقرت فيه، يأخذها العلم وطلابه من جانبيها، وكان حقها أن تستقر في الطبقة السفلى بين سكان هذه الطبقة من الباعة والعمال. ولكنها صعدت إلى حيث العلم وطلابه وأساتذته، فأقامت بين هذا كله لم تؤذ أحدًا ولم يُؤذها أحدٌ، ولم يتصل الود أو لم تتصل المعرفة بينها وبين أحد.

كانت غريبة في هذا الرَّبع، كما كانت غريبة في القاهرة؛ فقد كانت لهجتها إذا تحدَّثت تدلُّ على أنها قد هبطت من الصعيد، بل من أقصى الصعيد. ولعلَّ غربتها هي التي صعدت بها إلى هذه الطبقة الثانية من الرَّبع، ولم تقف بها عند الطبقة الأولى، فقد كان سكان الطبقة الثانية كلهم غرباء، شيخ من الإسكندرية وفارسيان وطلاب وأساتذة قد أقبلوا من أقطار مصر على اختلافها. فلا يأس على هذه الأسرة الغريبة أن تقيم بين هؤلاء الغرباء. فاما الطبقة الأولى من الرَّبع فقد كان العمال والباعة الذين يسكنونها جميًعا من أهل القاهرة، أو من الذين بعْدَ عهدهم بها حتى أصبحوا من أهلها وورثوا لغتها وعاداتها.

كانت هذه الأسرة تتَّألف من عضوين اثنين: امرأة قد تقدمت بها السن حتى جاوزت الستين، وأصبح من العسير بل من المستحيل أن تتحذ لغة القاهرة وتصطنع عاداتها، وابن لها شاب قد نَيَّف على العشرين ولم يبلغ الثلاثين بعد، فهو حُرّي إذا مضى عليه الزمن أن يلوي لسانه بلغة القاهرة، وأن يأخذ نفسه بعادات أهلها، وكانت الأم لا تصنع شيئاً كما ينبغي لأمثالها حين يترکن الصعيد، ويَقْرُن في غرفات هذا الرَّبع في مدينة القاهرة.

لم تكن تصنع شيئاً لتكسب حياتها، إنما قسم الأمر بينها وبين ابنها قسمة عدلاً، فعلى الفتى أن يجد في الشارع طول النهار ويعود بالقوت مع الليل، وعلى أمه أن تعنى بالغرفة وتهبّي الطعام لابنها ولنفسها.

وكان الفتى بائعاً متوجولاً، يصنع ما يبيعه في غرفته، يبدأ في صنعه مع الصبح، فإذا ارتفع الضحى وكاد النهار يتصف خرج إلى الشارع بما أعد، فجعل يتغنى به متوجلاً متوجلاً في حيث تدفعه قدماه إليه من الشوارع والحرارات، يبعد حيناً ويقرب حيناً، ولكنه لا يعود حتى يبيع ما يحمل، وكان يحمل في الشتاء هذا اللون من ألوان الحلوى الذي يُسمى «غزل البنات»، وكان يحمل في الصيف هذا اللون الآخر من ألوان الحلوى الذي كان يُسمى مرة «جيلاتي» ومرة «دندرمة».

وكان الفتى يصنع هذا اللون أو ذاك فرحاً مرحًا مُتغيّراً أو متكلّفاً للفرح والمرح والغناء، فإذا أتم صناعته حملها ومرّ أمام غرفاتنا هادئاً صامتاً مستأنّياً، حتى إذا انحرف إلى السلم وهبط منه إلى الحارة ارتفع صوته فجأة بغناء حلو رقيق، يمدح فيه ما كان يحمل من طعام، ويدعو إليه طلابه من الصبية والنساء. وكان الفتى كان يستبيح لنفسه الغناء ما أقام في غرفته، ويحظر على نفسه الغناء إذا دخلت غرفات أهل الوقار والجد من العلماء والطلاب، فإذا هبط إلى الطريق العام استباح لنفسه ما يستبيح لها الباعة جميعاً، فغنّى طعامه ودعا الناس إليه. وكان الفتى كان يشعر في نفسه بأن ليس هناك خير في أن يتغنى ما كان يحمل من حلوى أو يدعو إليه أمام هذه الغرفات؛ فأهلها أصحاب جد لا يحفلون بالحلوى ولا ينشطون لها، وإنما يحفلون بالعلم وينشطون للعلم. وأكبر الخلن أن الفتى كان مخططاً في هذا التقدير، فقد كان بين أهل الربع من غير شك من كانوا يحبون غناءه ويشوقون إلى غزل البنات أو إلى الدندرمة، ويذودون أن يقف وأن يكونوا أول من يفتح عليه، ولكنهم لم يكونوا يفعلون، يمنعهم من ذلك الحياة حيناً وضيق ذات اليد أحياناً.

وفي ذات يوم انقطع غناء الفتى وانقطع صوت أدواته التي كان يحرّك بها ألوان الحلوى، وقام مقام هذا الغناء وهذه الأصوات غناء آخر وأصوات أخرى؛ فقد جعل نسوة يختلفن إلى هذه الغرفة متصايحات متضا hakatات أول الأمر، ثم مزغردات متغيّرات ناقرات على الطبول، حتى أصبحت حياة الطلاب والعلماء عناء ثقيلاً. ولكن حياة الصبي رقت لذلك وراقت وامتلأت لذة وحبوراً؛ ذكر ريفه بهذه الطبول وهذه الزغاريد وهذا الغناء، وقد كان يحب هذا كله أشد الحب ويجد فيه لذة ومتاعاً لا يقلان عما كان يجد

من اللذة والمتاع حين كان يستمع لشيوخه وهم يتغنون بما كانوا يلقون في دروسهم من علم، وإن اختلف نوع اللذة والمتاع اختلافاً شديداً.

ثم أضيفت إلى أصوات النساء هذه أصوات أخرى ساعةً من نهار؛ أصوات الحمالين الذين أخذوا يصدعون سلم الرَّبِيع ويذحمون طرقه بما كانوا يحملون إلى هذه الغرفة من متاع، وهم يتضاحكون ويتشاتمون جادين مرة ومازحين مرة أخرى، والنساء يلقينهن ويتكلّقين أمتعتهم بنقر الطبول ورفع الزغاريد وإرسال الغناء. وربما ابتهجت امرأة من أهل الطبقة السفلية البعض ما كانت تسمع وترى، فذكرت يوم زفافها أو استحضرت يوم زفاف ابنتها أو بنتها الذي لم يأت بعد، وإذا هي تزغرد مع المزغردات وقد تغنى مع المغنيات على غير معرفة بأصحاب العرس وعلى غير مودة بينها وبينهن، ولكن الفرح كثير الشيوخ كما أن الحزن كثير الشيوخ، ما أسرع ما تنتقل به العدواي بين المصريين!

وقد جاء اليوم الأكبر يوم الخميس بعد أن لقي العلماء وطلاب العلم من هذا الاضطراب شرّاً عظيماً، أزعج أصحاب الجد منهم عن غرفاتهم وعن الرَّبِيع كله، فذهبوا يلتمسون الهدوء الذي يحتاج إليه الدرس عند أصحابهم أو في المساجد. أقبل يوم الخميس فاشتد الاضطراب حتى تعدد حَدَّ المأолов وتجاوز الرابع إلى الحارة، فضرب السرادق، وجعلت الموسيقى تعزف من العصر، وأقبل ناس من غير أهل الحيٍ فابتھجوا وطُعموا وحيناً بعضهم بعضاً واستمعوا للغناء. والصبي رايش عند نافذته لا يفوته من هذا كل شيء، قد نسي العلم والعلماء والأزهر وأهل الأزهر، ونسي طعامه وشايته وفني في هذه الموسيقى التي كان يسمعها في القاهرة لأول مرة، كما فني في هذه الألوان المختلفة من الأغاني؛ أغاني الشعب في أول الليل، وأغاني الشيخ المحترف حين تقدم الليل.

فأما أخوه وأصحابه فقد هجروا الرابع في هذا اليوم هجراً غير جميل، وأماماً هو فلم يتحوّل عن مكانه حتى تقدم الليل. وكاد عمّي الحاج عليٌّ يخرج من غرفته فيشق الليل بصوته ويضرب الأرض بعصاه، ولكنه لم يفعل، ولو قد فعل لما سمع صوته أحد ولا أحسّ عصاه أحد، وأين كان يقع صوته وعصاه من هذه الضوضاء المنعقدة التي طردت النوم عن الحيٍ كله، وهذا صياح فظيع ينبعث طويلاً ممتدًا، وهذه الزغاريد تحيط به وترقص حوله إن صح أن ترقص الزغاريد، وهذا الفرح والابتهاج يرقصان من حول الألم والعناد؛ فقد أدخل الفتى على أهله. ثم يسعى الليل هادئاً بطيئاً رزينًا، فيمس بيده المظلمة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء، وإذا المصايب قد أطافت، وإذا الأصوات قد سكتت، وإذا النوم قد أقبل رفيقاً كأنه اللص فضمَّ بين ذراعيه أهل الحيٍ جميعاً، إلا

هذا الصبيُّ الذي لم يتحوَّل عن نافذته ولم ينقطع تفكيره في هذا الألم الطويل الممتد، يرقص من حوله فرح عريض مضطرب، ولكنَّ الصبي يعود إلى نفسه؛ لأن صوتاً يأتيه من قريب ينبيء بأن الليل قد انقضى وبأن الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم، ولكنَّ الصبيَّ لم ينم من ليلته، وهو على ذلك ينهض ويتووضأ، حتى إذا فرغ المؤذن من أذانه أدى الصبيُّ صلاة الصبح، ثم التفَّ في لحافه وامتدَّ على بساطه القديم، وذهَلَ عن نفسه أو ذهَلتْ نفسه عنه، فلم تعرفه ولم يعرفها إلا حين أقبل عَمِّي الحاج علىُّ حين ارتفع الضحى يطرق الباب طرقاً عنيفاً، ويصبح صيحته المعروفة: «يا هؤلاء! يا هؤلاء!»

## الفصل الحادي عشر

ولن يتم وصف الربع وتصوير البيئة التي عاش فيها الصبي لأول عهده بالقاهرة، إذا لم يذكر أشخاص كانوا يُقيمون في الربع وكأنهم ليسوا من أهله، وأشخاص آخرون كانوا يلمون بالربع بين حين وحين وكأنهم من أهله المقيمين فيه. فمن المقيمين النازحين ذلك الشيخ الذي تقدّمت به السنُ حتى جاوز الخمسين، والذي طلب العلم جاداً في طلبه ما استطاع، والتمس الدرجة محتملاً في ذاتها ما أطاق، فلم يُحصّل من العلم إلا قليلاً، ولم يتقدم إلى الدرجة إلا رُدّ عنها فيئس ولم ييأس، وأقام جسمه في الربع ونرحت نفسه عنه؛ استحياً أن يعود إلى بلده مخفقاً فأقام في القاهرة، وفي حيث كان يقيم أيام كان يطلب العلم جاداً مجتهداً. ودبَّ أمر أسرته في الريف من بعيد يخطف نفسه إليها يوم الخميس إذا أمسى ليعود إلى الربع يوم السبت إذا أصبح. وله حظٌ من ثراءٍ وفضلٍ من نعمة؛ فهو يعيش بين هؤلاء الطلاب عيشة الأغنياء من أهل الريف. قد أثَّ غرفته بمتعٍ ممتازٍ، وأقام فيها مُصبعاً وممسيناً لا يُفارقها إلا قليلاً، يُخَيِّل إلى الناس أنه يقرأ ويدرس، وأنه قد حفظ العلم ووعي أسفاره فليس هو في حاجة إلى أن يختلف إلى الدروس ويسمع للشيخ، ولو قد أسعده الحظ وواتته الأقدار لكان شيئاً مثلكم يُلقي الدروس ويختلف إليه التلاميذ؛ فقد صحب أكثرهم حين كانوا طلاباً، واستمع معهم للشيخ الإمامي وزار معهم الشيخ الأشموني، ولكن الحظ وَفَّ لهم وأخلفه، فأصبحوا أستاذة وظل هو في هذه المنزلة بين المنزلتين، منزلة الطالب ومنزلة الأستاذ.

ولكنه على كل حال قد اتَّخذ أكثر خصال الأساتذة؛ فهو لا يُشارك أصدقاءه الشباب في درس ولا يقرأ معهم كتاباً، وإنما يلقاهم بين حين وحين متربعاً عليهم شيئاً، مترفقاً بهم قليلاً، يشهد طعامهم وشايهم ويدعوهم إلى طعامه وشاييه. ويتحدث إليهم في صوت

هادئ ممتلئ وبحرف مُضَخَّمة مُفْحَمَة، ولكنه لا يتحدث إليهم في العلم وإنما يتحدث إليهم عن العلماء يعيي أكثراً منهم ويمدح ألقاهم، يغلو في العيب ويقتصر في الثناء. ويتحدث إليهم عن المال وعن تدبيره، وعن مكانته بين أهل القرية وصيته بين أهل المركز وارتفاع شأنه بين أهل الأقاليم. وعن إخوته الذين يُشرفون على الحرف والزرع، وأخيه النابه النجيب الذي عظم نصيبيه من الذكاء وقل نصيبيه من مواة الحظ، فلم يفتح الله عليه بنيل الشهادة الابتدائية على تقدُّم سنٍ حتى كاد يبلغ العشرين؛ لأنَّه كان مُقصِّراً أو غبياً، بل لأنَّ الحظ كان يمانعه ويعاكسه، وقد قررت الأسرة أن تُغالب الحظ، وصم الشيخ على أن يغلب الحظ على أخيه، ويثبت بهذا الفتى من الخمول إلى نهاية الذكر وارتفاع الشأن، فأزمع أن يُدخله المدرسة الهرية ويجعل منه ضابطاً باسلاً تزدان كتفه لا بالنجمة بل بالنجوم، بل بالنجوم.

ولكن الحظ كان أقوى من الشيخ ومن أُسرته، فرد الفتى عن المدرسة؛ لأنَّ هيأته لم تُعجب الممتحنين، والشيخ ساخطٌ على الحظ مصمم على مغالبتة، يتحدث بهذا كله حديثاً متقطعاً متصلًا، تقطعه قرقرة الشيشة التي كان صاحب القهوة يحملها إليه وجه النهار وأخره وحين يتقدم الليل، والتي كان ربما أعدها لنفسه أو أعدها له خادمه الصغير، والتي كانت تُبهِر هؤلاء الطلاب وتشير في نفوسهم شيئاً من الإعجاب بثرائه يُمازج ازدراءهم لجهله وتذرهم بغيائه.

وما ينسى الصبي أن هذا الشيخ الغني أراد ذات يوم أن يتخفف من بعض أثاثه ويشتري خيراً منه وأرقى، فعرض قديمه على هؤلاء الطلاب، فكلهم نكل عن الشراء إلا أخا الصبي، فإنه اشتري منه دولاباً يختلف من قطعتين تقوم إحداهما على الأخرى، فاما القطعة السفلى: فقد كان لها بابان مُصْمَتان، وقد خُصص أعلاهما لثياب الشيخ الفتى وخصوص أسفلها لكتبه التي لم تُجلد، والتي لا يَحْسُنُ أَنْ تُرى، وخصوص جزء منه لما كان الشيخ يحرص على ادخاره لنفسه من طيب الطعام. وكان في أعلى هذه القطعة السفلى درجان خصصهما الشيخ الفتى لأوراقه المنتشرة ولنقوده حين كانت تصل إليه أول الشهر؛ فكان يضعها في أحد هذين الدرجين ويأخذ منها بمقدارٍ بين يوم وبيوم، وقد حفظ مفاتيحهما في جيده. وأما القطعة العليا: فكان لها بابان زجاجيان وقد خُصصت للكتب المجلدة التي يبعث منظرها في النفوس بهجة ورضا.

وقد غالى الشيخ بدولابه هذا وساوم في ثمنه حتى تجاوز به الجنية؛ لأنَّه كان من خشب البندق، واشتراه الشيخ الفتى على ذلك، ومن المحقق أن شراءه قد جرَّ على الشيخ

الفتى وعلى أخيه أعباءً ثقلاً، فلم يكن بُدَّ من دفع هذا الثمن أقساطاً، ومن أن تقطع هذه الأقساط من وظيفة الشهر الضئيلة التي كانت تأتي من القرية، ثم لم يكن بد من أن تُشتري الكتب ومن أن تُجلد وتُرْضَى لتبدو أعقابها مزданة باسم الشيخ الفتى من وراء الزجاج. وكان هذا كله يُقطع من وظيفة الشهر ويضطر الطالبَين إلى أن يُقترا على أنفسهما في الرزق. ثم عجزت وظيفة الشهر عن أن تنهض بهذه الأعباء، فبدأت الاستدانة، وكلَّ ما كان يُودع في الدَّرَج من نقود، وكثُرَ الإلحاح على الشيخ الوالد في أن يزيد الوظيفة أو يُضيف إليها شيئاً بين حين وحين.

ولكن شراء هذا الدولاب قد رفَّه على الصبيِّ وأثار في نفسه كثيراً من الفرح والبهجة؛ فقد كان للشيخ الفتى صندوق طويل عميق عرفه الصبي في أثناء طفولته حين كانت أمه تحفظ فيه ثيابها ونفائس هذه الثياب خاصة، وكان لهذا الصندوق غطاءً مجوفاً قليلاً يُرفع فيتكتَّشَ عن عمقٍ، كان الصبي يراه عظيماً، ويكتشف عن درجين خفيين كانت أمه تحفظ فيها حليها حين كان لها حُلُّ، ثم افتقد الصبيُّ هذا الصندوق في مكانه من الدار ذات يوم فلم يجدُه، وكان كثيراً ما يلعب عنده مع أخواته، وكان كثيراً ما يجلس عليه مُتربيعاً وتجلس أخواته بين يديه على الأرض متربعتاً وهو يقص عليهم أحاديثه ويسمع منهاهن أحاديثهن.

افتقد الصبيُّ هذا الصندوق ذات يوم فلم يجدُه؛ لأنَّه حُمل إلى النيل حيث أودع سفيننة ذاهبة إلى القاهرة، وهناك تلقاء الفتى الشيخ حفظ فيه ثيابه وكتبه التي لم يكن يجد لها مستودعاً. وقد حزن الصبيُّ على هذا الصندوق حزناً شديداً، وأضطر إلى أن يجلس مكانه متربيعاً على الأرض ليتحدَّث إلى أخواته ويسمع منهاهن.

فلما انتقل الصبيُّ إلى القاهرة كان شديداً الشوق إلى أن يمس الصندوق ويجلس عليه ويمسح بيده الصغيرة خشبة الأملس، ولكن الصندوق كان بعيداً من مجلسه، قد وُضع في زاوية من زوايا الغرفة، فلم يكن ذهاب الصبي إليه سهلاً ولا ميسوراً. فلما اشتري الدولاب وانتقلت إليه ثياب الشيخ الفتى وكتبه، سقط أمر الصندوق، فانتقل من مكانه في الغرفة إلى مكان مُهَمَّلٍ في الدَّهْليز يكون عن شمال الصبيِّ إذا دخل، وقيل للصبي: ضع في هذا الصندوق ثيابك وما قد يكون لك من كتب إن اشتريت كتاباً.

ومنذ ذلك الوقت هجر الصبي مجلسه ذاك من الغرفة أثناء النهار واستحيا أن يجلس على الصندوق فيوضح منه من يراه، ولكنه جلس إلى جانبه مما يلي عتبة الغرفة مسنداً ظهره إلى الحائط معتمداً بيده على الصندوق، متحيناً فرصةً إن أتيحت له لينهض

فيجلس على الصندوق ويداعبه، وقد يرفع غطاءه ويضع يده في هذا الدرج ثم في ذاك، ولكنه لم يكن يجد فيهما شيئاً. وربما انحني على ثيابه القليلة التي كانت ملقةً في أعماق هذا الصندوق يقلبها مستمتعًا بذلك، كأنه يملك شيئاً ويتحذ له حرزاً لا يشاركه فيه غرها، ولكن الأيام قد مضت وتبعثها الأيام وإمتلاً هذا الصندوق، كثناً.

وشخص آخر كان يقيم في الربع نازحاً عنه غريباً بين أهله وإن وصلت القرابة بينه وبين بعض هؤلاء الطلاب، ووصل الود الحالص بينه وبينهم جميعاً. كان قصير النظر، لا يكاد يبصر إلا عن قرب شديداً، وكان طويلاً الجسم، طويلاً الإقامة على طلب العلم في الأزهر، طويلاً السكنى في هذا الربع، قد جدَّ في طلب العلم ما استطاع، وجدَّ العلم في الهرب منه ما استطاع، فلم يكن غريباً بين الطلاب وحدهم وإنما كان غريباً بين الكتب التي كانت تملأ غرفته أيضاً، شهد الدروس وسمع من الشيوخ، فلما استيأس من هذا كله قبع في غرفته لا يكاد يتنقل منها إلا إلى هذه الغرفة أو تلك من غرفات الرَّبْع ليتحدَّث إلى هذا الصديق أو ذاك. وقد كان أصدقاؤه من صرفين إلى علمهم ودرسهم فانقطع حتى عن زيارتهم، ولكنه كان طيب القلب، سمح النفس، عذب الحديث، شديد الوفاء، سريعاً إلى معونة أصدقائه، متظاهراً لهم إنْ تَعَسَّرُ الأداء.

فكانوا هم يذكرون له لأنهم كانوا يحبونه، وكانوا هم يزورونه لأنهم كانوا يستمتعون بحديثه ويجدون اللذة في محضره. ولم تطأعه نفسه على فراق القاهرة ولا على ترك الربع، على أنه كان مستيئاً من العلم والدرجة، فأقام حيث كان يدبر أمره أو يُدبر له أمره وهو مقيم في القاهرة، لا هو بالطالب ولا هو بالفلاح ولكنه شيء بين ذلك. وما أكثر ما كان يزوره أقاربه وأهل قريته فيحملون إليه من طيبات الريف ما يسرع فيدعو أصدقاءه إلى المشاركة فيه، أو يسرع فيحمله إليهم في غرفاتهم. وقد أقام هؤلاء الطلاب ما أقاموا في الربع لا يذكرون هذا الصديق إلا محبين له مثنين عليه، ثم تفرقوا وأخذ كل منهم طريقه، وانقطعت عنهم أخباره، ولكنهم ظلّوا لا يذكروننه إلا أشتوه عليه.

وشخص آخر كان يقيم في الرابع، ولكنه لم يكن يسكن فيه غرفةً بعينها ولا يستقرُ منه في مكان بعينه، ولم يكن لقاوه سهلاً ولا التحدث إليه ميسوراً، وإنما كان هؤلاء الشباب يتحدثون عنه بين حين وحين حديثاً مخطوطاً سريعاً مهمواً، يتبعه شيءٌ من الضحك السريع الخفيف الذي كان يقطّعه التحفظ والحياة.

وكان هذا الشخص يزور ولا يُزار، وكان لا يزور وحده إنما يزور ومعه شخص آخر، وكان لا يزور في النهار ولا في أول الليل، ولا يزور في اليقظة وإنما يزور في أوساط الليل وفي أثناء النوم العميق.

وكانت زيارته حلوة البدء مرة العاقبة، وكانت زيارته تُكلِّفُ الدين يُلْمُ بهم عناً ثقيلاً، ربما آذاهم في أنفسهم، ولكنه كان يُؤذِّيهم في علمهم وفي أجسامهم دائمًا، وكان يُعرضُهم للعلة أحياناً وللزكام في كثير من الوقت ولا سيما في الشتاء.

وكان هذا الشخص يُسمى بين هؤلاء الشباب أبي طرطور، ولم يكن هذا الشخص غير الشيطان الذي كان يُلْمُ بأهدهم إذا جنَّ الليل وشمله النوم، فإذا انصرف عنه أفاق الفتى مذعوراً ضيق النفس متائماً متحرجاً، وانتظر حتى يدنو الفجر، فهُبَّ من فراشه عجلًا وجلاً حريصاً على أن يطهَّرْ ليُدرك درس الفجر. فأماماً في الصيف فقد كان الأمر يسيراً محتملاً، وأئِي شيء أيسر وأحب من أن يغمس الفتى نفسه في الماء البارد في هذا المغطس أو ذاك من هذا المسجد أو ذاك، أو أن يصب الفتى على جسمه مقداراً من الماء البارد يعمُّ جسمه ويحقق شرائط الغسل كما فرضتها كتب الفقه! ولكن الجهد كل الجهد والعذاب كل العذاب حين يلم أبو طرطور بالفتى في ليلة من ليالي الشتاء، هناك لا يجد الفتى الوقت لإسخان الماء، ولا يجد الوقت – وقد لا يجد النقد – للذهاب إلى حمام من هذه الحمامات العامة، وحسب أبي طرطور أن يُضيع على الفتى وقته فأماماً أن يُضيع عليه نقهـ فلا.

ولا بد من الذهاب إلى الأزهر ولا بد من الاستماع إلى الدرس، ولا بد من أن يكون الفتى ظاهر النفس والجسم معـاً، وإنـن فهو الماء البارد يُصب على الجسم في البيت صـباً سريعاً ثم الخروج إلى الأزهر. والخير أن يغمس الفتى نفسه في مغطس من مغاطس المساجد؛ ذلك لا يكلفه شيئاً إلا البرد والرعشة، فالماء في البيت يُشتري، وما ينبغي أن يستنفد في غير الشرب إلا أن تقضي بذلك الضرورة، ولا بد من أن تحمل الضرورة نفسها على الاقتصاد.

وكان أبو طرطور ملحاً في زيارته على هؤلاء الشباب، لأنما أقام في أعلى سُلُّم الربع مُختفياً في تلك الزاوية حيث لا يسمع ما كان الطلاب يدرسوـنه من العلم ويقرءونـه من الكتب. فإذا انصرف الطـلاب عن علمـهم أو كتبـهم وخلوا إلى ذلك الشـيخ الذي كان يسكن أقصـى الـربع من شمالـ، أو ذلك الكـهل الذي كان يسكن أقصـى الـربع من يـمينـ، وشبـ أبو طـرطور فدخل عليهم غرفـتهم من حيث لا يـرونـه ولا يـسمـعونـه ولا يـحسـونـه، ثم انـسلـ فـمضـى حتـى رـكبـ كـتفـيـ الشـيخـ أو كـتفـيـ الـكـهلـ أو تـقمـصـهـ وـتـحدـثـ بـصـوـتهـ وـلـسانـهـ إـلـى هـؤـلـاءـ الشـيـبانـ، فـأـثـارـ فـيـ نـفـوسـهـ وـرـءـوـسـهـ هـذـهـ الـخـواـطـرـ الـمـنـكـرـةـ الـتـيـ كـانـ تـصـرـفـهـ عـنـهـ الـكـتـبـ. فإذا تـفـرـقـواـ عـنـ شـيـخـهـ أوـ كـهـلـهـ، وأـوـواـ إـلـىـ مـضـاجـعـهـمـ وـأـغـرـقـواـ فـيـ نـوـمـهـ، كانـ أبوـ طـرـطـورـ قدـ اـخـتـارـ مـنـهـ فـرـيـسـتـهـ فـزارـهـ زـيـارـتـهـ الـمـنـكـرـةـ الـأـثـمـةـ.

وربما استخفى أبو طرطور في زاويته تلك من أعلى السلم، حتى إذا صعدت تلك الفتاة من الطبقة السفلية إلى الطبقة العليا تحمل إلى أحد هؤلاء الطلاب ثيابه غسلة نظيفة، أو تأخذ من أحد هؤلاء الطلاب ثيابه لتنفسها، اعترضها أبو طرطور فسايرها لا يرى ولا يسمع ولا يحسّ، فلا تكاد تدخل على أحد هؤلاء الطلاب، حتى يستحيل أبو طرطور نظرةً تُلقي من طرف هذه الفتاة، أو كلمة تجري على لسانها، أو ابتسامة ترسم على شفتيها أو حركة تنبئ من أحد أعضائها.

ثم تصرف الفتاة وينصرف معها أبو طرطور لم يُر ولم يُسمع ولم يُحسّ، ولكنه مع ذلك قد ضرب للفتى موعداً حين يجده الليل ويشمله النوم. وربما أمعن أبو طرطور في البراعة وغلا في المكر والكيد، فلم يكفل نفسه الصعود إلى أعلى السلم، وإنما اندسَ في الطبقة السفلية، واحتلّ بأولئك النساء اللاتي كُن يختصمُن أحياناً ويتضاحكن أحياناً، ويتحدّثن بأصواتٍ مرتفعةٍ يُشكّلُنها أشكالاً مُختلفةٍ على كل حال؛ فيستحيل أبو طرطور إلى جوهر لطيف يجري في صوت من هذه الأصوات، أو حركة من هذه الحركات، ويرتفع هذا الصوت أو هذه الحركة بأبي طرطور أو يرتفع هو بهذا الصوت أو بهذه الحركة، حتى يبلغ الفتى في الطبقة العليا، وينصرف عنه لوقته وقد ألقى في نفسه شرّاً خفيّاً وضرّ له موعداً حين يجده الليل ويشمله النوم.

وكذلك لم تكن حياة هؤلاء الطلاب في رباعهم وفي أزهارهم صفوًا كلها، ولا علّما كلها، ولم تكن حياة الصبي بين هؤلاء الطلاب صفوًا خالصًا، ولا علّما خالصًا، وإنما كان يلم بهم أبو طرطور فيحمل إليهم عذابًا حلوًا مرّاً، ويسمع الصبيُّ من أحاديثهم ما كان يدعوه إلى التفكير.

## الفصل الثاني عشر

على هذا الربع أقبل الصبي، وفي هذه البيئة عاش. وأكبر الظن أن ما اكتسب فيهما من العلم بالحياة وشئونها والأحياء وأخلاقهم لم يكن أقل خطراً مما اكتسبه في بيته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد.

ولم يكِد الصبيُّ يستقر في ريعه يومين أو ثلاثة، حتى أسلمه أخوه إلى أستاذ كان قد ظفر بالدرجة أثناء الصيف، وكان سيبدأ الدرس ويجلس مجلس الأستاذ من صغار التلاميذ لأول مرة في حياته، وكان قد بلغ الأربعين أو كاد يبلغها. وكان معروفاً بالتفوق مشهوراً بالذكاء، قد غالب الحظ فغلبه، وإن لم يكن انتصاره على الحظ ملائماً لحقه في الفوز، فقد ظفر بالدرجة الثانية، وعدَّ هذا انتصاراً، وقصر عن الدرجة الأولى وعدَّ هذا ظلماً. وكان ذكاًه مقصوراً على العلم، فإذا تجاوزه إلى الحياة العملية فقد كان إلى السذاجة أدنى منه إلى أي شيء آخر. وكان يعرف بين أصدقائه الطلاب والعلماء بأنه محب لبعض لذاته المادية متهالك عليها، يفرض عليه مزاجه ذلك ولا تفرضه عليه رذيلة أو فساد خلق مألف، وكان كثير الأكل قد شُهر بأنه يتهالك على اللحم ولا يستطيع أن ينقطع عن أكله والإسراف فيه يوماً واحداً، وكان ذلك يكلفه عناً كثيراً.

وكان إلى هذا غريب الصوت إذا تحَدَّث، كان صوته مُتهدِّجاً مُتکسِّراً يُقطعُ الحروف تقطيعاً، ويترافق مع ذلك بعضه فوق بعض، وتتفرج شفتاه عن كلامه أكثر مما ينبغي، فلا يكاد يسمعه المتحدث إليه حتى يضحك، ولا يكاد يمضي في الحديث حتى يُقلَّد فتور صوته وتكسره وانفراج الشفتين عنه.

ولم يكِد يظفر بدرجة العالمية حتى أسرع إلى شارة العلماء فاتخذها ولبس «الفراجية» متوجلاً لبسها، ولم يكن العلماء يتَّخذون هذه الشارة إلا بعد أن يَبْعَد عهدهم بالدرجة وتُعرَف لهم في العلم سابقة، وقدْمَةٌ تيسِّر لهم حياتهم المادية شيئاً.

ولكن صاحبنا أسرع إلى «الفراجية» فلبسها وأضحك منه أصحابه من الطلاب وأساتذته من الشيوخ، وزادهم ضحكةً منه وتندرًا عليه أنه كان يلبس الفراجية ويمشي حافياً في نعليه – إن صح هذا التعبير – لا يتخد الجوارب عجزاً منه عنها أو زهدًا منه فيها. وكان إذا مشى في الشارع تناقل وتباطأً واصططع وقار العلماء وجلال العلم، فإذا خطأ عتبة الأزهر ذهب عنه وقاره وفارقته أناته ولم يمش إلا مهولاً.

وقد عرف الصبي رجليه قبل أن يسمع صوته؛ فقد أقبل على مكان درسه لأول مرة مهولاً كما تعود أن يمشي، فعثر بالصبي وكاد يسقط من عثرته، ومسحت رجلان العاريتان اللتان خُشنَ جلدهما يد الصبي فكادت تقطع. ثم مضى حتى جلس وأسند لأول مرة ظهره إلى ذلك العمود الذي تمنى أن يسند ظهره إليه معلمًا.

وكان كفيفه من أقرانه في ذلك الوقت بارغاً في العلوم الأزهرية كلَّ البراعة، ساخطاً على طريقة تعليمها سخطاً شديداً. قد بلغت تعاليم الأستاذ الإمام قلبه فأثربت فيه، ولكنها لم تصل إلى أعماقه؛ فلم يكن مجدداً خالصاً ولا محافظاً خالصاً، وإنما كان شيئاً بين ذلك، وكان هذا يكفي لينظر الشيوخ إليه شزاراً وليلحظوه في شيء من الريبة والإشفاقة. ولم يكدر بيده درسه الأول في الفقه حتى أعلن إلى تلاميذه أنه لن يقرأ لهم كتاب «مراقبي الفلاح على نور الإيضاح» كما تعود الشيوخ أن يقرءوا للتلاميذ المبتدئين، ولكنه سيعلمهم الفقه في غير كتاب بمقدار ما في «مراقبي الفلاح»، فعليهم إذن أن يسمعوا منه ويفهموا عنه، وأن يكتبوا ما يحتاجون إلى كتابته من المذكرات. ثم أخذ في درسه فكان قيّماً ممتعًا، وسار هذه السيرة في درس النحو، فلم يقرأ للتلاميذ «شرح الكفراوي»، ولم يعلمهم الأوجه التسعة لقراءة باسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها، وإنما هيأهم للنحو تهيئه حسنة، وعرّفهم الكلمة والكلام والاسم والفعل والحرف؛ فكان درسه سهلاً ممتعاً أيضاً.

وسئل الصبي أثناء شاي العصر عمّا سمع من أستاذه في الفقه والنحو، فلما أعاد على أخيه وأصحابه ما سمع رضيت الجماعة عن الشيخ وعن منهجه وأقررت طريقته في التعليم. وجعل الصبي يختلف إلى هذين الدرسرين لا يتجاوزهما أياماً لا يذكر عددها، ولكنه كان يسأل نفسه متى ينتسب إلى الأزهر ويصبح طالباً مقيداً في سجلاته؛ فلم يكن في هذه الأيام إلا صبيًّا يستمع إلى هذين الدرسرين استماعاً منظماً محظوماً، ويستمع إلى درس الحديث الذي كان يلقى بعد صلاة الفجر لا لشيء إلا لأنه كان ينتظر أن يفرغ أخوه من درس الأصول، وأن يحين الوقت الذي يبدأ فيه درس الفقه.

وقد أقبل اليوم المشهود، فأنبئ الصبي بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان في حفظ القرآن توطئةً لانتسابه إلى الأزهر. ولم يكن الصبي قد أنبئ بذلك من قبل، فلم يتهيأً لهذا الامتحان، ولو قد أنبئ به لقرأ القرآن على نفسه مرةً أو مرتين قبل ذلك اليوم، ولكنه لم يفكر في تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة، فلما أتني بأنه سيتحسن بعد ساعة خفق قلبه وجلاً، وسعى إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب، ولكنه لم يك يدري من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأةً، وامتلاً قلبه حسرةً وألمًا، وثارت في نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط؛ فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذي كان أمامهما، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أدنه ومن قلبه أسوأ وقع: «أقبل يا أممي!»

ولولا أن أخيه بذراعه فأنهضه في غير رُفقٍ وقاده إلى الممتحنين في غير كلام، لما صدق أن هذه الدعوة قد سبقت إليه؛ فقد كان متَّعِّدًا من أهله كثيراً من الرفق به وتجنبًا لذكر هذه الآفة بمحضره، وكان يُقدر ذلك وإن كان لم ينسَ قط آفته ولم يُشغل قط عن ذكرها. ومع ذلك فقد جلس أمام الممتحنين وطلب إليه أن يقرأ سورة الكهف، فلم يك يمضي في الآيات الأولى منها حتى طلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت، فلم يك يمضي في

الآيات الأولى منها حتى قال له أحد الممتحنين: «انصرف يا أممي، فتح الله عليك.» وقد دُهشَ الصبي لهذا الامتحان الذي لا يُصوَّر شيئاً ولا يدلُّ على حفظه. وقد كان ينتظر على أقل تقدير أن تمحنه اللجنة على نحو ما كان يمحنه أبوه الشيخ. ولكنه انصرف راضياً عن نجاحه، سارخطاً على متحنيه، محتقرًا لامتحانهما. ولم يخرج من زاوية العميان قبل أن يعطف به أخوه على بعض أركانها، فتلقاء هناك أحد الفرّاشين — أو أحد «المشدين» بلغة ذلك الوقت — فأخذ بذراعه اليمنى، وأدار حول معصمه سوارًا من الخيط جمع طرفيه بقطعة مختومة من الرصاص، وقال له: انصرف فتح الله عليك. ولم يفهم الصبي لهذا السوار معنىً، ولكن أخيه أنبأه بأن هذا السوار سيظل حول معصمه أسبوعاً كاملاً حتى يمرّ أمام الطبيب الذي سيتحسن صحته ويُقدر سنّه ويطعمه التطعيم الواقي من الجدري.

وقد كان الصبي خليقاً أن يبتهج بهذا السوار الجديد الذي كان يدل على أنه مرشح للانتساب إلى الأزهر، قد جاز المرحلة الأولى من مراحله، لولا أنه ظل مشغولاً عن السوار بدعوة الممتحن له وصرفة إياه. وأنفق أسبوعه كما تعود أن ينفق أيامه، مستيقظاً على صوت عمى الحاج عليٍّ، ذاهباً إلى الأزهر مع الفجر، عائداً منه بعد درس الفقه، ثم ذاهباً

إلى الأزهر مع الظهر، ثم راجعاً منه بعد درس النحو، ثم مقىماً في مجلسه ذاك، فنائماً في مجلسه ذاك، فغادياً على الأزهر حين يسمع نداء المؤذن بأن الصلاة خير من النوم. وجاء يوم الامتحان الطبي، فذهب إليه الصبيُّ وفي نفسه شيء من الاشفاق أن يدعوه الطبيب كما دعاه المتخن. ولكن الطبيب لم يدعه لأنَّه لم يكن يدعو أحداً، وإنما دفعه أخوه إلى الطبيب دفعاً، فأخذ ذراعه وخطَّ فيها خطوطاً، وقال: «خمسة عشر»، وانتهى الأمر عند هذا الحد. وأصبح الصبيُّ طالباً منتسباً إلى الأزهر، ولم يكن قد بلغ السنَّ التي ذكرها الطبيب والتي لم يكن بُدُّ منها لصحة الانتساب، وإنما كان في الثالثة عشرة من عمره، وقد حلَّ السوار عن معصمه وعاد إلى غرفته وفي نفسه شُكٌ مؤلمٌ لذيد في أمانة المتخنين وفي صدق الطبيب.

## الفصل الثالث عشر

وكانت هذه الحياة شاقة على الصبي وعلى أخيه معًا؛ فاما الصبي فقد كان يستقلُّ ما كان يقدمه إليه من العلم ويتشوّق إلى أن يشاهد أكثر مما كان يشاهد من الدروس، ويبدأ أكثر مما كان قد بدأ من الفنون. وكانت وحدته في الغرفة بعد درس النحو قد تَثْقلَتْ عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتمالاً، وكان يود لو استطاع الحركة أكثر مما كان يتحرك، والكلام أكثر مما كان يتكلم. وأما أخوه فقد تَثْقلَ عليه اضطراره إلى أن يقود الصبي إلى الأزهر وإلى البيت مصبعاً وممسيّاً، وثقلَ عليه أيضًا أن يترك الصبيَّ وحده أكثر الوقت، ولم يكن يستطيع أن يفعل غير هذا؛ فلم يكن من الممكن ولا من الملائم لحياته ودرسه أن يهجر أصدقائه ويتخلّف عن دروسه ويُقْيِّم في تلك الغرفة ملازمًا للصبي مؤنسًا له. ولم يتحدّث الصبيُّ بذات نفسه إلى أحد، ولم يتحدّث أخو الصبيُّ إليه بذات نفسه أيضًا، وأكبر الظن أنه تحدّث بذلك إلى أصدقائه غير مرة، ولكن المشكلة بلغت أقصاها ذات ليلة، وانتهت إلى الحل بعد ذلك دون أن يقول الصبيُّ لأخيه شيئاً أو أن يقول له أخوه شيئاً.

دُعِيت الجماعة ذات يوم إلى أن تَسْمُرَ عند صديق لها سوريًّا لا يسكن الربع ولا يسكن الحي، وقبلت الجماعة دعوة الصديق، ومضى اليوم كما تعودت الأيام أن تمضي. وذهبت الجماعة إلى درس الأستاذ الإمام ثم عادت منه بعد صلاة العشاء، ليتحفَّ كل واحد منها بما كان يحمل من محفظته وأوراقه.

وهيأً الشيخ الفتى أخيه الصبيَّ لنومه كما كان يفعل كل ليلة، وانصرف عنه بعد أن أَطْفَأَ المصباح كما كان ينصرف كل ليلة، ولكنه لم يكُن يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلبَ الصبيَّ على نفسه فأجهش بكاءً كظمه ما استطاع، ولكنه وصل في أكبر الظن إلى أذن الفتى، فلم يُغْيِرْ رأيه ولم يصرفه عن سَمِّره، وإنما أغلق الباب ومضى في وجهه.

وأرضى الصبي حاجة نفسه إلى البكاء ثم عاد إلى اطمئنانه شيئاً فشيئاً، ومثل قصته التي كان يمثلها في كل ليلة، فلم يستسلم إلى النوم إلا بعد أن عاد أخوه. ولكنه أصبح فإذا أخوه يُقدم إليه بعد درس الفقه وبعد أن أفطر ألواناً من الحلوى كان قد اشتراها له في طريقه إلى العودة من سَمَرِه، وقد فَهِمَ الصبيُّ عن أخيه وفهم أخوه عنه، فلم يقل أحدهما لصاحبِه شيئاً.

ومضى يوم ويوم آخر، وأخذ الشيخ الفتى كتاباً من الحاج فiroz ففضله ونظر فيه ثم قال لأنبيه وقد وضع يده على كتفه، وامتلاً صوته حناناً ورفقاً: «لن تكون وحدك في الغرفة منذ غد، فسيحضر ابن خالتك طالباً للعلم، وستجد منه مؤنساً ورفيقاً».

## الفصل الرابع عشر

وكان ابن خالته هذا رفيق صباح، وكان له صديقاً وعنه أثيراً، وكان كثيراً ما يهبط من بلدته في أعلى الإقليم لزيارة الصبي، فينفق معه الشهر أو الأشهر، يختلفان معًا إلى الكتاب فيلعبان وإلى المسجد فليصليان، ثم يعودان مع الأصيل إلى البيت فيقرآن في كتب القصص والسمر، أو يمضيان في ألوان من العبث، أو يخرجان للنزهة عند شجيرات التوت التي كانت تقوم على حافة الإبراهيمية. وكانا كثيراً ما أدرا بينهما ألواناً من الأماني والأحلام، وكانا قد تعااهدا على أن يذهبا معًا إلى القاهرة ويطلبوا العلم معًا في الأزهر.

وكثيراً ما هبط ابن خالته من مدینته في أعلى الإقليم في آخر الصيف وقد أعطته أمه نقوداً وأعدت له زاداً وودعته على أنه سيذهب مع ابن خالته إلى القاهرة ليطلبها فيها العلم معًا. ولكنه كان يشارك صديقه في الانتظار ثم في الغضب ثم في الحزن والبكاء؛ لأن الأسرة رأت – أو لأن الشيخ الفتى رأى – أن الوقت لم يئن لذهابهما إلى القاهرة، ثم كانا يفترقان ويعود الصديق إلى أمه محزوناً كئيباً.

فلا غرابة في أن يقع هذا الخبر من نفس الصبي موقعاً حسناً، ولا غرابة في أن يقضي الصبي مساء راضياً مبهجاً لا يُفكِّر إلا في غد. وقد أقبل الليل وملا الغرفة بظلمته، ولكن الصبي لم يسمع للظلمة في تلك الليلة صوتاً ولا حديثاً، وأكبر الظن أن حشرات الغرفة قد لعبت كما كانت تفعل كل ليلة، ولكن الصبي لم يسمع لها صوتاً ولم يحس لها حركة.

وقد أرق الصبي ليلته كلها، ولكنه كان أرقاً فرحاً مبهجاً، فيه كثير من تَعَجُّلِ الوقت واستبطاء الصبح. وقد ذهب الصبي إلى درس الحديث فسمع صوت الشيخ وهو يتغنى بالسند والمتن، ولكنه لم يُلْقِ إلى الشيخ بالاً، ولم يفهم عنه شيئاً. وذهب بعد ذلك إلى درس الفقه فاستمع له لأنه لم يجد عن ذلك بدداً، فقد كان أخوه أوصى به الشيخ،

وكان الشيخ يُحاوره ويناظره ويضطره إلى أن يسمع له ويفهم عنه. ثم عاد الصبي إلى الغرفة في الضحى فأنفق وقته هارئاً قلقاً.

هارئاً في ظاهر الأمر؛ فقد كان يكره كلَّ الكره أن يظهر أخوه أو أصحابه على أن شيئاً من أمره قد تغير قليلاً أو كثيراً، وقلقاً في دخلية نفسه يتعرجُّ الوقت ويستبطئ العصر الذي سيصل فيه القطار إلى محطة القاهرة.

وقد دعا المؤذن بصلة العصر آخر الأمر، ولم يبقَ بين الصبي وابن خالته إلا هذا الوقت القصير الذي تقطع فيه عربة من عربات النقل هذه المسافة بين المحطة وبين الحيِّ، سالكةً باب البحر فباب الشعيرية متنهية إلى هذا الباب الذي ستتعطف نحوه، فتمر بين دخان القهوة وقرقرة الشيشة.

وهاتان قدمان تضربان أرض الربع لا يتزدَّد الصبي في معرفتهما، وهذا ابن خالته يُقبل فيلقي عليه سلاماً ضاحكاً، ثم يعتنان ضاحكين، وهذا سائق العربة يتبعه وقد حمل ما أرسلته الأسرة إلى الطالبين من الطَّرف والزاد، ومن المحقق أن العشاء سيكون دسمًا هذه الليلة، وأن الأصدقاء جمِيعاً سيُشاركون فيه، وأن الصبيان لن يخلوا لأنفسهما وأحاديثهما إلا حين يذهب القوم ليشهدوا درس الأستاذ الإمام.

ولكن من المحقق أيضاً أن حياة الصبي قد تغيَّرت كلها منذ ذلك اليوم، فذهبت عنه العزلة حتى رغب فيها أحياناً، وكثير عليه العلم حتى ضاق به أحياناً أخرى.

## الفصل الخامس عشر

وأيسر ما تغير من حياته المادية أنه هجر مجلسه من الغرفة على البساط القديم الذي بسط على الحصير البالي العتيق، فلم يعرفه إلا حين كان يجلس للإفطار أو للعشاء، وحين كان يأوي إلى مضجعه حين يتقدم الليل؛ وإنما كان يقضي يومه كله أو أكثره في الأزهر، وفيما حوله من المساجد التي كان يختلف فيها إلى بعض الدروس. فإذا عاد إلى «الربع» لم يدخل الغرفة إلا ليتحفف من عباته، ثم يعود فيخرج منها ليجلس مع صاحبه على فراش ضيق من اللبد قد فرش أمامها وأخذ أكثر الطريق على المارة، فلم يخل لهم منه إلا موضع أقدام الرجل الواحد أو الرجلين.

وفي هذا المجلس كان الصبيان يلهوan بالحديث قليلاً وبالقراءة كثيراً، وقد يفرغان لما كان يجري في الطبقة السفلية من حركة وحديث، يسمع أحدهما، ويرى الآخر ويفسر لصاحبه ما لا يرى.

وكذلك عرف الصبي الرابع أكثر مما كان يعرفه، وعرف من شئون أهله أكثر مما كان يعرف، وسمع من أحاديثهم أكثر مما كان يسمع، عاش جهراً بعد أن كان يعيش سراً. ولكن حياته الخصبة الممتدة منذ أقبل عليه صديقه لم تكن في الغرفة ولا في الربع، وإنما كانت في الأزهر نفسه، فقد استراح الصبي من درس الفجر وتلثّ في غرفته حتى يدنو درس الفقه، فكان يستمتع إذن مع صديقه بصوت الشيخ الموسوس حين كان يُقيم الصلاة في كل يوم، بعد أن كان لا يستمتع بهذا الصوت إلا يوم الجمعة من كل أسبوع. فإذا حان وقت الدرس خرج مع صاحبه إلى الأزهر، فسلكاً الطريق نفسها التي كان يسلكها مع أخيه، ولكنهما يسلكان هذه الطريق متحدثين بالجدّ مرّةً وبالهزل مرّة أخرى، وقد ينحرفان عن حارة الوطاويط تلك القدرة، إلى شارع خان جعفر ذلك النظيف، ويخلسان على كل حال إلى شارع سيدنا الحسين. والغريب أن الصبي تعود

منذ أقبل صديقه عليه ألا يمر بمسجد سيدنا الحسين ولا يدخله إلا قرأ الفاتحة، عُودَه صديقه هذه العادة فدأب عليها. وقد تقدّمت به السنُّ واحتلَّتْ عليه أطوار الحياة، وما يذكر أنه مرَّ بمسجد سيدنا الحسين إلا قرأ في نفسه هذه السورة الكريمة من سور القرآن.

وكان أخو الصبي قد خصص له ولصاحبه مقداراً يسيراً جدًا من النقد ثمناً لإفطارهما، على أن يأخذنا بعد درس الفقه جرایة الشیخ الفتی من رواق الحنفیة، وكانت أربعة أرغفة، فیأكلان منها رغيفین إذا أفترقا ویحفظان منها رغيفین للعشاء، ومع أن هذا المقدار الذي حُصّص لهما من النقد قد كان يسيراً ضئيلاً لا يتتجاوز القرش الواحد في كل يوم، فقد عرفا كیف یقتضدان لیتمعاً أنفسهمما ببعض ما كانت نفوسهمما تتوق إليه من طرائف الطعام والشراب. وما یمنعهما أن یغدوا ذات صباح مع الطیر، فإذا تجاوزا ذلك الباب المغلق من فجوتھ الضیقة، واستدارا لیأخذوا طریقهما نحو الأزهر، وقفوا عند بائع البليلة فأخذ كل منهما قدراً من هذا الطعام الذي کانا یحبانه أشدّ الحب؛ لکثرة ما أكلَا منه في الريف، ولکثرة ما کان یوضع عليه من السكر الذي یختلط بحباته الغلاظ ویدنوب في مائه الشدید الحرارة جدًا، فلا یکادان یسیغانه حتى یطرد عنهما بقية النوم ویُشیع في جسميهما النشاط ویثير في أفواههما وأجوافهما لذة کانا یقدرانها قدرها، ویهیئهما تهیئةً صالحةً لدرس الفقه، یسمعان لحدیث الشیخ وقد عرمت بطونهما ورءوسهمما معاً.

وما یمنعهما إذا کانا في شارع سيدنا الحسين أن یعطفا على هذا البائع أو ذاك فيجلسا على مجلس ضيق من الخشب قد ألقى عليه حصیر ضيق أحياناً، ولم یلْقَ عليه شيء أحياناً أخرى، ولكنه کان وثیراً على كل حال؛ لأن الجلوس عليه کان یصحبه انتظار لذة کانا یحبانها ویقدرانها؛ لذة هذا التبن المرطب الذي یقدم إليهمما في إناء صغير، فیلتهمانه التهاماً ثم یعُبَّان في مائة عبّاً، ثم یأكلان ما کان تحته من زبيب في أناة وهدوء! وما یمنعهما حين یعودان قبل العصر أو بعیده أن یجورا على ثمن العشاء فیقفا عند بائع الهریسة أو بائع البسبوسة، ویرضيا لذاتهما البریئة إلى هذا اللون من الحلوى أو ذاك! وليس على إفطارهما ولا على عشائهما بأس.

فأما الإفطار فقد کان أمرُه يسيراً جدًا: زیارة لبائع من هؤلاء البايعة الذين کانوا یعرضون الفول النابت، ومعهم رغيفاهما وهمما یدفعان إلى هذا البائع ملیمين ونصف ملیم، وقد اشتريا بنصف ملیم حُزمَةً أو حُزمَتَین من کُراتٍ، وهذا البائع یقبل عليهما

بإناء ضخم عميق قد امتلاً مرقاً وسبحت فيه حبات من الفول وألقي عليه قليل من الزيت، فهما يغمسان خبزهما في المرق، ويتصيدان ما تيسّر من حبٍ، ويلتهمان ما تحمله يدهما اليسرى إلى أفواههما من الكراث ... وما يبلغان آخر الرغيف وأخر الكراث حتى يبلغا حظّهما من الطعام وقد امتلاً حتى كادا يكتظان. ولكن في الإناء بقية من مرق، وكان الصبي يستحيي أن يجيب صاحبه إلى ما يعرض عليه من شرب هذا المرق، وكان صاحبه يضحك منه ويرفع الإناء فيعبُّ فيه حتى يرده إلى البائع نظيفاً.

فقد أفطرا إذن ولم ينفقا أكثر من ثلاثة مليمات، وقد غぬما ما طعموا قبل الدرس. وما عليهم الآن إلا أن يعودا إلى الأزهر ليرضيا عقولهما بعد أن رضيت أجسامهما. وكان الصبي قد حرص كلَّ الحرص على أن يواكب على درس شيخه المجد المحافظ في الفقه والنحو، طاعةً لأخيه من جهة وإرضاءً لنفسه من جهة أخرى. ولكنه كان شديد الطمع في أن يسمع لغير هذا الشيخ، وأن يذوق غير هذين اللونين من ألوان العلم. وقد أتيح له ذلك في غير مشقة ولا جهد بفضل هذه الدروس التي كانت تلقى في الضحى بعد أن يفرغ الطلاب من إفطارهم. وقد قرر الصديقان أن يحضرَا شرح «الكفراوي» وكان يُلقى في الضحى من كل يوم، يلقيه شيخ جديد ولكنه قديم؛ جديد في الدرجة، قديم في الصلة بالأزهر، قد تقدمت به السن وطال عليه الطلب حتى ظفر بدرجته، وببدأ كما كان يبدأ أمثاله بقراءة «شرح الكفراوي».

وكان الصبي يسمع من شيخه الأول ومن أخيه وأصحابه عبّاً كثيراً بشرح الكفراوي، وسخطاً كثيراً عليه، فكان ذلك يغريه به ويرغبه فيه.

وما هي إلا أن يحضر الدرس الأول ويسمع الأوجه التسعة في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإنعرابها، حتى يُفتن بهذا اللون من العلم ويكلّف به أشد الكلف، وإذا هو يواكب مع صاحبه في دقة على هذا الدرس من دروس النحو، ويواكب في دقةً أيضًا على درسه القديم. وكان يرى أنه يتعمَّل النحو في درسه القديم، وأنه يلهو بال نحو في درسه الجديد. وكان يلهو في درسه الجديد حقاً؛ يلهو بهذا الإنعراب المتصل الذي ألحَّ فيه الشارح على المتن إلحاحاً شديداً. ويلهو خاصةً بالشيخ الذي كان يقرأ متنه وشرحه ويفسر ما يقرأ في صوت غريب مضحك حقاً، لم يكن يقرأ وإنما كان يغنى، ولم يكن غناوة يصعد من صدره، وإنما كان يهبط من رأسه. وكان صوته قد جمع بين حصلتين متناقضتين، فكان أصم مكظوماً، وكان معتداً عريضاً.

وكان الشيخ على ذلك من أهل الصعيد أو قل من أقصى الصعيد، وكان قد احتفظ بلهجته الإقليمية لم يُغيِّر منها شيئاً لا في الكلام ولا في القراءة ولا في الغناء. وكان الشيخ

على هذا كله غليظَ الطبع، يقرأ في عنف، ويُسألُ الطلاب ويرد عليهم في عنف. وكان سريع الغضب، لا يكاد يُسأل حتى يشتم؛ فإن الحَاجَةُ على السائل لم يُعْفِه من لعنة إن كان قريباً منه، ومن رمية بحذائه إن كان مجلسه منه بعيداً. وكان حذاءُ الشِّيخ غليظاً كصوته جافياً كثيابه؛ فلم يكن يتَّخذ العباءة، وإنما كان يتَّخذ «الدَّفِيَّة». كان حذاءُ الشِّيخ غليظاً جافياً، وكانت نعله قد ملئت بالمسامير، وكان ذلك أمنٌ للحذاء وأمنٌ له من البَلَى، ففَكَرَ في الطالب الذي كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء في وجهه أو فيما يبدو من جسمه! ومن أَجْلِ هَذَا أَشْفَقَ الطَّلَابَ مِنْ سُؤَالِ الشِّيخِ وَخَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِرَاءَةِ وَالتَّفَسِيرِ وَالتَّقْرِيرِ وَالغَنَاءِ. ومن أَجْلِ ذَلِكِ لَمْ يُضْعِفْ الشِّيخَ وَقْتَهُ وَلَا وَقْتَ الطَّلَابِ، وَبِأَسْنَتِه الْدَّرَاسِيَّةَ بِشَرْحِ الْكَفَراوِيِّ، وَلَمْ تَنْتَهِ هَذِهِ السَّنَةَ حَتَّى كَانَ قَدْ أَتَمَ «شَرْحَ الشِّيخِ خَالِدَ».

فَقَرَأَ الطَّلَابُ فِي سَنَةِ دَرَاسِيَّةِ وَاحِدَةٍ كَتَابَيْنِ، عَلَى حِينَ لَمْ يَكُنْ غَيْرُهُمْ يَقْرَئُونَ مَعَهُمْ غَيْرَ هَذَا الشِّيخَ إِلَّا كَتَبَيْنِ وَاحِدَيْنِ، وَعَلَى حِينَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الشِّيخُ الْمَجْدُ الْمَحَافَظُ قَدْ تَجاوزَ بِطْلَابَ الْقَلِيلِيْنَ الْأَبْوَابَ الْأُولَى مِنَ النَّحْوِ.

وكان لهذا كله أثرٌ في حياة الصبي النحوية – إن صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ – فقد قضى إجازة الصيف وعاد إلى القاهرة، فلم يَرِ شِيخَهُ الْمَحَافَظَ الْمَجْدُ، وإنما سَلَكَ طَرِيقَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَزْهَرِيْنِ، فَحَضَرَ فِي الْفَقِهِ «شَرْحَ الطَّائِيِّ عَلَى الْكَنْزِ»، وَحَضَرَ فِي النَّحْوِ «حَاشِيَةُ الْعَطَّارِ عَلَى شَرْحِ الْأَزْهَرِيِّ». وَلَكِنَّ مِنَ الْخَيْرِ أَلَا نَتَعَجَّلَ الْحَوَادِثَ وَأَنْ نَبْقَى مَعَ صَاحِبِنَا فِي سَنَتِهِ الْأُولَى.

كان إذن يفرغ من درس الضحى فينتقل إلى درس الظهر، ثم يعود إلى غرفته فيقرأ مع صاحبه مطالعاً دروسه غداً كما كان يفعل أصحاب الحِجَّةِ من الطلاب، أو متَّنقلاً بين كتب مختلفة يفهم عنها أو لا يفهم. فإذا دعيت الشمس إلى غروبها أقبل الصديقان على عشائهما، وكان يختلف رقةً وغلظاً باختلاف ما بقي لهما من نقد؛ فإن كان قد بقي لهما نصف القرش قسماه نصفين، فاشتريا بنصفه شيئاً من الحلوة الطحينية وبنصفه الآخر شيئاً من الجبن الرومي، وأقبلَا عَلَى عَشَاءٍ مَتَّرِفٍ لِذِيْنِ يَجْمِعُهُنَّ فِيهِ عَلَى الْلَّقْمَةِ الْوَاحِدَةِ قَطْعَةً مِنَ الْجِبْنِ وَقَطْعَةً مِنَ الْحَلْوَةِ، وَيَرِيَانَ لَهُمَا الْمَزَاجُ الْغَرِيبُ طَعْمًا لِذِيْنِهِ. وإن كانت البليلة أو التيَّن قد أسرفاً عَلَيْهِمَا فِي نقدِهِمَا فَلَمْ يَبْقَ لَهُمَا مِنْهُ إِلَّا رِبعَ القرش، اشتريا بما بَقِيَ لَهُمَا شَيْئاً مِنَ الطَّحِينَةِ ثُمَّ صَبَّا عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ عَسلِ أَسْوَدٍ أو أَبْيَضٍ كَانَ يَأْتِيهِمَا مِنَ الْرِّيفِ، ثُمَّ أَقْبَلَا عَلَى عَشَاءٍ لَيْسَ بِالْفَخْمِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَبْأَسُ بِهِ.

فإن جارت البليلة أو التيَّن أو كلَّاهما على نقدِهِمَا فَلَمْ يُبْقِيَا مِنْهُ شَيْئاً، فَلَيْسَ عَلَيْهِمَا مِنْ بَأْسٍ، لَقَدْ حَفَظَا رَغْيِيهِمَا، وَفِي الْغَرْفَةِ هَذِهِ الصَّفِيفَةِ أَوْ تِلْكَ، فِي هَذِهِ الْعَسْلِ الْأَسْوَدِ،

وفي تلك العسل الأبيض، فليأخذوا من هذا العسل شيئاً وليغمسا فيه رغيفهما، فذلك يجزئ عما كانا يجدان في الحلاوة والجبن والطحينة من ترف. وربما أباحتا لأنفسهما على هذا البؤس شيئاً من ترف فغمسا رغيفهما الأول وقد اقتسماه في العسل الأسود، ثم غمسا رغيفهما الثاني وقد اقتسماه أيضاً في العسل الأبيض. وقد جعلت الشمس تُسرع إلى غروبها، وكاد المؤذن يصعد إلى مئذنته، فليس مع الصديقان إذن إلى الأزهر، فهما يحضران درساً بعد صلاة المغرب كما يفعل أولئك الطلاب الكبار، هما يحضران درساً في المنطق، يحضران «متن السلم» للأخضري، ومن الحق أنهما كانوا يحضران هذا الدرس على شيخٍ كان يرى نفسه عالماً وإن لم يعترف له الأزهر بالعالمية، طال عليه الوقت، واشتدَّ إلحاذه في طلب الدرجة فلم يظفر بها، ولكنه لم ييأس منها ولم يرض بحكم المتخنين فيه، فجعل يطاولهم من جهة، ويغيظهم من جهة أخرى. يطاولهم بحضور الدرس والتقدم للامتحان، ويعيظهم بالجلوس إلى أحد الأعمدة إذا صلّيت المغرب ومن حوله جماعة من الطلاب وهو يقرأ لهم كتاباً في المنطق كما يقرأ العلماء المتازون؛ فلم يكن يهجم على تعليم المنطق إلا هؤلاء العلماء المتازون. ومن الحق أن ذلك الطالب الشيخ لم يكن بارغاً في العلم ولا ماهراً في التعليم، وأن جهله وعجزه كانوا يظهران حتى لهؤلاء التلاميذ البدائيين. ومن الحق أنه كان من أقصى الصعيد، وكان محظوظاً بلهجته كما عرفها قبل أن يُقبل على الأزهر، ولم يكن يغير منها شيئاً في قراءته وحديثه.

ومن الحق آخر الأمر أنه كان سريع الغضب شديد الحدة، ولكنه لم يكن يشتم التلاميذ ولا يضربهم، أولم يكن يجرؤ على شتم التلاميذ وضربيهم؛ مما ينبغي ذلك إلا للعالم حقاً وصدقأً، الذي نال الدرجة، ونال معها الإذن الضمني بشتم التلاميذ أو ضربهم.

كل هذا كان حقاً، وكل هذا سمعه الصديقان من أولئك الطلاب الكبار، ولكنه لم يمنعهما من حضور الدرس والموااظبة عليه، ليقولا لأنفسهما إنهما يدرسان المنطق، وليرقولا لأنفسهما إنهما يذهبان إلى الأزهر بعد صلاة المغرب ويعودان منه بعد صلاة العشاء، كما يفعل الطلاب الكبار المتقدمون.

وما أسرع ما انقضت السنة الأولى! وما أسرع ما ختمتْ دروس الفقه والنحو! وما أسرع ما دعيَ التلاميذ إلى التفرق ثم الرحيل إلى حيث يُنفقون الصيف بين أهلهم في المدن والقرى! وما أشدَّ ما كان الصبي يتشوّق إلى هذه الإجازة ويتحرّق حنيناً إلى الريف!

ولكن الإجازة قد أقبلت، وإذا هو يريد أن يمتنع عن الرحيل وأن يبقى في القاهرة. أكان صادقاً في هذا التمنُّع؟ أم كان متَّكلَّفاً له؟ كان صادقاً وكان متَّكلَّفاً معاً. كان صادقاً؛ لأنَّه أحبَّ القاهرة وكيفَ بها وشقَّ عليه فراقُها وقد كرِه الرحيل دائمًا. وكان مُتَّكلَّفاً؛ فقد كان أخوه يقضي أكثر إجازته في القاهرة، وكانت الأُسرة تكبر منه ذلك وتراه آية حِدٌّ واجتها، وكان يريد أن يصنع صُنْعَ أخيه، وأن يُظْنَّ به ما كان يُظْنَّ بأخيه، ولكن تمنُّعه لم يغُّ عنه شيئاً، وهو ذا يركب مع صاحبه عربة من عربات النقل ومعهما ثيابهما قد لُفتُ في حُزْمَتَينِ وقد بلغا المحطة، وأخذَت لهما تذكرةتان ثم دُفعتا إليهما، ثم وُضعا في عربة مزدحمة من عربات الدرجة الثالثة، ثم تحرك القطار. ولم يك يمضي قليلاً ويبلغ محطة بعد القاهرة أو محطتين حتى نسي الصديقان أرههما وقاهرتهما ورَبْعُهُما، ولم يذكرا إلا شيئاً واحداً هو الريف، وما سيكون فيه من هذه ونعيم.

## الفصل السادس عشر

وكانت العشاء قد صليت حين نزل الصبيان من القطار، فلم يجدا في المحطة أحداً، فأنكرا ذلك شيئاً، ولكنهما وصلا إلى الدار، فإذا كل شيء كان يجري فيها كما كانت تجري الأمور في كل يوم؛ قد فرغت الأسرة من عشائهما منذ وقت طويل، وأتَّمَ الشيخ صلاته ثم خرج كعادته فجلس مع أصحابه غير بعيد من الدار، وتناول الصبية، وجعلت أختهم الصغرى تحملهم واحداً واحداً إلى مسامعهم. واضطجعت أمُ الصبي على فراش من اللُّبد تحت السماء تستريح، والنوم يُلْمُ بها ثم يصرف عنها، ومن حولها بناتها قد جلس يتحدثن كعادتهن في كل ليلة، حتى يقضى الشيخ سمره القصير ثم يعود إلى الدار، فتأوي الأسرة كلها إلى مسامعها، ويشمل الدار سكون وهدوء لا يقطعهما إلا تناوح الكلاب وتصايخ الديكة في داخل الدار وفي أطراف القرية.

فلما دخل الصبيان وجمت الأسرة لدخولهما ولم تكن قد أُبَيِّنَت بعودتهم، فلم تعدَّ لهما عشاءً خاصاً، ولم تنتظرهما بالعشاء المألف، ولم ترسل أحداً لتلقايهما عند نزولهما من القطار.

وكذلك أُضَيَّعَ على الصبي ما كان يدبر في نفسه من الأماني، وما كان يقدِّر من أنه سيستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ في ابتهاج وحفاوة واستعداد عظيم. على أن أمِه نهضت فقبلته، ونهضت إليه أخواته فضممنه إليهن. وقدَّمَ إليه وإلى صاحبه عشاءً كعشائهما في القاهرة. وأقبل الشيخ فأعطى ابنه يده ليقبلها ثم سأله عن أخيه في القاهرة، وأوتَّ الأسرة كلها إلى مسامعها، ونام الصبي في مضجعه القديم، وهو يكتم في صدره كثيراً من الغيظ وكثيراً من خيبة الأمل أيضاً.

ومضت الحياة بعد ذلك في الدار والقرية كما كانت تمضي قبل أن يذهب الصبي إلى القاهرة ويطلب العلم في الأزهر، وأنه لم يذهب إلى القاهرة ولم يجلس إلى العلماء

ولم يدرس الفقه والنحو والمنطق والحديث. وإذا هو مضطرب كما كان يُضطر من قبل إلى أن يلقى «سيدينا» بالتحية والإكرام، ويقبل يده كما كان يفعل من قبل، ويسمع منه كلامه الفارغ الكثير كما كان يسمعه من قبل. وإذا هو مضطرب إلى أن يذهب بين وقتٍ وأخر إلى الكتاب لينفق الوقت، وإذا التلميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديماً، لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع في القاهرة، ولو قد سألوه لخَبِرْهُم بالكثير.

وأكثر من هذا كله أنه لم يُقبل أحد من أهل القرية على الدار لِيَسْلِمَ على الصبيّ الشیخ بعد أن عاد إليها وقد غاب عنها سنة دراسية كاملة، وإنما كان يلقاه منهم هذا الرجل أو ذاك، فيلقي عليه في فتور وإعراض هذا السؤال: ها أنت ذا؟ أعدت من القاهرة؟ كيف أنت؟ ثم يلقي عليه هذا السؤال الآخر معنِياً به رافعاً به صوته: وكيف تركت أخاك الشیخ؟

وقد استقر إذن في نفس الصبي أنه ما زال، كما كان قبل رحلته إلى القاهرة، قليلاً الخطر ضئيل الشأن لا يستحق عنايةً به ولا سؤالاً عنه، فآذى ذلك غروره، وقد كان غروره شديداً، وزاده ذلك إمعاناً في الصمت وعكوفاً على نفسه وانصرافاً إليها.

ولكنه لم يكُد يقضى أياماً بين أسرته وأهل قريته حتى غَيَّرَ رأي الناس فيه ولفتهم إليه، لا لفت عطف ومودة، ولكن لفت إنكار وإعراض واذورار؛ فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديماً يوماً وأياماً، ولكنه لم يطّق على ذلك صبراً، وإذا هو ينبو على ما كان يألف، وينكر ما كان يعرف، ويتمرد على من كان يُظْهِر لهم الإنذاع والخصوص. كان صادقاً في ذلك أول الأمر، فلما أحْسَنَ الإنكار والاذورار والمقاومة، تكَلَّفَ وعand وغلا في الشذوذ، سمع «سيدينا» يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه في العلم والدين، وببعض تمجيده لحفظة القرآن وحملة كتاب الله، فأنكر عليه حديثه وردّ عليه قوله، ولم يتحرّج من أن يقول: هذا كلام فارغ، فغضِبَ «سيدينا» وشتمه، وزعم أنه لم يتعلم في القاهرة إلا سوء الخلق، وأنه أضعاف في القاهرة تربيته الصالحة.

وغضبت أمه وزجرته، واعتذررت إلى «سيدينا» وقصّت الأمر على الشیخ حين عاد فصَلَّى المغرب وجلس للعشاء، فهز رأسه وضحك ضحكة سريعة في ازدراء للقصة كلها وشماتة «بسیدینا»؛ فلم يكن يحب «سيدينا» ولا يعطِف عليه.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور، ولكن صاحبنا سمع أباه يقرأ «دلائل الخيرات» كما كان يفعل دائمًا إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر، فرفع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك، ثم قال لإخوته: إن قراءة «الدلائل» عبث لا غباء فيه.

فأما الصغار من إخوته وأخواته فلم يفهموا عنه ولم يلتفتوا إليه، ولكن أخته الكبرى زجرت زجراً عنيفاً ورفعت بهذا الزجر صوتها، فسمعها الشيخ ولم يقطع قراءته، ولكنها مضى فيها حتى أتمها، ثم أقبل على الصبي هادئاً باسماً يسأله ماذا كان يقول؟ فأعاد الصبي قوله، فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة قصيرة وقال لابنه في ازدراة: «ما أنت وذاك! هذا ما تعلمته في الأزهر!» فغضب الصبي وقال لأبيه: «نعم، وتعلمت في الأزهر أن كثيراً مما تقرؤه في هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع؛ فما ينبغي أن يتولى إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء، وما ينبغي أن يكون بين الله وبين الناس واسطة، وإنما هذا لون من الوثنية.»

هناك غضب الشيخ غضباً شديداً، ولكن كظم غضبه واحتفظ بابتسامه وقال فأضحك الأسرة كلها: «اخرس قطع الله لسانك، لا تعد إلى هذا الكلام، وإنني أقسم لئن فعلت لأمسنك في القرية، ولأقطعك عن الأزهر، ولأجعلك فقيها تقرأ القرآن في المآتم والبيوت». ثم انصرف، وتضاحكت الأسرة من حول الصبي، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عناداً وإصراراً.

وقد نسيها الشيخ بعد ساعات، وأقبل على عشائه ومن حوله أبناؤه وبناته كعادته، وجمل يسأل الصبي عن الشيخ الفتى ماذا يصنع في القاهرة؟ وماذا يقرأ من الكتب؟ وعلى من يختلف من أساتذة؟

وكان الشيخ يجد لهذه عظيمة في إلقاء هذه الأسئلة وفي الاستماع لأجوبتها. كان يلقيها على ابنه الشيخ الفتى إذا عاد إلى القرية، فيجيبه متكلفاً أول مرة، فإذا أعيدت أعرض الفتى عن أبيه وبخل عليه بالجواب. ولم يكن أبوه يُنكر ذلك منه جهراً، ولكنه كان يتأذى به ويشكو منه لزوجه إذا خلا إليها.

فأما الصبي فكان سمحاً طيباً، لا يُعرض عن أبيه ولا يمتنع عن إجابته، ولا يدركه السأم مهما تتكرر الأسئلة ومهما يكن موضوعها. وكان الشيخ من أجل ذلك يحب أن يسأله ويستمتع بالتحدث إليه في أثناء العشاء وأثناء الغداء، ولعله كان يعيده على صاحبه بعض ما كان ابنه يقص عليه من زيارات الشيخ الفتى للأستاذ الإمام وللشيخ بخيت، ومن اعتراض الشيخ الفتى على أساتذته في أثناء الدرس وإحراجه لهم، وردتهم عليه بالعنف وبالشتم وبالضرب أحياناً.

وكان الصبي يشعر بلذة أبيه لهذه الأحاديث ورضاه عنها، فيتزيّد ويتكثّر ويختروع منها ما لم يكن، ويحفظ ذلك في نفسه ليقصه على أخيه إذا عاد إلى القاهرة.

وكان الشيخ بهذا كله سعيداً وله مغبطةً وعلى تجديده حريصاً. فلما جلستِ الأسرة للعشاء في تلك الليلة وجَدَّ الشيخ أسئلته عن ابنه الفتى: ماذا يصنع في القاهرة؟ وماذا يقرأ من الكتب؟ قال الصبي في دهاء وخبثٍ وكيدٍ: إنه يزور قبور الأولياء، وينفق نهاره في قراءة «دلائل الخيرات».

ولم يكِن الصبي ينطق بهذا الجواب حتى أغرقت الأسرة كلها في ضحك شديدٍ شرق له الصغار بما كان في أفواههم من طعام وشراب، وكان الشيخ نفسه أسرعهم إلى الضحك وأشدُّهم إغراقاً فيه.

وكذلك استحال نقد الصبي لأبيه في قراءته للدلائل والأوراد موضوعاً للهو الأسرة وعيثها أعواماً وأعواماً. والظريف من هذا الأمر أن هذا النقد كان يُحْفَظُ الشيخ حقاً، ويؤذيه في نفسه وفيما ورث من عادة واعتقاد. ولكن الشيخ على ذلك كان يدعو ابنه إلى هذا النقد ويغيريه به، ويجد في هذا الألم لذةً ومتاعاً.

ومهما يكن من شيء فإن شذوذ الصبي لم يليث أن تجاوز الدار إلى مجلس الشيخ قريباً منها، وإلى دكان الشيخ محمد عبد الواحد، وإلى المسجد حيث كان الشيخ محمد أبو أحمد رئيس الفقهاء في المدينة يُقرئ القرآن للصبية والشباب، ويوصل بالناس في أثناء الأسبوع ويفقههم في دينهم أحياناً، وحيث كان الشيخ عطيه - رجل من التجار الذين طلبوا العلم في الأزهر أعواماً، ثم عادوا إلى الريف فاشتغلوا بأمور الدنيا ولم ينصرفوا عن أمور الدين - يجلس للناس بعد صلاة العصر من حين إلى حين، فيعظهم ويفقههم، وربما قرأ لهم شيئاً من الحديث.

بل وصل شذوذ الصبي إلى المحكمة الشرعية، فسمعه القاضي وسمعه خاصة ذلك الشيخ الذي كان يكتب للقاضي، ويرى أنه أعلم من القاضي بالشرع، وأفقه منه بالدين، وأحق منه بالقضاء، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التي تُسْمِي درجة العالمية والتي تُشترط لتولي منصب القضاء، والتي تُنال بالجُدُّ والاجتهاد قليلاً وبالحظ والتغلق في أكثر الأحيان.

تسامع هؤلاء الناس جميعاً بمقالات هذا الصبي وإنكاره لكثير مما يعرفون، واستهزأه بكرامات الأولياء، وتحريميه التوسل بهم وبالأنبياء، وقال بعضهم لبعض: إن هذا الصبي ضال مضل، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبد الضارة وأراءه الفاسدة المفسدة، ثم عاد بها إلى المدينة ليضل الناس.

وربما سعى بعضهم إلى مجلس الشيخ وأصحابه قريباً من الدار وطلبوا إلى الشيخ أن يربيهم ابنه ذلك الشاذ الغريب، فيقبل الشيخ هادئاً باسماً حتى يدخل الدار، فيرى ابنه

آخذا في اللعب أو الحديث مع أخواته، فیأخذه بيده في رفق ويقوده إلى مجلسه؛ فإذا سلم على القادمين أحلاسه، ثم أخذ بعض القادمين في التحدث إليه رفيقاً أول الأمر، فإذا اتصل الحديث ذهب الرفق وقام مقامه الحوار العنيف. وكثيراً ما كان محاورُ الصبي ينصرف غاصباً متحرجاً يستغفر الله من الذنب العظيم، ويستعيد به من الشيطان الرجيم.

وكان الشيخ وأصحابه من الذين لم يدرسوا في الأزهر ولم يتفقهوا في الدين يرثون عن هذه الخصومات ويعجبون بها، ويبتهجون لهذا الصراع الذي كانوا يشهدونه بين هذا الصبي الناشئ وهؤلاء الشيوخ الشُّيَّبِ.

وكان أبو الصبي أشد هم غبطةً وسروراً، ومع أنه لم يصدق قط أن التوسل بالأولياء والأنبياء حرام، ولم يطمئن قط إلى عجز الأولياء عن إحداث الكرامات، ولم يساير قط ابنه فيما كان يقول من تلك المقالات، فقد كان يحب أن يرى ابنه مُحاوراً مُخاصماً ظاهراً على مُحاوريه ومُخاصميه، وكان يتغَبَّب لابنه تعصباً شديداً.

وكان يسمع ويحفظ ما كان الناس يتحدثون به ويخترون به أحياناً من أمر هذا الصبي الغريب، ثم يعود مع الظهر أو مع المساء فيعيid ذلك كله على زوجته راضياً حيناً وساخطاً حيناً آخر.

وعلى كل حال فقد انتم الصبي لنفسه، وخرج من عزلته وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه، وتغير مكانه في الأسرة، مكانه المعنوي إن صح هذا التعبير؛ فلم يهمله أبوه، ولم تُعرض عنه أمه وإخوته، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق، بل على شيء أكثر وأثر عند الصبي من الرحمة والإشفاق.

وانقطع ذلك النذير الذي سمعه الصبي في أول الإجازة بأنه قد يبقى في القرية ويُقطع عن الأزهر فقيها يقرأ القرآن في المآتم والبيوت، وأية ذلك أنه أصبح ذات يوم فنهض مع الفجر ونهضت الأسرة كلها مع الفجر أيضاً، ورأى الصبي نفسه بين ذراعيْ أمه وهي تقبِّلُه وتذرف دموعاً صامتة. ثم رأى الصبي نفسه في المحطة مع صاحبه وأبوه يجلسه في القطار رفيقاً به، ثم يعطيه يده ليقبلها، ثم ينصرف عنه وهو يسأل الله أن يفتح عليه.

ورأى الصبي نفسه يبعث مع صاحبه أثناء السفر، ثم رأى الصبي نفسه ينزل منقطار في محطة القاهرة، وإذا أخوه يتلقاه مبتسمًا له. ثم يدعوه حملاً ليحمل ما كان معه من متع قليل وزاد كثير، فإذا تجاوز باب المحطة دعا عربة من عربات النقل فحمل عليها الزاد وصاحب أخيه، ثم عربة أخرى من عربات الركوب، فأجلس فيها أخيه رفيقاً به، وجلس عن يمينه وأعطى السائق عنوان «الربع».



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السابع عشر

وأقبل صاحبنا على دروسه في الأزهر وغير الأزهر من المساجد، فأمعن في الفقه والنحو والمنطق، وأخذ يُحسن «الفنقة» التي كان يتنافس فيها البارعون من طلاب العلم في الأزهر على المنهج القديم، ويسخر منها المسرفون في التجديد، ولا يُعرض عنها المجددون المعتدلون. وإذا هو يدرس «شرح الطائي على الكنز» مُصبعاً، و«الأزهرية» مع الظهر، وشرح السيد الجرجاني على إيساغوجي مُمسياً.

وكان يحضر الدرس الأول في الأزهر، والدرس الثاني في مسجد محمد بك أبي الذهب، والدرس الثالث في مسجد الشيخ العدوّي على أستاذ من سلالة الشيخ العدوّي نفسه. وربما ألم بدرِس من دروس الضحى كان يُقرأ فيه كتاب «قطر الندى» لابن هشام؛ تجلاً للتعصب في النحو والفراغ من كتب المبتدئين والوصول إلى «شرح ابن عقيل على الألفية»، ولكنه لم يكن يوازن على هذا الدرس؛ كان يستجهل الشيخ، ويرى في «فنقة» الشيخ عبد المجيد الشاذلي حول «الأزهرية» و«حاشية العطار» ما يكفيه ويرضيه.

وقد بقيت في نفسه آثار لا تمحي من درس الأزهرية هذا؛ ففيه تعلم «الفنقة» حقاً، وكان أول ذلك هذا الكلام الكثير والجادل العقيم حول قول المؤلف: «وعلامة الفعل قد»؛ فقد أنقن صاحبنا ما أثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والأجوبة، وأنتعَ شيخه حواراً وجداً حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار، ثم قال في صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط، ولم يذكره قط إلا ضحك منه ورق له: «الله حكم بيبي وبيتك يوم القيمة». قال ذلك في صوت يملؤه السأم والضجر، ويملؤه العطف والحنان أيضاً؛ وأية ذلك أنه بعد أن أتم الدرس وأقبل الصبي ليثلم يده كما كان الطلاب يفعلون، وضع يده على كتف الصبي، وقال له في هدوء وحب: «شد حيلك الله يفتح عليك».

وعاد الصبي مبتهجاً بهذه الكلمات والدعوات، فأنبأ بها أخاه وانتظر به أخيه موعد الشاي. فلما اجتمع القوم إلى شايهم قال للصبي مداعباً: قرر لنا «ولعامة الفعل قد». فامتنعت الصبي حياءً أول الأمر، ولكن الجماعة ألحت عليه، فأقبل يقرر ما سمع وما وعى وما قال، والجماعة صامتة تسمع له، حتى إذا فرغ نهض إليه ذلك الكهل الذي كان ينتظر الدرجة فقبل جبهته وهو يقول: «حَسِنْتَ بِالْحَيِّ الْقِيُومَ الَّذِي لَا يَنَامُ». وأما الجماعة فأغرتت في الضحك، وأما الصبي فأغرق في الرضا عن نفسه، وببدأ منذ ذلك الوقت يعتقد أنه أصبح طالباً بارعاً نجياً.

وقوّى هذا الرأي في نفسه أن زملاءه في درس النحو التفتوا إليه وجعلوا يستوقفونه بعد الدرس، أو يدنون منه قبل الدرس، فيسألونه ويتحدونه إليه، ثم يعرضون عليه أن يُعدوا معه الدرس قبل الظهر. وقد أغراه هذا العرض فترك درس «القطر»، وجعل يطالع مع زملائه هؤلاء يقراءون له ويأخذون في التفسير، وجعل هو يسبقهم إلى هذا التفسير ويستبدل به من دونهم، فلا يقاومونه وإنما يسمعون منه ويصفون إليه. وجعل ذلك يزيده غروراً إلى غرور، ويخيل إليه أنه قد بدأ يصبح أستاذًا.

واطّردت حياته في ذلك العام متشابهة لا جديد فيها إلا ما كان يفيده الصبي من العلم كلما أمعن في الدرس، وما كان يشعر به من الغرور إذا كان بين زملائه، وما كان يُردد إليه من التواضع إذا كان بين أولئك الطلاب الكبار في الربع، والإلا ما كان يفيده من العلم بشئون الأساتذة والطلاب في الأزهر لما كان يسمع من حديث زملائه وأصدقاء أخيه عن أولئك وهؤلاء.

فلم يكن شيء من هذه الأحاديث ليحسن ظنه بأولئك أو هؤلاء، وإنما كان ظنه يزداد بهم سوءاً كلما مرّ عليه الوقت، فقد كان يسمع بين وحين ثناءً بالذكاء والبراعة على هذا الشيخ أو ذاك من صغاري العلماء وكبارهم، ولكنه كان يسمع دائمًا عيناً لأولئك وهؤلاء بألوان من النقائص التي تتصل بالخلق أو تتصل بالسيرة أو تتصل بصناعة العلم نفسها، والتي كانت تثير في نفسه كثيراً من الغضب والازدراء وخيبة الأمل.

ولم يكن يسلم من هذه العيوب أحد، فاما هذا الشيخ فقد كان شديد الحقد على زملائه وأقرانه، شديد المكر بهم والكيد لهم، يلقاهم مبتسمًا فلا يكاد يفارقهم حتى يقول فيهم أشنع القول ويسعى بهم أقبح السعي. وأما هذا الشيخ الآخر فقد كان رقيق الدين، يظهر التقوى إذا كان في الأزهر أو بين أقرانه، فإذا خلا إلى نفسه وإلى شياطينه أغرق في إثم عظيم.

وكان هؤلاء العائدون ربما سَمُوا أولئك الشياطين الذين كان الشيخ يخلو إليهم ويشاركونه في الإثم. وكان كبار الطلاب يتندرون على هذا الشيخ أو ذاك؛ لأنَّه كان يُعنى عناية خاصة بهذا الفتى أو ذاك، ويلقي نظراتٍ خاصةً على هذا الفتى أو ذاك، ولا يستقرُ على كرسيهِ إذا حضر من طلابه هذا الفتى أو ذاك.

وكانت الغيبة والنميمة أشيع وأشنع ما كان يُذكر من عيب الشيوخ، فكان الطلاب يذكرون سعي ذلك الشيخ بصديقه الحميم عند شيخ الأزهر أو عند الشيخ المفتى، وكانوا يذكرون أنَّ شيخ الأزهر كان أَدْنَا للنمامين، وأنَّ الشيخ المفتى كان يتَرَفَّع عن الاستماع لهم ويلقاهم بالزجر القاسي العنيف.

وقد تَحَدَّثُتُ الطلاب الكبار ذات يوم بقصة عن جماعة من كبار الشيوخ سَمُوهُم يومئِذ، فزعموا أنَّ هؤلاء الشيوخ لاحظوا أنَّهم قد أسرفوا على أنفسهم في الغيبة، فأستعظموا ذلك وذكروا قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَعْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّهُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرْهُتُمُوهُ﴾، فتناهوا عن هذه الخطيئة الكبيرة، وتعاهدوا على أنَّ من أخذ منهم في الغيبة فعليه أن يؤدي إلى أصحابه عشرين قرشاً.

وقد كُفُوا عن الغيبة يوماً أو بعض يوم ضَنًّا بها المبلغ من النقد. وإنَّهم لفي بعض حديثهم، وإذا شيخ يمرُّ بهم فيلقي عليهم تحيةً، ويمضي في طريقه، ولكنه لا يكاد يمضي حتى يخرج أحدهم قطعة من الفضة فيدفعها إلى أصحابه ويأخذ في اغتياب هذا الشيخ. فأمَّا تَحَدُّثُ الطالب كباراً وصغاراً بجهل شيوخهم وتورطهم في ألوان الخطأ المضحك الذي كان بعضه يتصل بالفهم وبعضه يتصل بالقراءة، فقد كان أكثر من أن يُحصى وأعظم من أن يقدر، ومن أجل هذا كان صاحبنا سَيِّئ الرأي في العلماء والطلاب جميعاً، وكان يرى أنَّ الخير كل الخير في أن يجدَ ويجتهد ويحصل ما استطاع من العلم معرضاً عن مصادره التي كان يستقيه منها.

وازداد رأيه سوءاً حين استقبل السنة الثالثة من حياته في الأزهر، فالتمس لنفسه أستاذًا يقرأ في الفقه شرح مُلَّا مسكين على الكنز، فدُلِّ على أستاذٍ معروف بعيد الذكر ظاهر المكانة في القضاء، فذهب إليه وجلس في حلقة، ولكنه لم يكد ينفق دقائق حتى أحسَّ حرجاً عظيماً، رأى نفسه مضطراً إلى أن يبذل جهداً شديداً مقاومة الضحك؛ وذلك أنَّ الشيخ رحمة الله قد كانت له لازمة غريبة، كما كان يقول الأزهريون، فلم يكن يقرأ جملة في الكتاب أو يفسرها من عند نفسه إلا قال هذه الجملة مرتين: «قال قال، ثم قال إيه.»

يُعيد ذلك مرات في الدقائق القليلة، وصاحبنا يسمع له ويعنف على نفسه حتى لا يضحك فليأتي منكراً من الأمر.

وقد استطاع صاحبنا أن يضبط نفسه، ولكنه لم يستطع أن يختلف إلى درس الأستاذ أكثر من ثلاثة أيام؛ لأنه لم يجد عنده غناء، وإنما وجد عنده عناء، لم يفده شيء، وإنما كان يكظم ضحكه كظماً عنيفاً، ويكلف نفسه من ذلك ما لم تكن تطبق. والتمس غيره من الأساتذة الذين كانوا يقرءون هذا الكتاب، فلم يجد عندهم إلا هذه اللوازم التي كانت تختلف باختلافهم، ولكنها كانت تدفع الغلام إلى الضحك وتضطره إلى أن يبذل في ضبط نفسه من الجهد ما كان يشغله أحياناً عن الاستمع، وقيل له في أثناء ذلك: إن هذا الكتاب من كتب الفقه ليس بذري خطر، وإن أستاذًا ممتازاً — سموه له — يقرأ كتاب «الدرر»، والخير في أن تحضر درسه، فهو من أذكي العلماء وأبرع القضاة. واستشار صاحبنا أخيه فلم يردوه عن ذلك، بل شجعوه عليه وأوصوا به الشيخ، وقد رضي الغلام عن أستاذه الجديد في دروسه الأولى، فلم يكن يتلزم جملة بعينها أو لفظاً بعينه أو صوتاً بعينه، ولم يكن يتتردد في القراءة ولا في التفسير، وكان ذكاؤه واضحًا، وإتقانه للفقه بيّنًا، وحسن تصرفه فيه لا يتعرض للشك.

وكان الأستاذ رشيقاً أنيقاً حلو الصوت، ممتازاً في حركته وفي لقائه للطلاب وحديثه إليهم، وكان معروفاً بالتجديف، لا في العلم ولا في الرأي، ولكن في السيرة. وكان كتاب الطلاب يتحدثون بأنه يُلقي درسه إذا أصبح ثم يمضي إلى محكمته فيقضي فيها، ثم يروح إلى بيته فيطعم وينام، فإذا كان الليل خرج مع لذاته فذهب إلى حيث لا ينبغي أن يذهب العلماء، وسمع من الغناء ما لا ينبغي أن يسمع العلماء، وأقبل من اللذات على ما لا ينبغي أن يُقبل عليه رجال الدين. وكانوا يذكرون «ألف ليلة وليلة» فيعجب الغلام؛ لأنه كان يعرف أن «ألف ليلة وليلة» اسم كتاب طالماقرأ فيه ووُجِد في قراءته لذة ومتعة، ولكنهم كانوا يذكرون هذا الاسم على أنه مكان يُسمع فيه الغناء، ويكون فيه اللهو، وتُطلب فيه بعض اللذات.

وكان الغلام يسمع عن شيخه هذه الأحاديث فلا يصدقها ولا يطمئن إليها، ولكنه لم ينفق مع الشيخ أسابيع حتى أحسَّ منه تقصيراً في إعداد الدرس، وقصوراً عن تفسير النص، وضيقاً بأسئلته الطلاب. بل أحسَّ منه أكثر من ذلك، فقد سأله ذات يوم عن تفسير بعض ما كان يقول فلم يُجبه إلا بالشتت، وكان الشيخ أبعد الناس عن الشتم وأشدتهم عنه ترفعاً.

## الفصل السابع عشر

فَلَمَا قَصَّ الْغَلَامُ عَلَى أَخِيهِ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَمْرِ الشَّيْخِ مَا رَأَى، أَنْكَرُوا ذَلِكَ وَأَسْفَوْا لَهُ، وَهَمْسُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ بِأَنَّ الْعِلْمَ وَالسَّهْرَ فِي «الْأَلْفِ لَيْلَةِ وَلَيْلَةً» لَا يَجْتَمِعُونَ.

وَكَانَ حَظُّ الْغَلَامِ فِي النَّحْوِ خَيْرًا مِنْ حَظِّهِ فِي الْفَقْهِ؛ فَقَدْ سَمِعَ «الْقَطْرَ» وَ«الشَّذُورَ» عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ دَرَازِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَوُجِدَ مِنْ ظَرْفِ الْأَسْتَاذِ وَصَوْتِهِ الْعَذْبِ وَبِرَاعَتِهِ فِي النَّحْوِ وَمَهَارَتِهِ فِي رِياضَةِ الطَّلَابِ عَلَى مَشْكُلَاتِهِ مَا زَادَهُ فِي النَّحْوِ حُبًّاً.

وَلَكِنَّ حَظَّهُ فِي النَّحْوِ لَمْ يَلِبِّثْ أَنْ سَاءَ حِينَ اسْتَؤْنَفَتِ الْدِرَاسَةُ فِي الْعَامِ الْجَدِيدِ، فَقَدْ أَخْذَ الْغَلَامَ يَسْمَعُ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ دَرَازِ «شَرْحِ أَبْنِ عَقِيلٍ». وَبَيْنَمَا الْأَسْتَاذُ وَطَلَابُهُ مَاضِيُّونَ فِي درسِهِمْ، رَاضِيُّونَ عَنْ عَمَلِهِمْ، صَدَرَ الْأَمْرُ إِلَى الْأَسْتَاذِ بِالْأَنْتِقَالِ إِلَى مَعَهِدِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، فَمَانَعَ فِي ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ، وَمَانَعَ طَلَابُهُ مَا اسْتَطَاعُوهُ، وَلَكِنَّ الْمَشِيخَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُ وَلَا لَهُمْ، فَلَمْ يَجِدْ بُدُّهُ مِنْ إِنْفَادِ الْأَمْرِ. وَلَمْ يَنْسَ الْغَلَامُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي وَدَّعَ الْأَسْتَاذَ فِيهِ طَلَابَهُ، وَإِنَّهُ لَيَبْكِي مَخْلَصًا، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ مَخْلُصِينَ وَيَشْيَعُونَ بِاِكْيَنَ إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ.

ثُمَّ أُقْبِلَ مَقَامُ الشَّيْخِ، شِيخُ أَخْرِ ضَرِيرٍ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِالذَّكَاءِ الْحَادِ وَالْتَّفْوِيقِ الظَّاهِرِ وَالْبَنْوَغِ الْمُتَنَازِ، وَكَانَ لَا يُذْكَرُ إِلَّا أَثْنَى عَلَيْهِ ذَاكِرُوهُ وَالسَّامِعُونَ لِذَكْرِهِ بِهَذِهِ الْخَصَالِ.

أُقْبِلَ هَذَا الشَّيْخُ، فَأَخْذَ الدِّرْسَ مِنْ حِيثِ تَرَكَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ دَرَازَ. وَكَانَتْ حَلْقَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ دَرَازِ عَظِيمَةً تَمَلَّأُ رَقْعَتَهَا الْقَبْةُ مِنْ مَسْجِدِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْذَّهْبِ، فَلَمَّا خَفِهِ هَذَا الشَّيْخُ ازْدَادَتْ هَذِهِ الْحَلْقَةُ ضَخَامَةً وَاتْسَاعًا حَتَّى اكْتَظَّ بِهَا الْمَكَانُ، وَأَلْقَى الشَّيْخُ دَرْسَهُ الْأَوَّلَ فَرِضِيَ عَنْهُ الطَّلَابُ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا عَنْهُ وَدَاعَةً أَسْتَاذَهُمُ الْقَدِيمَ وَلَا عِذْوَبَةَ صَوْتِهِ، ثُمَّ أَلْقَى دَرْسَهُ الثَّانِي وَالثَّالِثِ، وَإِذَا الطَّلَابُ يَنْكِرُونَ مِنْهُ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِعْجَابِهِ بِهَا، وَثُقْتَهُ بِمَا كَانَ يَقُولُ، وَغَضِيبُهُ الْحَادِ عَلَى مَقَاطِعِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ يَتَقدَّمُ فِي دَرْسِهِ الرَّابِعِ حَتَّى كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِنَا قَصْةً صَرَفَتِ الْغَلَامَ عَنِ النَّحْوِ صَرْفًا. كَانَ الشَّيْخُ يَفْسِرُ قَوْلَ تَأْبَطَ شَرًّا:

فَأَبْلَتْ إِلَى فَهِمٍ وَمَا كِدْتُ آئِبًا      وَكُمْ مِثْلِهَا فَارْقَتْهَا وَهِيَ تَصِفُّرٌ

فَلَمَا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ «تَصِفُّرُ» قَالَ: إِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ إِذَا اشْتَدَتْ عَلَى أَحَدِهِمْ أَزْمَةُ أَوْ مَحْنَةٌ وَضَعَوْا أَصَابِعَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَنَفَخُوا فِيهَا، فَكَانَ لَهَا صَفِيرٌ يَسْمَعُ.

قال الغلام للشيخ: وإننما مرجع الضمير في قوله: «وهي تصرف»، وفي قوله: «وكم مثلاً فارقتها؟» قال الشيخ: مرجعه «فهم» أيها الغبي! قال الغلام: فإنه قد عاد إلى فهم والبيت لا يستقيم على هذا التفسير. قال الشيخ: فإنك وَقْحٌ وقد كان يكفي أن تكون غبياً. قال الغلام: ولكن هذا لا يدل على مرجع الضمير. فسكت الشيخ لحظة ثم قال: «انصرفوا، فلن أستطيع أن أقرأ وفيكم هذا الواقع.»

ونهض الشيخ، وقام الغلام، وقد كاد الطلاب يبطشون به لولا أن حماد زملاؤه وكانوا من أهل الصعيد، حموه بأن أحاطوا به وأشهروا نعالهم فتفرق الناس، وأئمّ الأزهريين لم يكن يُفرّق في ذلك الوقت من نعال أهل الصعيد!

ولم يعد الغلام إلى درس النحو، بل لم يحضر الغلام بعد ذلك درساً في النحو، بل ذهب من غده إلى درس كان يلقيه أستاذ معروف من أهل الشرقية، وكان يقرأ «شرح الأشموني»، ولكنه لم يتم الاستماع للدرس، مضى الشيخ يقرأ ويفسر، وسأله الغلام في بعض الشيء، فرد عليه الشيخ بما لم يقنعه، فأعاد السؤال، فغضب الشيخ وأمره بالانصراف. فتوسط بعض أصدقائه عند الشيخ يستعطفونه، فازداد غضب الشيخ وأبى أن يمضي في الدرس حتى يقوم هذا الغلام ومعه أصدقاؤه، ولم يكن لهم بدًّ من أن ينصرفوا؛ فقد أُشهِرْتُ عليهم نعال الشرقية، ولم تكن نعال الشرقية بأقل خطراً من نعال الصعيد.

وذهب الغلام من غده مع أصحابه إلى حلقة أخرى كان يُقرأ فيها «شرح الأشموني»، يقرؤه أستاذ مشهور من أساتذة الشرقية أيضاً. فوقف الغلام على الحلقة لحظة لا تتجاوز الدقائق الخمس، ولكنه سمع فيها هذه الازمة الغربية يعيدها الشيخ كلما انتقل من جملة إلى جملة: «أخص على بلي». فضحك الغلام وضحك أصدقاؤه وانصرفوا، وأذمّع الغلام وصديقُ له أن يدرسا النحو مستقلين، وأن يدرسه في مصادره الأولى، فقرأ أولاً كتاب «المفصل» للزمخشري، ثم «كتاب سيبويه»، ولكن هذه قصة أخرى.

ولم يكن حظه في المتنطق خيراً من حظه في الفقه والنحو. لقد أحبَّ المتنطق حباً شديداً حين كان يسمع شرح السيد على إيساغوجي من أستاذه ذاك الشاب في العام الماضي. فأما في هذا العام فقد جلس لأمثاله من أوساط الطلاب علمًّ من أعلام الأزهر الشريف، وإمام من أئمة المتنطق والفلسفة فيه. وكان معروفاً بين كبار الطلاب بهذا الذكاء الظاهر الذي يخدع ولا يُعني شيئاً. وكان معروفاً بهذه الفصاحة التي تبهر الأذن ولا تبلغ العقل. وكان يؤثر عنه أنه كان يقول: «مَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ أَنِّي أَسْتَطِعُ أَنْ

أتكلّم ساعتين فلا يفهم أحد عني شيئاً ولا أفهم أنا عن نفسي شيئاً.» كان يرى ذلك مزيةً وفخرًا. ولكن لم يكن بُدًّا للطالب الذي يُقدّر نفسه من أن يجلس إليه ويسمع منه. وقد جلس للطلاب بعد صلاة المغرب يقرأ لهم «شرح الخبصي على تهذيب المنطق»، وذهب إليه صاحبنا وسمع منه درسًا ودرسًا، وكانت حلقته عظيمة حقًا تكتظُ بها القبة في جامع محمد بك. وكان الغلام يسبق صلاة المغرب فيجلس في أقرب مكان من كرسى الأستاذ، وكان الأستاذ جَهْوَرِي الصوت قد احتفظ بهجة الصعيد كاملة. وكان شديد النشاط كثير الحركة. وكان إذا سأله طالب رد عليه ساخراً منه، فإن أحَّ الطالب في السؤال ثار هو به وجعل يقول له في حِدَّةٍ: «اسكت يا خاسر، اسكت يا خنزير!» وكان يُفْخِمُ الْخَاءَ فِي الْكَلْمَتَيْنِ إِلَى أَقْصَى مَا يُسْتَطِيعُ فِيهِ أَنْ يَبْلُغَ مِنَ التَّفْخِيمِ.

وقد استقام للشيخ وللطلاب أمرهم حتّى أتمموا قسم التصورات، فلما بلغوا في كتابهم المقصد الثاني في التصديقات لقي الغلام من نفسه ومن شيخه بلاءً عظيمًا، فاضطر إلى أن يختار له من الغد مكاناً بعيداً عن الشيخ، وما زال يتأخّر يوماً بعد يوم في مجلسه حتى بلغ باب القبة، فخرج منه ذات ليلة، ولم يدخله بعد ذلك.

لَقِيَ الغلام بلاءً من نفسه لم يذكره قط إلا ضحك منه ضحًّا شديداً، وأضحك منه أخاه وأصدقائه جميعاً؛ فقد جلس الشيخ على كرسيه وأخذ في القراءة، فقال: «المقصد الثاني في التصديقات». يُقلّل القاف ويُفْخِمُ الصاد، ويمد الألفات والياءات مدارياً متوسطاً. ثم يعيد هذه الكلمات نفسها فيُقلّل القاف ويُفْخِمُ الصاد ويُطيل مد الألفات والياءات. ثم يعيد الكلمات نفسها فيُقلّل القاف ويُفْخِمُ الصاد ويمد الألف والياء في «الثاني»، ولكنه لا يقول «في التصديقات»، وإنما يقول: «في مين؟» فلا يرد عليه أحد، فيرد على نفسه ويقول: «في التصديقات»، ثم يعيد الكلمة نفسها على هذا النحو نفسه، فإذا انتهى إلى قوله: «في مين؟» ولم يرد عليه أحد، ضرب بظهر يده في جبهة الغلام وهو يقول: «ردوا يا غنم، ردوا يا بهائم، ردوا يا خنازير!» يُفْخِمُ الْغَيْنَ وَالْخَاءَ إِلَى أَقْصَى مَا يُسْتَطِيعُ فمه أَنْ يَبْلُغَ مِنَ التَّفْخِيمِ، فيُقُولُ الطَّلَابُ جَمِيعاً: «في التصديقات».

لَقِيَ الغلام من نفسه عناً شديداً؛ فقد كان هذا كله خليقاً أن يُضحكه، وكان يخاف أن يضحك بين يدي الأستاذ. ولقي من شيخه بلاءً عظيمًا بهذه الضربات التي كانت تتولى على جبهته بين حين وحين. ومهما يكن من شيءٍ فقد تحولَ الغلام عن هذا الدرس ولم يتجاوز بالمنطق عند هذا الشيخ باب القضية.

تحول عن هذا الدرس في أثناء العام، وقرر أن يحضر مكانه درسًا في التوحيد كان يُلْقِيَهُ شيخ جديد حديث الظفر بدرجة العالمية. وكان أصدقاؤه من كبار الطلاب

يذكرونـه بالظـرـف الشـدـيد والـذـكـاء الـمـوـسـط وـحـلاـوة الصـوت وـحـسـن الإـلـقاء، ويـقـولـونـ: إنـ علمـه يـخـدـع مـنـ حدـثـه أـوـ سـمـعـ عـنـه، فـإـذـا تـعـمـقـه لـمـ يـجـدـ عـنـه شـيـئـاً، وـكـانـ يـقـرـأـ «ـشـرـحـ الخـرـيـدةـ» وـ«ـمـتـنـهاـ» لـالـدـرـدـيرـ، فـسـمـعـ الغـلامـ مـنـهـ درـسـاً وـأـعـجـبـ بـصـوـتـهـ وـإـلـقـائـهـ وـظـرـفـهـ، وـجـعـلـ يـنـتـظـرـ أـنـ يـعـجـبـ بـعـلـمـهـ وـفـنـقـلـتـهـ، وـلـكـنـ الشـيـخـ صـرـفـ عـنـ الدـرـسـ؛ لـأـنـهـ نـقـلـ مـنـ القـاهـرـةـ وـأـرـسـلـ إـلـىـ مـكـانـ بـعـيـدـ تـوـلـىـ فـيـهـ مـنـصـبـ الـقـضـاءـ، فـلـمـ يـتـحـ لـلـغـلامـ أـنـ يـعـلـمـ عـلـمـهـ، وـلـأـنـ يـقـضـيـ فـيـ أـمـرـهـ بـشـيـءـ إـلـاـ أـنـهـ كـانـ لـبـقاـ ظـرـيفـاـ حـلـوـ الصـوتـ عـذـبـ الـحـدـيـثـ.

وـإـذـنـ فـقـدـ ضـاعـتـ السـنـةـ فـيـ حـقـيـقـةـ الـأـمـرـ عـلـىـ الـغـلامـ، وـلـمـ يـحـصـلـ فـيـهـ أـوـ لـمـ يـكـدـ يـحـصـلـ فـيـهـ مـنـ الـعـلـمـ شـيـئـاـ جـدـيـداـ، إـلـاـ مـاـ كـانـ يـقـرـؤـهـ فـيـ الـكـتـبـ وـيـسـمـعـهـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـطـلـابـ الـكـبـارـ وـهـمـ يـطـالـعـونـ أـوـ يـتـنـاظـرـونـ.

فـلـمـ عـادـ إـلـىـ الـأـزـهـرـ مـنـ قـاـبـلـ، عـادـ إـلـيـهـ ضـيـقـ النـفـسـ بـهـ، شـدـيدـ الزـهـدـ فـيـهـ، حـائـرـاـ فـيـ أـمـرـهـ لـاـ يـدـرـيـ مـاـذـاـ يـصـنـعـ، لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـقـيمـ فـيـ الـرـيفـ، وـمـاـذـاـ يـفـعـلـ فـيـ الـرـيفـ؟! وـلـاـ يـجـدـ نـفـعـاـ مـنـ إـقـامـتـهـ فـيـ الـقـاهـرـةـ وـاـخـلـافـهـ إـلـىـ الشـيـوخـ. وـفـيـ هـذـاـ الـعـامـ اـتـصـلـ بـدـرـسـ الـأـدـبـ، وـلـكـنـ لـحـدـيـثـ هـذـاـ الـدـرـسـ سـاعـةـ:

من الدهر ما حانت ولا حان حينها

كـماـ تـقـولـ بـثـيـنةـ فـيـ سـلـوـنـهاـ عـنـ جـمـيلـ.

## الفصل الثامن عشر

وفي الحق أن إقبال الفتى على درس الأدب لم يصرفه عن علومه الأزهرية أول الأمر؛ فقد كان يظن أنه يستطيع الملاعنة في نفسه بين هذين اللونين من ألوان المعرفة. وهو لم يُرسل إلى القاهرة ولم يُنسب إلى الأزهر ليكون أدبياً ينظم الشعر أو ينشئ النثر، وإنما أُرسَل إلى القاهرة وانتسب إلى الأزهر ليسلك طريقه الأزهرية الخالصة، حتى يبلغ الامتحان ويظفر بالدرجة، ويُسند ظهره إلى عمود من الأعمدة القائمة في ذلك المسجد العتيق، ويتحلّق الطلاب من حوله فيسمعوا منه درساً في الفقه أو في النحو أو فيهما جميّعاً.

كذلك كان يتمنى أبوه، وبذلك كان يتحدّث إلى الأسرة في شيءٍ من الأمل والإعجاب بابنه هذا الشاذ الغريب. وكذلك كان يريد أخيه، وكذلك كان يريد هو. وماذا كان يمكن أن يريد غير ذلك وقد فرضت الحياة على أمثاله من المكفوفين الذين يريدون أن يحيوا حياة متحتملة إحدى اثنتين: فإذا مادرس في الأزهر حتى تناول الدرجة وتضمن الحياة بهذه الأرغفة التي تؤخذ في كل يوم، وبهذه القروش التي تؤخذ آخر الشهر لا تزيد عن خمسة وسبعين قرشاً إن كانت الدرجة الثالثة، ولا عن مائة قرش إن كانت الدرجة الثانية، ولا عن خمسين ومائة قرش إن كانت الدرجة الأولى، وإنما أن يتجر بالقرآن فيقرأه في المآتم والبيوت كما أذرره بذلك أبوه في وقت من الأوقات.

فلم يكن للفتى بُدُّ إذن من أن يمضي في طريقه الأزهرية حتى يبلغ غايتها. وكانت هذه الطريق تتّشَعَّب إلى شعبتين إذا قضى الطالب ثلاثة أعوام أو أربعة في الأزهر؛ إحداهما علمية: وهي الاختلاف إلى الدروس والتنقل في مراحل العلم، وكان الفتى ماضياً فيها، أقبل عليها مشغوفاً بها، ثم فترت همته، ثم ازدرها وانصرفت عنها نفسه حين استيأس من الأساتذة وساء ظنه بالشيخوخ.

والثانية مادية: وكانت تتتألف من مراحل ثلاثة: مرحلة المنتسب، ومرحلة المنتظر، ومرحلة المستحق. أما مرحلة المنتسب: فهي المرحلة التي يبدأ الطالب بها حياته الأزهرية بعد أن يتم تقييده في سجلات الأزهر. ولم يكن له بدًّ من أن ينتمي إلى أحد الأروقة، وقد انتسب صاحبنا كما انتسب أخوه إلى رواق الفشنية. وأما مرحلة المنتظر: فقد كانت المرحلة الثانية، ينتقل إليها الطالب بعد أن يقيم أعواماً في الأزهر، وسيبلغه إلى ذلك الورقة يكتبها ويرفعها إلى شيخ الرواق يُعين فيها ما أنفق في الأزهر من عام وما حضر فيه من درس، ويُشهد على صدقه فيما سجَّل فيها شيخان من شيوخه. ويطلب إلى شيخ الرواق أن يُقَدِّم اسمه بين أسماء المنتظرين. حتى إذا خلا مكان بين المستحقين للجرياية ارتفق إلى فبلغ المرحلة الثالثة ونال جرياته رغيفين أو ثلاثة أو أربعة، على اختلاف بين الأروقة في ذلك.

فلم يكن بدًّ لصاحبنا من أن يرقى إلى مرحلة المنتظرين، وقد كتب الورقة وختمها بالجملة التي كانت شائعة إذ ذاك: «جعلكم الله ملأً للقادرين».

وشهد شيخان أنه لم يقل في هذه الورقة إلا حقاً. وذهب إلى الشيخ في داره فرفع إليه الورقة بعد أن قبَّل يده وانصرف. فانتظر وطال الانتظار، ولم يظفر بالجرياية قط في هذا الرواق، ولكن ارتقاءه إلى مرحلة المنتظرين أرضى أباه وملاً فمه فخرًا على كل حال. وبينما كان ينتظر في طائل أو في غير طائل خرج الأستاذ الإمام من الأزهر في تلك القصة المعروفة، وبعد تلك الخطبة المشهورة التي ألقاها الخديوي على بعض العلماء.

وكان الفتى يظن أن تلاميذ الشيخ – كانوا كثيرين يكتظُ بهم الرواق العباسي في كل مساء – سيحدثون حدثاً، وسينبئون الخديوي بأن شباب الأزهر قد تغيروا، وبأنهم سيذودون عن شيخهم، وسيبذلون في سبيل ذلك لا أوقاتهم وحدهما بل أرواحهم أيضاً.

ولكن الشيخ ترك الأزهر واتخذ داراً للإفتاء؛ فلم يزد تلاميذه على أن حزنوا وتحدثوا بالأسف فيما بينهم وبين أنفسهم، وزار قليلاً منهم الشيخ في داره بعين شمس، وانصرف عنه أكثرهم، وانتهى الأمر عند هذا الحد. فامتلأت نفس الفتى حزناً وغيظاً، وساء ظنه بالطلاب كما ساء ظنه بالشيوخ، ولم يكن مع ذلك قد عرف الأستاذ الإمام أو قدَّم إليه.

وبعد ذلك بقليل توفي الأستاذ الإمام، فاضطررت مصر لوفاته، وكانت البيئة الأزهرية أقل البيئات المصرية اضطراباً لهذا الحادث الجلل. وأسف تلاميذ الشيخ، ولعلَّ قليلاً منهم سفحوا بعض الدموع، ولكنهم أقبلوا بعد الصيف على دروسهم، لأنَّ الشيخ لم يمت، أو كانَ الشيخ لم يكن، لو لأنَّ الخاصة من تلاميذه كانوا يذكرونَه بالخير بين حين وحين.

وكذلك عرف الفتى في ألم لاذع ولأول مرة في حياته الناشئة أن ما يقدم إلى عظام الرجال من ألوان الإكبار والإجلال وضروب التملق والزلقى لغو لا طائل تحته ولا غناه فيه، وأن وفاء الناس ينحُلُّ في أكثر الأحيان إلى كلام لا يفيد.

وزاد سوء الظن بالناس في نفس الفتى قوًّا ما لاحظه في بعض البيئات من انتهاز وفاة الشيخ فرصة للاتجار باسمه، واستغلال الصلة به، يتوصّلون إلى ذلك بالشعر حيناً وبالنشر حيناً آخر، وبالإعلان في الصحف والمجلات دائمًا.

ولكن الفتى أحس شيئاً آخر زاد به انحرافاً عن الأزهر وانصرافاً عن شيوخه وطلابه، أحس أن الذين بکوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمامئ، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش، فوجد في نفسه ميلاً خفيّاً إلى أن يقرب من أصحاب الطرابيش هؤلاء، وإلى أن يتصل بيئاتهم بعض الاتصال. ومن له بذلك وهو فتى ضرير قد فرضت عليه الحياة الأزهرية فرضاً فلم يجد عنها منصرفًا! وكان الأستاذ الإمام شيئاً لرواق الحنفية، فلما خرج من الأزهر أو لما خرج من الحياة أصبح خلفه على الإنفتاء خلفاً له على الرواق أيضًا.

كان ابن المفتى الجديد أستاذًا لصاحبنا الفتى، سمع عليه في صباحه شرح السيد الجرجاني على إيساغوجي في المنطق، وكان يقوم عن أبيه بأمر الرواق، فأغرى الفتى بالانتساب إلى رواق الحنفية والانتظار فيه، وكانت الجراية في رواق الحنفية أيسر منالاً وأكثر عدد أرغفة منها في غيره من الأروقة، ولم يكن الانتساب إلى رواق الحنفية أيام الأستاذ الإمام سهلاً ولا يسيراً وإنما كان الامتحان سبيلاً إليه. وقد احتفظ المفتى الجديد بهذه السنة، وكان ابنه هو الذي يمتحن المتقدمين للانتساب في موعد بعينه في العام، فقيل لصاحبنا الفتى: ما لك لا تتنسب إلى هذا الرواق وقد انتسب إليه أخوك من قبل وأصحابه النجباء أيام الأستاذ الإمام، وهم يأخذون منه جرایاتهم أربعة أرغفة لكل واحد منهم في كل يوم؟ وزين ذلك له وحثّه عليه أخيه وأصحابه. وأرسل إلى الامتحان ذات مساء ومعه كتاب إلى الممتحن. فلما دخل الفتى على الممتحن حيّاه وأخذ منه الكتاب فنظر فيه ثم ألقى عليه سؤالاً ورد الفتى جواب السؤال خطأً أو صواباً لم يدرِ، ولكن الممتحن قال له: «انصرف يا علّاماً»، فانصرف راضياً، ولم يمض إلا وقت قليل حتى أصبح الفتى مستحقاً ونال رغيفين في كل يوم، فكثر الخبز في الغرفة، وفرحت الأسرة في الريف.

على أن الفتى لم ينل رغيفين فحسب، وإنما نال معهما خزانة في الرواق كانت آخر عنده من الرغيفين، فقد كان يستطيع إذا دخل الأزهر في الصبح أن يذهب إلى خزانته

فيضع فيها نعليه ورغيفيه أو أحدهما، ويقضي نهاره حراً لا يعني بهاتين النعلين اللتين كان يبذل جهداً غير قليل لحمايتهما من عدون الخاطفين والسارقين، وما أكثر ما كانت تُسرق النعال في الأزهر! وما أكثر ما كانت تصق على جدران الأزهر من حول الصحن أوراق يعلن فيها أصحابها أن نعالهم قد ضاعت، وأن من ظفر بها فردها إلى صاحبها في مكان كذا، أو رواق كذا، فله الأجر والثواب، ومن احتفظ بها متعدياً قطعه الله من هذا المكان!

كان الفتى إذن سعيداً بخزانته ورغيفيه، ولكنه لم يكن سعيداً بما كان يحصل من العلم أو يسمع من الدرس، وقد كان يكره نفسه إكراهًا على أن يسمع بعد الفجر درساً في التوحيد كان يلقى الشيخ راضي رحمة الله، وكان يقرأ كتاب «المقادير»، ويسمع في الصبح درس الفقه على الشيخ بخيت وكان يقرأ كتاب «الهداية»، ويسمع في الظهر درس البلاغة على الشيخ عبد الحكم عطا وكان يقرأ «شرح السعد».

وكان درس الفقه يُسلّي الفتى ويلهيه بما كان يسمع فيه من غناء الشيخ إذا خلّ الطلاب بينه وبين الغناء، وحدة الشيخ ونكته الأزهرية إذا قطع الطلاب عليه غناءه فجادلوه في بعض ما كان يقرأ أو كان يقول. وربما كان الشيخ ينشد طلابه أحياناً من شعره إذا صفا وطابت نفسه للإنشاد. وقد حفظ عنه الفتى بيّنا من الشعر لم ينسَ قط صوت الشيخ وهو يتغنّى به مُترنحاً:

كأنَّ عمه من فوق هامته      شنفٌ من التبن محمول على جمل

وقد روى الفتى هذا البيت لأخيه وأصحابه فتضاحكوا وتذاكروا شعر الشيخ وتناولوا بعضه. وروى الفتى إلى البيت السابق بيّنا آخر ليس أقل منه طرافاً وظرفأ، وهو مطلع قصيدة قالها الشيخ رحمة الله في رثاء بعض العلماء، وهو:

خَطْبُ جَلِيلٍ بَعْدَ مَوْتِكَ يَا نَبِيًّا      فَقَدُّ الْأئمَّةِ كَإِلَامِ الْمَغْرِبِيِّ

وقد روى المصريون جميعاً عن الشيخ بعد ذلك العهد بأعوام طوال بيّنا آخر لم ينسه ظرفائهم بعد، وقد سار فيهم كما تسير الأمثال، وهو:

## إِنَّا مَعَ الْأُمَّارِ وَالْوَفَدِ وَالْوَزَّارِ      عَلَىٰ وَفَاقَ لَهُ فِي الْقَلْبِ تَأْيِيدٌ

وكان الفتى ربما جادل الشيخ فأطالت الجدال. وقد أسرف الجدال مرة في الطول حتى تأخر الدرس عن إبانه، وتصاحح الطلاب من جانب المسجد الحسيني بالشيخ أن حَسْبُكَ فقد نفد الفول. فأجابهم الشيخ في غنائه الظريف: لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا الجنون. ولم يكن بُدًّا للمجنون من أن يقنع؛ فقد كان هو أيضًا حريصًا على أن يُدرك الفول قبل أن ينفذ.

وكان درس البلاغة أثيرًا عند الفتى، لا لما كان يُحصّل فيه من علم؛ فقد مضى منذ وقت طويل إقبال الفتى على الدروس في الأزهر لتحصيل العلم، وإنما كان يُقبل عليه أداءً للواجب وقطعاً للوقت والتلامساً للفكاهة. وكان درس البلاغة أثيرًا عنده؛ لأنَّه كان يجد فيه هذه الفكاهة، ولأنَّ الشيخ — نَسْرَ الله وجيه — كان سمح النفوس رَضِيَّاً الخلق مخلصاً في درسه للعلم وللطلاب، ولأنَّه بعد ذلك كان يكفل نفسه في الفهم والإفهام جهداً عظيماً وعناءً ثقيلاً، وكان إذا بلغ منه الجهد رَفَّهَ على نفسه بهذه الجملة يوجهها إلى طلابه بين حين وحين، في لهجة منياوية عذبة مضحكة: «فَاهْمِنَّ يَا سَيِّدِي؟»

وكان إذا انتصف الدرس أشفق على نفسه وعلى الطلاب فقطع القراءة والتفسير وأقام دقائق صامتاً لا ينطق، وأقبل على نشوقه فاللهم منه بأنفه ما استطاع في تؤدة وروية وأنة. وكان الطلاب ينتهزون هذه الفرصة ليُطفئوا ما كان يتاجج في بطونهم من نار الفول والطعمية والكراث بقدحٍ من أقداح الشراب الذي كان يطوف به الباعة عليهم في أثناء الدروس، ويدعونهم دعاءً لطيفاً بهذا التقر الخفيف الذي كان يمس به الزجاج فيبعث إلى الآذان صوتاً خفيفاً ظريفاً.

وفي ذات يوم كان الفتى يستريح مع بعض أصحابه أثناء هذه السكتة، وكان الشيخ مُقبلاً على نشوقه والطلاب على شرابهم، وإذا أحد المشدين يأتي فيدعو الفتى وصاحبيه في رفق إلى غرفة شيخ الجامع.

ولكن هذه قصة لم يأت وقتها بعد، وإن كان الناس قد عرفوها منذ وقت بعيد، وقد قام الفتى واصحابه عن الدرس ثم لم يعودوا إليه بعد ذلك.

وفي هذا الوقت أو قريباً من هذا الوقت، وقعت قصة دخل فيها الفتى وممضى فيها إلى غaitتها، ولكنها قضت في نفسه على كل أمل في أن يظفر بنجاح في الأزهر قليل أو كثير.

غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر، فمنع الشيخ من إلقاء دروسه، ورأى الناس أن في هذا المنع ظلماً للشيخ وعدواناً على حقوق الأزهر، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً، وكان الأزهريون أشدتهم فتوراً وخوضعاً. ولكن صديقاً من أصدقاء الفتى – كانت له فيما أقبل من الأيام مواقف مشهورة يحمدها له الناس – أقبل عليه ذات يوم فقال له: ألسنت ترى فيما حل بشيخنا ظلماً وعدواناً؟ قال الفتى: بلى، وأي ظلم وأي عدوان! قال له الصديق: ألا تشارك في الاحتجاج على هذا الظلم؟ قال الفتى: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال الصديق: نجمع نفرًا من أصدقائنا الذين كانوا يسمعون دروس الشيخ ونسعى إليه نتمنى عليه أن يمضي في إلقاء دروسه علينا في بيته، فإذا قبل انتفعنا بالدرس وأعلننا ذلك في الصحف، فعرف الطالبون للأزهر أن بين الأزهريين من لا يُقرُّون الظلم ولا يُذعنون له، فقال الفتى: هذا حسن.

واجتمع نفر من طلاب الشيخ فسعوا إليه بما أرادوا، وأجابهم إلى ما طلبوا، فأعلنوا ذلك في الصحف، وأعلنوا أن الشيخ سيقرأ لهم «سلم العيون» في المنطق، و«مسلم الثبوت» في الأصول، يُقسم الأسبوع بين هذين الكتابين.

وببدأ الشيخ دروسه في بيته، وكثير الطلاب المقبولون على هذه الدروس حين علموا بها، ورضي هؤلاء الشباب عن أنفسهم وعن شجاعتهم، وعاد إلى الفتى شيء غير قليل من الأمل.

ولكنه في ذات يوم جادل الشيخ في بعض ما كان يقول، فلما طال الجدال غضب الشيخ وقال للفتى في حِدَّةٍ ساخرة: «اسكت يا أعمى ما أنت وذاك!» فغضبت الفتى وأجاب الشيخ في حِدَّةٍ: «إن طول اللسان لم يُثْبِتْ قَطُّ حَقًا ولم يَمْحُ باطِلًا.» فوجم الشيخ ووجه الطالب لحظة، ثم قال الشيخ لطلابه: «انصرفوااليوم فهذا يكفي.»

ولم يعد الفتى منذ ذلك اليوم إلى دروس الشيخ، بل جهل كل ما كان من أمرها. وكذلك عاد الفتى إلى يأسه من الأزهر، ولم يبق له أمل إلا في درس الأدب الذي آن وقت للتحدث عنه وعن آثاره البعيدة في حياة هذا الشاب.

## الفصل التاسع عشر

لم يك الصبي يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع ذكر الأدب والأدباء، كما سمع ذكر العلم والعلماء، سمع حديث الأدب بين هؤلاء الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقطي رحمة الله وحمایة الأستاذ الإمام له وبره به. وقد وقع هذا الاسم الأجنبي من نفس الصبي موقعاً غريباً، وزاد موقعه غرابة ما كان الصبي يسمعه من أعاجيب الشيخ وأطواره الشاذة وآرائه التي كانت تضحك قوماً وتغضب قوماً آخرين.

كان أولئك الطلاب الكبار يتتحدثون بأنهم لم يروا قط ضرباً للشيخ الشنقطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سنداً ومتناً عن ظهر قلب. وكانوا يتتحدثون بحدته وشدة سرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يُطاق من القول. وكانوا يضربونه مثلاً لحدة المغاربة، وكانوا يذكرون إقامته في المدينة ورحلته إلى قسطنطينية، وزيارته للأندلس، وربما تناشدوا شعره في بعض ذلك. وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئاً أو ناسخاً. ثم كانوا يذكرون بعد ذلك متضاحكين قصته الكبرى تلك التي شغلته بالناس وشغلت الناس به، وعرضته لكثير من الشر والألم، وهي رأيه في أن «عمر» مصروف لا ممنوع من الصرف.

وكان الصبي يسمع حديث «عمر» هذا فلا يفهم منه شيئاً أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن فهمه في وضوح حين تقدم في درس النحو وعرف المصنوف والممنوع من الصرف، وعرف غير المتمكن والمتمكن، والمتمكن الأمكن من الأسماء. وكان أولئك الشباب يذكرون مناظرات الشيخ مع جماعات من علماء الأزهر في صرف «عمر» هذا أو منعه من الصرف، ويتحدثون ضاحكين بأن العلماء اجتمعوا للشيخ ذات يوم في الأزهر برأسهم شيخ الجامع، فطلبوا إليه أن يعرض عليهم رأيه في صرف عمر، فقال الشيخ في لهجته

المغربية المتحضرة: لا أعرض عليكم هذا الرأي حتى تجلسوا مني مجلس التلاميذ من الأستاذ، فتردد الشيوخ، ولكن واحداً منهم ماكراً ماهرًا نهض عن مجلسه وسعى حتى كان بين يدي الشيخ فجلس على الأرض متربعاً، وأخذ الشيخ في عرض رأيه فقال: أنسد الخليل:

يا أيها الزاري على عمرٍ قد قلت فيه غير ما تعلم

قال الشيخ الجالس مجلس التلاميذ بصوته الماكر النحيف: لقد رأيت الخليل أمس فأنسدني البيت على هذا النحو: «يا أيها الزاري على عمر»، ولم يدعه الشيخ الشنقطي يتم إنشاده، وإنما قطع عليه الإنشاد محظياً وهو يقول: «كذبت! كذبت! لقد مات الخليل منذ قرون طويلة فكيف يمكن لقاء الموتى؟!» وجعل بعد ذلك يُشهد الشيوخ على تعمُّد أصحابهم للكذب، وعلى جهله بالنحو والعروض، وضحك القوم وتفرق المجلس دون أن يُقضى في أمر عمر أمننوع من الصرف كما يقول النحاة أم مصروف كما يقول هذا الشيخ الغريب؟ وكان الصبي يسمع هذا الكلام فيحفظه، ويجد اللذة فيما فهم منه، ويعجب بما لم يفهم.

وكان الشيخ يقرأ لبعض الطلاب هذه القصائد التي تُعرف بالمعتقدات، وكان أخو الصبي وبعض أصدقائه يسمعون هذا الدرس في يوم الخميس أو في يوم الجمعة من كل أسبوع، وكانتوا يعودون هذا الدرس كغيره من الدروس، وكذلك سمع الصبي لأول مرة:

قفوا نبك من ذكري حبيب ومنزل بسقوط اللوى بين الدخول فحومل

وما أسرع ما انصرف هؤلاء الطلاب الكبار عن هذا الدرس الذي لم يسيغوه! ولكن أخا الصبي حاول أن يحفظ المعتقدات، فحفظ منها معلقة امرئ القيس ومعلقة طرفة. كان يردد الأبيات بصوت مرتفع والصبي يسمع فيحفظ، ثم لم يلبث أن أشرك الصبي معه في الحفظ. ولكنه لم يتجاوز هاتين المعتقدتين وانصرف إلى دروسه الأزهرية الأخرى، واستقررت المعتقدتان في نفس الصبي يحفظهما ولا يفهم منها إلا قليلاً.

وكان هؤلاء الطلاب يتحدثون عن درس آخر كان يلقى في الأزهر ليعلم الأزهريين صناعة الإنشاء. وكان يلقى شيخ سوريٌّ من خاصة الأستاذ الإمام، وقد اختلف إليه هؤلاء الطلاب فاشتروا الدفاتر وكتبوا موضوعات الإنشاء، ولكنهم عدلوا عنه بعد قليل

## الفصل التاسع عشر

كما عدلوا عن درس الشنقيطي، وأقبل أخو الصبي ذات يوم ومعه مقامات الحريري، فجعل يحفظ بعضها رافعاً صوته بالقراءة والصبي يحفظ صامتاً، ثم أشركه في الحفظ كما أشركه في حفظ المعلقات، ومضيا في ذلك حتى حفظا عشر مقامات، ثم انصرف الشيخ الفتى إلى الأصول والفقه والتوحيد كما انصرف عن المعلقات ودرس الإنماء.

وأقبل مرة أخرى ومعه كتاب ضخم يُسمى «نهج البلاغة» فيه خطب الإمام عليٌ وقد شرحها الأستاذ الإمام نفسه، فجعل يحفظ من هذه الخطب ويحفظ الصبي معه، ثم أعرض عن هذا الكتاب كما أعرض عن غيره بعد أن حفظ الصبي طائفة من الخطب. وصنع الشيخ الفتى هذا الصنيع نفسه بمقامات بديع الزمان الهمذاني، ولم ينس الصبي قط قصيدة أبي فراس:

أراك عصيًّا الدمع شيمتك الصبر      أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر

فقد أقبل بها أخوه وقد طبعت مشطرة أو مخمسة، شطرها أو خمسها بعض الأزهريين، فجعل يقرأ في هذه القصيدة، ثم لم يلبث أن أعرض عن تشطير الأزهر أو تخميشه وأخذ في حفظ القصيدة نفسها مع أخيه. وإنما ذكر الصبي هذه القصيدة؛ لأنه صادف في أثناءها بيته كان يقع في أذنه موقعاً غريباً، وهو قول أبي فراس:

بدوت وأهلي حاضرون لأنني      أرى أن داراً لستِ من أهلها قفر

فقد قرأه الشيخ الفتى وحفظه وأحفظه أخاه:

...   ...   لأنني      أرى أن دار الستِ من أهلها قفر

وكان الصبي يسأل نفسه عن معنى هذا البيت، كما كان يرى غريباً أن تأتي كلمة «الست» في بيت من الشعر، فلما تقدمت به السن وتقدمت به المعرفة أيضاً قرأ البيت على وجهه ففهمه، وعرف كذلك أن كلمة «الست» ربما جاءت في شعر المحدثين من العباسيين ونثرهم أيضاً.

وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط، وجمع في نفسه أطرافاً من هذا الخليط من الشعر والنشر. ولكنه لم يقف عند شيءٍ من ذلك ولم يفرغ له، وإنما كان يحفظ منه ما يمر به حين تناحر له الفرصة، ثم يمضي لشأنه وفناقله. وفي ذات يوم من أول العام الدراسي أقبل أولئك الشباب متحمسين أشدَّ التحمس لدرسِ جدیدٍ يُلقي في الضحي، ويُلقي في الرواق العباسى، ويلقيه الشيخ سيد المرصفي في الأدب، وسمُّوا: «ديوان الحماسة».

وكانوا قد فُتنوا بهذا الدرس حين سمعوه فلم يعودوا إلى غرفاتهم حتى اشتروا هذا الديوان، وأذمعوا أن يحضروا الدرس وأن يعنوا به وأن يحفظوا الديوان نفسه، وأسرع أخو الصبيّ كعادته دائمًا، فاشترى «شرح التبريزى» لـ«ديوان الحماسة» وجَلَّده تجليدًا ظريفًا، وزَيَّن به دولابه ذاك، وإن كان قد نظر فيه بين حين وحين. وقد جعل أخو الصبي يحفظ ديوان الحماسة ويُحفظه لأخيه، وربما قرأ عليه شيئاً من «شرح التبريزى»، وكان يقرؤه على نحو ما كان يقرأ كتب الفقه والأصول، ويَتَفَقَّهُ على نحو ما يَتَفَقَّهُ هذه الكتب.

وكان الصبي يحس أن هذا الكتاب لا ينبغي أن يُقرأ على هذا النحو ولا أن يفهم على هذا النحو. كان الشيخ الفتى وأصحابه يرون «ديوان الحماسة» متناً، و«كتاب التبريزى» شرحاً، وكانوا يأسفون على أن أحداً لم يكتب على هذا الشرح حاشية. وكانوا كثيراً ما يقصُّون حديث الشيخ إليهم وعيث بهم وتندره على أساتذتهم وعلى كتبهم الأزهرية. يقصون ذلك ضاحكين منه معجبين به، ماضين على الرغم منه في درسهم الأزهري لا يفترون عنه ولا يُقصرون فيه.

وكان صاحبنا يسمع أحاديثهم، فيبتهر لهم أشد الابتهاج، ويشتاق إلى هذا الدرس أشد الشوق. ولكن أولئك الشباب لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا الدرس كما أعرضوا عن غيره من دروس الأدب؛ لأنهم لم يَرَوْهْ جِدًا، ولأنه لم يكن من الدروس الأساسية في الأزهر، وإنما كان درساً إضافياً من هذه الدروس التي أنشأها الأستاذ الإمام، والتي كانت تسمى دروس العلوم الحديثة؛ وكانت منها الجغرافيا والحساب والأدب، ولأنَّ الشيخ كان يسخر منهم فيسرب في السخرية، ويعبث بهم فيغلو في العبث.

ساء ظنه بهم، فرأاهم غير مُستعددين لهذا الدرس الذي يحتاج إلى الذوق ولا يحتمل الفنقة، وساء ظنهم به، فرأوه غير متمكن من العلم الصحيح ولا بارع فيه، وإنما هو صاحب شعر ينشد وكلام يقال، ونكت تضحك ثم لا يبقى منها شيء.

وكانوا مع ذلك حُرّاً على أن يحضروا هذا الدرس؛ لأن الأستاذ الإمام كان يحميه، ولأن الشيخ كان مقرباً من الأستاذ الإمام، ينتهز كل فرصة لينشئ في مدحه قصيدة يرفعها إليه ثم يمليها على الطلاب، ويأخذ بعضهم بحفظها على أنها من جيد الشعر ورائعه، وكانوا يرونها جيدة رائعة؛ لأنها كانت في مدح الأستاذ الإمام.

وقد بذلوا ما استطاعوا من الجهد للمحافظة على هذا الدرس، ولكنهم لم يطبقوا عليه صبراً، فانصرفوا عنه وعادوا إلى شايهم يستمتعون به في الضحى على مهل، وانقطع عن أصحابنا ذكر الأدب بعد أن حفظ من ديوان الحماسة جزءاً صالحاً. ثم أشيع ذات يوم أن الشيخ الم Rafi سيخصص يومين من أيام الأسبوع لقراءة «المفصل» للزمخشري في النحو، فسعى أصحابنا إلى هذا الدرس الجديد. ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلف به، وحضر درس الأدب في أيامه من الأسبوع، ولزم الشيخ منذ ذلك الوقت.

وكان الصبي قويًّا الذاكرة، فكان لا يسمع من الشيخ كلمة إلا حفظها، ولا رأياً إلا عاه، ولا تفسيرًا إلا قيده في نفسه. وكثيراً ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قدم من درسه، فكان أصحابنا يعيد على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيدَ من آرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشراحها، وتصحيحه لرواية أبي تمام، وإكماله للمقطوعات التي كان أبو تمام يرويها.

إذا الشيخ يحب الفتى ويكلف به، ويوجه إليه الحديث في أثناء الدرس، ويدعوه إليه بعد الدرس فيصحبه إلى باب الأزهر، ثم يدعوه إلى أن يصحبه في بعض الطريق. وقد دعاه ذات يوم إلى أن يُبعَد معه في السير، حتى انتهى الشيخ وتلميذه هذا وتلاميذه آخرون إلى قهوة فجلسوا فيها، وكان هذا أول عهد الفتى بالقهوات. وقد طال المجلس منذ صُلْتِ الظهر حتى دعا المؤذن إلى صلاة العصر، وعاد الفتى سعيداً مغبطةً قويًّا الأمل شديد النشاط.

ولم يكن للشيخ حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه. وكان الشيخ قاسياً إذا طرق هذا الموضوع، وكان نقده لاذعاً وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليماً حقاً، ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوىًّا، وكان يؤثر في نفس هذا الفتى خاصةً أبلغ تأثير وأعمقه.

إذا الفتى يؤثر هذا الدرس على غيره من الدروس شيئاً فشيئاً، ويختص اثنين من التلاميذ المقربين إلى الشيخ بمودته ثم بوقته. وإذا هم يتلقون إذا كان الضحى فيسمعون

للشيخ، ثم يذهبون إلى دار الكتب فيقرءون فيها الأدب القديم، ثم يعودون إلى الأزهر بعد العصر فيجلسون في هذا الممر بين الإدارة والرواق العباسى، يتحدون عن شيخهم وعما قرءوا في دار الكتب، ويعثون بشيوخهم الآخرين، ويعثون بالداخلين والخارجين من الشيوخ والطلاب. فإذا صلّيت المغرب دخلوا الرواق العباسى فسمعوا درس الشيخ بخيت الذي كان يقرأ في تفسير القرآن مكان الأستاذ الإمام بعد أن توفي.

ولكن الفتية لم يكونوا يسمعون للشيخ الذي يقرأ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب، وإنما كانوا يسمعون له ليضحكوا منه وليقيدوا عليه أغلاطه، وكانت كثيرة ولا سيما حين كان يعرض اللغة والأدب، وليشنعوا عليه بهذه الأغلاط بعد الدرس، ولنعرضوا هذه الأغلاط من الغد على شيخهم المرصفي، فيقدموا إليه مادة جديدة للتشنيع على أسانذته وزملائه من الشيوخ.

وقد كانت نفوس هؤلاء الفتية ضيقة بالأزهر، فزادها الشيخ ودرسه به ضيقاً، وكانت نفوسهم شديدة إلى الحرية، فحط الشيخ ودرسه عنها القيود والأغلال.

وما أعرف شيئاً يدفع النفوس، ولا سيما النفوس الناشئة، إلى الحرية والإسراف فيها أحياًًا كالأدب، وكالأدب الذي يُدرِّس على نحو ما كان الشيخ المرصفي يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم «الحمسة» أو يفسر لهم «الكامل» بعد ذلك؛ نقد حر للشاعر أولاً، وللراوي ثانياً، وللشرح بعد ذلك، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء، ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف باطن الجمال في الشعر أو النثر، في المعنى جملةً وتفصيلاً، وفي الوزن والقافية وفي مكان الكلمة بين أخواتها، ثم اختبار للذوق الحديث في هذه البيئة التي كان يلقى فيها الدرس، وموازنة بين غلظة الذوق الأزهري ورقة الذوق القديم، وبين كلل العقل الأزهري ونفاذ العقل القديم، وانتهاء من هذا كله إلى تحطيم القيود الأزهيرية جملة، وإلى الثورة على الشيوخ في علمهم وذوقهم وفي سيرتهم وأحاديثهم بالحق في كثير من الأحيان، والإسراف والتجنبي في بعض الأحيان.

ومن أجل هذا لم يثبت حول الشيخ من تلاميذه الذين كثروا أول الأمر إلا نفرٌ قليل، وامتاز منهم هؤلاء الثلاثة خاصة، فكونوا عصبة صغيرة ولكنها لم تثبت أن بعد صوتها في الأزهر، وتسامع بها الطلاب والشيوخ، وتسامعوا خاصة بنقدتها للأزهر وثورتها على التقاليد، وبما كانت تنظم من الشعر في هجاء الشيوخ والطلاب، وإذا هي بغية إلى الأزهريين مهيبة منهم في وقت واحد.

ولم يكن الشيخ أستاداً فحسب، ولكنه كان أديباً أيضاً، ومعنى ذلك أنه كان يصطمع وقار العلماء إذا لقي الناس أو جلس للتعليم في الأزهر، فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصته

عاش معهم عِيشة الأديب، فتحَدَّث في حرية مطلقة عن كل إنسان وعن كل موضوع، وروى لخاسته من شعر القدماء ونثرهم وسيرتهم ما يثبت أنهم كانوا أحراراً مثله، يقولون في كل شيء وفي كل إنسان لا متنطعين ولا متحفظين، كما كان يقول.

وكان أيسر شيء وأهونه أن يذهب الطالب مذهب شيخهم، ولا سيما إذا أحبوه وأكبروه، ورأوا فيه المثل الأعلى للصبر على المكره والرضا بالقليل، والتعرف عما لا يليق بالعلماء، والترفع عما كان ينغمس فيه كثير من شيوخ الأزهر من ألوان السعاية والنمية والكيد والتقارب إلى الرؤساء وأصحاب السلطان.

كان تلاميذ الشيخ يرون منه ذلك رأي العين ويلمسونه بأيديهم، ويعيشون معه، في حين كانوا يزورونه في منزله، ذلك المتهدم الخَرَب القديم في حارة قدرة من حارات باب البحر يقال لها: «حارة الركراكي»، هناك في أقصى هذه الحارة كان يسكن الشيخ، يسكن بيته قدرًا متهدماً، تدخل فيه من بابه، فإذا أنت في ممر ضيق رطب تنبعث فيه روانح كريهة، قد خلا من كل شيء إلا هذه الدَّكَّة الخشبية الضيقة الطويلة العارية التي قد أُسندت إلى حائط يتسلط منه التراب.

وكان الشيخ ينزل لتلاميذه فيجلس معهم على هذه الدَّكَّة، ولكنه يجلس راضياً مطمئناً، يسمع لهم باسمًا ويتحَدَّث إليهم أرق الحديث وأعذبه وأصفاه وأبرأه من التكلف، وربما كان مشغولاً حين يقبل تلاميذه لزيارته، فيدعوه إلى غرفته، فيصدعون إليه في سلم متهدم، ويسلكون إليه دهليزاً خالياً من كل شيء قد انتشر فيه ضوء الشمس، حتى إذا بلغوا غرفته دخلوا على شيخ منحن قد جلس على الأرض، ومن حوله عشرات الكتب يبحث فيها عن مقطوعة يريد أن يتمها، أو بيت يريد أن يفسره، أو لفظ يريد أن يتحقق، أو حديث يريد أن يصحح الرأي فيه، وعن يمينه أدوات القهوة.

فإذا دخلوا عليه لم يقم لهم، وإنما تلقاهم مستبشرًا فرحاً، ثم دعاهم إلى الجلوس حيث يستطيعون، ودعا أحدهم إلى صنع القهوة وإدارتها عليه وعليهم، ثم تحدث إليهم لحظات، ثم دعاهم إلى أن يشاركونه فيما كان بسبيله من بحث أو تحقيق.

ولم ينس الفتى وأحد صديقيه أنهما زارا الشيخ ذات يوم حين صليت العصر، فلما صعدا إليه لقيا شيخاً قد جلس على فراش متواضع الْقِي في هذا الدهليز، وإلى جانبه امرأة محطمة قد انحنىت حتى كاد رأسها يبلغ الأرض والشيخ يطعمها بيده، فلما رأى تلميذه هش لها، وأمرهما أن ينتظراه في غرفته شيئاً، ثم أقبل عليهما بعد حين وهو يقول ضاحكاً راضي النفس: «كنت أعشّي أمي».

كان هذا الشيخ إذا خرج من داره صورة الوقار والدعة، وأمن النفس وطمأنينة القلب وصفاء الضمير. وكان صورة الغنى واليسار، لا يحس من يتحدث إليه إلا رجلًا قد يُسرّ عليه في الرزق، فهو يعيش عيشة أمن وهناء وهدوء.

ولكن تلاميذه وخاصة كانوا يعلمون حق العلم أنه كان من أشد الناس فقرًا وأضيقهم يدًا، وأنه كان ينفق الأسبوع أو الأسابيع لا يطعم إلا خبز الجراية يغمسه في شيء من الملح، وكان على ذلك يُعَلِّم ابنه تعليمًا ممتازًا، ويرعى غيره من أبنائه الذين كانوا يتطلبون العلم في الأزهر رعاية حسنة، ويدلل ابنته تدليلًا مؤثرًا، يصنع هذا كله براتبه الضئيل الذي لم يكن يتجاوز ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه. كان من أصحاب الدرجة الأولى، فكان يتلقى جنيهًا ونصف جنيهه لذلك، وكان الأستاذ الإمام قد كلفه درس الأدب فكان يتلقى جنيهين، وكان يستحي أن يقبض راتبه أول الشهر، ويكره أن يختلط بالعلماء وهم يتهافتون على «المباشر» ليتقاضوا منه رواتبهم، فكان يدفع خاتمه إلى تلاميذه من خاصته ليقبض له هذا الراتب الضئيل في الضحى ويؤديه إليه بعد الظهر.

كذلك كان يعيش هذا الشيخ، وكان تلاميذه يرونوه ويشاركونه في حياته تلك البائسة الحرمة الممتازة، وكانتوا يرون ويسمعون من أمر شيوخ آخرين ما كان يملأ قلوبهم غيظًا وحدقًا، ونفوسهم ازدراهً واحتقاراً، فأي غرابة في أن يُفتنا بشيخهم ويتأثروه في سيرته وفي مذهبها وفي ازدرائه للأزهريين وثورته بما كان لهم من تقاليد!

لم ينكر تلاميذ الشيخ عليه في ذلك العهد إلا أنه انحرف ذات يوم عن الوفاء للأستاذ الإمام حين تولى الشيخ الشربيني مشيخة الأزهر، فنظم الشيخ قصيدة يمدح فيها الشيخ الجديد، وكان تلميذًا للشيخ ومحبًا له، وكان الشيخ الشربيني خليقاً بالحب والإعجاب. وأملى الشيخ المرصفي على تلاميذه قصيده التي سماها ثامنة المعلقات، والتي عرض بها قصيدة طرفة، فلما فرغ من إملائتها والتف حوله تلاميذه، مضى في الثناء على أستاذه، وعرّض بالأستاذ الإمام شيئاً، فرده بعض تلاميذه في رفق، فارتدى أسفًا حَجْلاً واستغفر الله من خطئته.

وكذلك اندفع هؤلاء التلاميذ فيما دفعهم إليه حبهم للشيخ وتأثرهم به، فأسرفوا على أنفسهم وعلى شيخهم أيضًا.

لم يكتفوا بهذا العبث الذي كانوا يعبثونه بالشيوخ والطلاب، ولكنهم جعلوا يجهرون بقراءة الكتب القديمة وتفضيلها على الكتب الأزهرية، يقرءون «كتاب سيبويه» أو كتاب

«المفصل» في النحو، ويقرءون كتابي عبد القاهر الجرجاني في البلاغة، ويقرءون دواوين الشعراء لا يتحرجون في اختيار هذه الدواوين ولا في الجهر بإنشاد ما كان فيها من شعر المجنون أحياناً في الأزهر. ويقلدون هذا الشعر، ويتناشدون ما ينشئون من ذلك إذا التقوا، والطلاب ينظرون إليهم شرّاً، ويترbusون بهم الدوائر، وينتهزون بهم الفرص. وربما أقبل عليهم بعض الطلاب الناشئين يسمعون منهم ويتحدثون إليهم، ويريدون أن يتعلموا منهم الشعر والأدب، فيغيط ذلك نظراهم من الطلاب الكبار ويزيدهم موجدةً عليهم وائتماراً بهم.

وفي ذات يوم كان صاحبنا يُدْعُ مع صديقه درس «الكامل»، فعرضت لهم هذه الجملة من كلام المبرد: «ومما كَفَرْتُ الفقهاء به الحاج قوله والناس يطوفون بقبر النبيٍ ومنبره؛ إنما يطوفون برمٍ وأعواد». فأنكر صاحبنا أن يكون في كلام الحاج ما يكفي لتكفيره، وقال: لقد أساء الحاج أدبه وتعبيره، ولكنه لم يكُفُرْ، وسمع بعض الطلاب ذلك فأنكروه، ثم تناقلوا.

وإن فتياننا الثلاثة لفي ملسمهم حول الشيخ عبد الحكم عطا، وإذا هم يدعون إلى حجرة شيخ الجامع، فيذهبون واجرين لا يفهمون شيئاً، فإذا دخلوا على الشيخ «حسونة» لم يجدوه وحده وإنما وجدوا من حوله أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهم من كبار العلماء؛ فيهم الشيخ بخيت، والشيخ محمد حسنين العدوي، والشيخ راضي وأخرون، ويلقاهم الشيخ متوجهًا، ثم يأمر رضوان رئيس المشدين أن يدعوه من عنده من الطلاب، فيُقبل جماعة من الطلاب فيسألهم الشيخ عما عندهم، ويتقىد أحدهم فيتهم هؤلاء الفتية بالكفر لمقاتلتهم في الحاج، ثم يقص من أمرهم الأعاجيب.

وكان هذا الطالب ماهراً حقاً؛ فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيراً جداً مما كانوا يعيبون به الشيوخ، ومما كانوا يعيبون به الشيخ بخيت والشيخ محمد حسنين والشيخ راضي والشيخ الرفاعي، وكانوا جميعاً حاضرين، فسمعوا بأذانهم آراء هؤلاء الفتية فيهم. وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب في كلّ ما قال. وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئاً، ولكن الشيخ لم يحاورهم ولم يداررهم، وإنما دعا إليه رضوان فأمره في شدة بمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر؛ لأنّه لا يريد مثل هذا الكلام الفارغ. ثم صرفهم عنه في عنف، فخرجوا وجلّين قد سقطاً في أيديهم لا يعرفون ماذا يصنعون، ولا كيف يصورون هذه القصة لأهلهم.

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ولا عند نظر الطلاب إليهم في ضحكِ منهم وشماتةٍ بهم، ولكنهم أقبلوا بعد صلاة العشاء ليلقوا شيخهم المرضى وليسمعوا منه درس

«الكامل». وأقبل الشيخ، فلقيه رضوان وأنباءً في أدب ولطف بأن شيخ الجامع قد ألغى درس «الكامل»، وبأنه ينتظره في مكتبه إذا كان الغد.

فانصرف الشيخ محزوناً، ومضى معه تلاميذه الثلاثة خَلِيلٍ وَجِيلَيْنَ، والشيخ يسرّي عنهم مع ذلك، حتى إذا كانوا في بعض الطريق خطر لهم أن يذهبوا إلى الشيخ بخيت ليستعطفووه ويتوسطوه عند شيخ الجامع، وقال لهم شيخهم: لا تفعلوا، فلن تبلغوا من سعيكم هذا شيئاً. ولكنهم مضوا مع ذلك إلى دار الشيخ بخيت، فلما دخلوا عليه عرفهم فتلقاهم ضاحكاً، ثم سألهم عن جلية أمرهم في فتور، فلما أخذوا يدافعون عن أنفسهم، قال لهم في فتور أيضاً: ولكنكم تدرسون «الكامل» للمبرد، وقد كان المبرد من المعتزلة، فدرس كتابه إثم.

وهناك نسي الفتية أنهم جاءوا مستعطفين، وأخذوا يجادلون الشيخ حتى أحظطوه، وانصرفوا عنه وقد ملأه الغضب وملاهم اليأس، ولكنهم مع ذلك تضاحكوا من الشيخ وأعادوا بعض كلماته، وتفرقوا وقد تعاهدوا على أن يخفوا الأمر على أهلهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولقوا شيخهم من الغد، فأنبأهم بأن شيخ الجامع قد حظر عليه قراءة «الكامل»، وكله قراءة «المُغْنِي» لابن هشام، ونقله من الرواق العباسى إلى عمود في داخل الأزهر. ثم جعل الأستاذ يبعث بشيخ الجامع، ويزعم لتلاميذه أنه لم يخلق للعلم ولا للمشيخة، وإنما خلق ليبيع العسل الأسود في سرياقوس، وكان قد فقد أنسانه فكان ينطق السين ثاء، وكان يتكلم لغة القاهرة فكان يجعل القاف همزة، ويمد الواو بينها وبين السين، وكان يتكلم هاماً، فلم ينس تلاميذه قط هذه الجملة التي طبعوا بها الشيخ حسونة رحمة الله فسموها: «بائع العثل في ثرياؤوث».

ولكن باائع سرياقوس هذا كان شديداً حازماً وكان مهيباً صارماً، يخافه الشيوخ جميعاً ومنهم الشيخ المرصفي؛ فقد أخذ يقرأ كتاب «المُغْنِي»، وذهب إليه تلاميذه مطمئنين، وما يعنيهم أن يقرأ الشيخ هذا الكتاب أو ذاك، حسبهم أن يقرأ الشيخ وأن يسمعوا منه ويقولوا له وقد سمعوا منه، فلما هم الفتى أن يقول له بعض الشيء أسكنه في رفق وهو يقول: «لأ، لأ، عاوزين نأكل عيش». ولم يعرف الفتى أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه، فانصرف عنه ومعه صديقاه وإن قلوبهم ليملؤها حزن عميق.

على أنهم لم يرضوا بهذه العقوبة التي فرضاها عليهم شيخ الجامع، وإنما فكروا في الطريق التي يجب أن يسلكوها ليرفعوا عن أنفسهم هذا الظلم. فاما أحدهم فقد أثر

العاافية وفارق صاحبيه واتخذ لنفسه مجلساً في جامع المؤيد بمعزل من العدو والصديق حتى تهدأ العاصفة. وأما الآخر فقصَّ الأمر على أبيه، وجعل أبوه يسعى في إصلاح شأن ابنه سعيًا رفِيقاً، ولكن الفتى لم يفارق صاحبه ولم يعتزل عدواً ولا صديقاً، وإنما كان يلقي صاحبه كل يوم فيتخذان مجلسهما بين الرواق العباسى والإدارة، ويمضيان فيما تعودوا أن يمضيا فيه من العبث بالطلاب والشيوخ.

وأما صاحبنا فلم يُحتجْ إلى أن يقُصَّ الأمر على أخيه، فقد انتهى الأمر إلى أخيه عن طريق لا يعرفها، ولكن أخيه لم يلْمُه ولم يُعَنِّفْ عليه، وإنما قال له: «أنت وما تشاء فستجني ثمرة هذا العبث وستجدها شديدة المرارة». ولكن الفتى لم يكن يعرف رفقاً ولا ليتاً؛ فلم يسع إلى أحد ولم يتول إلى الشيخ بأحد، وإنما كتب مقالاً عنِيماً يُهاجم فيه الأزهر كله وشيخ الأزهر خاصة ويطالِب بحرية الرأي. وماذا يمنعه من ذلك وكانت الجريدة قد ظهرت وكان مديرها يدعو كل يوم إلى حرية الرأي!

وذهب صاحبنا بمقاله إلى مدير الجريدة فتلقاء لقاء حسناً فيه كثير من العطف والإشفاق، وقرأ المقال ثم دفعه ضاحكاً إلى صديق له كان في مجلسه يومئذ، فألقى الصديق نظرة على هذا المقال ثم قال غاضباً: لو لم تكن قد عوقبت على ما جنيت من ذنب ل كانت هذه المقالة وحدها كافية لعقابك. وهوَ الفتى أن يرد على هذا الصديق، ولكن مدير الجريدة قال له مترفقاً: إن الذي يحدثك هو حسن بك صبري مفتش العلوم الحديثة في الأزهر. ثم قال له: أتريد أن تشنتم الشيخ وتغيب الأزهر، أم تزيد أن يرفع عنك هذا العقاب؟ قال الفتى: بل أريد أن يُرفع عنِي هذا العقاب، وأن أستمتع بحقِي من الحرية. قال مدير الجريدة: فدع لي هذه القصة وانصرف راشداً.

وقد انصرف الفتى، ثم لم يلبث أن تبين وتبين معه صاحباه، أن شيخ الجامع لم يعاقبهم ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر، وإنما أراد تخويفهم ليس غير. ومنذ ذلك الوقت اتصَّل الفتى بمدير الجريدة وجعل يتَردد عليه، حتى جاء وقت كان يلقاء فيه كل يوم.

وفي مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشيء طلماً تمناه، وهو أن يتصل بيته الطرابيش بعد أن سئم بيته العمائم، ولكنه اتصل من بيته الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء، وكان وهو فقير متوسط الحال في أسرته، سَيِّئَ الحال جداً إذا قام في القاهرة، فأتأتَّح له ذلك أن يفكِر فيما يكون من هذه الفروق الحائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل العشرون

واشتد ضيق الفتى بالأزهر وأهله وبحياته في القاهرة، غارقاً فيما لا يحب، مُقصّى عما تشتهيه نفسه ويتحرق إليه قلبه، حتى لقد كان يصل إلى القاهرة في أول العام الدراسي، فلا يكاد يستقر فيها حتى يدعو آخره متشدداً في الدعاء أو ملحاً فيه. والله وحده يعلم كم كان يسعد ويبتهج حين كانت بشائر الصيف تقبل، وحين كانت أرجاء الحي الذي كان يُقيم فيه تمتلي بهذه الروائح الكريهة التي كانت تبعثها حرارة الشمس فتملاً الهواء وتجعل التنفس ثقيلاً بغيضاً. وحين كان لا يجلس إلى شيخ من شيوخه في درس من دروس الظهر أو درس من دروس المساء إلا أسرع النوم إلى رأسه فخفق به خفقاً عنيفاً يلفت إليه الطلاب من حوله فيوقدونه جاذين أو هازلين.

كان مَقْدُمُ الصيف يملاً صدره حبوراً وبشراً؛ لأنَّه كان يُؤذن بقرب الإجازة والعودة إلى الريف والراحة من الأزهر والأزهريين، ولم يكن يحب الإجازة لهذا وحده، ولم يكن يُحبها لأنَّه سيلقى فيها أهله، ولأنَّه سينعم فيها بما كان يمتنع عليه في القاهرة من طبيات الحياة، وإنما كان يحب الإجازة لهذا كله ولشيء آخر كان أعظم في نفسه خطراً وأبعد أثراً من هذا كله؛ فقد كانت الإجازة أنفع لعقله وقلبه من العام الدراسي كله. كانت الإجازة تمكنه من أن يفرغ لنفسه فيفكر – وما أكثر ما كان يُفكِّر! ومن أن يخلو إلى إخوته فيقرأ – وما أكثر ما كان يقرأ وما أشد تنوعه وأعظم فائدته!

كان شباب الأسرة يعودون من معاهدهم ومدارسهم وقد ملئوا حقائبهم بتلك الكتب التي لا تتصل بدراساتهم المنظمة، ولا يتاح لهم أن يقرءوها في أثناء العام، وكانت هذه الكتب ألواناً، منها الجد ومنها الهزل، منها ما أُلف ومنها ما ترجم، منها القديم ومنها الجديد.

فكان هؤلاء الشباب لا ينفقون أيامًا في الأسرة حتى يساموا البطالة ويعافوا الكسل ويُقبلوا على كتابهم هذه، فيعكفوا عليها نهارهم وأطراً من ليلهم، وكان أبوهم الشيخ يحب منهم ذلك ويحمده لهم. وربما ضاق منهم بذلك ولاتهم فيه حين كانوا يُقبلون على القصص الشعبيّ فيغزقون في ألف ليلة وليلة، أو في قصص عنترة وسيف بن ذي يزن. ولكنهم كانوا يُقبلون على كتابهم هذه رضيَّ الأسرة أو سخطت، وكانوا يَجِدُون في هذه الكتب من المتع واللذة أضعاف ما كانوا يجدون في كتابهم الدراسية، وكانوا يقرءون ما ترجمَ فتحي زغلول عن الفرنسيَّة، وما كان السباعيُّ يُترجم عن الإنجليزية، وما كان جورجي زيدان يكتب في الهلال من مقالات، وما كان ينشر من قصص، وما كان يُؤلف من كتب في تاريخ الأدب والحضارة، وما كان يعقوب صروف يكتب في المقتطف، وما كان الشيخ رشيد يكتب في المنار.

وفي الإجازات قراءوا كتب قاسم أمين، وكثيراً من آثار الأستاذ الإمام، وكانوا يقرءون هذه القصص الكثيرة التي كانت ترجم لتلهي القراء، والتي كانوا يفتتون بما كانوا يجدون فيها من صور للحياة تُخالف ما عرفوا في ريفهم ومدنهم. وكان هذا كله يغريهم بالمضي في القراءة حتى يُسرفوا على أنفسهم، وربما أسرفوا على أسرتهم أيضًا؛ فقد كانوا لا يجدون في الصحف والمجلات إشارة إلى كتاب جديد أو كتاب قديم لم يعرفوه إلا كتبوا إلى الناشر يطلبون إليه إرساله إليهم، وما هي إلا أيام حتى يأتي الكتاب أو تأتي الكتب محولة على البريد، وحتى تضطر الأسرة إلى أن تدفع ثمنها سواء أرضيت عن ذلك أم شاقت به.

وكان صاحبنا يحب الإجازة لأنَّه كان يفرغ للتفكير في أصدقائه من بعيد، فيكتب إليهم ويترقب منهم الكتب، ويجد في نفسه لذلك نشاطاً وبه لذة لم يكن يجدها حين يلقى أصدقائه في القاهرة ويتحدث إليهم من قريب.

ثم كان يحب الإجازة لأنَّه كان يلقى فيها شباباً آخرين غير شباب أسرته، شباباً من بيئه الطرابيش، منهم من كان في المدارس الثانوية، ومنهم من كان في المدارس العالية، قد أقبلوا مثله يلتمسون الراحة بين أهلهم في الريف. وهم يجدون في لقاءه والتحدث إليه من اللذة والمتع مثل ما يجد هو في لقاءهم والتحدث إليهم، فكان يسألهم عمَا يتعلمون ويسألونه عمَا يتعلَّم، وربما قراءوا عليه بعض كتابهم، وربماقرأ معهم شيئاً من الأدب القديم.

ولكنه أنكر بعض إجازاته أول الأمر؛ فقد حدث حدث في أسرته، فتحولت عن مدinetها التي نشأ فيها الصبي إلى أعلى الإقليم أول الأمر، فأقامت فيه عاماً أو عامين،

ثم تحولت بعد ذلك إلى أقصى الصعيد، فأقامت فيه أعواماً طوالاً. وكان صاحبنا شديد الحزن على مدينته القديمة، شديد الضيق بهذه الأماكن الجديدة التي لا عهد له بها، والتي لم يكن يستطيع أن يذهب فيها عن يمين أو شمال، ولكنه اطمأن أخيراً إلى مدينته تلك في أقصى الصعيد حتى ألفها أشد إلف وتكلف بها أعظم الكلف، وأصبحت له وطنًا ثانياً، مع أن زياراته الأولى لهذه المدينة قد آذته وشقت عليه.

ذهب إليها مع الأسرة كلها لزيارة أبيه الشيخ، وكان قد بدأ عمله فيها وحيداً. فلما دبر أمره واستقرَّ به المقام دعا الأسرة إلى أن تنتقل إليه، وصادف ذلك إجازة الصيف، فانتقلت الأسرة ومعها الفتى. ركبت القطار منتصف الليل، وبلغت تلك المدينة في الساعة الرابعة من غد، وكانت المدينة جديدة، وكان القطار لا يقف فيها إلا دقيقة واحدة، وكانت الأسرة ضخمة يقودها أكبر أبنائها، وفيها النساء والأطفال، ومعها متاع ضخم عظيم، فلما دنا القطار من المحطة أقبل كبار الأسرة على النساء والأطفال والمتاع يقربون ذلك كلَّه من باب العربية، حتى إذا وقف القطار دفعوا ذلك كلَّه دفعاً إلى الأرض، ثم تواشروا من ورائه، ومضى القطار ولم ينسوا فيه إلا أخاهم هذا الضير.

وقد ذعر الفتى حين رأى نفسه وحيداً عاجزاً عن أن يقضى في أمره بشيء. ولكن جماعة من السُّفَرِ رأوا عجزه وحياته، فرفقوا به وجعلوا يهدئونه، حتى إذا وقف القطار في أول محطة أنزلوه وأسلموه إلى صاحب التلغراف وعادوا إلى قطاراتهم.

وقد عرف الفتى بعد ذلك أن الأسرة بلغت دارها في مدينتها الجديدة، فجعلت تزور الدار وتتفقد حجراتها وغرفاتها، وتقر كل شيء في مكانه، ثم أقبل الشيخ عليها فجلس يتحدث إلى هذا وذاك من أبنائه وإلى هذه وتلك من بناته.

ثم جرى عرضاً ذكر الفتى بعد أن مضى على وصول الأسرة وقت غير قصير، فلما سمع الشيخ اسم الفتى ارتاع وارتاعت أمه وارتاع إخوته، وهرول الشباب منهم إلى مكتب التلغراف، ولكنهم لم يبلغوه حتى وجدوا النبأ بأن أخاهم في المحطة المجاورة ينتظر من يأتي ليديه إليهم، فأرسلوا إليه من جاء به ردفاً على ظهر بغلة كانت تسعى هادئة مرة مُهَمْلِجَةً به مرة أخرى، فتضييف في قلبه فرقاً إلى فرقٍ وذُعراً إلى ذُعْرٍ.

ولم ينس الفتى قط مجلسه عند صاحب التلغراف، وكان شاباً نشيطاً كثير الضحك كثير المزاح، وقد اجتمع إليه جماعة من موظفي المحطة، فلما رأوا عنده هذا الفتى أنكروه ثم عرفوا أمره، فأظهروا العطف عليه والرقة له. وقد رأوا شيئاً ضريباً، مما شكوا في أنه يحسن قراءة القرآن أو يُحسن الغناء، وهم يطلبون إليه أن يغني لهم شيئاً، فإذا أقسم

لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئاً من القرآن، فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن، ألحوا عليه وأبوا إلا أن يسمعواه، واضطر الفتى إلى أن يقرأ القرآن حِجْلاً وَجِلاً مُسْتَحِيئاً ضيقاً بالحياة لاعناً للأيام، وإذا صوته يحتبس في حلقة، وإذا الدموع تنهمر على خديه وإذا القوم يرافقون به وينصرفون عنه، ويتركونه وحيداً أو كالوحيد حتى يأتي من يرده إلى أسرته.

آذت هذه القصة الفتى في نفسه، ولكنها على ذلك لم تبغض إليه المدينة الجديدة، ولم تزهده في زيارتها، وإنما أحبتها وجعلت نفسه تشاتق إليها أشد الشوق كلما دنا الصيف، وإن كان الحر فيها شديداً لا يطاق.

وتغيرت أمور أهل الربع تغريباً شديداً؛ فاما كبار الطلاب فقد ظفر الاثنان منهم بدرجة العالمية والتحق سائراً، ومنهم أخو الفتى؛ بمدرسة القضاء الشرعي لأول إنسائهما، وأما الفتى فقد فارقه ابن خالته ذاك الذي كان يعينه على وحدته في الأزهر والربع معًا والتحق بدار العلوم.

ونظر الفتى فإذا هو يعود إلى عزلته القاسية المنكرة التي طالما حَمَلَتْهُ ألوان العذاب في أول عهده بطلب العلم، وإذا أمره بزداد شدة وقسوة، فلن يفرغ له أحد إذا عاد إلى القاهرة بعد انقضاء الصيف، سيدهب أخوه إلى مدرسة القضاء، وسيذهب ابن خالته إلى دار العلوم، وماذا عسى أن يصنع هو وحيداً في الربع؟ وأي نفع له أو لغيره في أن يذهب إلى القاهرة؟ لقد أخذ من العلم حظاً لا يأس به، وما عسى أن يفيده من درجة العالمية إن ظفر بها! وأكبر الظن أنه لن يظفر بها؛ فإن نيلها يحتاج إلى جهد عظيم لا يستطيع هو أن يبذله وحده. كذلك قال أخوه للأسرة في يوم من أيام الصيف حين أوشكت الإجازة أن تبلغ أجلاها، وقد همَّ الشيخ الوالد أن يقول شيئاً فقطع ابنه عليه الكلام بهذه الحجج المفحة. ولم تجد أم الفتى ما تقول فأرسلت دموعاً صامتة غزاراً. ونهض الفتى فمشي متعرضاً حتى خلا إلى نفسه في إحدى الحجرات جاماً واجماً لا يُفكِّر في شيء.

وكانت ليلة ثقيلة طويلة لقي الفتى فيها من نفسه عذاباً شديداً، ثم أصبح لا يقول شيئاً ولا يقول له أحد شيئاً، فقضى نهاراً ثقيلاً طويلاً، ثم أقبل عليه أبوه الشيخ مع المساء فمسح رأسه وقبَّله وقال له: ستذهب إلى القاهرة، وسيكون لك خادم خاص، هنالك أجهش الفتى بالبكاء وأجهشت أمه بالبكاء أيضاً.

وجاء يوم السفر وخرج شباب الأسرة إلى القطار وفيهم الفتى، وكان أهل الخادم قد ضربوا للأسرة موعداً في المحطة، فهؤلاء الشباب يبلغون المحطة، وهذا القطار يصل

ولم يأت الخادم، ولهؤلاء شباب الأسرة يركبون القطار وهو يمضي بهم وقد تركوا الفتى فعاد به أبوه إلى الدار وكلاهما واجم حزين.

ويأتي الخادم مع الليل فيعود الفتى إلى استبشاره وابتهاجه، ويسافر مع خادمه الأسود الصغير إلى القاهرة بعد يومين وقد حمل إلى أخيه طعاماً وزاداً.

وقد بلغ القاهرة وأقام فيها مع خادمه هذا الأسود، يختلف معه إلى دروس الأزهر، ويهيئ له طعام الإفطار، ويقرأ له قراءة محظمة متعثرة أثناء فراغه.

ولكن الجامعة قد أنشئت، وإذا صاحبنا يقبل عليها وينتسب إليها، وإذا هو يختلف مع غلامه الأسود إلى دروس الأزهر مصبعاً وإلى دروس الجامعة ممسياً. وإذا هو يجد للحياة طعمًا جديداً، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته في الأزهر.

وقد بعدها الجامعة عن الربع، وبعدت عنه مدرسة القضاء، وبعدت عنه دار العلوم، فلم يبق للجامعة فيه مقاماً، وإذا هي تتحول عنه إلى بيت جديد أيضاً في درب الجماميز. وإذا الفتى يستأنف حياة لا صلة بينها وبين حياته القديمة إلا أنه كان ربما ألم بالأزهر مرة في الأسبوع أو في الأسبوعين، إلا أنه كان ربما لقي أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين، إلا أنه كان يزور الشيخ المرضى من وقت إلى وقت.

وفي الحق أن الفتى قد قطع الصلة بينه وبين الأزهر في دخلية نفسه وأعمق ضميره، ولكنه ظل مقيداً في السجلات. ولم يُظهر أباه على ما تم عليه عزمه مخافة أن يحزن الشيخ أو ييأس، فما كان يعرف من أمر الجامعة شيئاً، وما كان يعني من أمر الجامعة بقليل أو كثير.

ولكن الفتى عاد مع إخوته إلى مدينتهم تلك في إجازة الصيف، وإنهم لفي قراءتهم ذات يوم وإذا البريد يحمل إلى أخيه كتاباً من أحد أصحابه، وإذا هو يقرأ هذا الكتاب ثم يعيد قراءته على أخيه الفتى فيسمع منه عجبًا من العجب.

كان الفتى قد أتفق في طلب العلم في الأزهر ثماني سنين، وكان الأزهر قد تعرض لألوان مختلفة من النظام، فلما كان ذلك الصيف أبيح للطلاب المنتسبين أن يزيدوا مدة انتسابهم النظامية، إذا استطاعوا أن يثبتوا أنهم درسوا في الأزهر أو في المعاهد الدينية الأخرى قبل أن يبلغوا السن التي كانت تبيح لهم الانتساب النظامي، وهو اثنتا عشرة سنة، ليتعلموا تقدمهم للامتحان وظفرهم بالدرجات.

وأعلن هذا الترخيص في أثناء الإجازة، فيسرع هذا الصديق فيكتب إلى المشيخة طلباً باسم الفتى، يزعم فيه أنه قد درس في الأزهر سنتين قبل أن يبلغ السن القانونية، ويعرض هذا الطلب على اثنين من كبار الشيوخ لم يرهما الفتى ولم يرياه قط، لم يسمع لهما الفتى درساً ولم يسمعا منه شيئاً، ولكنهما يقرآن ثم يشهدان بأن الفتى لم يقل إلا حقاً، وأي بأس لذلك وما أكثر ما اختلف إليهما من الطلاب! وكيف السبيل إلى أن يعرفا تلاميذهما الذين لا يحصون!

وكذلك عرف الفتى من حيث لا يدرى أنه قد أنفق في الأزهر عشرة أعوام وإن لم ينفق فيه إلا ثمانية، وأنه لم يبق بينه وبين التقدم لنيل الدرجة إلا ستة اثنان. فليصل إذن من حبل الأزهر ما انقطع أو ما هم أن ينقطع، ولنلظل إذن طالباً بالجامعتين: بالجامعة الأزهرية كما كان الأزهر يسمى في ذلك الوقت، وبالجامعة المصرية، ولتحيي إذن هذه الحياة المشتركة التي يتजاذبه فيها قديم الأزهر في ذلك الحي العتيق بين الباطنية وكفر الطماعين، وجديد الجامعة في ذلك الحي الأنيق من شارع قصر العيني. فلندعه كما كان موضوعاً للصراع بين القديم والجديد، ومن يدرى! لعلنا نعود إليه مرة أخرى.

وها أنت ذا يابني تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتفارق أهلك وأصدقاءك، وتعبر البحر في سنك هذه الصغيرة لتطلب العلم وحيداً في باريس. فدعني أهدي إليك هذا الحديث لعلك ترتاح إليه بين حين وحين إذا أجهدك درسك ووجدت في اللاتينية واليونانية مشقة أو عناء، هنالك ترى لوناً لم تعرفه من ألوان الحياة في مصر، وتذكر شخصاً طالما ارتاح إلى قربك منه، وطالما وجد في جِدّك وهذلک لذة لا تعدلها لذة، ومتاعاً لا يعدله متاع.

فيك سورسيير

يوليو-أغسطس سنة ١٩٣٩

## الجزء الثالث



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

# الفصل الأول

على باب الأزهر

كان صاحبنا الفتى قد أنفق أربعة أعوام في الأزهر، وكان يعدها أربعين عاماً؛ لأنها طالت عليه من جميع أقطاره، وأنها الليل المظلم، قد تراكمت فيه السحب القاتمة الثقال، فلم تدع للنور إليه منفداً، ولم يكن الفتى يضيق بالفقر ولا بقصر يده مما كان يريده، فقد كان ذلك شيئاً مأولاً بالقياس إلى طلاب العلم في الأزهر الشريف.

وكان الفتى يرى من حوله عشرات ومئات يشقون كما يشقى، ويلقون مثل ما يلقى، وتقصر أيديهم عن أقصر ما كانوا يحبون، قد اطمأنوا إلى ذلك، وألفته نفوسهم، واستيقنوا أن الثراء والسعادة وخفض العيش أشياء تعوق عن طلب العلم، وأن الفقر شرط للجد والكَّ والاجتهد والتحصيل، وأن غنى القلوب والنفوس بالعلم خير وأجدى من امتلاء الجيوب والأيدي بالمال.

وإنما كان يضيق أشد الضيق بهذا السأم الذي ملأ عليه حياته كلها، وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها.

حياة مُطردة متشابهة لا يجده فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينقضي: درس التوحيد بعد أن تصل إلى الفجر، ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الضحى، وبعد أن يُصيب الفتى شيئاً من طعام غليظ، ودرس في النحو أيضاً بعد أن تصل إلى الظهر، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يُصيب فيه الفتى شيئاً من طعام غليظ مرة أخرى. حتى إذا صُلِّيَ المغرب راح إلى درس المنطق يسمعه من هذا

الشيخ أو ذاك، وهو في كل هذه الدروس يسمع كلاماً معاذاً وأحاديث لا تمس قلبه ولا ذوقه، ولا تغزو عقله، ولا تضيق إلى علمه علمًا جديداً، فقد تربت في نفسه تلك الملاكة كما كان الأزهريون يقولون، وأصبح قادراً على أن يفهم ما يُكرره الشيوخ من غير طائل. وكان الفتى يُفكِّر في أن أماته ثمانية أعوام أخرى، سيعدها ثمانين عاماً، كما عدَ الأعوام الأربع التي سبقتها، وفي أن عليه أن يختلف إلى هذه الدروس كما تعودَ أن يفعل، وأن يعيَد ويبدئ في هذا الكلام، الذي لا يُسيغه ولا يجد فيه غناً.

وفي أثناء هذا كله ذُكر اسم الجامعة، فوقع في نفسه أول الأمر موقع الغرابة الغربية؛ لأنه لم يسمع هذه الكلمة من قبل، ولم يعرف إلا الجامع الذي كان ينفق فيه بياض النهار وشطرًا من سواد الليل. فما عسى أن تكون الجامعة؟ وما عسى أن يكون الفرق بينها وبين جامعه ذاك أو جوامعه تلك الكثيرة التي كان يختلف فيها إلى شيوخه؟ فما أكثر ما كان بعض الشيوخ ينأون بدورسهم وطلابهم عن الأزهر، ويُؤثرون أنفسهم بمسجد من هذه المساجد الكثيرة في الحي! وكان تنقل الفتى بين هذه المساجد يرفرف عنه بعض الترفيه.

على أنه لم يلبث أن فهم كلمة الجامعة هذه فهماً مقاربًا، وعرف أنها مدرسة لا كالمدارس، وأحسَّ أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التي ستلقى فيها لن تتشبه دروس الأزهر من قريب أو بعيد، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من المعممين وحدهم، بل سيكونون فيهم المطربشون، وعسى أن يكونوا أكثر عدداً من أصحاب العمامئ؛ لأن هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الأزهري علمًا آخر، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشور التي يُضيّع فيها أبناء المدارس — كما كانوا يُسمونهم في تلك الأيام — أوقاتهم.

وكان نبأ الجامعة هذا إيزاناً للفتى بأن غمته تلك توشك أن تُكشَف، وبأن عَمرته تلك توشك أن تنجلي، فقد يُتاح له أن يسمع غير ما تعودَ أن يبدئ فيه ويعيد من علمه ذاك الممل، وقد أقام الفتى مع ذلك على شكٍّ مضمضٍ يؤذى نفسه أشد الإيذاء، ولا يستطيع أن يُصرح به لأحد من أصدقائه أو ذوي خاصته.

أتقبله هذه الجامعة بين طلابها حين يتم إنشاؤها أم ترده إلى الأزهر رُدّاً غير جميل لأنَّه مكفوف، وليس غير الأزهر سبيلاً إلى العلم للمكفوفين؟ كان هذا الشك المؤلم يؤرقه ليلاً ويقضِّ مضجعه، ولم يكن يُنادي به إلا نفسه. كان يستحي أن يتحدث عن آفته تلك إلى الناس، وكان يؤذيه أشد الإيذاء أن يتحدث الناس عنها إليه، وما أكثر ما كانوا يفعلون!

## الفصل الأول



عاش إذن بين خوفٍ ملِحٍ ورجاءٍ ضئيلٍ يعتاده بين حينٍ وحينٍ، فيتبح لنفسه شيئاً من راحةٍ ورَوحٍ، حتى إذا أنشئت الجامعة وعلم الفتى علماً ذهب عنه الخوف، وملأ الأمل نفسه رضاً وبهجةً وسروراً. واختلف إلى دروسه في الأزهر ذات يوم فلم يسمع من شيوخه شيئاً، ولم يفهم عنهم شيئاً، كان في شغلٍ عنهم وعن دروسهم بما سيكون حين يُقبل المساء، ولأول مرة سمع درس الأدب في الضحى فكان حاضراً كالغائب، وَيَقْظاً كالنائم، ولم ينتظر أن تُصْلَى العصر، وإنما سعى إلى الجامعة في أعقاب درس البلاغة مع زميليه، فأدَى كل منهم ذلك الجندي الذي لم يكن بُدًّ من أدائه ليؤذن له بالاستماع إلى الدروس. وكان غريباً عند هؤلاء الفتية أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلاً، فهم لم يتعودوا ذلك ولم يألفوه، وإنما تعودوا أن يُرْزقوا أرغفةً في كل يوم ليطلبوا العلم في الأزهر، وقد وجدوا بعض ما يُقْيم الأَوْدَ، وكان أداء ذلك الجندي عليهم عسيراً، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العسر في أداء ثمنها.

واستمع الفتى لأول درس من دروس الجامعة في الحضارة الإسلامية، فراعه أول ما راعه شيء لم يكن له بمثيله عهد في الأزهر؛ فهذا أحمد زكي بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل: «أيها السادة: أحبيكم بتحية الإسلام، فأقول: السلام عليكم ورحمة الله.»

وإنما كان الفتى يسمع في الأزهر كلاماً آخر لا يتجه به الشيوخ إلى الطلاب، وإنما يتوجهون به إلى الله عز وجل فيحمدونه ويُثثون عليه، ولا يحيي فيه الشيوخ طلابهم، وإنما يصلون فيه على النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين!

ثم رأى الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل في أول درسه: «قال المؤلف رحمه الله»، وإنما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ في كتاب. وكان كلامه واضحاً لا يحتاج إلى تفسير، وكان سوياً مستقيماً لا قنقة فيه ولا اعتراف عليه، وكان غريباً كلَّ الغرابة، جديداً كلَّ الجدَّة، ملِكَ على الفتى عقلَه كَلَّه وقلبه كَلَّه، فشُغل عن صاحبِيه، وشُغل عن كافٍ حوله من الطلاب، وما كان أكثرهم! حتى إذا أوشك الدرس أن ينقضى، أعلن الأستاذ أنه سيعيد هذا الدرس بعد دقائق ليتاح للطلاب الكثرين الذين لم يُتَّح لهم دخول الغرفة أن يسمعوه، وانصرف الفوج الأول من الطلاب، ولكن صاحبنا لم يَرِمْ، وإنما أقام في مكانه حتى سمع الدرس مرة أخرى.

لم ينم الفتى من ليلته تلك، وسمع المؤذن يدعوه إلى صلاة الفجر فلم ينهض من فراشه، وإنما تثاقل وتثاقل، ولم يخرج من غرفته إلا حين ارتفع الضحى، ولولا درس الأدب في الرواق العباسى لظل في غرفته حتى يُقبل المساء.

وقد سمع الفتى درس الأدب غير حفيٰ به أول الأمر، ولكن الشيخ سأله عن شيء فلجاج الفتى وسخر منه الشيخ، وسأله عن هذين المقطفين اللذين رُكِبا في رأسه ماذا يصنع بهما؟ يريد بالمقطفين أذنيه. ومنذ ذلك الوقت أقبل الفتى على درس الأدب هذا كما كان يُقبل عليه من قبل، فلم يُضيِّع مما قال الشيخ حرفاً.

وسمع بعد ذلك درس النحو فلم يمنح الأستاذ إلا أحد مقطفيه هذين، ولعله لم يمنحه مقطفه كله، إنما كان يعيش لساعة المساء، ويتعجل ذلك الدرس الذي سيسمعه من أحمد زكي بك عن الحضارة المصرية القديمة. وقد سمعه فلم تَسْعَ الأرض على رُحْبِها؛ سمع أشياء لم تكن تخطر له على بال، ولم يكن يتصور أنها قد كانت، أو أن الناس يمكن أن يتحدثوا بمثلها.

وكان تحرُّقه إلى درس اليوم الثالث أشدَّ وأقوى من تحرُّقه إلى الدرسين اللذين سبقاه، فسيكون الأستاذ إيطاليًّا، وسيتحدَّث باللغة العربية، إيطاليًّا يتحدث إلى المصريين

## الفصل الأول

في العلم بلغتهم العربية، وفي شيء لم يسمع الفتى وأترابه الأزهريون به قبل يومهم ذاك، ولم يفهمه الفتى وأترابه حين سمعوه، أنكرته آذانهم، وأنكرته نفوسهم وأذواقهم أيضاً، وكان اسم هذا الشيء الغريب: «أدبيات الجغرافيا والتاريخ». ما كلمة الأدبيات هذه؟ وكيف تكون في الجغرافيا والتاريخ؟ وقد أقبل الفتية على الدرس فلم يفهموا شيئاً؛ لأنهم لم يسمعوا شيئاً.

كان الأستاذ أغناlesiyo جويدي شيئاً كبيراً نحيف الصوت ضئيله جداً لا يبلغ عنه أقرب الطلاب إليه مجلساً. وكان الطلاب كثيرين، وكانت ضالة الصوت تغريهم بالضجيج، فضاع الدرس الأول في غير طائل بعد أن تعب الأستاذ في إلقائه، وتعب الطلاب في محاولة الاستماع له، واضطربت الجامعة إلى أن تخثار من الطلاب أرفعهم صوتاً وأفصحهم نطقاً ليبلغ عن الأستاذ كما يبلغ أحد المصلين عن الإمام حين تقام الصلاة.

ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيرت حياته تغيراً فجائياً كاملاً.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثاني

كيف سقطتُ في امتحان العالمية!

لم يك صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثَّت الأسباب بينه وبين الأزهر، فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره، ولا يعطيه من الجهد إلا أيسره، ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الأزهر، وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه، وضيقه به، ومللها من أحاديثه المعاذه، وقد انصرف أصحابه عن الأزهر أيضًا: ذهب أحدهما إلى كلية الفرير يُعلم فيها اللغة العربية، وذهب الآخر إلى المطبعة الأميرية يُصحح فيها ما كانت تطبع من الكتب، فلم يبق لصاحبنا في الأزهر أرب، وقد ضاق حتى بأحَبَ ما كان في الأزهر إلى نفسه، وهو المدرس الشيخ سيد المرصفى، فأعراض عنه كل الإعراض، لا زهداً فيه، ولا نفوراً منه، ولكن سخطًا على الشيخ رحمة الله: لأنَّه أذعن لشيخ الأزهر وأسرف في الإذعان، وأعراض عن معاذه تلاميذه، وتوجهَ أنَّ الجوايس قد أرصدت له، وبُتُّت عليه، فتحفظَ في كل ما كان يقول، وكَرِهَ أنَّ يسمع من تلاميذه بعض ما كانوا يأخذون فيه إذا جلسوا إليه من عبث الشيوخ وخوض في حديثهم! وقال للفتى ذات يوم حين أخذ في بعض ذلك: «لا، لا، دعنا نأكل العيش!» فتركه الفتى يأكل العيش ... وأصبح لا يلقاء إلا يوم الجمعة يسعى إليه في بيته، فينفق معه الساعات حلوة حرًّا، يقول فيها ما يشاء، ويسمع ما يشاء الشيخ أن يقول، وما أكثر ما كان الشيخ يقول!

ومنذ ذلك الوقت أيضًا سلك الفتى في حياته طريقًا لم يكن يُقدَّر أن سيتاح له سلوكها، فاتصل بالجريدة ومديرها الأستاذ لطفي السيد، وقويت الصلة بينهما حتى

كان يلقاء مرات في كل أسبوع، وكان يلقى عنده من شيوخ المطربشين وشبابهم قوماً كثريين، وكانت أحاديث الأستاذ وزائره تفتح للفتى أبواباً من العلم والمعرفة لم تكن تخطر له ببال من قبل، ولم يكن يقدر وجودها فضلاً عن اتصاله بها من قريبٍ أو بعيدٍ. واتصل الفتى كذلك بالشيخ عبد العزيز جاويش رحمة الله فأكثر الاختلاف إليه والاستماع له، وما هي إلا أن أخذ يجرب نفسه في الكتابة، كما جرب نفسه في الشعر بين يدي أستاده المرصفي. ولم يك الفتى يأخذ في الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد، قلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام، ولكنه كان نقداً محافظاً غالباً في المحافظة، إلا أن يعرض لشئون الأزهر، فهنالك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال، ويغلو في العبث بالشيوخ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش، وربما وجد منه إغراءً بذلك وحثاً عليه. وكان صاحبنا موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت، أحدهما: مذهب الاعتدال والقصد، ذلك الذي كان الأستاذ لطفي السيد يدعوه إليه ويزينه في قلبه، والأخر: مذهب الغلو والإسراف، ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرّضه عليه تحريضاً، وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعاً، فإذا اقتضى في ذلك نشر في الجريدة، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني.

ولم ينس الفتى قط كلمة كتبها فأورثته أمّا لاذعاً وحزناً مُمضّاً، واضطررته إلى أن يسعى معترضاً متواسلاً بالصديق إلى من كُتبت فيه هذه الكلمة. كان ذلك حين اختصر الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الأدب، فكان من شارك في هذه الخصومة زميل أزهري من زملائه كان يُعلم في كلية الفريير، وكان هذا الزميل ينتمي إلى أسرة كبيرة ويَعُدُّ انتقامه إليها من مفاخره، ولكنه لم يكن من هذه الأسرة إلا لأنّ أبياه كان من عتقائهما، فلما ردّ صاحبنا عليه نسبه إلى الأسرة وبَيْنَ طبيعة انتسابه إليها لم يُرد إيهاء زميله، وإنما أُعجبه هذا التعريض فاستجاب له، ولم يراجع نفسه فيه إلا حين قرأه مطبوعاً في الصحيفة، ولم يفهم فيه أصحابه، هنالك أُسْقطَ في يده ولم يَرَضِ زميله إلى بعد جهدٍ وعناءٍ. وقد رضي الزميل وصفح، ولكن الفتى لم ينس هذا الإثم قط، وما أكثر ما ازدرى نفسه، وحاول أن يأخذها بألا تضع كلمة في مقال حتى تفكر وتقدّر وتنجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلاً!

ولم يكن هذا الندم كل ما جرّ عليه طول اللسان من ألم، فما أكثر ما كان يُكْفُ بالفقد فيمضي فيه مؤمناً به حريضاً عليه لا يحسب لعواقبه حساباً.

ثم تمضي الأيام في إثر الأيام، وإذا هو قد نسي ما كتب، وشُغل عنه بأشياء أخرى، ولكن الناس لم ينسوه وإنما حفظوه له، وقَيَّدوه عليه، وأخذوه به حين سُنحت الفرصة. وطول اللسان هو الذي قطع الصلة قطعاً حاسماً بين صاحبنا وبين الأزهر، ودفعه دفعاً إلى حياته التي أتيحت له، وعرَضه لسخط أيٍ سخط، وحزن أيٍ حزن، وعناء أيٍ عناء. والغريب أنه قد تلقَّى السخط والحزن والعناء باسماً موفور الرضا، طيب النفس، فلم تتعلق نفسه قط بالجلوس إلى عمود من أعمدة الأزهر، ولا بإلقاء الدرس في حلقة من حلقاته.

لم يأس إذن على انقطاع الصلة بينه وبين الأزهر، وإنما ملأ قلبه الحزن والأسى حين عرف سخط أبيه الشيخ، وحزن أمه التي كان يختصها بالحب والبر والحنان.

كان ذلك حين أنشأ الشيخ رشيد رضا رحمة الله شيئاً سِمَاه مدرسة الدعوة والإرشاد، وأعلن أن هذه المدرسة ستُعد طلابها من الأزهريين لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وإرشاد المسلمين أنفسهم إلى دينهم الصحيح المبدأ من أوهام القرون وأباطيلها.

وقد ضاق المجددون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشد الضيق، وسخطوا عليها أعظم السخط. رأوا فيما أحاط بإنشائها من الظروف انحرافاً عن الوفاء للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من رجل كان يرى نفسه أقرب تلاميذ الشيخ إليه، وأخصهم به وأوفاهم له، فقد عطف الخديو على هذه المدرسة وأعانها وأغرى شيخ الأزهر بتأييدها. ورأى تلاميذ الأستاذ الإمام أن في عطف الخديو على هذه المدرسة وإعانته لها ما أثار في نفوسهم الرَّيْب فنَفَرُوا الناس منها، وأطلقوا ألسنتهم فيها، وعابوا على الشيخ رشيد أنه ثاب إلى من أخرج الأستاذ الإمام من الأزهر وعرَضه لكثير من الشر والأذى وأغرى به الشیوخ، حتى أذاعوا عن الشيخ ما أذاعوا من السوء، ونالوه بما نالوه من المكرور.

وفي ذات يوم أقام الشيخ رشيد وأصحابه حفلًا بهذه المدرسة، واجتمعوا حول مائدة العشاء في فندق من فنادق القاهرة يقال له: فندق «سافوي»، ونشرت بعض الصحف أنباء زعمت فيها أن أ��واب الشمبانيا أديرت حول هذه المائدة، وكان جماعة من شيوخ الأزهر يتقدمهم شيخهم الأكبر قد شهدوا هذا العشاء، ورأوا ماأدیر فيه من الأ��واب فلم يُنكروا بالعمل ولا بالقول.

هناك ثارت ثائرة المخلصين للأزهر، فلهجوا بالشيوخ وقالوا فيهم فأكثروا القول. ودافع المدافعون عن الشيوخ بأن زجاجاتٍ فُتحت في ذلك العشاء وكان لفتحها فرقة، ولكنها لم تكن زجاجات الشمبانيا، وإنما كانت زجاجات الكازوزة! ولكن خصوم الشيوخ من أبناء الأزهر لم يقبلوا هذا الدفاع، ولم يُصدِّقوه، وإنما مضوا يلهجون ويقولون في الشيوخ فِيَكْثُرُونَ الْقَوْلُ، وكان صاحبنا الفتى أطولهم لساناً، وأجرأهم قلماً، وأجرحهم لفظاً. عاب الشيوخ شعراً ونثراً، ونشر عبد العزيز جاويش له ذلك في صحيفة «العلم» فرضي المجددون وأغرقوا في الرضا، وسخط المحافظون وأسرفوا في السخط، وتناقل أولئك وهؤلاء هذه الأبيات الثلاثة من شعر الفتى الذي لم ينسبة إلى نفسه، وإنما زعم أنه تلقاه في البريد:

رَغَى اللَّهُ الْمَشَايَحَ إِذْ تَوَافَقُوا  
إِلَى سَافَوَيِّ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ  
وَإِذْ شَهَدُوا كَوْوَسَ الْخَمْرِ صِرْفًا  
تَدُورُ بِهِ السُّقَّاهُ عَلَى الْجُلوُسِ  
رَئِيسُ الْمُسْلِمِينَ عَدَكَ ذَمٌ  
أَلَا لِلَّهِ دُرُّكَ مِنْ رَئِيسٍ

ثم مضت الأيام وتتابعت فيها الأحداث، حتى إذا دار العام رأى الفتى نفسه يتهمياً للامتحان في الأزهر لينال درجة العالمية. وقد تلقى الفتى ما كان يسمى حينئذ بالتعيين، وهو الدروس التي يجب أن يدها ليلاقيها أمام لجنة الامتحان، ويثبت لمناقشة المتخرين فيها.

فاستعد الفتى وأحسن الاستعداد، وحفظ فأحسن الحفظ، حتى إذا لم يبق بينه وبين شهود الامتحان إلا سواد الليل، وأقبل عليه شيخه المرصفي رحمة الله فأنبهه هذا النبأ العجيب الذي لم يحمله إليه في ضوء النهار، وإنما حمله إليه في ظلمة الليل، بعد أن صُلِّيَ العشاء.

قال الشيخ: إذا أصبحت يا بُني فاستقل من الامتحان ولا تحضره من عامك هذا، فإن القوم يأترون بك ليسقطوك.

قال الفتى: وما ذاك؟!

قال الشيخ: تعلم أني عضو في لجنة الامتحان التي ستحضر أمامها غداً، والتي يرأسها الشيخ دسوقي العربي، فقد دُعيَ رئيس اللجنة إلى الشيخ الأكبر وأمر بإسقاطك مهما تكون الظروف.

قال الفتى: ولكنني سأحضر أمام لجنة أخرى يرأسها الشيخ عبد الحكم عطا.

قال الشيخ: فإن هذه اللجنة لن تجتمع؛ لأن رئيسها أبي أن يسمع للشيخ الأكبر حين أمره بإسقاطك، فلما ألحّ الشيخ الأكبر عليه ألحّ هو في الإباء، فلما خيره الشيخ الأكبر بين إسقاطك وبين لا تجتمع لجنته، آثر لا تجتمع اللجنة، وقال: إنما هو غداء وثلاثون قرشاً!

وأبى الفتى أن يستقبل على رغم إلحاح الشيخ المرضفي عليه في ذلك، ونام ليه هادئاً موفراً، واستقبل صباحه راضياً مسروراً، وغدا على لجنة الامتحان، وكانت مجتمعة في مكان في الدّرّاسة لا يعرف الفتى أقائم هو أم درس فيما درس من المنازل والدور. غدا على لجنة الامتحان فألقى التحية، وجلس، وكان أعضاء اللجنة يشربون الشاي.

قال الرئيس للفتى: هل أفتررت؟

قال الفتى: نعم.

قال الرئيس: فأتمم هذا الكوب الذي شربت نصفه لتحصل لك البركة. وأخذ الفتى من الشيخ كوبه مُبتسماً، وشرب ما فيه متكرّهاً، ثم أخذ في الدرس الأول فأنفق فيه ساعتين ونصف ساعة، ولقيَ فيه من المناقشة أشدّها، ومن الجدال أعنفه. وفي أثناء ذلك دخل الشيخ الأكبر، فلم يسلّم، وإنما قال: حرام عليك يا شيخ دسوقي، حرام عليك، ارفق به! ارفق به! ثم انصرف.

ولم يرافق الشيخ دسوقي بالفتى، وإنما أضاف شدة إلى شدة، وعنفاً إلى عنفٍ، وانقضى الدرس الأول، وقيل للفتى: اذهب فاسترح.

وخرج الفتى فإذا كرسٌ قد وضع إلى جانب الباب، وجلس عليه الشيخ الأكبر كأنه ينتظر شيئاً.

ولم يكدر الفتى حتى دعا شيخاً من الشيوخ كان هناك وقال له: خذه يا شيخ إبراهيم فاسقه فنجاناً من القهوة! وفي انتظار هذا الفنجان أقبل من حمل المحفظة إلى الفتى إيذاناً بأنه قد سقط، وبأن اللجنة لا تريد أن يُتمَّ ما بقي له من الدروس.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثالث

### أثر اختفاء المرأة

عاش الفتى وصاحباه أعواماً غرباء عن الأزهر قريبين منه، يُلمون به بين حين وحين، إن أتيح لهم ذلك، فيجلسون في مجلسهم ذاك بين الإدارة والرواق العباسى، ويتندون كما أحبوا أن يفعلوا دائمًا بالمقبلين على الأزهر والخارجين منه، وبالشيخ والطلاب. وربماقرأ عليهم أحدهم الزيات في هذا الكتاب أو ذاك من كتب الأدب القديمة أو الجديدة، وربما قرأ هذه الصحيفة أو تلك من صحف المساء، فأخذوا في حديث السياسة وخطوبها، أو في ذكر كتاب تلك الأيام وشعراها، يُلمون بهذا كله ولا يمعنون فيه، فقد كانوا في تلك الساعات لا يكرهون شيئاً كما كانوا يكرهون أخذ الأمور مأخذ الجد.

كانوا يقصدون إلى الأزهر ليلهموا ويلعبوا، لا ليعملوا ويجدوا، فقد استقر في نفوسهم أن للمجده مكاناً غير الأزهر، هو الجامعة إذا كان المساء، وهو دار الكتب أثناء النهار. وربما شاقهم طعام الأزهر، فذهب ثالثهم الزناتي فاشترى لهم من هذا الطعام، وأقبلوا عليه كلفين به ساخرين منه، ومن الذين يعيشون عليه، ومن أنفسهم حين كانوا يعيشون عليه. فقد تغيرت أحوالهم شيئاً؛ عمل أحدهم مدرساً في كلية الفريير، وعمل الآخر مصححاً في المطبعة الأميرية، وأصبح لكل منهما مرتب في آخر الشهر يتيح له شيئاً من سعة، وينأى به عن حياة الأزهر تلك القاسية الجافية، وعن طعام الأزهر ذلك الخشن الغليظ. ولم يكن صاحبنا الفتى معلمًا ولا مصححاً، ولم يكن له مرتب في آخر الشهر أو أوله، ولكن حياته مع ذلك لانت بعض اللين. فقد ظلَّ الشيخ يُرسل إليه وإلى أخيه وابن خالته ما تعودَ أن يرسل من الزاد والنفقة على اتساع فيهما قليل. وأضيف إلى ذلك ما كان

أخو الفتى يأخذه من مدرسة القضاء في كل شهر، وما كان ابن خالته يأخذه من دار العلوم في كل شهر أيضاً. وكان كلاهما يُصيّب غداً في المدرسة التي يختلف إليها. وكان صاحبنا قد خلّي بينه وبين ما يتاح له من طعام أثناء النهار، ليس لِيَنَا ولا رقيقاً، ولكنه خير من طعام الأزهر على كل حال. وأتيح للفتى أن يُصيّب من الطعام المطبوخ مرتين في الأسبوع، فكان طعام الأزهر بالقياس إليه خشناً غليظاً، وكان ربما استطرفة بين حين وحين.

وقد جعل هؤلاء الفتية الثلاثة يحيون حياة الأدباء في تلك الأيام. وكانت حياة الأدباء في تلك الأيام مزاجاً غريباً من متعة تختلس بين حين وحين، ومن بُؤس نفسيٍّ يفرضونه على أنفسهم، وإن لم تفرضه عليهم الحياة؛ فالأديب عندهم وعند غيرهم في تلك الأيام بائس بطبيعة، طامح بطبعه إلى النعيم، يتّخذ البؤس لنفسه عشراً، ويجعل النعيم لنفسه حلماً، ويختلس المتعة القصيرة بين حين وحين إن أتيح أن يخرج من حياته المألوفة إلى رياضة في الضواحي، أو تَنَزَّهٌ في الحدائق، أو جلسة في قهوة من القهوات.

وكانت حياة الأديب فيما وراء ذلك ألواناً من الرضا والسطح تأتيه من قراءاته الكثيرة المختلفة، قوامها أن يُفكّر كما كان يفكّر القدماء الذين يقرأ آثارهم ويشعر كما يشعرون، ويسيّر في الناس كما كانوا يسيرون. وقد ألحَ أولئك الفتية في قراءة الشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي وحفظه، كما أحُلُوا في قراءة أخبار الشعراء والكتاب وعلماء اللغة، فعاشوا عيشة أولئك الناس في دخائل نفوسهم، وإن لم يستطعوا أن يعيشوها في حياتهم الواقعة؛ لأن الظروف كانت تحول بينهم وبين ما كانوا ي يريدون من ذلك، وهم قراءوا شعر أبي نواس وأصحابه، وقراءوا شعر الغزلين العذريين، فاستحبّوا من الغزل ما استحبَ أولئك الشعراء، وذهبوا فيه مذاهبهم المختلفة، حافظ منهم من حافظ فائز شعر العذريين وغزلهم، وجدد منهم من جدد فائز شعر العباسيين وغزلهم، وخلقوا لأنفسهم مُثلاً للجمال يتغذّلُون فيها ويُشَبِّهُون بها، ولم يكن للمحافظين منهم بد من أن يخترعوا مُثلاً لهم العليا اختراعاً، فقد كانت الحياة تحول بينهم وبين لقاء الغواني. ولكن المجددين كانوا خيراً منهم حظاً، فلم يكن من المتنع أن يلقوا في الأزهر أو خارج الأزهر بعض الوجوه الصّباح، وأن يتذبذبوا لغزلهم موضوعات لا يخترعوا لها الخيال، وإنما تعرضها عليهم الحياة.

وكذلك وُجد بين هؤلاء الفتية من كان يذهب مذهب جميل وكثير، وكان الحرمان المطلق محتوماً عليه؛ كما كان منهم من يذهب مذهب أبي نواس وأصحابه، وكان حظه

### الفصل الثالث

من الحرمان أقل، ونصيبه من النعيم أكثر، فهو كان يستطيع أن يلقى أصحاب الوجوه الصّباح، وأن يقول لهم ويسمع منهم، ويهم بهم، ويقول فيهم الشعر، وينصب في هذا الشعر المذاهب، وربما ورطه هيامه وشعره وورط معه صاحبيه في الشر القليل أو الكثير.

وكان ثالث هؤلاء الفتية نوايي الشّعر ونوايي الهوى، وما أسرع ما ألف أفراداً من ذوي الوجوه الحسان، واطمأن إليهم وأكثر من لقائهم، يسعى إليهم وحده في مجالسهم، وربما دعا أحدهم إلى مجلسه مع صاحبيه، وصاحباه يضحكان منه ويعيثان به أول الأمر، ثم يرثيان له ويُلْحَان عليه بالنصّ بعد ذلك، يؤدون إليه ما يحبون من العبث به والنّصّ له، بالحديث مرة وبالشعر مرة أخرى. ولكنه لا يحفل بعيثهما ولا بنصّهما، وإنما يمضي مع هواه لا يلوي على شيءٍ، حتى أصبح حديث أتراكه، وحتى قبل الفتية ذات يوم إلى مجالسهم ذاك من الرواق العباسي فوجدوا بعض الزّاريين على عيّتهم قد كتب لهم على الجدار الذي كانوا يستندون إليه هذين البيتين اللذين كتبهما شاعر قديم لأبي عبيدة معمر بن المثنى:

صَلَّى إِلَهُ عَلَى لَوْطٍ وَشَيْعَتِهِ  
أَبَا عَبِيدَةَ قُلْ بِاللَّهِ آمِينَا  
فَأَنْتَ عَنِي بِلَا شَكَّ بِقَيْتَهُمْ ... ... ...

ولم يك صاحبا الفتى يريان هذا الشعر حتى أخذهما ما يُشبه الصاعقة، وضحك صاحبنا، وأغرق في الضحك، وثار صاحباه إلى مثل ما كان فيه، فضحكا معه وأغرقا في الضحك أيضاً، ولكن بغضهم لزملائهم من طلاب الأزهر زاد أضعافاً مضاعفةً، وجعل الفتى النوايي يبحث عن كاتب هذين البيتين بدون أن يصل من بحثه إلى شيءٍ، ولكنه رجح لغير سبب أن خصميه إنما هو ذلك الطالب الأسود الذي كان يُنافسه في دروس النحو، والذي كان يبغضه أشدّ البغض، فاتخذه لنفسه عدواً، وجعل يتعمد إيناءه كلما وجد إلى إينائه سبيلاً، فكان لا يراه – وما أكثر ما كان يراه – إلا رفع صوته بهذين البيتين اللذين حفظهما فيما زعم عن أبيه:

سَبِّحَنَ مَنْ قَدَّ الْهَمَّةُ  
فِي الْهَنْدِ طَيْرُ نَاطِقٌ  
ابْنُ الْأَمَّةِ مَا الْأَمَّةُ  
يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ

ومنذ ذلك الوقت أسرف ذلك الفتى النواصي على نفسه وعلى صاحبيه وعلى زملائه من الطلاب، فكان يتبع سبئاتهم وأغلاطهم، ويزيد فيها ويضيف إليها، ويقول في ذلك الشعر، حتى أصبح هجاءً. وكان لا يحظ بهجائه لنفسه ولصاحبيه، وإنما يجهه به كلما وجد إلى الجهر به سبيلاً. وربما احتال حتى يُنشد شعره ذاك بأرفع صوته ليُسمعه من قيل فيهم من الطلاب. ثم عظم في نفسه الوهم واستثار بها حبُّ الشر، فكان كلما رأى أحداً ينظر إليه فيطيل النظر، أو ينظر إلى بعض أصحابه أولئك الحسان اتخذ لنفسه عدواً وهجاه. ثم بدا له أن الهجاء وحده لا يُغنى عنه شيئاً، فعمد إلى شر منه، وجعل يكتب إلى إدارة الأزهر وإلى الشيخ الأكبر خاصة، الرسائل في كل يوم، يسعى بها عنده في هؤلاء الطلاب الذين اتخاذهم لنفسه عدواً.

وضاق الشيخ الأكبر بهذه الرسائل التي جعلت تُصبُّ عليه في كل يوم كما ينصب المطر من السماء، وإذا الإدارة تُعلقُ ذات يوم في لوحة الإعلانات تنبئها تدعو فيه الطلاب إلى أن يكفُوا عن هذه الخطة التي يُنكرها الخلق ويُحرّمها الدين، وهي السعي بالسوء في الشيوخ والطلاب عند المشيخة. وقد قرأ الفتى النواصي هذا التنبية ذات يوم بين هذه الإعلانات الكثيرة التي كان الطلاب يُعلقونها يُعلقونها فيها أن نعالهم قد ضاعت منهم، وأن من وجدها فليُردها إلى أصحابها، وأن من سرقها فهو جدير بأن يغضب الله عليه ويقطعه من هذا المكان.

قرأ الفتى النواصي هذا التنبية بين تلك الإعلانات، فامتلأ قلبه غبطةً وابتهاجاً، وزعم أنه قد فاز فوراً عظيمًا؛ لأنه ضايق الشيخ وأحرجه، وألحَّ في كتابة رسائله تلك إمعاناً في مُضايقة الشيخ وإحراجه، ولم يكُفَّ عن ذلك إلا حين كف أصحابه عن الإمام بالأزهر مخافة سوء العاقبة، واضطُر هو إلى أن يهجر الأزهر كما هجره أصحابه.

على أن صاحبنا الفتى لم يلبث أن شُغلَ – أو كاد يُشغَلُ – عن صاحبيه بياض النهار، فقد كان يخلص لحياته هذه الجديدة التي أخذ يحياها منذ قرأ لنفسه أول مقال نشرته له الصحف. أرضاه ذلك عن نفسه وأطممه في المزيد منه، فجعل يكتب في الجريدة رغبةً في الكتابة أحياناً، وتقرئها بها إلى مدير الجريدة أحياناً أخرى، وجعل مدير الجريدة يرضى عن فصوله، ويُغريه بالكتابة، ويحثه عليها حثًّا، ويعلّمه القصد في اللفظ والأنة في التفكير.

وما هي إلا أن جعل يُقرِّبه إليه، ويدعوه إلى زيارته حتى أصبح الفتى ملازماً لمكتب المدير، يلمُّ به في أكثر أيام الأسبوع حين يرتفع الضحى، فلا يحجب عنه، وإنما يلقاه

الأستاذ المدير هاشا له، مرحبًا به، آخذاً في التحدث إليه والاستماع منه، فاتحًا له أبواباً من التفكير، لم تكن تخطر له على بال، خائضاً معه في حديث الأدب القديم، راوياً له من الشعر ما كان يحفظ وما لم يكن قد سمعه من قبل، حتى استثير بقلب الفتى وعقله حتى أصبح للفتى أستاذان يختصُّهما بحبه وإعجابه، أحدهما يذكره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصفي، والأخر يذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في الأزهر وجعل يدرس أطرافاً من فلسفتهم في الجامعة، وهو لطفي السيد.

وكان الفتى يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله، فيسمع له صوتاً عذباً وحديثاً علينا رقيقاً، ويرى من وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفاً أبي عنف إن ذكرت السياسة، أو ذكر الأزهر وشيوخه، أو ذكر بعض الكتاب الظاهريين الذين لا يكتبون في صحف الحزب الوطني. وكان يحب العنف إلى الفتى ويُرحب به فيه، ويزين في قلبه الجهر بخصوصة الشيوخ والنعي عليهم في غير تحفظ ولا احتياط. فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجمون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بمصالحهم للخدع، ومصانعتهم للإنجليز.

وكان بغضه لسعد زغلول رحمه الله معروفاً يتحدث به الناس، هجاه بمقالاته المشهورة التي جعل عنوانها: «ظلموك يا سعد»، وهجاه هجاءً مُنكرةً في بعض الشعر الذي لم ينشره؛ لأنَّه كان أعنف من أن ينشر.

وقد أنسدني قصيدة قالها في السجن، وقد بلغه أن سعداً قد يعود إلى الوزارة أو يصبح رئيساً لمجلس الوزراء، لم أحفظ منها إلا مطلعها وهو بشعر كما ترى:

إِنْ صَحَّ مَا أَنَّهِ الرَّوَاْةُ لِمَسْمِعِي      فَلَسْوَفَ تُصْبِحُ تَحْتَ حَكْمِ الْأَقْرَعِ

وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السمحجة التي كتبها الفتى، فشَّغلَ به الأدباء والمثقفين حيناً، ثم لم ينقطع استخدامه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له، وكان موضوعها نقد «نظارات» المنفلوطي رحمه الله، وكان عنوانها: «نظارات في النظارات».

قرأ الفتى الفصول الأولى من نظارات المنفلوطي راضياً عنها، مُعجبًا بها، ثم لم يلبث أن سئلها وانصرف عنها. ولكنَّه لم يكُن يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها أشدَّ الضيق، وكتب يعييها ويغضُّ منها. وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب الفتى أشدَّ الفرح، واستزيدَه من الكتابة، وحرَّضَه عليها وألحَّ في التحرير، حتى ألقى في

رُوعه ألا يدع فصلاً من فصول المنفلوطي إلا اختصه بفصل من النقد. وكان الفتى قديم المذهب في الأدب لا ينظر منه إلا إلى اللفظ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة، فكان عيب المنفلوطي عنده أنه يُخطئ في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها، ويصطمع ألفاظاً لم تثبت في «لسان العرب» ولا في «القاموس المحيط».

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة. ولم ينس الفتى مقالاً دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش، فلم يكدر يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك، وابتھج الفتى حين سمع الثناء، وأحسّ بالإعجاب، واستيقن أنه أصبح كاتباً ممتازاً، ثم لم يذكر بعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطاً من رأسه ومن نفسه، وسأل الله أن يتتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم، وكان أول المقال: «عِمْ صباًحاً أو مسَاءً، واشرب هواءً أو ماء، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبريح الخفاء». كان بعض تبعية هذا السخف يقع على الشيخ عبد العزيز جاويش، ولكن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلاً على الفتى أيٌّ فضل، فهو الذي ألقى في رُوع الفتى فكرة السفر إلى أوروبا حين قال له ذات يوم: «لا بدّ من أن نصنع شيئاً لإرسالك إلى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام». لم يكدر الفتى يسمع هذه الألفاظ حتى استقرّ في نفسه أن ليس له بدّ من عبور البحر على أي نحو من الأنحاء، وقد لاحظ الفتى فيما بعد أن أحاديثه تلك عن المنفلوطي قد شغلت الناس حتى تحدّث إليه فيها كل من كان يلقاءه، إلا رجلًا واحدًا لم يُشر إليها قط على كثرة ما كان يلقى الفتى، وعلى كثرة ما كان يتحدّث إليه، وهو مدير الجريدة لطفي السيد.

فَهِمْ الفتى — ولكن متأخراً — أن لطفي السيد لم يرض قطّ عن هذه الفصول، ولو قد رضي عنها، وعن بعضها، لتحدّث إليه فيها، وهو الذي كان كثيراً ما يُشجّع الفتى فيتبناً له مرة بأنه سيكون موضعه من مصر موضع فولتير من فرنسا، ويقول له مرة أخرى: أنت أبو العلانة، يعتمد إثبات الألف واللام على رغم الإضافة في اسم أبي العلاء، ثم يضحك ويغرق في الضحك حين يرى تنكر الفتى للجمع بين الإضافة وأداة التعريف. أصبح الفتى كاتباً بفضل هذين الرجلين: لطفي السيد وعبد العزيز جاويش، وأصبح كاتباً لشيء آخر: وهو أنه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته في الصحف لم يكتب إلا حُبّاً للكتابة ورغبةً فيها، لم يكسب بها درهماً ولا ملیماً.

## الفصل الرابع

عندما خفق القلب لأول مرة!

على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد، وإنما تجاوزه فأمعن في تجاوزه، فهو الذي عرَّف الفتى إلى جماهير الناس ووقفه بين أيديهم ذات صباح مُنشداً للشعر، كما كان يفعل الشعراء المعروفون، وحافظُ منهم خاصة، في بعض المناسبات العامة.

كان الناس قد ألغوا الاحتفال برأس العام الهجري كلما انقضى عام هجري، وأقبل عام جديد. وكان الشيخ عبد العزيز جاويش يحرص على أن يكون للحزب الوطني احتفاله بهذا اليوم، فأقام حفلة ذات عام في مدرسة مصطفى كامل، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شباباً وكهولاً وشيباً، وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة، وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويش، فرضي عنها وحثَّه على أن يقول أمثالها.

فلما كان هذا الحفل شهدته الفتى مع الشاهدين، ولكنه لم يكُن يتخد مكانه بين الناس، حتى أقبل من أخذ بيده وأجلسه على المنصة. ولم يقدر الفتى في نفسه إلا أن الشيخ عبد العزيز جاويش قد أراد أن يرافق به ويتطاَّف له ويُقرِّبه من مجلسه، فرضي عن ذلك كل الرضا، وعدَّه فضلاً من الشيخ عظيماً، وأقيمت الخطب وصَفَقَ المصفقون، ولم يرُع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن إلى الناس، ورأى نفسه يُدعى إلى إنشاد قصيده العصماء! فلبت في مكانه جامداً واجماً لا يدرِّي ماذا يصنع، ولا يعرف كيف يقول،

وأقبل من أخذ بيده، وهم الفتى أن يمتنع حياءً وخجلًا، ولكن الذي أخذ بيده جذبًا شديداً وجعل الذين من حوله يدفعونه وينهضونه حتى أنهضوه وجروه جرًا إلى المائدة. واستقبل الفتى بتصفيق شديد منحه قوة وجرأة، فأنشد قصيده في صوت ثابت ممتليء، ولكنه لم يكن يستقر في موقفه، وإنما كان جسمه يرتعاد ارتعاداً، واستقبلت قصيده أحسن استقبال وأروعه حتى خُيل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظًا أو قريباً من حافظ.

ثم مررت الأعوام وتبعتها الأعوام، واختلفت على الشيخ وعلى الفتى خطوب أي خطوب، وتعاقبت أحداث في مصر أي أحداث! وجلس الفتى ذات مساء إلى صديقه له كريم، وقد جاوز الفتى سنَّ الشباب والكهولة، وأخذ في ذكر الصبا وأيام الطلب، وأنسَى الشيخ شبابه وصباه وشُغل عن حياته الماضية، وأعرض عن الشعر كلَّ الإعراض بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط، وإنما قال سخفاً كثيراً. وإذا الصديق الكريم يذكره بموقفه ذاك في مدرسة مصطفى كامل وإنشاده قصيده تلك، ويدرك له مطلع تلك القصيدة، فيري الشيف لما أضاع من شبابه وما أنفق من جهده في غير طائل ولا غباء.

ثم لم يقف الشيف عبد العزيز جاويش بالفتى عند هذا الحد، ولكنه علّمه الكتابة في المجالات؛ فقد أنشأ مجلة «الهداية»، وطلب إلى الفتى أن يشارك في تحريرها، ثم ترك له — أو كاد يترك له — الإشراف على هذا التحرير، وكان له الفضل كلَّ الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول. ولم تخل «الهداية» من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعاً، وكان خصمَه الشيخ رشيد رضا، وقد أسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد في ذلك الجدال، وكتب أحاديث استحى منها فيما بعد حين ذكرت له، ولكن الشيف عبد العزيز كان عنها راضياً وبها گلَفَاً، وقد أجاز نشرها وشجَّعَ الفتى على المضي فيها. كان يمقت من الشيخ رشيد ممالاته للخديو وانحرافه عن طريق الأستاذ الإمام، وما دفع إليه من إعجابه بنفسه واغتراره بثناء الناس عليه وإعجابهم به.

ثم أضاف الشيف إلى كلَّ هذا الفضل فضلاً آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء «من ذي الغلة الصادي» أرضاه عن بعض حاله، وأكبه في نفسه شيئاً، وأشاره بأنَّ قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد أن حال الأزهر بينه وبين ذلك.

فقد أنشأ الشيف عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل مدرسة، وكلَّ الفتى أن يعلِّم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرًا؛ فالمدرسة عمل وطني لا أجر عليه لمن يُشارك فيه. ولم يكن الشيخ يفید من هذه المدرسة شيئاً، وربما



أنفق عليها من رزقه وكلف نفسه في سبيل ذلك شيئاً من الحرمان، وربما أحَّ على بعض الأغنياء وأوساط الناس حتى استكرههم على أن يُعيِّنوه على نفقاتها ببعض المال. وقد أقبل الفتى على تعليمه ذاك فرحاً به مبتهجاً له، يرى فيه شفاء لغيبته من الأزهر، ويرى فيه مع ذلك مشاركة في بعض الخير.

ثم لم يلبث هذا كله أن انقطع فجأة، صُرِفَ الشِّيخ عنه بأحداث السياسة، ثم اضطر إلى أن يهاجر من مصر على غير انتظار لهجرته، ولم يره الفتى منذ ودعهم ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال، بعد أن عاد عودته تلك، فقد سافر من مصر فجأة، وعلى غير علم من أهلها، وعاد إلى مصر فجأة، وعلى غير علم من أهلها أيضاً.

وهو على كل حال قد أعان الفتى على الخروج من بيته تلك المغلقة إلى الحياة العامة، وعلى أن يكون له اسمُ معروف. ومثل ذلك فعل الأستاذ أحمد لطفي السيد؛ فعرَّف الفتى إلى كثيرين من الذين كانوا يُلْمُون بمكتبه في الجريدة من الشيوخ والشباب.

وفي مكتبه اتصل برفاق له أحباء عمل معهم فيما بعد، ولقي معهم خطوبًا أبي خطوب، عرف عنده هيكل ومحمود عزمي والسيد كامل، وكامل البنداري وأتراكاً لهم كثيرين. وعرف بفضله لوناً من المعرفة لم يكن يُقدر أنه سيتاح له في يوم من الأيام؛ فقد لقيَّ عنه ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث، لا لأنها كانت جميلة فاتنة، ولا لأنها كانت جذابة خلبة، ولكن لأنها كانت طامحة مُلحة في الطموح، ظفرت لأول مرة بالشهادة الثانوية، وكانت أول فتاة ظفرت بها، وهي نبوية موسى.

وكان الفتى قد لقي السيدات في بيته تلك الريفية، ولكنه لم يلقَ منهم القارئة الكاتبة البرزة التي تظهر في مجالس الرجال وتحاورهم، فتلجُّ في المحاورة وتخاصمهم فتعنف في الخدام، قبل أن يلقى تلك الفتاة.

واحتفل ذات مساء في حجرة من حجرات الجامعة القديمة بتكرييم خليل مطران رحمه الله، وكان الخديو قد أهدى إليه وساماً. وكان شقيق الخديو الأمير محمد على رئيساً لهذا الاحتفال، وكان الشعراء سينشدون فيه الشعر، وكان الخطباء سيلقون فيه الخطب، فاعتذر الفتى إلى أستاذه في الجامعة من حضور الدرس، ولم يكن يكره شيئاً كما كان يكره التخلف عن الدروس، وأشار شهود ذلك الحفل. وفيه سمع كثيراً من الشعر وكثيراً من الخطب، فلم يحفل بشيءٍ مما سمع، لم يعجبه شعر حافظ في ذلك المقام، مع أنه كان كثير الإعجاب بشعر حافظ، ولم تعجبه قصيدة مطران؛ لأنه لم يفهم منها شيئاً، ولم يذق منها شيئاً، وربما أحس فيها إسرافاً من الشاعر في التضاؤل أمام الأمير الذي أهدى إليه ذلك الوسام؛ فقد شبَّه نفسه بالتبطة الضئيلة، وشبَّه الأمير بالشمس التي تمنها الحياة والقوه والنماء. لم يرِض الفتى عن شيءٍ مما سمع إلا صوتاً واحداً سمعه فاضطرب له اضطراباً شديداً وأرقل له ليلته تلك، كان الصوت نحيلًا ضئيلاً، وكان عذباً رائقاً، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل. ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئاً، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئاً، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث، وكان صوت الآنسة مي التي كانت تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى. ولم يستطع الفتى حين أصبح من ليلته تلك أن يتمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة، وقد جلس إليه فقال له وسمع منه. ثم ما زال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران، وحتى انتهى من حفل مطران إلى ذكر تلك الفتاة التي تحدثت فيه، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك. وقد سأله مدير الجريدة عما

قالت الفتاة فلم يحسن رداً، وإنما لجج في القول. وأنثى الأستاذ على ميٌ، وأنثأ الفتى بأنه سيقدمه إليها في يوم قريب، وابتهج الفتى بهذا الوعد وإن لم يعرب عن ابتهاجه، وظلَّ يرقب البرَّ به. ولكن الأستاذ نسيه، واستحيا الفتى أن يذكره فحمل نفسه على المكروه، وما أكثر ما كان يحملها على المكروه! وأعرض عن ذكر ميٌ، واجتنب حديثها إلى الأستاذ، ومضت أيام وأشهر وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه، وأعطى مدير الجريدة رسالته عن أبي العلاء، فقرأها ورضي عنها، ولكن لم يرددَها إلى الفتى، وإنما قال له: إنما سترُّ إليك رسالتك بعد أيام؛ لأن الآنسة ميٌ قد طلبت أن تقرأها، وسمع صاحبنا ذكر ميٌ، فبدا عليه فيما يظهر شيء من وجوم، وكأن الأستاذ لاحظ ذلك فذكر وعده القديم وقال للفتى في رفق: ألم أعدك بتقديمك إليها؟

قال الفتى: أكاد أذكر ذلك.

قال الأستاذ: فالآن مسأء الثلاثاء فسنزورها معًا.

وفي مساء الثلاثاء رأى الفتى نفسه لأول مرة في حياته في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال، حفِيَّةً بهم، معاتبة لهم في رشاقة أيٍّ رشاقة، وفي ظرف أيٍّ ظرف، وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالأبابا.

وطال المجلس وكثير الزائرون، ودارت أكواب الشاي والفتى في مكانه لا يكاد يحس من ذلك شيئاً، قد ملك الوهم والوجلُ عليه أمره كله، فهو لم يشاهد مثل هذا المجلس قطُّ، وليس له عهد بمثل ما يجري في مثل هذه المجالس من المراسم ولا بما يُتبع فيها من التقاليد والعادات، فهو منكرٌ لنفسه، منكرٌ من حوله وما حوله، إلا شخصين اثنين، هما: الأستاذ لطفي السيد والآنسة ميٌ.

وقد أخذ الزائرون في الانصراف، ورحب الفتى فيه ليخلص من حرجه، وأشفق منه حرصاً على صوت ميٌ وحديثها، ولم يحاول أن ينصرف، فما كان له أن يحاول ذلك قبل أن يؤذنه به الأستاذ.

وقد انصرف الزائرون جمِيعاً وخلا للأستاذ وتلميذه وجه ميٌ، فخاضت مع الأستاذ في بعض الحديث، وأثبتت للفتى على رسالته في أبي العلاء، فأغرتت في الثناء، واستحيا الفتى شيئاً، ولم يحسن أن يشكر لها ثناءها. ولكن الأستاذ يطلب إلى الفتاة أن تقرأ عليه مقالها ذاك، فتتردد الفتاة شيئاً، ثم تقرِّمُ بعد أن تعلن إلى الفتى أنها تقرأ على الأستاذ هذا المقال؛ لأنَّه هو الذي يُعلِّمها العربية ويعلِّمها الكتابة.

قال الفتى في صوت مختنق ولفظ مجمجم: كما يعلمني أنا.

قالت مي: فنحن إذن زميلان.  
وقرأت المقال، وكان عنوانه «وكلت في ذلك المساء هلاً».«  
وسحر الفتى، ورضي الأستاذ، وانصرفا بعد حين، وفي نفس الفتى من الصوت ومما  
قرئ شيء كثير!

## الفصل الخامس

أستاذي يدعو عليًّا بالشقاء!

وكانت حياة الجامعة في أول عهد المصريين بها عيداً متصلةً يحيونه إذا أقبل المساء من كل يوم، حين يزدحمون على غرفات الدرس على اختلاف منازلهم من الفقر والغنى، وعلى اختلاف حظوظهم من الثقافة، وعلى اختلاف أزيائهم أيضاً. فكان منهم الغني المترف والفقير الذي لا يجد ما ينفق، وكان منهم القاضي والطبيب والطالب والموظف والمجاور في الأزهر الشريف.

وكان منهم غير أولئك قومٌ لم يأخذوا من العلم إلا بأيسير أسبابه، ولكنهم كانوا يختلفون إلى هذه الدروس والمحاضرات ليروا ويسمعوا ويُمتعوا أنفسهم إن أتيح لهم المتعة. وقد جعلت غرفات الجامعة تضيق بهؤلاء المختلفين إليها والمزدحمين عليها. وعجز الأساتذة عن أن يسمعوا هذه الأعداد الضخمة التي كانت تكتظ بها الغرفات، فقرر بعضهم أن يُلقي محاضرته مرتين. ولم يَر الطالب بهذا أساساً، كانوا يستبقون ليسمعوا الأساتذ في محاضرته الأولى، فمن حيل بينه وبين ذلك انتظر المحاضرة الثانية. وكانوا ينتظرون في أبهاء الجامعة وحدائقها، وكان أهل السَّعَة منهم يذهبون إلى قهوة كوبري قصر النيل القريبة، فيشربون أو يطعمون، حتى إذا قرب موعد المحاضرة أسرعوا إليها مشغوفين بها إلى أقصى غایات الشغف. واضطررت الجامعة إلى أن تنظم دخول غرفات الدرس، فلا تأذن به إلا من قدموا ببطاقات الانتساب، وصَدَّت بذلك عدداً غير قليل من الذين كانوا يسعون إلى هذه الدراسات كما كانوا يسعون إلى المحاضرات العامة.

وأقبل الفتى ذات مساء بصحبة غلامه الأسود، فلما بلغ الغرفة أظهر بطاقة، وقد كان بها ضئيلاً وعليها حريصاً، وقيل له: تستطيع أن تدخل، فأما غلامك هذا فلا حق له في الدخول.

وأظهر الفتى شيئاً من ضيق، ولكن صاحب الباب لم يحفل بضيقه ولا بإنكاره، ولا بتسل من كان حوله من الطلاب، ولا ب حاجته إلا أن يصحبه هذا الغلام حتى يجلسه في مكانه ثم يرجع أدراجه فينتظر من وراء الباب حتى ينقضي الدرس.

واضطر الفتى إلى أن يفرز إلى السكرتير العام أحمد زكي بك شاكياً، وصحبه بعض الطلاب الساخطين على جهل صاحب الباب وعُنفه وغلاظة ذوقه. وأدخل الفتى وأصحابه على السكرتير العام، وقصوا عليه قصتهم، ولكنهم لم يجدوا عنده شيئاً، وإنما قال لهم في هدوءٍ: النظام هو النظام.

وهم بعض الطلاب أن يُجادله في ذلك فقال له متوجهًا: وماذا نصنع وقد أراد الله لصاحبك ألا يشهد هذه المحاضرات؟

وانصرف أولئك النفر من الطلاب ساخطين على السكرتير العام سخطاً أشد وأعظم من سخطهم على صاحب الباب، وقالوا للفتى: لا بأس عليك، سنصحبك نحن إلى مجلسك. وصحبوه إلى مجلسه متلطفين له متحبيين إليه، وردوه إلى غلامه بعد انقضاء الدرس، وجعلوا منذ ذلك اليوم لا يرُون الفتى مقبالاً حتى يحيطوا به من قربٍ، فإذا بلغ باب الغرفة أخذ أحدهم بيده، وصحبه إلى مجلسه، ثم رده إلى غلامه بعد ذلك، ولو أطاع الفتى نفسه في ذلك المساء لاتصرف عن الجامعة ولحرّم على نفسه الاختلاف إلى دروسها.

ولكن الجامعة كانت أحب إليه وأثر عنده من كبرياته تلك السخيفة. وهو على ذلك لم ينم ليلته تلك، وإنما أنفقها مسهدًا محزوناً، يذكر كيف لقي مثل هذه القسوة حين أراد أن ينتسب إلى الأزهر في آخر الصبا وأول الشباب، وحين تقدّم لأداء الامتحان في حفظ القرآن، فقال له أحد ممتحنيه: اقرأ يا أعمى سورة الكهف! وذكر الفتى بعد سنين قصته هذه في الجامعة، وقصته تلك في الأزهر، حين دخل غرفة الدرس لأول مرة في جامعة مونبلييه، فسمع الأستاذ يقول لصاحبه: أيكون زميلك هذا مكفوغاً!

قال الزميل: نعم.

قال الأستاذ: فإني أراه قد دخل الغرفة دون أن يرفع قلنسوته.

وكان الفتى حديث عهدٍ بأوروبا لم يعرف بعد أن الناس يرفعون قلنسهم حين يدخلون مكاناً مسقوفاً، وأنهم يحضرن الدروس حاسري الرءوس. وكذلك قُضيَ على الفتى أن يستقبل طلبه العلم في الأزهر والجامعة المصرية والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك تؤذى نفسه وتفرض عليه ليلة ساهرة، ثم يُعرض عنها بعد ذلك؛ لأنه لم يكن يرى بُدّاً مما ليس منه بُدّ، وما أكثر ما ذكر بيت أبي العلاء:

وهل يأبِّيُّ الإنسانُ منْ مُلْكِ رَبِّهِ فِي خِرَاجٍ مِّنْ أَرْضِهِ وَسَمَاءِ؟!

وما أسرع مكان الفتى ينسى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشتري هذا النسيان بليلة ينفقها مُسْهِداً محرزوناً! ثم يُقبل بعد ذلك على ما لم يكن بُدّ من الإقبال عليه من العلم في الأزهر، وفي الجامعة المصرية، وفي جامعات فرنسا.

كان الفتى يرى حياته في الجامعة عيذاً متصلًا، كما كان يراها غيره من المصريين، ولكنها كانت بالقياس إليه عيذاً تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل، كانت تخرجه من بيته تلك الضيقه المقلقة في الأزهر، وفي حوش عطا أو درب الجماميز إلى بيئة أخرى واسعة لا حَدَّ لسعتها؛ فهي كانت تتيح له أن يملأ رئتيه من الهواء الطلق حين يسعى إلى الجامعة وحين يعود منها، وأن يملأ عقله من العلم الطلق الذي لا يقيده تخرج الأساتذة الأزهريين فيما كانوا يلقون من الدروس، ولا يُقسده الإسراف في القنفولة والجدال حول هذا اللفظ أو ذاك، وإضاعة الوقت في الإعراب حين لا يكون بين الدرس وبين الإعراب صلة.

وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علماً يخلق نفسه خلقاً جديداً لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد، وإنما يذهب به مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يقدّر أنه سيعرفها في يوم من الأيام. ولم ينس الفتى يوماً خاصم فيه ابن خالته الذي كان طالباً في دار العلوم ولجَ بينهما الخصام، فقال الدرعمي للأزهربي: ما أنت والعلم! إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه، لم تسمع قطُّ درساً في تاريخ الفراعنة! أسمعت قطُّ اسم رمسيس أو إخناتون؟!

وبُهِتَ الفتى حين سمع هذين الاسميين، وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ. واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غَنَاء فيها. ولكنه يرى نفسه ذات ليلة في غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة، ويذكر رمسيس وإخناتون وغيرهما من الفراعنة، ويحاول أن يشرح

للطلاب مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية، ومنها اللغة العربية.

ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها إلى العربية مرة وإلى العربية مرة وإلى السريانية مرة أخرى، والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل هذا العلم، وهو أعظم دهشةً وذهولاً حين يلاحظ أنه يفهمه ويسيغه في غير مشقة ولا جهد. وهو يعود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور، ولا يكاد يلقي ابن خالته حتى يرفع كتفيه ساخراً منه ومن دار علومه تلك التي كان يستعلي بها عليه. وهو يسأل ابن خالته أتعلمون اللغات السامية في دار العلوم؟ فإذا أجابه بأن هذه اللغات لا تدرس في المدرسة أخذه التّي، وذكر العربية والسريانية ثم ذكر الهieroغليفية، وحاول أن يشرح لزميله كيف كان المصريون القدماء يكتبون، وتنقلب الآية ويُصبح المغلوب غالباً والغالب مغلوباً.

ويمضي العام الأول من الحياة الجامعية عيّداً كله، لا يحس الفتى سأماً منه أو ضيقاً به، وإنما يحس الحزن المضّ حين تبدو طلائع الصيف.

ويتفق الإجازة كلها مفكراً فيما سمع، ومشوّقاً إلى ما سيسمع في العام المقبل، ومتسائلًا عن يبقى من الأساتذة الذين عرفهم ومن يُدعى من أساتذة لم يعرفهم. ثم لا يلبث أن تستأثر الجامعة بعقله كله ووجهه كله، وأن تشغله عن كل شيء آخر؛ فقد أقبلأساتذة جُدد ملوكوا عليه أمره واستأثروا بهواه، فهذا الأستاذ كارلو نالينو المستشرق الإيطالي يدرّس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأمويّ. وهذا الأستاذ سنتلانا يدرّس بالعربية أيضاً، وفي لهجة تونسية عنبة، تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة خاصة. وهذا الأستاذ ميلوني يدرّس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم، ويتحدث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله في مصر؛ فهو يفصل تاريخ بابل وأشور، ويدرك الكتابة المسмарية، ويتحدث عن قوانين حامورابي، والفتى يفهم عن هؤلاء الأساتذة كلّ ما يقولون، لا يجد في فهمه التواءً أو عسرًا، وهو لا يكره شيئاً كما يكره انتهاء الدروس، ولا يتשוק إلى شيء كما يتשוק إلى ما سيستقبل منها.

وهذا أستاذ ألماني، هو الأستاذ ليتمان، قد أقبل يتحدث إلى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية، ثم يأخذ في تعليمهم بعض هذه اللغات. وإذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجاً يوشك أن يكون تاماً لولا أنه يعيش بين زملائه من الأزهريين والدرعيمين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطرًا من الليل.

ولكن عقله قد نأى عن بيته هذه نأيَا تاماً، واتصل بأسانته أولئك اتصالاً متيناً، فكلهم قد عرفه، وكلهم قد أثره بالحب والرفق والعطف، وكلهم قد أدناه من نفسه، ودعاه إلى أن يزوره في فندقه، وأحب أن يقول له ويسمع منه. ولم ينس الفتى موعداً ضربه لأستاذه سنتلانا ذات صباح، ليحضر معه درساً من دروس الأزهر، وقد أقبل الأستاذ إلى حيث كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسى، وذهب مع الفتى إلى درس الشيخ الأكبر الشيخ سليم البشرى رحمة الله، وكان يُلقى درسه في التفسير مع الصباح بالرواق العباسى، وجلس الأستاذ والتلميذ بين الطلاب، وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هي قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمْهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. وفسر الشيخ رحمة الله فأحسن التفسير، وخاص في حديث الجبر والاختيار، وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالتهم، ويأخذ الفتى في حوار الشيخ على عادة الأزهريين، فيسمع الشيخ له ويرد عليه ردًا لا يقنعه، ويأبى الفتى إلا اللجاج، فينهره الشيخ بهذه الكلمات: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن! الله أكبر على العلم والإيمان، حضرتك مسلم؟

ويهُمُ الفتى أن يجيب، ولكن الشيخ ينهره في سخرية غاضبة قائلاً: اسكت ياشيخ جاتك الكلاب خلينا نقرأ.

ثم يمضي في حديثه غير حافل بالفتى، ولكن الفتى يهُمُ أن يتكلم، وإذا أستاذه الإيطالي يمسُّ كتفه مسًا متصلًا، وهو يقول له هامسًا بعربيته التونسية العذبة: اسكت، اسكت، ليضررك!

يميل بالضاد إلى الظاء، ويرى الفتى نفسه مغرقاً في ضحك خفيٍّ، لا يدري أكان مصدره سخرية الشيخ منه أم رفق الأستاذ الإيطالي به وإشفاقه عليه؟ فإذا انتهى الدرس ذهب الفتى بأستاذه الإيطالي إلى إدارة الأزهر، واستأنف له على الشيخ الأكبر، فأذن له، وتلقاه حفيًا به متلطفاً له في الحديث، ثم ينظر إلى الفتى فيسأله في رفق: أَنْتَ الَّذِي كَانَ يَجَادِلُ فِي الدِّرْسِ؟

قال الفتى: نعم.

قال الشيخ متضاحكًا: ما شاء الله! ما شاء الله! فتح الله عليك وأشقاءك بتلاميذك كما يشقى بك أستاذتك!



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السادس

### أساتذتي

ولم تكن حياة الجامعة عيّداً متصلّاً رائعاً الإمتاع لكان الأساتذة الأجانب فيها فحسب، بل كان فيها أساتذة مصريون يضيّقون إلى روعتها روعة وإلى إشراقها إشراقاً. ولم ينس الفتى طائفه من هؤلاء الأساتذة كان لهم في حياته أَبْعَدُ الأَثْرِ وأَعْقَبَهُ؛ لأنهم جَدَّدوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معاً، وغيّروا نظرته إلى مستقبل أيامه، وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكبير الذي كان يأتي به المستشرقون، وكان جديراً بأن يحول هذا الفتى تحويلاً خطيراً يُفْنِيهُ في العلم الأوروبي إنفاء، ولكن أساتذته المصريين هؤلاء أتاحوا له أن يأوي إلى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة، وأتاحوا لمزاجه أن يتألّف ائتلافاً معتملاً من علم الشرق والغرب جميعاً. وكان الأساتذة المصريون يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً، كان منهم المطربشون والمغممون والذين سبقت العماممة إلى رعوسيهم ثم انحرست عنها وجاء مكانها الطربوش.

وكان منهم الصارم الحازم الذي لم يكن ثغره يعرف الابتسام إلا قليلاً، والممازح الباسم الذي لم يكن وجهه يعرف العبوس إلا نادراً. وكان منهم ذو العلم العميق العريض الذي يبهر ويسحر ويدرك القلوب والعقول، ذو العلم الضَّحل والثقافة الرقيقة الذي يخلب باللّفظ ثم لا يكون وراء لفظه الخلّاب شيءٌ ذو بال.

وكان منهم من يخلب بلفظه العذب ودعابته الساحرة وعلمه الغزير. كان منهم إسماعيل رأفت رحمة الله، ذلك الذي لم يكن يعرف من طلابه إلا أنهم يحملون رعوساً

يجب أن يصب العلم فيها صبًّا. فكان يُقبل عليهم عابسًا وينصرف عنهم عابسًا، لا يُلقي إلى أحدهم كلمة، وإنما يأخذ مجلسه ويُبسط أوراقه ويأخذ في القراءة حتى تنتهي ساعة الدرس لا يقطعها إلا حين يفسر ما قد يحتاج إلى التفسير، وحين يُلقي على الطلاب هذا السؤال الذي تعود أن يُلقيه في دار العلوم — وقد كان أستاذًا فيها: فاهمين يا مشايخ؟ وقد سمع الفتى منه وصف أفريقياً على اختلاف أقطارها وعلى اختلاف ما يكون لهذا الوصف من صور يتصل بعضها بطبيعة الإقليم، ويَتَصل بعضها الآخر بالسياسة والاقتصاد ونظم الحياة الاجتماعية وأجناس السكان.

وقد سمع الفتى فيما بعد دروسًا مختلفة في الجغرافيا من أساتذة ممتازين في جامعات فرنسا، فلم يحس لأحدthem فضلاً على أستاذه ذلك المصري العظيم.

وكان من هؤلاء الأساتذة حفني ناصف رحمة الله، وكان ابتساماً كله، وفكاهة كله، وتواضعًا كله، على غزاره في العلم، وأصالة في الفقه بما كان يدرّس من الأدب العربي القديم، وكان الطلاب يكفلون به أشدَّ الكلف، ويطمعون فيه أعظم الطمع؟ وكان بعضهم ربما انصرف عن دروسه ليجلس إليه في قهوة كوبري قصر النيل التي كان يجلس فيها ساعة قبل الدرس من يوم الخميس من كل أسبوع.

وكان الطلاب يأبون عليه أن يختتم دروسه في آخر العام دون أن يزيدهم على المقرر درسيين أو دروسًا. وكان الفتى لسانهم حين كانوا يرغبون إليه في ذلك. وكان الفتى يطلب إليه المزيد من الدرس نثراً حيناً وشعراً حيناً مستعطفاً مرة ومنذراً مرة أخرى. وكان رحمة الله قد شرح كتاب «الكافي في العروض» حين كان طالباً في الأزهر. وكان يخجل من هذا الشرح ويكره أشد الكره أن يُنسب إليه، فكان الفتى يقسم له في آخر العام لئن لم يُضاف إلى المقرر دروساً لينسبنَ إليه «شرح الكافي» في مقال ينشره في الجريدة. وكان رحمة الله يستجيب فيضييف درسين، وربما أضاف أربعة دروس.

وكان أروع صورة عرفها الفتى لتواضع الأستاذ، أنه لم يتكلَّف قطُّ ذلك الوقار المصنوع الذي يتتكلفه بعض الأساتذة حين يرقون إلى مجلسهم في غرفة الدرس، وإنما كان يخلط نفسه بطلابه كأنه واحد منهم لو لا أنه كان يكبر أكثرهم سنًا، فقد كان بين طلابه من تقدمت به السن كثيراً.

وقرأ الفتى ذات يوم في الجريدة حديثاً لأحد القراء يطرح فيه موضوعاً لمسابقة شعرية، ويجعل لهذه المسابقة جائزة هي كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي، ويحكم بين المستيقين الأستاذ حفني ناصف وتلميذه ذاك الفتى. وأنكر صاحبنا أن يقرن إلى أستاذه،

وأحسَّ شيئاً من غرور، ولكن يجلس ذات مساء في بيته بدرب الجماميز مع جماعة من رفقاء يأخذون في بعض ما كانوا يخوضون فيه من حديث، وإنهم لفي ذلك وقد تقدَّم بهم الليل وإذا الباب يطرق عليهم. فإذا أدخل الطارئ، وَجَمِ الفتى ودهش الرفاق؛ فلم يكن الطارق إلا الأستاذ حفني بك ناصف، قد جمع شعر المستبقين في الجريدة، وسعي إلى تلميذه في بيته ذاك في الطبقة السادسة من تلك الدار التي كان يسكنها، وقال له في رفقٍ عذب: «أتَيْتُ لأخْلُوكَ إلَيْكَ سَاعَةً نَفْرَغُ فِيهَا مِنْ قَضِيَّةِ هُؤُلَاءِ الْمُسْتَبِقِينَ».

وكان من بين الأساتذة المصريين الشيخ محمد الخضري رحمة الله: كان يدرس التاريخ الإسلامي، وقد سحر الفتى بعذوبة صوته وحسن إلقائه وصفاء لهجته، وأحب دروسه في السيرة، وفي تاريخ الخلفاء الراشدين وفتواهم، وفي تاريخ الفتن ودولةبني أمية والصدر الأول من دولة العباسيين. وكان يظن أن ليس فوق علم الأستاذ علم، ولكنه لم يكُد يسمع دروس التاريخ في أوروبا حتى عرف أن الأستاذ رحمة الله كان ينقل دروسه نقلاً من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق، وفي أيسِر ما كان يمكن من فقه التاريخ.

وكان من الأساتذة المصريين أستاذان أحبهما الفتى أشدَّ الحب، وعيث بهما أشدَّ العبث، واستغل سذاجتها ووداعتها أشنع الاستغلال. كان أحدهما الشيخ محمد المهدى رحمة الله، أقبل يدرِّس الأدب العربي بعد حفني ناصف، فكان الفرق بين الأساتذتين خطيرًا بعيد المدى؛ كان أحدهما عميق العلم، وكان الآخر أبعد ما يمكن عن العمق، كان أحدهما سُمْحًا لا يتتكلف ولا يتتصنَّع، وكان الآخر متكلِّفًا متفاصلًا لا يتكلَّم إلا العربية الفصحى مُغْرِبًا فيها يملأ بها فمه، وربما أضحك منها طلابه. وكان يقدِّم السيجارة إلى الفتى، فإذا هم الفتى أن يشعلاها قال له: «انتظر يا بني حتى أَفْهَمَ لَكَ!» ولم يكُد الطلاب يسمعون هذه الكلمة حتى يغرقوا في ضحْكٍ لا يُسْتَخَفُونَ به، وكان الأستاذ يضحك معهم ويغرق في الضحك!

وكان الفتى جريئاً عليه يجادله في الدرس فيرهقه من أمره عسراً، وربما أضحك منه الطلاب؛ لأنَّه كان لا يحقِّق ما يروي من الشعر، ولأنَّ الفتى كان يرُدُّ إلى الصواب، فيظهر عليه الاضطراب. وقد حاول أن يصدِّه عن هذا الجدال، ويصرف أترابه عن هذه الجراءة، فدعاهم ذات يوم إلى الغداء في داره، وقدم إليهم من طبَّيات الطعام ما لم يكن لأكثِرَهم به عهد، وظنَّ أنه قد ردَّهم إلى شيءٍ من الحياة. ولكنه لم يلبث أن تبيَّنَ أنه لم يزد على أن أطعهم في نفسه، ورَغَبُهم في طعامه، وزادهم عليه اجتراء. وكانت سيرة

الفتى مع هذا الأستاذ الكريم مسرفة على الفتى وعلى الأستاذ جميعاً حتى أوشكت أن تترك في حياة الفتى آثاراً منكرة.

وضع الفتى رسالته التي تقدم بها للدكتوراه، ونقد فيها أستاذه مصرحاً باسمه، وكان الأستاذ من المتخني، فضاق بهذا النقد، وأبى في أثناء المداولة أن يمنح الفتى درجة الامتياز، ولم يكن سبيلاً إلى هذه الدرجة إلا إذا أجمع عليها المتخنون؛ فاضطررت اللجنة إلى أن تنزل بالفتى من درجة فائق إلى جيد جداً.

واسفر الفتى إلى أوروبا فأقام بها عاماً، ثم عاد منها في خطوبٍ سيأتي حديثها. وفي أثناء إقامته في مصر ذهب إلى الجامعة واستمع لدرس الأستاذ الشيخ مهدي، ثم خرج فكتب عن هذا الدرس مقالاً في مجلة «السفور»، نقد الأستاذ فيه نقداً مُرّاً ممضاً. وأسرع الأستاذ فكتب إلى مجلس الجامعة شاكياً من هذا التلميذ المتمرد، طالباً إلغاء بعثته عقاباً له على هذا التمرد، وكان أن أمر المجلس بالتحقيق مع الفتى، وكلف ثروت باشا وعلوي باشا رحهما الله والأستاذ أحمد لطفي السيد، سؤال الفتى عن هذا المقال، فلم ينكر من مقاله شيئاً، ولم ير لأحد الحق في أن يعاقبه على نقدٍ حرٍّ بريءٍ، لم يُرد به إلا الخير، ولم ير لأحد حقاً في أن يسأله في هذا النقد. وتضاحك المحققون، وكلف مجلس الجامعة الأستاذ أحمد لطفي السيد أن يصلح بين الأستاذ الغاضب والتلميذ المتمرد، فحضر الأستاذ لطفي السيد ذات مساء درس الشيخ، ثم دعاه ودعا التلميذ إلى العشاء، وفي العشاء كان الصلح، وعاد الفتى بعد ذلك إلى أوروبا موفوراً.

وكان الأستاذ الآخر الذي ملأ الجامعة فكاهة ودعابة، وملأ الطلاب عبئاً به واجتراءً عليه، وملأ بطون الطلاب من طعامه، وهو الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله.

كان يدرس الفلسفة الإسلامية بعد الأستاذ محمد سلطان وبعد الأستاذ سنتلانا خاصة. وكان يتكلم كثيراً ولا يقول شيئاً، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق أكثر الكلمات جرياناً على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن ينتمه. وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مدة ألفها فأسرف في المدة، وربما أخذه شيء من ذهول وهو يمد هذه الألاف فيغرق الطلاب في ضحك يخافت به بعضهم ويجهر به بعضهم الآخر؛ وبيفيق الأستاذ من ذهوله على هذا الضحك، فيلوم الطلاب لا على أنهم يضحكون، بل على أنهم لا يشاركونه في الإعجاب بجمال الطبيعة وجلال الكون وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل، ويمدُّ ياء النيل فيسرف في مدها ويأخذه ذهول يرد الطلاب إلى ضحك متصل.

وفي ذات يوم ختم الأستاذ دروس العام، وقرر الطلبة قبل الدرس أن يكون الفتى لسانهم في شكر الأستاذ على دروسه القيمة، واشترطوا عليه أن يشكر الأستاذ بكلام غير مفهوم، و Ashton على الأستاذ إبراهيم مصطفى ألا تخلي جملة من حديث الشكر هذا الذي يجب أن يكون طويلاً من إحدى هذه الكلمات السبعة: الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق.

وأقبل الفتى هذه الشروط كلها، فخطب وأجاد، ولكنه لم يقل شيئاً، ورضي الأستاذ كل الرضا، وقال للفتى: لا يكفي هذه الخطبة الرائعة إلا ديك رومي، ولكنك لن تأكله وحدك، وإنما يشاركك فيه زملاؤك جميعاً، فإذا كان يوم الجمعة فأنت تعرفون أين أقيم!

ولم يكن الأساتذة المصريون وحدهم هم الذين يملأون الجامعة فكاهة ودعابة، ويتعرّضون لعبث الطلاب وجراءتهم الماجنة، وإنما كان الأساتذة الأجانب مصدرًا من مصادر الفكاهة وموضوعًا من موضوعات العبث. كانت لهجتهم العربية تماماً أفالاً الطلاب بالضحك، وكان منهم الذين يلانون ألسنتهم بالعربية يقلدون هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذتهم الإيطاليين أو الألمانيين. ولم ينس الفتى يوماً قرر فيه الطلاب أن يُضرموا عن درس الأستاذ نالينو الإيطالي؛ لأن إيطاليًا أعلنت الحرب على تركيا، وأرسلت سفنها غازية لطرابلس، فأذمع الطلاب أن يجتمعوا في غرفة الدرس، حتى إذا أقبل الأستاذ وارتقى إلى مجلسه خرجوا من الغرفة وتركوه فيها وحيداً. وقد أتمّ الطلبة ما قرروا، فتركوا الأستاذ وحيداً في غرفة الدرس، ووقفوا أمام الغرفة ينتظرون ما يكون من أمره؛ ولبث الأستاذ في الغرفة دقائق ثم خرج، فأقبل على تلاميذه وقال لهم في لهجة عربية صحيحة فصيحة يلتوي بها لسانه بعض الشيء: مَثْلُكُمْ مَثْلُ الرَّجُلِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَغْيِطَ امْرَأَتَهُ فَخَصَّنَفَهُ!

وكان السهم صائبًا، وكان أثره لاذعاً مضماً، ومنذ ذلك اليوم لم يفك طلب الجامعة في الإضراب، ومنذ ذلك اليوم استقر في نفس الفتى بغض شديد لإضراب الطلاب عن الدراسات مهما تكون الظروف.

وكانت دروس الآداب الإنجليزية والفرنسية تُلقى في الجماعة ويشهدها الذين يحسنون هاتين اللغتين من الطلاب، ويتجنبها الفتى لأنه لم يكن يعرف لغة أجنبية. ولكن الجامعة نظمت ذات يوم، وفرضت فيها الامتحانات، وفرض فيها العلم بلغة أجنبية من هاتين اللغتين. وأقبل الفتى ذات يوم مع زميله المرصفي – وللمرصفي حديث طويل

سيأتي في إبانه — فاتفقا على أن يسمعا درس الأدب الفرنسي، ليعرفا كيف تكون هذه اللغة، فدخلوا غرفة الدرس ولبثا فيها ساعة كاملة لم يفهمها فيها حرفاً مما سمعا، ولم يميزا منه إلا لفظاً واحداً هو لافونتين الذي كان يتعدد كثيراً جداً على لسان الأستاذ.

ثم انصرفا بعد ذلك ولم يحفظا من أمر هذه الساعة إلا أنهما سمياها سجن لافونتين. وقد كان لهذه الساعة مع ذلك في حياتهما أثر أيُّ أثر؛ فأمام المرصفي فعدل عن الجامعة، وأعرض عنها وعن دروسها وامتحاناتها، واتخذها مكاناً يلقى فيه الصديق، ويتفكَّه فيه بالعبث من بعض الأساتذة.

وأما الفتى فأذمَّع أن يتعلم الفرنسية حتى لا يعود إلى سجن لافونتين، وكانت له في تعلم هذه اللغة خطوب أيُّ خطوب.

## الفصل السابع

### كيف تعلمت الفرنسية!

كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدثه بعض صديقه من الأزهريين بأن مدرسة مسائية أنشئت في مكان قريب من الأزهر، تدرس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاوريين.

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش رحمة الله يدُّ في إنشاء هذه المدرسة لم يتحققها الفتى تحقيقاً واضحاً، ولكنه ذهب إلى المدرسة فيمضي ذهب إليها من الطلاب، وسمع الدرس الأول من دروسها، ألقاه كهل مصرى كان يحسن أن يلوى لسانه في النطق بالحروف، وكان الفتى يبهره هذا النطق، ولكنه لم يفهم من هذا الدرس شيئاً، فقد كان الأستاذ يرسم الحروف على اللوحة وينطق بها، ويأخذ الطلاب بأن ينطقوها بهذه الحروف كما سمعوها منه، وبأن ينظروا إليها مرسومة، وينقلوها فيما أمامهم من الأوراق، وظل الفتى واجماً لا يرى الحروف ولا يرسمها، ولم يسأل الأستاذ أن ينطق بها، وإنما كان يسأل من عن يمينه ومن عن شماله، ويمراً به هو بدون أن يلوى عليه.

وضاق الفتى بذلك أشد الضيق، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً، ثم تفرق الطلاب وهم الفتى أن ينصرف، ولكنَّ يداً توضع على كتفه وصوتاً يطلب منه الانتظار، وإذا هو الأستاذ قد استوقف الفتى، حتى إذا خلا إليه قال له: ليس لك أربُّ في حضور هذه الدروس، ولكنني أرى فيك حرصاً على تعلم هذه اللغة وأحبُّ أن أعينك على ما تريد، فالقني إن شئت في قهوة كوبري قصر النيل نتحدث في هذا الموضوع.

وضرب له موعداً لهذا اللقاء، ولم يكادا يلتقيان حتى تعارفا، وإذا بينهما صلة قديمة، فقد كان أبو هذا الأستاذ قاضياً شرعياً في المدينة التي نشأ فيها الفتى، وعليهقرأ الفتى ألفية ابن مالك، كان يختلف إليه في المحكمة ضحى كل يوم، ويقرأ عليه باباً من أبواب الألفية، وقد اتصلت المودة بين الأستاذ الكهل وتلميذه الفتى. ولكن دروس هذا الأستاذ لم تُغْنِ عن التلميذ شيئاً، فقد كان يحب كتاباً وشعراء من الفرنسيين، فإذا خلا إلى الفتى قرأ عليه من آثار هؤلاء الكتاب والشعراء وترجم له بعض ما يقرأ، فيزيد شوق الفتى إلى العلم بلغة هؤلاء الكتاب والشعراء لروعه ما كان ينقل إليه من آثارهم، وقد سمع الفتى من أستاذه أسماء كانت تسحره وتبهره وتملك عليه أمره كله، سمع اسم لمارتين وألفريد دي موسيه وألفريد دي فيني وشاتوبيريان؛ فكان موقع هذه الأسماء غريباً، وكان ما يُنقل إليه من كلامهم أشدَّ غرابةً من أسمائهم يُبعد الفتى عن الأدب العربي وعن الشعر القديم خاصة، ويدفعه إلى عالم آخر مجھول لا يحقق الفتى منه شيئاً، ولكنه يهيم بالاضطراب فيه كل الهياج، وقد اضطرب آخر الأمر إلى أن يبحث عن معلم يُلْقِنه أوليات هذه اللغة تقليتاً منظماً منتجًا، وما زال يبحث عنه حتى دُلَّ عليه. فأقبل على دروسه كل يوم من الساعة الثانية إلى منتصف الخامسة، واستبقى مع ذلك مودةً أستاذه ذاك، فكان يلقى أستاذه النظامي كل يوم في موعده المحدد، فيتعلم منه الأوليات، ويلقى أستاذه الآخر مرتين في الأسبوع إذا أقبل الليل ليسمع منه نثراً وشعرًا ينقل إليه بعض معانيهما.

وكان الأستاذ النظامي رجلاً غريباً للأطوار حقاً، كان شيئاً قد نَيَّفَ على السبعين وقد حطمته السنون، وكان ألبانياً، وكان قدراً تنبو عنه العيون، وكان معدماً لا يجد ما يقوته، وكان يصيّب غداه مع الفتى كل يوم ثم لا يأخذ منه أجزاءً لدروسه. وكان سريع التعب لا يكاد يتحدث إلى الفتى دقائق حتى يُدرِّكه الإعياء فيغفى لحظة ثم يفيق ليأخذ فيما كان فيه، ثم يعود إلى الإغفاء، ثم يعود بعد ذلك إلى الإنفاسة.

وكذلك كان الفتى يختطف دروسه اختطاً بين يقظة الأستاذ ونومه، وربما أحس الأستاذ شدة الحر إذا أقبل الصيف وأراد أن يتبرد، فوقف الدرس، وذهب إلى الحمام، فصب على نفسه من ماء الدش ما شاء الله أن يصب، ثم عاد إلى تلميذه وقد أحدث شيئاً من نشاط، ولكنه لا يكاد يمضي في درسه حتى تأخذه سنته تلك، فيخطر التلميذ إلى الانتظار به حتى يفيق.

على أن هذا الأستاذ لم يلبيث أن ضاق به أخو الفتى أشدَّ الضيق؛ كان يأتي إذا دنت الساعة الثانية وينصرف إذا انتصفت الساعة الخامسة، ويترك في البيت من قذارته آثاراً غلاطاً، بعضها حيُّ يُؤذِّي، وبعضها ميت يمُضُّ، حتى شكا الخادم وضاق أخو الفتى بما كان يرى، وبما كان يسمع، وصرف الأستاذ صرفاً رقيقاً.

والتمس صاحبنا لنفسه أستاذًا آخر، وجعل ينتقل بين معلم ومعلم، ويجد في هذا التنقل مشقة أي مشقة، ومتاعًا أي متاع. تأتي المشقة من أجر الدروس الذي لم يكن له بدٌ من أن يؤديه إلى معلميه، ويأتي المتاع من اختلاف هؤلاء المعلمين، وتباين أطوارهم وخصائصهم حين كانوا يتحدثون إليه، ويُلْقُون عليهم عليه، حتى لقي الفتى ذات يوم في الجامعة فتىً كان قد ظفر بالشهادة الثانوية وتعلم في مدرسة الغرب، فكان متقدًّا للفرنسية. ولم يك يتحدث إليه حتى ذكر صباح كله، فقد كان هذا الفتى ابن ملاحظ الطريق الزراعية في مدینته، وكان يختلف مع أخيه إلى الكتاب الذي حفظ الفتى فيه القرآن. فقد لقي الفتى إذن رفيق صباح، ويسَّر له تعلم اللغة الفرنسية في غير مشقة ولا عناء، وأي شيء أيسَر من أن يتعلم الفرنسية لا يدفع على تعلمها أجراً وإنما يعلم رفيقه بعض قواعد النحو والصرف!

وبفضل هذا الرفيق محمود سليمان رحمة الله خطأ الفتى في درس الفرنسية خطواتٍ بعيدةٍ، عَلِمَ رفيقه كما تعلَّم هو في المدرسة.قرأ معه الكتب الأولى، وما زال يتدرج به من كتاب إلى كتاب حتى رأى نفسه ذات يوم يقرأ مع رفيقه قصة كانديد لفولتير، يتعثر في فهمها تعثراً شديداً متصلًا، ولكنه يفهم منها شيئاً، ورأى الفتى نفسه يختلف إلى دروس الأدب الفرنسي فتفوته أشياء ويصيب أشياء، والأستاذ يعطف عليه ويرفق به، ورفيقه يعينه على فهم ما يفوته؛ وإذا هو يتقدم في الدرس تقدُّماً حسناً، ويشعر أن أمر اللغة الفرنسية قد أصبح يسيراً، فليس له بدٌ من أن يحسنها، وهو قادر على أن يحسنها إن مضت أموره على ما يحب.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس إليه وسيلة بعد أن كانت غاية، فقد ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش في رُوعه فكرة السفر إلى أوروبا، وإلى فرنسا خاصة، مما له لا يفكِّر في هذا السفر؟ وما يمنعه أن يبتغي إليه الوسيلة؟ والغريب أن هذه الفكرة مازجت نفسه، وأصبحت جزءاً من حياته، وجعل ينظر إليها لا على أنها حلم يداعبه نائماً أو يقطنان، بل على أنها حقيقة يجب أن تكون. وأغرب من هذا أن الفتى جعل يتحدث بسفره إلى أوروبا كما يتحدث الإنسان عن أمر قد صحَّت عزيمته عليه،

وقد تهيات له أسبابه. وكان يتحدث إلى إخوته وإلى أخواته إذا أقبل الصيف بسفره إلى أوروبا قربياً، وكان يغطيط أخواته بأنه سيقيم في أوروبا أعواماً، ثم يعود منها وقد اختار لنفسه زوجاً فرنسيّة متعلّمة مثقفة تحيا حياة راقية ممتازة، ليست جاهلة مثلهن، ولا غافلة مثلهن، ولا غارقة في الحياة الخشنّة الغليظة مثلهن، وكان أخواته يتضاحكن حين يسمعن منه هذا الحديث وربما أضحكن به أم الفتى وأباه.

وكان الفتى يقول لهن: «اضحكن اليوم فسترين غداً!»

وفي ذات يومقرأ صاحبنا في الصحف إعلاناً من الجامعة تطلب فيه إلى الشباب أن يستبقوا إلى بعثتين من بعثاتها في فرنسا، إدahama لدرس التاريخ، والأخرى لدرس الجغرافيا، ولم يك يفرغ من قراءة هذا الإعلان حتى استقر في نفسه أنه صاحب إحدى هاتين البعثتين، وأنه سيعبر البحر إلى باريس لدرس التاريخ في السوربون، وإذا هو يكتب إلى رئيس الجامعة الأمير أحمد فؤاد هذا الكتاب:

### دولتلو أفنديم رئيس الجامعة المصرية

أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة، أنني قرأت في الصحف إعلان الجامعة، أنها سترسل طالبين إلى أوروبا لدرس التاريخ وتقويم البلدان، وأنا شديد الحرص على أن أكون أحد هذين الطالبين، وعلى أن توجهني الجامعة إلى فرنسا لدرس التاريخ، واعتقادي أن الجامعة إنما تجعل مقاييسها في اختيار الطلبة الكفاءة الحقيقة، وعلى ذلك أتشرف بأن أوكل لدولتكم ولمجلس الإدارة أن الجامعة قد جعلتني - فيما أعتقد - كفراً لخدمتها بما علمتني من علم نافع، وما أذبّتني به من أدب مفيد.

وأنا على يقين أن الجامعة ستستفيد مني كثيراً إن قبلتني خادماً لها، وهي لن تجني مني إلا ثمر غرسها الطيب في مصر وفي أوروبا.

نعم، إن الشروط التي تشرطها الجامعة في طلبة الإرساليات ينقصني بعضها، فإني لم أحصل على الشهادة الثانوية، كما أنني مكفوف البصر. ولكنني أعتقد أن نقصان هذين الشرطين لا يضرني شيئاً، فأما الشرط الأول: فلا يضرني نقصانه؛ لأن ما سمعته في الجامعة من العلم، وما أذيته فيها من الامتحان، وما أحرزته من الدرجات العظمى في جميع العلوم التي امتحنت فيها، وهي علوم الجامعة كلها إلا الآداب الأجنبية، وما تشرفت به في إنثر ذلك من رضا مجلس الإدارة عنى، وثناء الأساتذة غائتهم وحاضرهم على كل

ذلك، يقوم مقام الشهادة الثانوية، ويزيد عليها من غير شك ولا ريب، ولا سيما أنني شارع في تعلم الفرنسيّة حتى إنني لأفهم بها غير قليل، وقد أتممت منها مقداراً يمكنني من دخول الجامعة في فرنسا بعد أشهر أقضيها هناك. وبإضاف إلى ذلك أنني أتممت في الجامعة درس تاريخ الشرق القديم، ونلت فيه الدرجة العظمى، ودرس تاريخ الإسلام، ونلت فيه أعظم درجة نالها طالب في الجامعة، ليس بيّني وبين النهاية إلّا درجة واحدة. وأتممت درس اللغات القديمة السامية، ونلت فيها الدرجة العظمى أيضًا، وتلك مزية لم تجتمع لأحد من الطلبة المصريين في مصر، ولست أريد أن أتمدّح بهذا، وإنما أريد أن أتحدث بفضل الجامعة على، وأن هذا الفضل يجعلني أكثر الناس كفاءة درس التاريخ وخدمة الجامعة فيه.

أما الشرط الثاني: وهو فقدان البصر فليس يمنعني أن أسمع دروس الأساتذة ولا أن أؤديها، أي ليس يمنعني أن أكون طالباً وأستاذًا، وإذا كان قضاء الله قد قضى على هذه البلية فقد عوّضنى منها خيراً، وأنا أجلُ المجلس عن أن يتخذ بليّة بهذه عقبة تحول بيّني وبين ما أريد من الخير لنفسي وللجامعة.

حقاً إن الجامعة إذا قبلت هذا الطلب فستضطر إلى أن تزيد في نفقتى ما يمكنني من الاستعانة بمن يكون معي في فرنسا، ولعمري لئن فعلت ذلك، فليس بضائع لها، بل هو يدل على كرم نفس وعلى تضحية في معونة من يحتاج إلى الإعانة والتعاضيد. على أنني مستعد لأن تسترد الجامعة مني بعد عودتي من أوروبا ما أنفقته على زيادة على النفقات العادية تأخذه من مرتبى أقساطاً، وما أظن الجامعة تكره أن تتفضل على بهذا القرض الجميل. لذلك كله أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس الإدارة هذا الطلب راجياً أن تتفضلا بقبوله، لكم الشكر الجميل والثناء المحمود.

طه حسين

طالب بالجامعة المصرية



وعُرض هذا الكتاب على مجلس الجامعة فلم يلقَ منه إلا الرفض؛ لأن صاحبه لا يحمل الشهادة الثانوية، بحكم آفته التي امتحن بها، ولأن إرساله إلى أوروبا سيكلف الجامعة نفقات إضافية تعين الفتى على أن يكون له رفيق يُعينه على الاختلاف إلى الجامعة وقراءة ما يحتاج إلى قراءته من الكتب، ولكن هذا الرفض لم يفلّ عزم الفتى ولم يثبط همه، وإذا هو يكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب الجديد:

### دولتلو أفندرم رئيس الجامعة المصرية

أرفعُ إلى دولتكم وإلى مجلس الإدارة أني كنت قد طلبت إلى الجامعة الإذن لي في أن أكون من إرساليتها في أوروبا، ورفض المجلس هذا الطلب في جلسته الأخيرة لأنه يخالف قانون الإرسالية، وإنني لأعلم حق العلم قبل أن أرفع طلبي ذلك إلى دولتكم وإلى المجلس أنه يخالف القانون، ولكنني طلبت الاستثناء ورغبت فيه لما بيّنت في ذلك الطلب من رغبتي في العلم وحرصي على خدمة الجامعة، ولما اكتسبت بفضل الجامعة علىَّ من المزايا التي تؤهلني لبلوغ هذه المنزلة؛ ولست أنكر على المجلس رفضه لهذا الطلب فإنه لم ينفذ إلا القانون، وما كان

تنفيذ القانون بالأمر الذي يُنكر أو يُعاب، غير أنني أعيد هذا الطلب إلى المجلس راغباً في أن يعيد النظر فيه، فإنه لم يرفض ذلك الطلب بالماضي إلا لأمررين مجتمعين أو كلّ منهما على حدة:

**الأول:** أنني لا أحمل الشهادة الثانوية لأنني مكفوف البصر، ولكن المجلس أجلّ عندي من أن يحسب لهذا الأمر حساباً، فإنه لا يمنعني أن أكون طالباً وأستاذًا، بدليل أن المجلس نفسه يقبلني طالباً منتسباً في الجامعة؛ أسمع دروسها، وأجوز امتحاناتها، وأنال شهادتها، وإذا كانت الطبيعة قد حالت بي بيني وبين كثير من نعيم الحياة، فما ينبغي أن تكون الجامعة عوناً للطبيعة على حرمانني لذة الانتفاع بالعلم والنفع به، مع أنها تعلم أنني على ذلك أقدر ما أكون.

**الثاني:** احتياج الجامعة إذا أرسلتني إلى أن تنفق عليًّا أكثر من نفقتها العادلة على طلبها في أوروبا، وأننا أعرف بأن للجامعة الحق في تقدير هذا المانع المالي ومراعاته، وأن لها ألا تشتري خدمتي بهذا الثمن الغالي؛ لأنني لا أستحقه، ولأنها لا تجده.

ولذلك أتشرف بأن أرفع إلى المجلس من جديد أنني لا أطلب من النفقات إلا المقدار الذي يطلبه غيري من الطلاب، وعلىًّا أن أقوم بما أحتاج إليه مما يزيد على هذا المقدار، فلعلَّ ذلك كله يشرفني بقبول المجلس طلبي هذا مقدراً حرصي على طلب العلم في غير مصر مع ما أحتمله في سبيل ذلك من الآلام والعناء، فإن هذا أدعى إلى قبول الطلب وتقريره مع الشكر الجميل والثناء الجزيل.

٥ مارس سنة ١٩١٣

طه حسين

وكان المجلس قد ضاق بهذا الكتاب الجديد، فرفضه كما رفض الكتاب الأول، وسبب الرفض بأن الفتى لا يعرف اللغة الفرنسية حقَّ معرفتها. وأراد المجلس أن يهُون هذا الرفض على الفتى، فصاغه في صيغة التأجيل حتى يُحسن هذه اللغة مطمئناً إلى أنه لن يجد إلى إحسانها سبيلاً، تحول بينه وبين ذلك

آفته تلك، ويعينها على ذلك فقر الفتى وإصفار يده من المال، فلم يزد الفتى إلا عزيمة وتصميماً، وكتب إلى رئيس الجامعة بعد شهور هذا الكتاب الثالث:

### صاحب السعادة رئيس الجامعة المصرية

أعود الآن فأرفع إلى سعادتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة رغبتي في السفر إلى أوروبا لدرس العلوم الفلسفية أو التاريخية موقداً من قبل الجامعة، بعد أن رفضت هذا الطلب في السنة الماضية؛ فقرر مجلس الإدارة تأجيل سفري إلى هذه السنة ريئماً أقوى في اللغة الفرنسية، وإذا كنت قد وصلت من هذه اللغة إلى مقدار لا بأس به، وسأتقدم في هذه السنة لامتحان شهادة العالمية في قسم الآداب، فأنا أرجو أن يتفضل مجلس الإدارة فيوفي لي وعده الكريم مع الشكر والثناء.

١٩١٤ يناير سنة

طه حسين

واضطر مجلس الجامعة إلى نوع من التحدي؛ فقرر النظر في إيفاد الفتى إلى أوروبا إذا ظفر بشهادة العالمية (الدكتوراه).

ولم يكن أحب إليه من هذا التحدي، فأقبل على العناية بالدرس وإعداد الرسالة للامتحان، وتقدم لها الامتحان وظفر بإجازة الدكتوراه، ولهذا كله حديث يطول.

## الفصل الثامن

### ثلاث تجارب

وأتصلت أسباب الفتى بثلاثة من الصديق غير صاحبيه: الزناتي والزيات، كان لكل واحد منهم أثر أي أثر في حياته الجامعية، وكان لاثنين منهم أثر بعيد عميق في حياته بعد أن جاوز طور الطلب وأصبح أستاذًا ومؤلفًا، عرف أحد هؤلاء الثلاثة في الجامعة، كان يختلف مثله إلى دروسها، ولم يكن أزهري النشأة، وإنما كان من فئة المطربشين، كان متوقد الذهن، نافذ الذكرة، قويًّا الذاكرة، محباً للدرس. وكان إلى ذلك حلو الروح، رقيق الصوت، ساحر الحديث، وقد أله الفتي في دروس اللغات السامية، وبفضله استطاع أن يفرغ لهذه الدروس، ويحسن العناية بها، ويحفظ كثيراً من النصوص السريانية عن ظهر قلب. كان رفاقه الأزهريون ينفرون من هذه الدراسات ويكرهون أن يتقدوا على أنفسهم بها. وكان ذلك الصديق لها محباً وبها كلفاً، فكان يلقى الفتى في دروس الأستاذ ليتمان فيكتبه عن الأستاذ كل ما كان يقول، وكان يخلو إلى صديقه بعد ذلك فيعيد معه الدرس والاستظهار.

ولم ينس الفتى يوماً احتفال فيه طلاب الجامعة بوداع أستاذهم ليتمان في آخر العام بفندق من فنادق مصر الجديدة، وشهد هذا الاحتفال أستاذة الجامعة من المصريين والمستشارين؛ وخطب الطلاب مثنين على أستاذتهم، فأكثروا، ثم قام هذا الصديق فأثنى على الأستاذة المستشارتين، وعلى الأستاذ ليتمان خاصة، ولكنه لم يخطب باللغة العربية ولا بلغة أوروبية، وإنما ألقى كلمته باللغة السريانية، وتصور رضا الأستاذة الأجنبية عنه وإعجابهم به واغتباط الأستاذ ليتمان بما أتيح له من نجح، وبأن تلميذاً من تلاميذه

المصريين قد استطاع أن يخطب بهذه اللغة القديمة التي لا تجري بها الألسنة إلا في بعض الكنائس وفي قاعات الجامعات بين الأساتذة والطلاب.

وقد رأى الفتى أستاذه ليتمان بعد ذلك مرات كثيرة في مواطن مختلفة، فلم يحس عنه مثل هذه السعادة إلا في موطنين اثنين: أحدهما: في ليدن بهولندا عندما سمع تلميذه الفتى يلقي بحثه في مؤتمر المستشرقين، فلم يملك دموعه التي أخذت تفيض على وجهه بين الزملاء، والآخر: في كلية الآداب بجامعة القاهرة عندما شارك تلميذه في امتحان السيدة سهير القلماوي لدرجة الماجستير، وأعلن مفاحراً بعد فوزها بالدرجة أنه مغبط سعيد؛ لأنه يشارك في تخريج هذه الفتاة التي يعدها حفيته، لأنها ابنة تلميذه ذاك الفتى، وما أكثر ما تحدث بعد ذلك بأنه جد في علم له ابن وله حفدة.

أما الصديق الثاني: فقد كان أزهرياً مبغضاً لدروس الأزهر، شديد النفور منها، قليل الإلام بمحالس الشيوخ، غير حفيٍّ بالجامعة ولا مكتثر لها ولا مختلف إليها، ولم يعرفه الفتى في الأزهر ولا في الجامعة، وإنما عرفه في قهوة الكlob المصري قريباً من سيدنا الحسين، وكان غريب الأطوار، يضحك من نفسه، وربما أغوى الناس بالضحك منه.

كان من أهل القرن الثالث أو الرابع، وكان يعيش في القرن الرابع عشر للهجرة، كان قليل الاحتفال بزنته وشكله وبزنته، يهمل هذا كله إهاماً ظاهراً، ربما تكلفه معيناً في مخالفة الناس، وكان معنىًّا باللغة يجُدُّ في إتقانها ويتبعد غربيها، فيحفظه ويحصي نوادره، وكان مع ذلك شغوفاً بالحياة الحديثة يأخذ منها طيباتها حين تناح له، ويكره أن يتعمقها أو يعرف دقائقها، وحاول أن يتعلم الفرنسية فلم يحسن منها إلا تحيية الصباح وتحية المساء وجمالاً قصاراً، يلقيها بعض الناس إلى بعض حين يلتقيون، ثم ضاق بها فأعرض عنها، واكتفى من الحياة الحديثة بما كان يصيب من طيباتها بين حين وحين.

وكان قد أقبل من أقصي الصعيد، واحتفظ بلهجته تلك فلم يكد يغير منها شيئاً، وكان ربما أضفى هذه اللهجة على تلك الجمل الفرنسية التي كان يلقيها فيضحك منها ويفصل الناس.

وبفضل هذا الصديق استطاع الفتى أن يقرأ آثار أبي العلاء عندما حاول أن يضع رسالته لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة. كان يغدو عليه في داره بدربر الجماميز إذا كان الضحى، فلا يفارقه إلا إذا أقبل الليل، وكان يقرأ له اللزوميات وسقط الزند وما

شاء مما حفظ عن أبي العلاء، كان يقرؤه متغّيًّا به غناءً عذبًا. وكان الفتى يسمع منه ويحفظ عنه، ويطرُب لإنشاده وغنائه، وما زال كلما قرئ عليه شعر أبي العلاء لم يسمع صوت قارئه، وإنما يسمع صوت صديقه ذاك متمنًّا بهذا الشعر في صوته ذاك العذب الذي كان يضطرب بين الخشونة واللين.

ولم يذكر الفتى كم مرة قرأ شعر أبي العلاء ونشره مع صديقه ذاك، ولكنه عرف أنه قرأه مرات كثيرة وتأثر به أعمق التأثر، وأمن به أشد الإيمان، واستيقن أن حياة أبي العلاء تلك هي الحياة التي يجب عليه أن يحييها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ورأى الفتى نفسه ذات يوم مُستعدًا لإملاء رسالته، فتجرد صديقه ذاك للكتابة، وجعل الفتى ي ملي، والصديق يكتب، فإذا احتاج إلى الاستشهاد بشعر أبي العلاء أو نشره أو بما شاء الله أن يستشهد به من كلام القدماء، بحث الصديق له عن هذه النصوص وأثبتتها في مواضعها من الرسالة، وفي أشهر قليلة تمَّ الإملاء وتمت الكتابة. وقرأ الصديق على صاحبه رسالته متغّيًّا بنثرها وشعرها، كما كان يتغّنى بنثر أبي العلاء وشعره، واطمأن الفتى إلى رسالته، وأزمع أن يقدمها إلى الجامعة، ولكن كيف السبيل إلى تقديمها وليس عنده منها إلا هذه النسخة التي كتبها الصديق، وعليه أن يقدم منها نسخًا خمساً؟ وهذا يظهر الصديق الثالث فيحمل عن الفتى ثقل هذا العناء، وكان هذا الصديق الثالث أزهرِي النشأة أيضًا، ولكنه كان من طراز آخر مخالف كل المخالف لمن عرف الفتى في الأزهر والجامعة من الرفاق، كان حسن الصورة، وسيم المنظر، رائق الشكل، معنيًّا بزيه أشد العناية، يتتكلف فيه الألأاقة وينسق بين ألوانه تنسيقاً، وكان شديد عنوية الصوت، معنًّا في خفة الروح، ظريفاً ليقاً متوفاً إلى حد ما. كان أبوه شيئاً كريماً مُيسِّراً عليه في الرزق، مبسوط اليد في الإنفاق على ابنه ذاك، ولكنه كان على ذلك معتدلاً محافظاً على التقاليد. وكان ابنه طموحاً إلى مزيد من نعيم الحياة، وما أباح الله من طيباتها، فلم يكُفْه ما كان أبوه يعطيه من المال، فسعى حتى أصبح مدرساً في كلية الفرير، ليضيف نفقه إلى نفقة، وليحسن العناية بنفسه وزينته، وكان أبوه يرى ذلك فلا يصدُّه عنه، وإنما ينظر إليه مبتسماً مشجعاً، يرى أن خير ما يصنع الشباب إنما هو الجدُّ والعمل والاعتماد على النفس وكسب المال، ما وجدوا إلى كسبه سبيلاً. وكان الفتى ورفاقه ينظرون إلى هذا الصديق في شيءٍ من الإعجاب به والرثاء له؛ يعجبون به لثرائه وظرفه، ويرثون له لأنَّه لم يكن يحبُ الدرس، ولم يكن يتعمق لوناً من ألوان العلم، وإنما كان يلُّ بهذا كله إلاماً، يختلف إلى دروس الأزهر ليسخر من الشيوخ والطلاب،



ويختلف إلى دروس الجامعة ليقى أترابه ولি�تحدث عن الجامعة بين زملائه من المصريين والفرنسيين في كلية الفريير. وكان يضحك من كل شيء، ومن كل إنسان، ويتدبر بكل شيء وبكل إنسان، ويرى الحياة فكاهة حلوة يجب أن يأخذ الإنسان منها خير ما فيها. كان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وحدّثته نفسه بأن ليس له من الزواج بدُّ، فلما كلام أسرته في ذلك سخرت منه وهزئت به، وقال له أبوه في دعوة ورضاً: ما زال بينك وبين الزواج وقت طويل وعمل ثقيل.

ولكن الفتى صمم على الزواج، وأزمع أن يُكره أهله على أن يزوجوه، وكان له ما أراد؛ لأنَّه اصطنع الجنون إذا دخل داره، فكان عاقلاً بين رفاقه في الأزهر والجامعة، وكان مجنوناً إذا أغلق الباب من دونه في منزله ذاك عند سيدنا الحسين، كان لا يكاد يدخل الدار حتى يؤذن أهله بمقدمه رافعاً صوته ما استطاع بهذه الكلمة التي كانت تخففهم كل الخوف: «جنان»، ثم يأخذ في تحطيم ما يستطيع تحطيمه، وفي إفساد نظام

الدار حتى يضطر أهله إلى اصطناع شيء من القوة لرده إلى بعض الهدوء، وما زال يعقل بين رفاقه ويجهّز بين أهله حتى أصبح زوجاً، وحتى رزق الولد، قبل أن يبلغ العشرين. وأقبل ذات يوم على رفاقه متحدّياً أيهم يستطيع أن يؤرخ له بالشعر مولد الصبيّة التي ولدت له صباح ذلك اليوم، فلما لم يجد عند رفاقه شيئاً أنشدهم شعره الذي ختمه بتاريخ مولد تلك الصبيّة، ثم دعاهم إلى غداء أعدّ لهم، فأطّمعهم في نفسه منذ ذلك اليوم، وكانوا كلما أرادوا أن يدعوه إلى غداء أو عشاء تملقوه بالشعر، يجدون قليلاً ويعثثون في أكثر الأحيان، ويستجيب لهم هو دائماً.

وأقبل ذات يوم لا يملك نفسه من الإغراف في الضحك حتى ظن به أصحابه الجنون، وحدهم بعد أن أفاق بأن الذين رأوه بين داره وبين الأزهر ظنوا به الجنون أيضاً. وكان مصدر إغرافه في الضحك أن اجتمعت له طائفة حسنة من الجنـيات، فاشترى لنفسه خاتماً له فص من الماس نفيس، ورأى أبوه هذا الخاتم، فلما سأله عن ثمنه أباه بأنه اشتراه بأربعين جنيهاً، فقال الشـيخ ساخراً: لقد فسد الزمان! ما رأيت قبل اليوم قط فتى يحمل في أصبعه أربعين إربداً من القمح.

وجعل الفتى يتصرّف هذا المقدار الضخم من القمح وقد كُدّس بعده على بعض، وأقبل هو فحمله بأصبع واحدة، وكانت هذه الصورة هي التي أغرتـه بالضحك، ودفعـته إليه حتى عرّضـته لتهمـة الجنـون.

لقي هذا الصديق صاحـبه الفتـى ذات مـساء في قـهوة الكـلوب المصريـيـ. وكان الفتـى ذاهـلاً يـفكـرـ في رسـالتـهـ كـيفـ يـقدمـهاـ إـلـىـ الجـامـعـةـ وـلـيـسـ عـنـدـ مـنـهـ إـلـاـ النـسـخـةـ التـيـ أـمـلـاهـ،ـ وـهـوـ لـاـ يـعـرـفـ كـيـفـ يـكـتـبـ النـسـخـ الـأـرـبـعـ الـأـخـرـىـ.ـ فـلـمـ عـرـفـ صـدـيقـهـ مـنـ ذـلـكـ قـالـ لـهـ مـتـضـاحـكـاـ:ـ «ـهـوـنـ عـلـيـكـ ...ـ فـلـنـ تـنـقـضـيـ أـيـامـ حـتـىـ تـقـدـمـ رسـالتـكـ إـلـىـ الجـامـعـةـ».ـ ثـمـ أـصـبـحـ فـاشـتـرـىـ أـدـاـةـ مـنـ أـدـوـاتـ الطـبـعـ عـلـىـ الـبـلـوـذـةـ،ـ وـاسـتـأـجـرـ نـاسـخـاـ كـتـبـ الرـسـالـةـ بـالـحـبـرـ الـذـيـ يـلـائـمـ تـلـكـ الـأـدـاـةـ،ـ وـأـعـدـ مـنـ الرـسـالـةـ نـسـخـاـ قـدـمـتـ إـلـىـ الجـامـعـةـ،ـ وـأـصـبـحـ الفتـىـ أـوـلـ طـالـبـ مـصـريـ يـرـشـحـ نـفـسـهـ فـيـ الجـامـعـةـ الـمـصـرـيـةـ لـلـظـفـرـ بـدـرـجـةـ الدـكـتوـرـاهـ.

وأقبلـتـ بشـائـرـ الصـيفـ،ـ وـحـدـدـ الـيـوـمـ الـذـيـ تـنـاقـشـ فـيـ رسـالـةـ الفتـىـ.ـ وأـقـبـلـ الفتـيـةـ الـأـزـهـريـونـ فـيـ مـسـاءـ ذـلـكـ الـيـوـمـ عـلـىـ الجـامـعـةـ يـحـيـطـونـ بـصـدـيقـهـمـ مـشـجـعـينـ لـهـ،ـ يـحـيـونـ فـيـ نـفـسـ الـأـمـلـ وـيـرـيـّـنـ فـيـ قـلـبـهـ الـمـسـقـبـ الـذـيـ يـنـتـظـرـهـ،ـ إـلـاـ ذـاكـ الصـدـيقـ الـذـيـ طـبـعـ لـهـ الرـسـالـةـ؛ـ فـقـدـ كـانـ يـتـحـدـثـ إـلـيـهـ حـدـيـثـ المـنـذـرـ الـمـحـذـرـ،ـ لـاـ حـدـيـثـ الـمـشـجـعـ الـمـؤـمـلـ،ـ يـنـذـرـهـ بـقـسوـةـ الـمـتـحـنـينـ،ـ وـيـحـذـرـهـ مـنـ أـنـ يـكـونـ لـهـ فـيـ الجـامـعـةـ يـوـمـ كـيـومـهـ فـيـ الـأـزـهـرـ،ـ وـيـؤـكـدـ لـهـ

أنه ليس مستعداً لأن يقدم له بعد رسوبيه في الامتحان الثاني صينية المكارونة تلك التي قدمها إليه بعد رسوبيه في الأزهر.  
ولكن الفتى لم يرسب في هذه المرة، وإنما ثبت لأساتذته الذين جادلوه وألحووا عليه في الجدال، وظفر منهم بعد لأي بدرجة الدكتوراه.  
وسجّلت الجامعة هذا الامتحان ونجاح الفتى فيه بهذا المحضر:

في الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء خامس مايو سنة ١٩١٤ اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان العالِمية المؤلفة من الأستاذ محمد الخضري رئيساً، والأستاذين محمد المهدى ومحمد فهمي المدرسین بالجامعة، والأستاذين إسماعيل رأفت بك وعلم سلامة المتذوبين من نظارة المعارف العمومية أعضاء لامتحان ... الطالب بالجامعة المصرية، وكان اجتماعها بهيئة علنية.  
ناقشت الطالب في رسالته التي قدمها في تاريخ أبي العلاء المعري، ثم في العلمين اللذين اختارهما، وهما: الجغرافيا عند العرب، والروح الدينية للخوارج، واستمرت المناقشة ساعتين وسبعين دقائق. وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات، فقررت أنه يستحق:

- (أ) درجة جيد جداً في الرسالة.
- (ب) درجة فائق في الجغرافيا عند العرب.
- (ج) درجة فائق في الروح الدينية للخوارج.

وفي منتصف الساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور وسط قاعة الامتحان.

رئيس لجنة الامتحان  
محمد الخضري  
٥ مايو سنة ١٩١٤

وتلقت الجامعة الضحمة التي كانت تضيق بها القاعة هذا الإعلان بالتصفيق الشديد الملحق ثم وقف علوى باشا رحمة الله فأعلن أنه تبرع بجائزة قدرها عشرون جنيهاً لأول طالب تخرج في الجامعة المصرية، فاتصل التصفيق. ثم تفرق الجميع، وانصرف الفتى

## الفصل الثامن

مع رفاقه فأنفقوا ساعات في بيت الزيارات لم يتحدثوا فيها إلا بأمر الرسالة والامتحان وما أتيح لصديتهم من فوز.

ولم ينم الفتى من ليلته تلك ... حال الابتهاج بينه وبين النوم، وهو يعلم أنه ما أحـَسَ السعادة قط كما أحـَسَها في ذلك اليوم وفيما تلاه من الأيام، لا لأنـَه ظفر بهذه الدرجة الجامعية، ولا لأنه كان أول ظافر بها، ولا لهذه الاحتفالات التي أقيمت له، ولا لكثرة ما تحدثت الصحف عنه وعن فوزه، ولا للعشرين جنيهاً التي أجازه بها علوـي باشا، والتي كانت تزيد على مرتب أبيه عن شهر كامل ملؤه الجـُدُّ والكـُدُّ والعناء، بل لشيء آخر بعيد عن هذا أشدـَّ البعد، قريب منه أشدـَّ القرب؛ وهو أنه قد قبل تحدي الجامعة وظفر بدرجة الدكتوراه، وأصبح سفـَرـه إلى فـَرـنـسـا ديناً له على الجامعة ليس لها بدـُّ من أن تؤديه إليه.

وكانـت حـَيـاتـهـ فيـ الأـشـهـرـ التـيـ أـنـفـقـهـاـ فيـ مـصـرـ قـبـلـ أنـ يـعـبرـ الـبـحـرـ حلـَّـاـ متـصـلاـ،ـ ولكنـهاـ عـلـىـ ذـلـكـ لمـ تـخـلـُـ مـنـ أـيـامـ شـدـادـ.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل التاسع

### الفلسفة المفسدة!

ولم تمض أيام بعد فوز صاحبنا في الامتحان، حتى دعته الجامعة، وأنباته بأنه سيشرف بالملوول بين يدي الحضرة العلية الخديوية من غد، إذا كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، وأن عليه أن يتهيأً للسفر إلى الإسكندرية ظهر الغد، وسيقدّمه إلى الجناب العالى، حضرة صاحب السعادة أحمد شفيق باشا الذي سيسافر إلى الإسكندرية في نفس الموعد وفي نفس القطار.

وَجَمِ الفقى لهذا النبأ وجوهًا معقدًا حَقًّا، كان فيه السرور والغرور، وكان فيه الخوف والفرق، وكانت فيه حيرة أي حيرة ... فليس قليلاً على ذلك الفتى الأزهري الفقير الضرير أن يرقى في هذه السرعة إلى حيث يلقى صاحب العرش، وأين هو من صاحب العرش؟ ... وأين صاحب العرش منه؟!

وكيف السبيل إلى الإسكندرية ومع من يسافر؟! وغلامه ذاك الأسود لا يُحسن أن يصاحبه في شوارع القاهرة إلا في كثير من الجهد والعناء، فكيف بمحاصبته إلى هذه المدينة البعيدة الغريبة التي تقوم على ساحل البحر في أقصى الأرض؟ وكيف يصاحبه إلى القصر، وكيف يكون دخوله على الأمير؟

ثم في أيّ هيئة يدخل على الأمير؟! أفي ثيابه تلك الرَّثَّة التي لم يكن يرضى عنها ولا يطمئن إليها ولا يظهر فيها لنظرائه إلا في شيء من الكره والحياة! أم في ثياب أخرى تليق بلقاء الأمير، ومن له بهذه الثياب؟ وماذا يصنع بعد أن يخرج من القصر؟ وأين يقضى لياليه في هذه المدينة الغريبة؟ ومن له بما تحتاج إليه هذه الرحلة من النفقات؟ وهو لا يملك إلا قروشًا لا تتجاوز العشرة، ولا سبييل له إلى أن يطلب من أخيه شيئاً، فلم يعرف

أخوه قط كيف يكون عنده أكثر من جنيه ينفق منه حتى إذا أتى عليه تكلف الاقتراض من صديقه هذا أو ذاك، حتى يكون أول الشهر.

ازدحمت هذه الخواطر على الفتى فشغلتة عن أن يُرجع الجواب على سكرتير الجامعة، حين ألقى إليه هذا النبأ السعيد وكأن السكرتير قد أحس شيئاً من حيرته فقال له متططاً: وسيكون سفرك إلى الإسكندرية ورجوعك منها على نفقة الجامعة. فابتسم الفتى في مرارة، ولم يزد على أن شكر ثم انصرف.

ورأه مساء ذلك اليوم راضياً مغبظاً في الكلوب المصري، يضحك مليء شدقته، فقد لقى صديقه ذلك الموسر الذي كان يحمل في أصبعه أربعين إربداً من القمح، لقيه ولم يطلب إليه شيئاً، وإنما أ Nichols بأنه مسافر من الغد في صحبة شقيق باشا للتشريف بلقاء الأمير، قال الصديق مبهجاً: فسأكون رفيقك في هذه الرحلة، وستريح غلامك هذا الذي أثقلت عليه في هذه الأيام.

ثم سكت لحظة كأنه كان يفكر في شيء، وأحس الفتى – وإن لم ير – أن صديقه كان ينظر إليه نظرة فاحصة ... ثم انقطع الصمت، وقال الصديق: ألم يعلن علوى باشا أنه قد أجازك بعشرين جنيهًا؟

قال الفتى: بلى.

قال الصديق: فهلْمَ معِي، فليس لك بدٌ من ثوبٍ تلقى فيه الأمير.

قال الفتى: وأي ثوب؟

قال الصديق: أصحابي، ولا عليك.

ثم مضى معه إلى حيث اشتري له معطفاً من هذه العاطف التي كان الأزهريون يسمونها الكاكولا، ولم يك الفتى يدخل فيها ويجمع طرفتها على صدره بأزراره تلك حتى أحس كأن شخصه قد تغير، وكأنه قد خرج من طور من أطوار حياته، ودخل في طور جديد.

ولم يُرِد الفتى أن يبرح القاهرة دون أن يلقى أستاذه لطفي السيد، فسعى إليه حين ارتفع الضحى من الغد، وتلقاء الأستاذ حفيأً به، فضممه إليه وقبله، وقال: امض مصاحباً، وانظر أنك في أول الطريق.

ورأى الفتى نفسه في قطار الإسكندرية، وفي الدرجة الأولى التي لم يعرفها قبل ذلك اليوم. ورأى نفسه بين صديقه ذاك وبين شقيق باشا رئيس الديوان الخديوي، وهم يأخذون في أطراف من الحديث، والباشا يقصّ عليهم فنوناً من حياته حين كان طالباً

## الفصل التاسع

يختلف إلى دروس العلوم السياسية في باريس أو في لوزان. والفتى يسمع ويرى نفسه مختلفاً بعد وقتٍ يقصر أو يطول إلى دروسه في السوربون، وتعرض له في باريس خطوب لا تشبه الخطوب التي عرضت له حين كان يختلف إلى دروسه في الأزهر أو في الجامعة. فإذا بلغ القطار مدينة الإسكندرية ذهب الفتى وصاحباه، إلى القصر في عربة فخمة كانت تنتظر البasha في المحطة، والفتى ينكر نفسه، وينكر هذا الترف الذي لا عهد له به، وهو في الوقت نفسه حائز ذاهل يفجّر فيما سيسمع من الأمير وفيما سيقول له.

وقد أدخل على الأمير، فإذا هو يلقى رجلاً كغيره من الرجال الممتازين الذين كان يلاقهم في الجامعة من أعضاء مجلسها، وإذا هذا الرجل يلقاء في سماحة سمحه بريئة من التكلف، وإذا هو يأخذ بيده فيجلسه على أريكة ويجلس عليها إلى جانبه، مهنةً له بفوذه، متمنياً له الخير والنجاح فيما يستقبل من الأيام، سائلاً إياه بعد ذلك عما يريد أن يصنع بعد أن ظفر بدرجته تلك.

قال الفتى: سأحاول السفر إلى فرنسا لأدرس الفلسفة أو التاريخ.

قال الأمير: إياك والفلسفة! فإنها تفسد العقول!

وكان الإنكار قد ظهر على وجه الفتى، فمضى الأمير قائلاً: بل هي لا تفسد العقول وحدها، ولكنها تفسد الذوق أيضاً؛ لقد ذهبت إلى باريس منذ سنتين، واستقبلني الطلاب المصريون هناك، وكانوا جميعاً حاسري الرءوس في أيديهم قلansهم إلا واحداً منهم كان حاسراً الرأس كزملائه، ولكنه لم يكن يمسك قلنسوة وإنما كان يمسك طربوشًا في يده ... فلما سألت عن هذا الفتى أنبئت بأنه منصور فهمي، وبأنه يدرس الفلسفة، فعلمت أن الفلسفة قد أفسدت عليه عقله وذوقه جميعاً، فصاحب الطربوش لا يرفعه عن رأسه ولا يأخذه بيده حين يلقى الخديو، وصاحب القلنسوة لا يتركها على رأسه وإنما يأخذها بيده في مثل هذا المقام، ولكن صاحبنا كان يدرس الفلسفة!

ثم أغرق في ضحك متصل، والفتى مغرق في الوجوم.

فلما سكت عنه الضحك، قال وهو يضع يده على ركبة الفتى: ستتسافر إلى فرنسا، ولكن لا تدرس الفلسفة وعليك بالتاريخ فإنه علم عظيم.

ثم أعرض عن الفتى وأخذ يتحدث إلى شقيق باشا في رطانة تركية لم يفهم منها الفتى قليلاً ولا كثيراً، ووقف بعد دقائق، فوق الفتى وصحابه شقيق باشا إلى خارج الغرفة حيث كان ينتظره صديقه ذاك.

فودّعه شقيق باشا وأسلمه إلى صاحبه وعاد هو إلى الأمير.

وانسل الصديقان من القصر، لا يحفل بهما أحد ولا يلتفت إليهما أحد، وخرج من القصر فلم يجدا عربة تنتظرهما، وإنما مضيا أمامهما يقصُ الفتى على صديقه حديث الأمير إليه، والصديق يضحك، ثم يقول: هُلْمَ إلى مكتب التلغراف لتنبيء الجامعة بانتهاء المقابلة، ثم نخلص لأنفسنا.

قال الفتى: فسننبئ الجامعة غداً حين نعود.

قال الصديق: اسكت يا أحمق، فإن هذه البرقية ستكون أعظم خطراً وأبعد أثراً من المقابلة نفسها، سيقرؤها أعضاء مجلس الإداره، وستقتضي على ترددهم في إرسالك إلى فرنسا.

وذهبا إلى مكتب التلغراف، وكتب الصديق إلى الجامعة هذه البرقية، لم يؤمر فيها الفتى، وإنماقرأها عليه بعد أن انصرفوا من المكتب:

### حضرت سكرتير الجامعة المصرية بالقاهرة

لبثنا في حضرة الجناب العالى ربع ساعة لقيينا فيه من لطف الملك وعطفه على الجامعة وعلىنا ما أطلق ألسنتنا بالحمد له والثناء عليه.

طه حسين

وأنفق الصديقان ساعات حلوة في الإسكندرية، يهيمن على ساحل البحر، ويأخذان في ألوان من الحديث فيها قليل من جدٌ وكثير من العبث، واستكشف الفتى في صديقه خصلة لم يكن يعرفها منه، وهي الإسراف على نفسه في الأكل، فلم يكن يلقى شيئاً يؤكل مما يحمله الباعة المتجلولن إلا أشتري منه وأقبل عليه يزدرده ازدراً، والغريب أنه أقبل على عشاءه كأنه لم يأكل قبله شيئاً. ثم قضيا ليتهما في فندق تيمٌن الصديق باسمه، وقال لصاحبه: فالحسن! ستسافر إلى فرنسا لأن الفندق يتسمى باسمها، وينسب إليها. ولم يبلغ الفتى مدينة القاهرة، حتى قال الصديق لصاحبه: إذا أدى إليك علوى باشا جائزته فاذكر أنك مدین لي بستة جنيهات، واحذر أن تُبْطئ في أدائه إلى!

وكان قبض هذه الجائزة أُنقل على الفتى من لقاءه للأمير، فقد دُعى إلى العشاء على مائدة علوى باشا، مع أسانتنته الذين امتحنوه، فجلس إلى المائدة، ولكنه لم يصب من الألوان التي قدمت إليه شيئاً، كان شديد الحباء بطبعه، وكانت المهابة تملأ نفسه وتفسد عليه أمره كله. وكان لا يدرى ماذا يصنع بشخصه كله وقد وضع أماته أدوات المائدة فلم يكدر يمسها حتى أدركه منها ذعر شديد ... ماذا يصنع بالملعقة؟ وماذا يصنع

بالشوكة والسكنين؟! وكيف يتصرف بها؟ أليس الخير كل الخير في أن يلبت في مكانه هادئاً ساكناً لا يعرض نفسه لسخرية أو إشفاق؟  
وظل في مكانه هادئاً ساكناً أيضاً لا يحرك يدًا ولا لساناً.

وأقبل الأساتذة على طعامهم غير هيابين ولا وجلين ولا متددلين ولا حافلين بهذا الفتى الجالس بينهم كأنه التمثال! قد انعطف أعلاه على أسفله، وهو مغرق في السكون والصمت لا يصنع شيئاً ولا يقول شيئاً. كان يستحي أن يحرّك يده أو لسانه، وكان يستخذى من سكونه وصمته، وكان يتعجل مِنَ الساعات ويتنمّى أن تعود إليه حريته حين يُردد إلى غلامه ذاك الأسود الذي كان ينتظره غير بعيد. وكان علوى باشا وحده يلحّ عليه في أن يصيب من هذا اللون أو ذاك، فلما استيأس منه، قال في صوت حزين: أرجو أن يكون خادمك قد أعد لك ما يعيش.

وقد فرغ القوم من طعامهم، وأخذوا في أطرافِ من الحديث، وشاركتهم الفتى في بعضها، ثم قام الباشا فأدار مفتاحاً في خزانة وجدب إليها درجاً من دراجتها ثم أعاد إغلاقها، ثم أقبل على الفتى فدسَ في يده ورقة تصيب جبينه لها عرقاً، فلما أصبح عرف أنها كانت الشيك الذي دُعيَ إلى العشاء ليتسَلّمَ.

وأدّى الفتى دينه، وأجاز خدم الجامعة كما أجازه علوى باشا، وبقي له جنيهات تسعه سطا عليها أخيه فلم يبق له منها شيئاً!

على أن هذا كله لم يُنسِ الفتى حقه عند الجامعة، فهي قد علقت سفره على أن يفوز بالدرجة، وقد فاز بها، فيجب أن تبرأ الجامعة بوعدها، والفتى يكتب إليها هذا الكتاب:

### صاحب العطوفة رئيس الجامعة المصرية

قد عرضتْ منذ حين على الجامعة المصرية أن توفرني إلى أوروبا لأدرس فيها التاريخ والفلسفة، فكلفتني تعلّم الفرنسية، ثم قبلت الطلب وعلّقت تنفيذه بنيلي شهادة العالمية، وإذ كنت قد فرّغت من هذا كله بحمد الله فلم يبق إلا أن يحدّد مجلس الإدارة موعد السفر وتكتب الجامعة بذلك لأعدّ له عدّته.

لذلك رفعت إلى عطوفتكم هذا الطلب راجياً أن تتفضلاً بقبوله ولكم الشكر أفنديم.

١٩١٤ مايو ١٨

طه حسين

وبدأت الجامعة البرَّ بوعدها، فقررت ضمَّ الفتى إلى بعثتها بباريس وأرسلت إليه هذا الكتاب:

## حضره المحترم الدكتور

اطلع مجلس الإدارة على العريضة المقدمة من حضرتكم بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩١٤ فقرر انضمامكم إلى إرسالية الجامعة بباريس لدراسة التاريخ، وأن يكون سفركم في الأسبوع الأول من شهر أغسطس القادم.

وهذا إنذار لحضرتكم بذلك، واقبلاوا وافر تحياتي.

رئيس الجامعة المصرية

وكذلك تحقق هذا الحلم السعيد الذي داعب نفس الفتى وداعبته نفسه أعواماً، وأصبح صاحبنا عضواً في بعثة الجامعة. وتقرر أن يعبر البحر على الباخرة لوكس في الثامن من شهر أغسطس، وسافر الفتى إلى أقصى الصعيد حيث كانت تقيم أسرته ليودع أبويه، فأقام في أسرته أسابيع كانت تثير في نفسه كثيراً من الشجون، فقد كان يرى أباء مبتهجاً أشدَّ الابتهاج بسفر ابنه إلى أوروبا بعد أن ابتهج أشدَّ الابتهاج كذلك بفوز ابنه بدرجته الجامعية.

كان يتحدث بذلك إلى أهله، وكان يتحدث به إلى الناس، وكان كثيراً ما يقول لأولئك وهؤلاء: الله في خلقه شئون! هذا أضعف بيَّنَ وأخفُّهم علىَّ حملاً وأقلُّهم نفقة، قد أتيح له ما لم يُتَّح لإخوته الأقواء المبصرين الذين كلفوني من النفقه ما أطيق وما لا أطيق، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم، ولم يقابل الخديو واحداً منهم، ولم يخطر لي ولا لواحد منهم أنه قد يسافر إلى أوروبا كما سافر إليها أبناء الأغنياء. وكان قصارى ما تمنيت لابني هذا أن يجلس إلى عمود في الأزهر ليقيِّي الدروس على بعض طلابه، فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التي نسمع من أحاديثها الأعاجيب!

وكانت أم الفتى راضية بما أتيح لابنها من النجاح، ولكن رضاها كان مُرّاً ثقيلاً. كانت تفكِّر في حال ابنها وفيما سيعرض له من الخطوب في بلاد الغربة، وفيما سيتكلف من الجهد ويتحمل من المشقة، وكانت كلما رأت ابتهاجه وابتهاج أبيه ثقل عليها هذا التفكير، وربما استخفت بدموعها حتى لا تنفع على الأسرة هذا الابتهاج.

وأقبل الفتى ذات يوم إلى القاهرة يتهيأ للسفر البعيد، ولكنه لا يكاد يأخذ في ذلك حتى ينقلب فرجه حزناً وسروره أللَّا ولوعدة؛ فقد أعلنت الحرب، واستردَّت الجامعة

## الفصل التاسع

طلابها من أوروبا، ووقفت إرسال البعثة الجديدة واضطر الفتى إلى أن ينتظر ... ماذا ينتظر؟ وإلى متى يكون هذا الانتظار: أيقصر أم يطول؟



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل العاشر

أستاذ جامعي بخمسة جنيهات!

وكانت تلك الأيام الطوال الثقال التي قضتها صاحبنا في القاهرة مروّعاً ملتائعاً بعد أن حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد؛ فقد أسلمه هذه الصدمة القاسية إلى هم متصل ذات عنه النوم، فلم يكن يذوقه إلا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير، وقد بلغ منه الجهد غايته، وانتهى به العناء إلى أقصاه، بعد ليل مسحود وفكر مُشَرَّد ونفس قلقة عرفت كيف تنسُلُ من ماضيها الثقيل، ووقفت أمام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه إلى ما كتب لها فيه من سعادة أو شقاء.

في تلك الأيام كان الفتى فارغ النفس والقلب، ليست أمامه غاية يسعى إليها، ولا أربُّ يطمع فيه. يصبح فلا يجد أمامه عملاً ينفق فيه بياض النهار، ويُمْسي وقد ثقلت عليه الراحة، فلا يحس من التعب والجهد ما يغريه بالنوم أو يغرى به النوم. يرى نفسه بعد أن جاوز العشرين لا يزال عيالاً على أبيه الذي أثقلته نفقة البنين، وعلى أخيه الذي جعل يعمل في الجمعية الخيرية الإسلامية متظراً ذلك المنصب الذي جدّ وكدّ في سبيله، وهو منصب القضاء الشرعي. في تلك الأيام أبغض صاحبنا نفسه، وملّ حياته، وزاده درسه لأبي العلاء بغضّاً لنفسه، وتبرّماً بحياته، وإغراقاً في التشاوُم المظلم الذي لا قرار له. ورأى نفسه ذات يوم وقد انتهى به التشاوُم والضيق إلى حيث ندم على ما فرط في جنب الأزهر وشيوخه حتى حيل بينه وبين درجة العالمية تلك التي كان يسخر منهاأشدّ السخر، ويزهد فيها أعظم الزهد، بعد أن صرفت عنه فلم يحاول أن يستأنف السعي إليها.

وما أكثر ما كان يردد في نفسه ذلك الحديث المرّ: «لو قد ظفرت بذلك الدرجة لكان لي عمل أعدو إليه، ومُؤْدِع أعيش منه، ولما أثقلت بهذه الحياة البغيضة على قوم من حقهم أن توضع عنهم الآثقال، وتحفّ عليهم الأعباء..».

والغريب أنه كان يخترع لنفسه هذه الحياة المُرّة البغيضة اختراعاً، فهو لم يشعر من أبيه ولا من أخيه ببعض ما كان يجد في نفسه من الحزن والضيق واليأس. ولم يلاحظ أن أحدهما ضاق من عنایته به أو رعايته له، وإنما جرت الصلة بينه وبين أسرته مطردة كما كانت تجري من قبل لم يتغير فيها شيء، ولم يتبّع به مكانه في بيته ذاك ولا مكانه في القاهرة بين صديقه، وإنما هو الذي كان يضيق باطراح الصلة وامتداد حياته على هذا النحو بدون أن يتغير قليلاً أو كثيراً.

فيَمَ إذن كَدَ وشقَى وتکلَّف من الدرس والامتحان، وظفر بما ظفر به من النجح؟ وفيَمَ كثر الحديث عنه والاحتفاء به؟ وفيَمَ كانت هذه الأحلام الخلوة والأمال العراض؟ أكان هذا وسيلة إلى هذه الحياة الفارغة التي يحيها، وإلى أن يصبح آخر الأمر كَلَّا على أسرته أينما توجّه لا يأتِ بخير؟

بهذا كله كان ينادي نفسه إن أتيحت له الخلوة في النهار، وحين تفرض عليه الخلوة إليها في الليل، وهو على ذلك لا يُظهر لأحد شيئاً من ضيقه وترُبُّمه ويأسه، وإنما يلقى الناس كما تعود أن يلقاهم باسماً لهم وللحياة، آخذًا معهم في أطراف من الحديث مختلفة، كأنه لم يكن يائساً ولا شقياً ولا محزوناً.

ثم يخطر له ذات يوم خاطر يُخرجه من الملل واليأس، ويدفعه لا إلى الأمل بل إلى محاولة الأمل. فما الذي يمنعه أن يُعلم في الجامعة بعد أن تعلّم فيها؟ وأن يختلف إليها أستاذًا بعد أن اختلف إليها طالبًا؟ وأن يكون شأنه معها كشأنه مع الأزهر لو ظفر بدرجته، وهو لا يريد من الجامعة أَجْرًا، فما ينبغي أن يكون عيالًا عليها، وليس هي بالغنية ولا بالمحاجة إليها. وإنما يريد أن يشغل نفسه عن نفسه، وأن يُشعر الناس أنه يستطيع أن ينفع نفسه وينفعهم، وأن وجوده في هذه الدنيا ليس عبئاً ولا لغوًا، وهو يكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب:

### صاحب العطوفة رئيس الجامعة المصرية

كانت هذه الحرب الحاضرة مؤخراً لي عن السفر إلى باريس والالتحاق بطلبة إرسالية الجامعة، كما قرر مجلس الإدارة، وإن كنت خريج الجامعة، وقد استفدت منها وتخصصت لها، وأنا مضطرب إلى أن أبقى بمصر ريثما تنتهي

هذه الحرب، فقد أردت أن أمضي هذه السنة في تدريس تاريخ الأدب العربية في الجامعة بغير أجر. وأعتقد أنني قادر بمعونة الله وقديم فضل الجامعة على أن أفيد الطلاب ونفسي بهذا الدرس فائدةً حسنة، وأبعث في الأدب وتاريخها شيئاً من الحياة غير قليل، فإذا راق هذا الاقتراح مجلس الإداره، فأنا أرجو أن يتفضل فيقرّرنني «كذا» مدرساً لهذه المادة في الجامعة ريثما تنتهي الحرب، وله الشكر والجميل.

وعرض هذا الكتاب المغور على مجلس الجامعة في السادس عشر من سبتمبر من ذلك العام، فُقِلَّ الطلب ورُفِضَ ما عرض صاحبه من المجانية، وكلف علوى باشا رحمة الله شيئاً: أحدهما؛ أن يشكر للفتى تبرّعه بهذا الدرس، والثاني: أن يقدر له مكافأة تلائم حاله، وتلائم طاقة الجامعة.

وأخذ علوى باشا يسامون الفتى في هذه المكافأة، فعرض عليه أول ما عرض أن تكون مكافأته بمقدار ما يكون من إقبال الطلاب على درسه، وأن تفرض الجامعة على الذين يختلفون إلى هذا الدرس رسمًا يسيراً، ثم يُجمع ما يحصل من هذه الرسوم ويدفع إلى الأستاذ الفتى، وزعم علوى باشا لصاحبنا أن بعض الجامعات الألمانيّة تسير هذه السيرة مع الأساتذة المبدئين، ولكن صاحبنا اعتذر من قبول هذا العرض؛ لأنّه يجعله مديناً لطلابه دينًا مباشرًا بما يرزق من مرتب آخر الشهر.

قال علوى باشا: وإنْ فـسـطـعـتـيكـ الجـامـعـةـ مـكـافـأـةـ قـدـرـهـاـ خـمـسـةـ جـنـيـهـاتـ فيـ كـلـ شـهـرـ،ـ وـهـيـ أـكـثـرـ مـاـ كـانـ الأـزـهـرـ يـعـطـيـكـ لـوـ جـلـسـتـ فـيـ مـجـلـسـ الأـسـتـاذـ.

واستخـدـىـ الفتـىـ مـنـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ كـلـهـ فـلـمـ يـرـجـعـ عـلـىـ عـلـوـيـ باـشـاـ جـوـابـاـ،ـ وإنـماـ انـصـرـفـ عـنـهـ مـحـزـونـ القـلـبـ كـيـبـ النـفـسـ كـاسـفـ الـبـالـ،ـ رـاضـيـاـ مـعـ ذـلـكـ شـيـئـاـ مـنـ رـضـاـ،ـ فـقـدـ أـصـبـحـ لـهـ عـلـمـ يـنـفـقـ فـيـهـ وـقـتـهـ وـجـهـهـ،ـ وـلـيـسـ بـقـلـيلـ أـنـ يـقـالـ عـنـهـ:ـ إـنـهـ أـسـتـاذـ فـيـ الـجـامـعـةـ.ـ وـأـقـبـلـ عـلـىـ الـأـدـبـ وـتـارـيـخـهـ يـعـدـ دـرـوـسـهـ فـيـهـماـ.ـ وـقـرـرـ أـنـ يـخـتـارـ لـلـدـرـسـ فـيـ عـامـهـ الـأـوـلـ تـارـيـخـ الـأـدـبـ الـأـنـدـلـسـيـ،ـ وـمـاـ هـيـ إـلـاـ أـنـ غـرـقـ فـيـ «ـنـفـحـ الـطـيـبـ»ـ وـمـاـ إـلـيـهـ مـنـ كـتـبـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ،ـ فـنـيـ نـفـسـهـ وـنـسـيـ النـاسـ،ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـنـسـ الـبـعـثـةـ إـلـىـ بـارـيـسـ،ـ وـلـمـ يـنـسـ الـحـربـ الـتـيـ تـحـولـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ بـارـيـسـ.ـ وـكـيـفـ السـبـيلـ إـلـىـ نـسـيـانـ الـحـربـ وـأـنـبـأـهـاـ الـمـرـوـعـةـ تـصـبـحـهـ وـتـمـسـيـهـ فـيـ كـلـ يـوـمـ؟ـ

وـإـنـهـ لـغـارـقـ فـيـ الـأـدـبـ الـأـنـدـلـسـيـ يـقـرـؤـهـ مـعـ صـدـيقـهـ ذـاكـ الذـيـ قـرـأـ مـعـهـ أـبـاـ الـعـلـاءـ،ـ وـيـقـرـؤـهـ مـعـ خـادـمـهـ كـلـمـاـ غـابـ عـنـهـ صـدـيقـهـ ذـاكـ،ـ وـإـذـاـ الـجـامـعـةـ تـدـعـوهـ فـيـذـهـبـ إـلـيـهـاـ عـجـلاـ

وَجَلًا ذات ضحى، وهناك يلقى علوى باشا رحمة الله فيستقبله باسماً له رفيقاً به، وينبئه بأنه مسافر بعد أيام إلى فرنسا، فقد انجلت الغمرة بعض الانجلاء، وانهزم الألمان أمام باريس، وسعى ممثلو فرنسا في مصر عند الحكومة وعند الجامعة لتعيدها طلبها إلى الجامعات الفرنسية.

ومنذ ذلك اليوم أقبل الفتى على تهيئة نفسه للسفر مستأنفاً حياته تلك التي كانت تملؤها الأحلام العذاب، والأمال العراض. ويقبل اليوم الموعود فيسافر الفتى من القاهرة ومعه أخي له يرافقه في سفره، ويحيا معه في فرنسا، ليتم درسه هناك، ويعين أخيه على الحياة الشاقة في تلك البلاد الغربية النائية. وقد أبىت الجامعة أن تحتمل من نفقة هذا الأخ قليلاً أو كثيراً، فاضطر الأخوان إلى أن يعيشوا بمترتب واحد على ما في ذلك من ضيق وشدة، وقبلت الأسرة أن تعينهما بشيء من مال يسير بين حين وحين، وعلى غير نظام مطرد.

وفي الرابع عشر من شهر نوفمبر أبحر الفتى من الإسكندرية، ومعه أخيه وطالبان من طلاب البعثة الجامعية كان لهما في حياته في فرنسا شأن أي شأن.

فأما أحدهما: فكان قد نَيَّفَ على الأربعين، وكان غريب الأطوار حقاً، كان قد ظفر بالشهادة الثانوية، وعمل في ديوان من دواعين الحكومة، وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية. فكان يغدو على مكتبه ويروح إلى مدرسة الحقوق حتى ظفر بدرجة الليسانس الفرنسي من جامعة باريس. وكان مرتبه ضئيلاً، ولكنه كان يحسن التدبير والاقتصاد، فيؤدي رسوم المدرسة، ويسافر إلى باريس في كل عام لأداء الامتحان. حتى إذا أتمَ الدرس طمع في أكثر من الدرجة التي ظفر بها، واتصل بعلوي باشا فقصَّ عليه قصته، وتأثر الباشا بهذه القصة، وقدر أن هذا الفتى يجب أن يكون حريصاً على العلم محباً له مشغوفاً به، ما دام قد تكفل في طلبه كل هذا العناء، وقرَّ على نفسه في الرزق كُلَّ هذا التغيير حتى ظفر بهذه الدرجة التي أتيحت له. وجعله علوى باشا عضواً في البعثة الجامعية ليمضي في درس الحقوق حتى ظفر بدرجة الدكتوراه، لم يحفل بتقدم سنه، ولم يفرض عليه امتحاناً أو شيئاً يشبه الامتحان.

وأما الآخر: فكان قد نَيَّفَ على الثلاثين، وكان قد تخرج في دار العلوم، وتقدَّم لمسابقة الجامعة فظفر فيها، وأُرسل إلى فرنسا للتخصص في الأدب العربي، فأقام فيها سنتين متصلة، ثم رُدَّ إلى مصر حين أعلنت الحرب، ثم أُعيد إلى فرنسا بعد أن انجلت عنها الغمرة الأولى، وكذلك لم يشعر الفتى وأخوه بشيء من الوحشة في هذا السفر بفضل هذين الرفيقين. وكان سفراً غير قاسد، فيه كثير من جهد، وفيه شيء من خطر أيضاً.

فقد اختيرت لسفر البعثة سفينة فرنسية فقيرة رخيصة، وكان اختيارها لوناً من الاقتصاد. وكان اسمها «أصبهان»؛ وكانت على بؤسها وفقرها مرحة تحب الرقص في البحر، وتحسن اللعب على أمواجه ولا تحفل بما يلقي ركابها من عقاب حبها للرقص واللعب. وكانت تؤثر المهل على العجل، وتفضل الأناء على السرعة، وكانت السفن تعبر البحر بين الإسكندرية ومارسيليا في أربعة أيام، فأما أصبهان فكانت تحب البحر وتؤثر أن تعبره في ثمانية أيام لا في أربعة. وصعد الفتى إلى «أصبهان» يتعرّض في جبهه وقططاته، ولم يك يبلغ غرفته في الدرجة الثانية ويسمع الجرس المؤذن بقرب إقلاع السفينة حتى خرج من جبهه وقططاته، وتحفف من عمامته، ودخل في ذلك الزي الأوروبي ... وشغله دخوله في ذلك الزي عن إقلاع السفينة واندفعها في طريقها هادئة أول الأمر، مضطربة بعد ذلك أشد الاضطراب. ورأى الفتى نفسه حين أقبل المساء وقد فارق مصر، ودفع إلى مغامرته تلك التي عرف أولها ولكنه لم يعرف ما يكون بعد أولها هذا من الأحداث والخطوب.

والحق أنه لم يفكر في الأحداث ولا في الخطوب، ولا في أول المغامرة ولا آخرها، وإنما شغل بزيعه الجديد ساعة وبعض ساعة، ثم شغل باضطراب السفينة بعد ذلك، فلم يفرغ منه إلا حين أتمت السفينة رحلتها وانتهت به إلى مارسيليا ذات مساء بعد ثمانية أيام طوال حافلة بالفزع والرُّوع والضيق.

وقد لزم الفتى غرفته تلك منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها، ولم يذهب إلى غرفة المائدة، وكيف يذهب إليها وهو لا يحسن الحركة في هذه السفينة التي لا تستقرُّ، ولا يعرف الجلوس إلى موائد الطعام، ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التي يستعملها الناس حين يطعمون، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الأوروبيين بيديه كلتيهما أو إحداهما، كما كان يصنع في مصر؛ فليس له بد إذن من أن يصيب طعامه في غرفته. وكان الرفاق قد وكلوا به خادمًا من خدم السفينة يحمل إليه غذاءه وعشاءه، وقد أعدّه إعدادًا حسناً؛ ليصيب منها حاجة. فكان الخادم يحمل إليه الطعام في موعده، فيضعه بين يديه ثم ينصرف عنه، ويغلق باب الغرفة من دونه، ثم يعود إليه بعد حين ليحمل ما وضع بين يديه من أطباق. وكان كلما عاد لحمل هذه الأطباق قال الفتى في ضحكة حزينة جملةً بعینها لا يغير منها حرفاً حتى حفظها الفتى ولم ينسها: «ما أقل ما تُصيب من الطعام!» وأفاق السَّفُر ذات ليلةً مذعورين، فقد اضطربت السفينة اضطراباً عنيفاً

مفاجئًا، وكثرت فيها الجلبة، ثم وقفت السفينة فجأة، وجعلت الريح تعصف من حولها، واشتدَّ اصطدام الموج، وصوت بعض النساء، وعرف المسافرون أن عطباً قد أصاب محرُك السفينة، ولم يشك أحد في أن الخطر قريء.

وبينما كان السَّفْرُ في ذعرهم وروعتهم، كان الرفيق الدرعوني مقبلاً على ذقنه يعمل فيها الموسي، حتى إذا فرغ من ذلك دخل في ثياب النهار كما تعود أن يدخل فيها قبل أن يخرج من غرفته في كل يوم، ثم أقبل على الفتى متكلفاً ضحكاً يغالب به الرُّوع، فلما رأه مستلقياً في سريره قال متضاحكاً: وإنك لستقبل الآخرة على هذه الحال!

قال الفتى: وما تريد أن أصنع؟

قال الدرعوني: فإني كرهت أن أستقبل الموت في قميص، فحلقت ذقني، واتخذت زينتي لأغرق كريماً لا يضحك الناس مني.

ثم اندفع في ضحكٍ يائسٍ وأخذ يتغنى في شعر البردة كما يتغنى فيه بعض أصحاب الطرق:

أَمِنْ تذَكُّرِ جِيرانِ بَذِي سَلَمِ  
مَزْجَتْ دَمَّا جَرَى مِنْ مَقْلَةِ بَدْمِ

وإنه لفي هذا العبث، وإذا اضطراب الناس يهدأ، فقد عرفوا أن في السفينة من المهندسين والعمال من يستطيعون إصلاح ما أصاب محركتها من عَطَب، وأنها ستستأنف سيرها بعد ساعات، وما أسرع ما استحال الرَّوْع إلى ضحك ولعب وابتهاج!

وستستأنف السفينة سيرها وقد سكنت، فهي لا تعصف، وسكن الموج فهو لا يقصف، ومضت السفينة في طريقها هادئة مستأنفة، لأن رشدتها قد ثاب إليها، وكانتها هي قد ثابت إليها. وتبلغ مارسيليا مساء ذلك اليوم، فيهبط صاحبنا من السلم لا يتعرَّ في جبهه وقططانه، ولكن نفسه هي التي كانت تتعرَّ في هذه الحياة الجديدة التي يستقبلها، ولا يعرف كيف يلقاها، ولا كيف يحمل أعباءها، ولا كيف ينفذ من مشكلاتها.

ويبلغ الرفاق مدينة مونبلطيه التي أمرتهم الجامعة أن يطلبوا العلم فيها عامهم ذاك، ولا يذهبوا إلى باريس حتى يؤذن لهم في الذهاب إليها، وهم يبلغون تلك المدينة مع الليل، وهم يجهلون من أمرها كل شيء، ولكن رفيقهم ذاك الذي نَيَّفَ على الأربعين وحلب الدهر أشطره كما كان يقول، وجعل نفسه رئيساً لهم بحكم السن، يقودهم إلى فندقٍ حقير فقير كسفينتهم تلك التي عبرت بهم البحر، فإذا استقروا في هذا الفندق وعيث بهم البرد أقبل الدرعوني متضاحكاً وهو يقول للفتى:

## الفصل العاشر

أُوتِلُّ مثُلُ وجه الكلب لكن لخاطر سلطان اصبر شويه

وسلطن هذا هو اسم الرفيق سلطان الذي قادهم إلى الفندق، ولكن ضرورة الشعر حذفت ألفه ليستقم الوزن، وما أكثر ما تحذف ضرورات الشعر من الحروف!



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الحادي عشر

### الفتى في فرنسا

واستقبل الفتى حياته في مدينة مونبلييه سعيداً بها إلى أقصى ما تبلغ السعادة، راضياً عنها كأحسن ما يكون الرضا. فقد حقق أملاً لم يكن يقدر أنه سيحققه في يوم من الأيام.

وكان يكفيه أن يفكر في صباح ذلك البائس الذي قضاه متربداً بين الأزهر وحوش عطا، تشقي نفسه في الأزهر، ويُشقي نفسه وجسمه في حوش عطا، حياة مادية ضيقة عسيرة كأقصى ما يكون الضيق والعسر، وحياة عقلية مجده فقيرة كأشد ما يكون الإجداب والفقر، ونفس مضيعة بين عسر الحياة المادية وفقر الحياة المعنوية. ثم يوازن بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التي أخذ يحياها في هذه المدينة الفرنسية، لا يحس جوغاً ولا حرماناً، يُحملُ إليه فطوره إذا أصبح ناعماً لينًا لا خشونة فيه ولا غلظ. فإذا جاءت أوقات الطعام في وسط النهار وفي آخره، وجد في اختلاف الألوان وتنوعها ما يذكره بطعمه ذاك المتشابه حين كان يغمس خبزه في عسله ذاك الأسود مصبحاً وممسيّاً، وحين كان يحب أن يتخفّف من طعامه ذاك أحياناً ويختلف عن حلّوته البغيضة إلى شيء آخر، فلا يجد إلا ذلك الطعام الغليظ الذي كان الأزهريون يعيشون عليه في تلك الأيام. فإذا أحب أن يتفرّك فلا منصرف له عن البليلة في الصباح والتين الغارق في الماء إذا كان المساء أو الضحى. وأين ذلك الطعام الغليظ من هذه الألوان المترفة الرقيقة التي كانت تعرض عليه في غدائها وعشائدها في غير تقدير ولا تضييق، وفي كثير من إلجاج الخدم وأصحاب الفندق عليه في أن يصيّب منها أكثر مما أصاب.

ويذهب إلى الجامعة فيسمع فيها ما شاء الله أن يسمع فيها من دروس الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية، لا يسمع درساً إلا أحشَّ أنه قد علم ما لم يكن يعلم، وأضاف إلى علمه القديم علماً جديداً. وهو على قلة حظه من إحسان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيراً من المشقة، ولا يبذل كثيراً من الجهد، ليفهم ما كان الأستاذة يلقون من الدروس فهماً يغرنِيه ويرضيه. كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم، فيرى نفسه أسعده الناس وأعظمهم حظاً من النجاح والتوفيق. وهو مع ذلك لم يكن ميسراً عليه في الرزق، وإنما كان عليه أن يدبر مرتبه ذاك الذي لم يكن يتجاوز الثاني عشر جنيناً لينفق منه على نفسه وعلى أخيه. وقد تهيأً له ما أراد من ذلك في غير تكلف ولا عناء. كانت الحياة الفرنسية في تلك الأيام هينة ميسرة، تتيح لفتين أجنبيين مثله ومثل أخيه أن يعيشَا بهذا المرتب الضئيل عيشة راضية حين تقاس إلى ما كانوا يلقيان في مصر من قسوة الحياة وشظفها.

ثم لم يلبث الفتى أن فكَّر في أنه لم يعبر البحر إلى فرنسا ليتردد بين الفندق والجامعة، وإنما أقبل إلى هذا البلد الغريب ليدرس ويحصل ويجوز الامتحان، ويظفر بالدرجات الجامعية التي لم يظفر بها أحد قبله من مواطنه. فلم يكن له بد من أن يظفر بدرجة الليسانس، ولم يكن إلى الظرف بتلك الدرجة سبيل في تلك الأيام إذا لم يحسن الطالب لغتين لم يكن من إحسانهما بدُّ، إحداهما: لغة الدرس وهي اللغة الفرنسية التي كان الفتى قد أخذ منها بحظٍ يسير، والأخرى: لغة قديمة كان الفتى يسمع عنها ولا يتحققها ولا يعرف إلى العلم بها سبيلاً، وهي اللغة اللاتينية.

وقد أخذ الفتى يتهيأً لإتقان الفرنسية من جهة، وتعلم اللاتينية من جهة أخرى، فالتمس لنفسه معلماً خاصاً يعينه من ذلك على ما كان يريد. وقد جعل رفاقه يبحثون له عن المعلم الذي يلائمه حتى قيل لهم: إن صاحبكم مكفوف، وليس له بدُّ من أن يتعلم كتابة المكفوفين وقراءتهم، ليستطيع أن يعتمد على نفسه في تحصيل ما يريد أن يحصل من العلم.

ثم قيل لهم: إن في تلك المدرسة من مدارس المكفوفين أستاداً ضريراً قد يعين صاحبكم على حاجته، فسعوا إلى هذا الأستاذ، وقدموا إليه صاحبهم. وأعلن الأستاذ إليهم أنه زعيم بأن يعلم رفيقهم الكتابة والقراءة الفرنسية واللاتينية جميعاً، ولم يطلب على هذا إلا أجراً ضئيلاً في نفسه، ولكنه كان ثقيلاً على هذين الأخرين اللذين كانوا يعيشان بمرتب شخص واحد.

وقد قَبِل الفتى مع ذلك أن يشق على نفسه وعلى أخيه، وأن يؤدي إلى الأستاذ أجره الذي طلبه، وكتب إلى الجامعة يستعينها فلم تدخل عليه بالعون، وقامت عنه بأداء هذا الأجر.

وأقبل الفتى على الكتابة البارزة يتعلّمها، فلم يلبث أن أحسنها، ولكنّه عندما حاول أن ينفع بها في درسه لم يجد إلى الانتفاع بها سبيلاً؛ فلم تكن الكتب التي كان يحتاج إلى قراءتها قد طبعت على هذه الطريقة الخاصة، وكان ربما أتيح له الكتاب المطبوع على هذه الطريقة، فلا يكاد يأخذ في قراءته حتى يضيق بهذه القراءة أشد الضيق، وينفر منها أعظم النفور، فهو قد تعود أن يأخذ العلم بأذنيه لا بأصبعه، وهو من أجل ذلك يجد المشقة كل المشقة في تتبع هذه النقط البارزة حتى يؤلف منها الكلمة، ثم يؤلف من الكلمة وأمثالها جملة، ثم يؤلف من هذه الجملة وأمثالها كلاماً يمكن أن يعمل فيه عقله وفهمه وبصيرته. وإذا هو يجد في ذلك عسراً أثِيرَ عسراً، ويسامُ ذلك أشدّ السأم وأقساه، ويرى أنه يستطيع أن يحصل من طريق أذنيه في اللحظات القصيرة ما يحتاج إلى الوقت الطويل والملل الثقيل ليحصله من طريق أصابعه. وهو يعدل عن الكتابة البارزة وعن القراءة بالأصابع إلى طريقة التي ألفها إلا في درس اللاتينية، فقد كان حريصاً على أن يتعلّم هذه اللغة في آنٍ واحدٍ، وكانت هذه الطريقة في الكتابة والقراءة توافيه وتلائم ابتداءه درس هذه اللغة و حاجته إلى الريث والأنا.

على أنه لم يكد يتقدم في درس اللاتينية قليلاً حتى سئم القراءة بأصابعه، وأثر الاستماع على تلمس الحروف، وأحس الحاجة إلى قارئ يقرأ عليه ما يريد في اللاتينية والفرنسية جميعاً، ولم يستغف عن أستاذ ذاك الذي كان يعلم هاتين اللغتين، واستحب أن يطلب إلى الجامعة عوناً جديداً، فقتّر على نفسه أشد التقدير وأقساه، وعاش عيشة فيها شيء من غلظة وخشونة، ولكنها كانت على كل حال خيراً من حياته التي ألفها في مصر.

على أن الأيام أبت إلا أن تشَقَّ عليه وترهقه من أمره عسراً؛ فقد كان يعيش مع أخيه عيشةً راضية على ما فيها من قسوة ومشقة، وكانا يدبران أمرهما تدبّرياً ملائماً لطاقتهم المالية؛ ولكنهما لم يلبثا أن اختلفا واشتدا بينهما الاختلاف، حتى أصبحت حياتهما خصاماً متّصلاً وشقاءً ملحاً، حتى اضطر إلى أن يفترقا ... يسكن كل واحد منها في منزل غير الذي يسكنه أخيه، ويلتقيان بين حين وحين، وقد اضطربا ذلك إلى المبالغة

في التقتير على أنفسهما؛ فليست النفقات التي يقتضيها افتراقهما في المسكن، كالنفقات التي كانا يحتملانها حين كانوا يسكنان في غرفة واحدة، ويختلفان إلى مائدة واحدة. وكذلك اشتَدَّ قسوة الحياة على هذين الأخرين الغربيين، ولكنها لم تتنل من صبرهما، ولم تصرفهم عن جدهما في الدرس والتحصيل. ولم تكن حياة الفتى على ذلك النحو مبغضهً إليه، ولا ثقيلة عليه من جميع وجهها، وإنما كانت مزاجاً من الجد الصارم والهزل الباسم، يلتقيان أحياً في حياة الفتى حياة ليست حلوة ولا مرأة، ولكنها تُمرُّ في أول النهار، وتحلو في آخره حين كان الفتى يلقي رفاقه ويسمع لأحاديثهم، ويقضي بينهم فيما كان يعرض لهم من المشكلات، وما أكثر ما كان يعرض لهم من المشكلات، ومن مشكلات الحب والغرام خاصة!

وكيف تريدِ فتيةً من المصريين على أن يعيشوا في فرنسا ويختلفوا إلى القهوات والأندية وبعض ما يقام من الحفلات بدون أن يداعبوا الحبَّ أو يداعبهم الحبُّ، وبدون أن تقسو عليهم دعابة الحب بين حين وحين؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يمنع صديقين من أن تروقهما فتاة واحدة، وإذا هما يلتمسان إلى لقاءها الوسيلة. فإذا أتيح لهما هذا اللقاء ابتغيا عندها موقع الرضا، ثم لا يلبث أن يكون بينهما التنافس، ثم الخصومة، ثم التلاخي، ثم الفرقة، أيهما ظفر عند صاحبتهما بالرضا فهو عدوٌ لصاحبه الذي أخلفه الظن، وكذبه الأمل، ولم يقع من نفس الحسناء ما كان يرجو من موقع الرضا والارتياح. ولا تلبث هذه الخصومة بين الرفيقين أن تتجاوز الحب إلى غيره من ألوان الحياة التي كانا يتعاونان عليها ويشتركان فيها، وإذا صاحبناه يصبح قاضياً بين رفاقه في شئون الحب، وليس له أَرْبُّ فيه ولا سبيل إليه، وأنَّ له بشيء من ذلك وهو المكفوف الذي لا يحسن شيئاً حتى يعينه عليه معين، وهو لا يرى وجوه الحسان، ولا يعرف كيف يتحدث إليهن، أو كيف يبتغي إلى رضاهن الوسائل! فهو يغدو على الجامعة مصبحاً، فإذا راح إلى منزله آخر النهار لم يerre حتى يسفر له صبح الغد. والرفاق يُلْمُون به في آخر النهار وأول الليل، فيختصمون بين يديه ويختذلونه حكماً بينهم، وهو يصلح بين المختصمين مرة ويقضي لبعضهم على بعض مرة.

ولكن الليل لا يكاد يتقدَّم حتى يتفرق عنه رفاقه جميعاً، وإذا هو يخلو إلى نفسه هذه الخلوة المرة التي لا يجد عليها معيناً، قد جلس وحده في غرفته تداعب نفسه الخواطر المختلفة الكثيرة، فيها ما يسرُّ، وفيها ما يسوء، فيها ما يحيي الأمل، وفيها ما يملأ القلب يأساً وقنوطاً.

وما يزال الفتى جالساً في مجلسه ذاك من غرفته تعبث به خواطره هذه المختلفة لا يسأل عنه سائل ولا يلمُ به مُلْمٌ، وإنما هي الوحدة المطلقة القاسية التي كانت تذكره وحده في غرفته في حوش عطا، حين لم يكن يؤنسه إلا صوت الصمت وما كان يتربّد فيه أحياناً من أزيز بعض الحشرات.

وربما أسرفت عليه القسوة حتى تنتهي به إلى أقصاها فيمتنع عليه النوم، ويأبى الأرق إلا أن يكون له حلِيفاً، وإنه لفِي ذلك وإذا باهه يطرق، وقد كاد الليل يبلغ ثلثيه، فإذا أذنَ للطارق بالدخول فتح الباب، وأقبل عليه أحد رفاقه وقد أخذ من عبث الشباب بأعظم حظ ممكناً، وهو لا يريد أن يأوي إلى سريره حتى يتحدث ببعض عبته إلى صاحبه. فإذا فرغ من حديثه وانصرف ترك صاحبنا وقد انتهى به الحزن والضيق إلى غايتهما، وإذا هو يقْضي ليلة بيضاء لا يذوق فيها للنوم طعمًا، فإذا أصبح غداً على حياة فاترة لا خير فيها لعقله ولا لجسمه.

وهو على ذلك وعلى ضيق ذات يده، وعلى المشقة الشاقة التي كان يلقاها في الاختلاف إلى الجامعة والانتفاع بما كان يسمع من الدروس، راضٍ عن حياته كل الرضا، مطمئن إليها أشد الاطمئنان لا يتعجب إلا أن يمضي فيها حتى ينتهي إلى ما قدّر له من غاية. وهو واثق بأنه سيبلغ من هذه الحياة ما يريد؛ سيسعد الفرنسي، بل هو قد أخذ يحسنها ويطلق بها لسانه في غير مشقة، وسيتعلم اللاتينية، وسيتهيأ للامتحان. ومن يدرِي لعله أن يكون أول طالب مصرى يظفر في يوم من الأيام بدرجة الليسانس في الآداب.

إنه لفِي هذه الحياة الحلوة المرة القاسية اللينة التي يحبها أحياناً كأشد ما يكون الحب، ويُضيق بها أحياناً أخرى كأشد ما يكون الضيق، وإذا الحياة تبتسم له فجأة في يوم من أيام الربيع ابتسامة تغيّر حياته كلها تغييراً.

وإذا هو لا يعرف الوحدة ولا يجد الوحشة حين يخلو إلى نفسه إذا أظلم الليل، وكيف تجد الوحدة أو الوحشة إلى نفسه سبيلاً، وكيف تبلغه تلك الخواطر التي كانت تؤديه وتضنيه وتتعرّق ليه، وفي نفسه صوت عذب رفيق يشيع فيه البرّ والحنان، ويقرأ عليه هذا الأثر أو ذاك من روائع الأدب الفرنسي القديم؟

يرحم الله أبا العلاء، لقد ملأ نفس الفتى ضيقاً بالحياة وبغضضاً لها، وأيأسه من الخير، وألقى في روعه أن الحياة جهد كلها، ومشقة كلها، وعناء كلها. وإذا هذا الصوت يذود عن نفس الفتى كلَّ ما ألقى فيها أبو العلاء من ظلمة التشاؤم واليأس والقنوط، كأنه

تلك الشمس التي أقبلت في ذلك اليوم من أيام الربع، فجلت عن المدينة ما كان قد أطبق عليها من ذلك السحاب الذي كان بعضه يركب بعضاً، والذي كان يتصف ويعصف حتى ملاً المدينة أو كاد يملؤها إشفاقاً وروعاً.  
وإذا المدينة تصبح كلها إشراقاً ونوراً.

سمع الفتى ذلك الصوت يقرأ عليه شيئاً من شعر راسين ذات يوم. فأحس بأنه خلق خلقاً جديداً، ومنذ تلك الساعة التي سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً.

ولم يعرف الفتى أنه أحب الحياة قط كما أحبها في الثامن عشر من شهر مايو في ذلك العام.

ولم يعرف أنه أقبل على الدرس كما أقبل عليه منذ ذلك اليوم.

ولم يعرف أنه انتفع بالاختلاف إلى الجامعة والقراءة في الكتب كما جعل ينتفع بهما منذ ذلك اليوم أيضاً ... حتى حين انقطع عنه ذلك الصوت العذب البرُّ الرفيق لقدم الصيف.

فقد كان الصوت يصحبه دائماً، لا يكاد يخلو إلى نفسه في ليلٍ أو نهار إلا سمعه يقرأ عليه هذا الكتاب أو ذاك، في تلك النبرات التي كانت تسقب إلى قلبه فتملئه رضاً وبغطةً وسروراً.

وإنه لفي هذه السعادة المتصلة، وإذا صاحبه الدرعمي يقبل عليه ذات صباح مظلم الوجه والنفس والصوت، فينبئه بأن كتاباً قد وصل إليه من الجامعة تنبئه فيه بأن طلاب البعثة جمِيعاً يجب أن يعودوا إلى مصر، وأن يأخذوا إليها أول سفينة تاتح لهم بعد قراءة هذا الدعاء.

وقد سمع الفتى حديث صاحبه فأغرق في ذهول عميق، ثم أفاق بعد وقت لم يدرِ أقصر أم طال، وإذا هو يرى آماله العِذاب قد استحالَت في أقصر لحظة إلى آمال كذاب، ويرى حياته المشرقة الباسمة الحلوة قد أصبحت ظلمة عابسة مرّة مضّة. ولكنه على ذلك لم يستسلم للإيأس، وإنما أخذ يتعلّق بالوهم، فيبرق إلى من كان يعرف من الصديق القادرين على أن يسعوا له في الخير عند الجامعة أو عند السلطان، ويبرق إلى القصر، وينتظر ما يعود به البرق عليه، وإذا البرق لا يعود عليه إلا بالإلحاح في الدعاء أن يعود إلى مصر في غير إبطاء.

## الفصل الحادى عشر

ويرى الفتى نفسه ذات يوم من شهر سبتمبر يسعى مع رفيقه الدرعمي إلى السفينة، وكلاهما محزون كاسف البال، كأنه لا يسعى للعودة إلى الوطن، وإنما يساق إلى الموت.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثاني عشر

### الصوت العذب

وكانت أيام السفينة الستة طوالاً ثقلاً قد ألقى عليها الحزن غشاءً شاحباً بغيضاً. فلم يجد الصاحبان فيها للذلة السفر وراحته طعمًا، وإنما كان الهمُ يصيّبهمَا ويسمِّيهما، وكانت خيبة الأمل حديثهما في النهار حين يلتقيان، وحديث نفسيهما في الليل حين يفترقان. وما لهما لا يشقيان بهذه العودة المفاجئة، وأحدهما قد أتفق في باريس أعواماً طوالاً ثم لم يتحقق من آماله شيئاً، وإنما همَّ ولم يفعل، فتعلم الفرنسية واختلف إلى الدروس، وأخذ يتتهيأً لإعداد رسالته التي ينال بها درجة الدكتوراه، وإذا الحرب ترددَ عن ذلك رداً، فإذا عاد إلى فرنسا واستأنف ما كان فيه من استعداد للرسالة والامتحان ردَّته الأزمة المالية التي أدركت الجامعة إلى وطنه خائباً فارغ اليدين لم يصنع شيئاً ولم يظفر بشيء.

ولو قد التمس لنفسه عملاً حين تخرج في دار العلوم ولم يتكلف ما تكلف من السفر والغربة، لكن في ذلك الوقت معلمًا في هذه المدرسة أو تلك من مدارس الدولة، ولكنه يرى نفسه ضائعاً لا يكاد يدنو من الغاية حتى يصد عنها صدًا، تصدِّه الحرب مرة، وتتصدِّده الأزمة المالية مرة أخرى، وهو يعود إلى مصر ليعيش فيها فارغاً لا يدري ماذا يعمل، ولا يعرف كيف يكسب القوت؟

وأما الآخر فقد جدَّ وكَدَّ واحتمل المشقة والعناء، وداعب الأحلام والأمال، حتى إذا أشرف على البعثة ولم يكن يقدر أنه سيشرف عليها رداً عنها إعلان الحرب، فعاش أشهرًا عياً على أبيه وأخيه وذاق مرارة الحياة التي لا تغنى عنه وعن غيره شيئاً، ثم

أتيحت له البعثة فأقبل على عمله مغبظاً سعيّداً يكاد يخرجه النشاط من إهابه. وقد حاول من أمور الدرس ما أتيح له فيه كثير من التوفيق، حتى ظن أنه بالغ ما يريده، ثم عرض له في أثناء إقامته في فرنسا ما أحيا في نفسه آمالاً لم تكن تخطر له ببال؛ فهو قد عرف أنه يستطيع أن يكون كغيره من الناس، بل خيراً من كثير من الناس، يحيا حياة فيها رضاً وغبطة، وفيها نعمة وبهجة، وفيها سكون إلى هذه الرحمة التي كان قد استيأس منها والتي كان أبو العلاء قد ألقى في روعه أنه لن يذوقها ما عاش، وإنما الأيام تدنيه منها أو تدنىها منه.

وإنه لفي حياته تلك الراضية الناعمة على ما كان فيها من خشونة وعسر، وإذا الجامعة تدعوه إلى مصر ليعود إليها كما خرج منها، كأنه لم يداعب الأمل إلا ليتجزّع مرارة اليأس كأبغض ما تكون مذاقاً.

وهو قد عرف التبطل والفراغ في أشهره تلك التي قضتها في مصر، بعد أن أعلنت الحرب، وهو يعود ليلاقي التبطل والفراغ مرة أخرى في مصر.

أفْ لهم من رفيقين بغيضين! ولقد كان يقطع الأمد بين مونبليليه ومارسيليا أثناء ليلته تلك الثقيلة وليس في نفسه إلا شيء واحد، هو هذا الصوت العذب الذي طالماقرأ عليه آيات الأدب الفرنسي، وهو الآن يناجيه في حزن أليم ... وإن ذلن نلتقي بعد أن ينقضي الصيف!

وقد صحبه هذا الصوت أيام السفينة يناجيه مناجاة اليأس مرة، ومناجاة الأمل مرة أخرى، يشفق عليه من الأحداث، ويمنيه الانتصار والخروج منها. ويتحدث إليه بأنها الغمرات ثم ينجلين، وبأن لكل أزمة غاية، وبعد كل حرج فرجاً، وهو مضطرب بين هذه الابتسamas المضيئة الخاطفة التي لا تكاد تعرض له حتى تصرف عنه، وهذا الحزن الجاثم المقيم الذي لا يفارقه إلا ريثما يعود إليه!

وتبلغ السفينة ثغر الإسكندرية، وإذا الوطن زاهد في هذين الصاحبين البائسين، لا يريد أن يلقاءهما ولا أن يضمهمما بين ذراعيه؛ فقد كانت الحرب قائمة، وكانت قيودها شداداً ثقلاً، وكان أمر مصر إلى غير أهلها، وكان أمر الثغور خاصةً ضيقاً حرجاً، قد فرضت عليه رقابة أيُّ رقابة، فلا تكاد السفينة تستقر في مرساها، ولا يكاد الصاحبان يحاولان الهبوط بها، حتى يرداً عن ذلك رداً شديداً، فلم يكن يكفي أن يصل المصري إلى وطنه ليدخله، وإنما كان يجب أن ينتظر ويطول انتظاره حتى يؤذن له بالدخول.

وقد انتظر الصاحبان حتى تستأنن السلطة في السماح لهم بترك السفينة والنزول إلى أرض الوطن، وأبرقا إلى الجامعة وإلى من يعرفان من الصديق يتجلسان هذا الإذن.

## الفصل الثاني عشر

ولكن الأمور لم تكن تجري في يسر وإسماح، وإنما يقiman في السفينة يوماً ويوماً، وصنع الله لها في هذين اليومين أن كانا فيما مضطربين أشد الاضطراب، يريدان أن تفتح لهما أبواب الوطن، ويتمنيان في أعماق ضمائهما أن تظل مغلقة، وأن تعود بهما السفينة إلى مارسيليا.

ولكن ماذا يصنعان في مارسيليا؟

وكيف يعيشان في فرنسا؟

بل كيف يعيشان في السفينة نفسها في أثناء عودتهما إلى مارسيليا؟ ومن لهما بثمن هذه العودة؟

ولكن أبواب الوطن تفتح لهما بعد لايٍ، والوطن يتلقاهم كئيباً، فيضيف إلى حزنها حزناً وإلى شقاءها شقاء.

وقد أقام صاحبنا في القاهرة قريباً من ثلاثة أشهر لا يعرف أنه شقي في حياته كلها كما شقي فيها، ولا أنه سعد في حياته كلها كما سعد فيها. ولكن شقاءه كان طويلاً ملحاً، وسعادته كانت سريعة خاطفة. كان يشقى بالتبطل والفراغ والبؤس، وكان يسعد بذلك الصوت العذب الذي كان يناجيه بين حين وحين، وربما أيقظه من نومه مفزعًا، مسروراً مع ذلك بهذا الفزع. وكان يسعد بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه بين حين وحين فيها كثير من الأمل المشفق، وكثير من التشجيع على احتمال النائبات، وربما اشتملت بعض هذه الرسائل على زهرة قد جفت وأرسلت إليه ليحملها كما تحمل التمام ولتنذرها إن عرض له النسيان — وشهد الله ما عرض له النسيان قط.

في هذه الأشهر الثلاثة شكا الفتى كما لم يشكْ قط في حياته، شكا شعراً ونثراً حتى لامه في ذلك بعض الصديق، وقال له قائلهم: أين الصبر؟ وأين الإجمال؟ وأين الشجاعة والاحتمال؟ وأين ذهب عنك الحياة حتى كتبت في بعض الصحف هذين البيتين:

الحمدُ لله على أنني قد صرُّت من دهري إلى شرٌّ حال  
لا أملكُ القوتَ ولا أبتغي ما فاتني منه بُذلُّ السؤال

وقال له قائلهم أيضاً: املك عليك نفسك، فإنك إن تكون تشكو الزمان إلى الزمان فهو لن يسمع لك؛ لأن الزمان أصم غبي غافل ذاته، لا يعرف بنية ولا يسمع لهم، وإن كنت تشكو الزمان إلى الناس، فالناس مشغولون عنك بأنفسهم، وهم بين رجلين: عاطف

عليك، ولكنه لا يقدر لك على شيء، وقادر على معونتك، ولكنه لا يحفل بك ولا يلقي إليك بالا، ولو قد أهدى إليك العون لما قبلته منه، فما أرى أنك ترضى لنفسك هذا الهوان.

ولكن صاحبنا لم يقلع عن شركاته؛ لأنه لم يكن يشكو الزمان إلى الزمان، ولا يشكوا الزمان إلى الناس، ولا ينتظر من الزمان ولا من الناس شيئاً، وإنما كانت الشكوى غناء نفسه المحزونة وباله الكثيب.

في تلك الأيام كان عبد الحميد حمدي رحمة الله يصدر جريدة «السفور» في كل أسبوع، ويطلب إليه وإلى غيره من الصديق أن يعينوه بالكتابة فيها، فكان صاحبنا يرسل إليه حديث نفسه ذلك المرا.

وكان يتربّد على الجامعة ويسمع بعض دروسها، فسمع ذات يوم درس الأستاذ المهي رحمة الله، وكان له مع الأستاذ تلك الخطوب التي رويت في حديث مضى، والتي كانت تفصله من بعثة الجامعة لولا أن أعضاء مجلس الإدارة كانوا أفقه وأذكي من أن يستجيبوا للأستاذ رحمة الله.

وفي تلك الأيام طلب عبد الحميد حمدي إلى الفتى أن ينشر كتابه عن أبي العلاء، فاستجاب الفتى لذلك سعيداً محبوراً. وجد في ذلك تسلية لبعض همه، وشغلأ لبعض وقته، وإرضاء لغوره الذي كان في حاجة إلى بعض الرضا، بعد أن أسرفت الأيام في القسوة عليه، وأي رضا لغور أعجب إليه وأشار في نفسه من أن يظهر له كتاب في أيامه تلك الشداد؟

وقد نشر الكتاب، ولكن صاحبنا لم يُقْدِ من نشره مالاً قليلاً أو كثيراً، ولم يفده منه رضا قليلاً أو كثيراً، فقد أُجْلِ عن هذا كله، دعاه علوى باشا ذات يوم، وأنباءً — في رفق به وعطف عليه لم ينسهما قط — أن أزمة الجامعة قد انفرجت، وأن عليه أن يتأنب للسفر، فسيبحـر مع صاحبه الدرعمي وغيره من أعضاء البعثة بعد أيام.

ثم أنبأته الجامعة بعد ذلك بأنه سيترشـف مع زملائه أعضاء البعثة بلقاء السلطان حسين كامل.

وقد أتيح لهم هذا اللقاء في ضحيـي يوم من الأيام، ذهبوا إلى القصر يقودهم علوى باشا، وأدخلوا على السلطان، فلقيـهم لقاءً حسـناً، وألقـى على الفتى سؤـلاً لم يـعرفـ كيف يرد عليه.

سؤالـهـ: من أولـ من رفعـ شأنـ التعليمـ فيـ مصرـ؟  
فوجـأـ الفتـىـ وـلمـ يـرـجـعـ جـوابـاـ.

قال السلطان وهو يضرب على كتفه وينطق في لهجة تركية: جنة مكان إسماعيل باشا.

ثم صرف الرفاق، ولم يكادوا يخرجون من غرفة الاستقبال حتى أنبأهم منبئ بأن السلطان قد تفضل وأجاز كلَّ واحد منهم بخمسين جنيهاً.

وخلص الرفاق بعد أن خرجوا من القصر نجياً؛ فقرروا أن يهدوا جوازتهم إلى الجامعة معونة لها واعتراضًا ببعض ما قدمت إليهم من جميل، وكانوا بهذا القرار سعداء حقاً كأنما أهدوا إلى أنفسهم خيراً عظيماً ومعروفاً جزيلاً.

وهم يسعون إلى علوى باشا رحمة الله ليرفعوا إليه قرارهم ذاك، منتظرين أن يسمعوا منه رضا عنهم وثناءً عليهم وتشجيعاً لهم على أن يكونوا أخياراً، ولكن علوى باشا يلقاهم ويسمع منهم، ثم يغرق في ضحك متصلٍ، ثم يقول لهم: ما هذا الكلام الفارغ؟! خذوا أموالكم وادهبا، فاعثروا بها في باريس أيها الحمقى! فمن حكمكم أن ترُفِّهوا عن أنفسكم أيامًا بعدهما لقيتم في هذه الأشهر من عناء طويل ثقيل!

ثم يسكت حيناً ثم يقول: فإذا أصبحتم أغنياء فاستأنفوا ما أقدمتم عليه من خير، وما أراكם تفعلون يومئذ، فستعرفون قدر المال.

وانصرف الرفاق عن علوى باشا لا يعرفون أكانوا راضين؛ لأنَّه قد حفظ عليهم أموالهم لينفقوها في باريس؟ أم كانوا ساخطين لأنَّه لم يقبل منهم تبرعهم ذاك الذي أقدموا عليه مخلصين؟

ويقدِّر الرفاق صباح يوم إلى الجامعة ليأخذوا منها تذاكر السفر، ولكن صاحبنا يسمع ما يُؤذيه أشدَّ الأذى وأمْضه.

فقد أبَت شركة السياحة أن تصرف له تذكرة السفر إلا بإذن خاص من المفوضية الإيطالية، فقد كان الرفاق سينزلون في نابولي، وكانت الشركة تخشى ألا يؤذن لصاحبنا بالنزول في إيطاليا لأنَّه ضرير ولا يحسن السعي في اكتساب الرزق.

وظن الفتى، وفي قلبه حزن أي حزن ولوَعَة أي لوَعَة، أنه سيُرِد عن السفر مرة ثالثة، ولكن الأستاذ لطفي السيد والأمير أحمد فؤاد ييسران له سفره، ويصبح من غير فيركب القطار إلى بورسعيد، ويصعد إلى سفينة هولندية تعبر به البحر إلى نابولي.

وما أعظم الفرق بين سفره هذا إلى نابولي وعودته تلك إلى الإسكندرية! كان لا يملك نفسه من الفرح والفرح والسرور، وكان كل شيء يضحكه ويغيره بالبهجة والاغبطة حتى حين أقبل الخادم عليه وعلى صاحبه الدرعمي بعد أن تقدم الليل قليلاً فقال لهم:



إذا سمعتما الجرس فأسرعوا إلى اتخاذ منطقة النجاة ثم أسرعوا إلى الزورق المخصص لكما.

قال الدرعمي: وفيم هذا كله؟

قال الخادم: فإنك تعلم أن الحرب قائمة، وأننا لا نأمن من أن تعرض لنا في الطريق إحدى الغواصات، ثم انصرف.

وأخذ صاحبنا الدرعمي يُعْوِل شاكِيًّا باكِيًّا ذاكِرًا أمه التي لن يراها ولن تراه، والفتى معرق في ضحٍ لا يكاد ينقضي.

ولم تعرض للسفينة غواصة، ولم يلق المسافرون كيدًا، وإنما بلغوا مدينة نابولي ذات صباح؛ ولم يكادوا يطئون الأرض الإيطالية حتى ألح صاحبنا على صديقه الدرعمي في الإسراع إلى مكتب البريد.

## الفصل الثاني عشر

وهناك وجد رسالتين كانتا تنتظرانه من باريس، فقرأهما عليه صديقه مرة ومرة،  
فلما طلب منه قراءتهما للمرة الثالثة، قال له منكراً: إليك عني، فإن في مدينة نابولي ما  
هو أنفع لنا وأجدى علينا من تردید هذا الكلام الذي حفظناه عن ظهر قلب!  
 وأنفقا في نابولي يوماً سعيداً، حتى إذا كان الليل، ركبا القطار إلى باريس.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثالث عشر

في الحي اللاتيني

وكان صاحبنا مقسّمَ النّفس بين السّعادة المشرقة والشّقاء المظلم في أثناء سفره هذا الطويل منذ ترك القاهرة إلى أن بلغ باريس.

كان سعيداً لأن الغمرة قد انجلت عنه، فاتصل من إقامته في فرنسا ما انقطع، وأنذ الله له في أن يتم ما بدأ من الدرس، ويحاول تحقيق ما كان يداعب من الآمال، ويسعى من جديد ذلك الصوت العذب يقرأ عليه روائع الأدب الفرنسي وأوليات التاريخ اليوناني الروماني، ويعينه على درس اللاتينية.

وليس هذا كله بالشيء القليل، وبعض هذا كان جديراً أن يُنسيه كل ما لقي من جهد، وكل ما احتمل من عناء، ولكنه كان يحمل في نفسه ينبوعاً من ينابيع الشّقاء لا سبيل إلى أن يغيب أو ينضب إلا يوم يغيب ينبوع حياته نفسها؛ وهو هذه الأفة التي امتحن بها في أول الصبا، شقّي بها صبياً، وشقّي بها في أول الشباب. وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلّى عنها، بل أتاحت له أن يقهرها ويقهر ما أثارت أمامه من المصاعب وأنشأت له من المشكلات، ولكنها كانت تأبى إلا أن تُظهر له بين حين وحين أنها أقوى منه، وأمضى من عزمه، وأصعب مراراً من كل ما يفتقد له ذكاوه من حيلة. والغريب من أمره وأمرها أنها كانت تؤديه في دخلية نفسه وأعمق ضميره. كانت تؤديه سراً ولا تجاهره بالخصوصة والكيد، لم تكن تمنعه من المضي في الدرس، ولا من التقدم في التحصيل، ولا من النجاح في الامتحان حين يعرض له الامتحان، وإنما كانت أشبه شيء بالشيطان الماكر المسرف في الدهاء الذي يمكن للإنسان في بعض الأحيان

والاثناء بين وقت ووقت، ويختلي له الطريق يمضي فيها أمامه قدماً، لا يلوي على شيء. ثم يخرج له فجأة من مكمنه ذاك هنا أو هناك، فيصيّبه ببعض الأذى، ويُثْنِي عنه كأنه لم يعرض له بمكره بعد أن يكون قد أصاب من قلبه موضع الحس الدقيق والشعور الريقي، وفتح له باباً من أبواب العذاب الخفي الآليم.

كان حين ركب السفينة لأول مرة وخرج من زيه ذاك الأزهري ودخل في زيه الأوروبي الجديد قد نسي شيئاً واحداً لم يحسب له حساباً لأنه لم يكن يخطر له ببال، نسي بصره ذاك المكفوف، وأجهانه تلك التي كانت تتفتح ولكن على الظلمة المظلمة.

وكان قدقرأ فيماقرأ من أحاديث أبي العلاء أنه كان يقول: إن العمى عورة. وفهم هذا كما فهمه أبو العلاء نفسه. فكان يتحرّج في كثير من الأشياء أمام المصريين، وكان يستخفّي بطعامه وشرابه كما كان يستخفّي بهما أبو العلاء حتى لا يظهر المبصرون منه على ما يتثير الإشفاق والرثاء، أو السخرية.

ولم يخطر له قط أن الحياة الحديثة تفرض عليه أن يستر أجهانه تلك التي لا تغنى عنه شيئاً سترًا ماديًّا. وقد أنفق أيامه في السفينة الأولى على هذا النحو، ولكنه لم يلق كيداً، لأنه لبث تلك الأيام قابعًا في غرفته لا يتجاوز بابها مهما تكن الظروف، إلا أن يضطر إلى ذلك اضطراراً، فكان لا يخرج في تلك الحال إلا حين يتقدّم الليل.

فلما بلغ مارسيليا نَبَّهَه رفاته في تلطُّفٍ أي تلطُّفٍ أن تقاليد الفرنسيين تقضي على مثله أن يضع على أجهانه تلك غطاء من زجاج أسود، واشتروا له غطاء من تلك الأغطية الزجاجية السود التي يتنقّي بها المبصرون ضوء الشمس، ولم يؤذه تنبيه الرفاق له إلى ذلك وإنما رأى فيه تجديداً، وارتاح إليه بعض الارتياح، وكاد يُعْفَى من الشقاء بعينيه المظلمتين، ثم لم يفكّر في شيء من أمرهما ولا من غطائهما ذاك الأسود حتى عاد إلى مصر. وفي مصر لقيه أكبر إخوته رحمه الله، وكان مطربشاً ميلاً إلى الترف على ضيق ذات يده وضائلة مرتبه، فلما رأه أنكر غطاء عينيه وقال: إنه رخيص حقير لا يليق بمثلك. قال الفتى: وما على أن يكون رخيصاً أو حقيراً، فما ينبغي لمثلي أن يَذَّمَّنَ بمثل هذا الغطاء.

قال أخوه: ولكن غطاءك هذا لا يزيد ثمنه على قرشين اثنين، وأننا مُهِدٌ إليك خيراً منه؛ أستر لعيينيك وأليق بمكانتك بين الذين تلقاهم من الرفاق والصديق، وبين الذين تزورهم من أصحاب المكانة الظاهرة في مصر.

ثم أهدى إليه غطاء ذهبياً، وعزم عليه ليتخذه مكان ذلك الغطاء الرخيص الحقير.

واستجاب الفتى لأخيه شاكرًا رفقه به وعطفه عليه، وأقام في مصر ما أقام يحمل على أنفه وأذنيه ذلك الغطاء الذهبي الذي لم يكن رخيصًا ولا حقيرًا. ولكن عودته إلى أوروبا تتقرر ويغدو على الجامعة ذات يوم فيقرأ عليه كتابان، ثم يروح إلى منزله فيقرأ عليه كتاب ثالث، كان قد حمله البريد صباح ذلك اليوم، وتملاً هذه الكتب الثلاثة قلب صاحبنا غمًا وهمًا وبغضًا للحياة وضيقًا من الناس، وتلقي على نفسه ووجهه غشاء صفيقاً من الكآبة ينكره الرفاق.

وينكره علوى باشا رحمة الله حين يراه وهو يركب القطار، ويرى على وجهه هذا الغشاء الكثيف، فيهمس في أذنه: مالي أراك محزوناً كئيباً، وقد كنت أقدر أن أراك اليوم أشد ما تكون ابتهاجاً وإشراقاً، ألا يسرُك أن تعود إلى فرنسا؟  
ولم يجب الفتى، ولكن دمعتين تحدران على خديه.

وإذا علوى باشا يضممه إليه، ويُقبل جبهته قبلة مؤها الحنان والبر لم ينسها قط. ثم يهمس في أذنه: أقسم لك يا بُني ما عاد صديقك هذا — يزيد الدرعمي — إلى فرنسا إلا من أجلك ... ثق بالله ولا تخف شيئاً!

ويمضي القطار وقد سكت البكاء عن الفتى، ولكن هذه الكتب الثلاثة لم تسكت عنه، وإنما رافقته في أثناء سفره كله ملحةً عليه بالعذاب، حتى ل كانت جديرة أن تبغض إليه نفسه لو لا ذلك الصوت العذب كان ينادييه بين حين وحين، فيردد إلى نفسه المروعة شيئاً من أمن، وإلى قلبه اليائس شيئاً من أمل.

كان أول هذه الكتب الثلاثة من علوى باشا إلى أكبر إخوته ذاك المطربش ينبيه فيه بأن الظروف المالية للجامعة قد فرضت عليها أن تردد بعثتها إلى مصر كارهةً، وأنه حريص أشد الحرص على أن يتم أخوه درسه؛ لأنه يتوصّم فيه خيراً، ويكره أن يعود قبل أن يحقق أمله من السفر إلى فرنسا، ويقترح عليه أن ترسل الأسرة نصف المرتب الذي كانت الجامعة تمنحه للفتى، ويترعرع هو بالنصف الآخر حتى يبلغ الفتى أربه، ويعود وقد ظفر بالدرجات الجامعية الفرنسية، ويصبح أستاذًا في الجامعة.

وكان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً ورضاً وشكراً لعلوي باشا، ذلك الذي كان الناس يكترون الحديث عن حرصه على المال وإشفاقه من إنفاقه في غير موضعه، وهو يتبرع بمقدار من المال في كل شهر ليعين هذا الفتى المكافف على أن يبلغ من الدرس في أوروبا ما كان يربى.

نعم، كان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً وبشرًا وشكراً لذلك الرجل الكريم النبيل، ولكن ردّ أخيه على هذا الكتاب محا من قلبه كل سرور وكل بشر، وإن

لم يمح منه الشكر الدائم والاعتراف بالفضل والجميل لذلك الرجل الكريم. كان رد أخيه بشّعاً حقاً؛ كان يشكر فيه للباشا فضله وكرمه، ويعتذر فيه عن الأسرة بأنها فقيرة لا تستطيع أن تستجيب لما تُرِد عليه، فمرتبه هو ضئيل لا يبلغ العشرين جنيهاً، وله بنون ينفق عليهم. ووالده شيخ يعمل على تقدُّم سنّه، ويتقاضى مرتبًا لا يزيد على مرتبه هو إلا قليلاً، وله بنون آخرون ينفق على تعليمهم في المدارس، وكم كانت الأسرة تتمنى أن تعين هذا المسكين على أن يتم درسه لو وجدت إلى ذلك سبيلاً! وهي تطلب إلى الباشا أن يستعين بالسلطان على تعليم هذا البايس، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً فليردّه إلى مصر ولسيتحقّ رعايته له وعطفه عليه.

وذلك رأى الفتى رجلاً غريباً مستعداً للقيام ببعض نفقته في أوروبا، وأخاً قريباً كارهاً لبعض ما يطلب إليه من ذلك. والغريب أنه لم يتبَّع بأمر هذا التبرع من علوي باشا أباه ولا أخيه الشيخ، وإنما كتم القصة عن الأسرة كلها، وكان له رحمة الله عزره في هذا الكتمان؛ فقد كان أبوه يرسل إليه بين حين وحين جنيهاتٍ تبلغ العشرة مرة، وتزيد عليها مرة أخرى، ويكلّفه أن يرسلها إلى أخيه في أوروبا معونةً لها على الحياة، فكان يتلقّى هذه الجنيهات، فإذا استقرّت في يده لم يسهل عليه إرسالها إلى أوروبا، وإنما أنفقها في بعض شأنه هو.

أما الكتاب الثالث: فكان من أكبر إخوته ذاك يوْدُّه ويتمّنّى له النّجاح والتوفيق، ويسترد غطاء عينيه الذهبي؛ لأنّه كان شديد الحاجة إليه.

وما أيسر ما ردّ الفتى ذلك الغطاء الذهبي، وعاد إلى غطائه ذاك الرخيص الحقير الذي لم يكن ثمنه يزيد على قرشين اثنين. ولكن كتاب أخيه في أمر ذلك الغطاء قد أضاف إلى حزنه حزناً، وإلى ألمه ألمًا. وعاد إلى فرنسا سعيداً محبوّراً، ولكنه مع ذلك كان مزوّداً بمقدار من الشقاء غير قليل.

ولم ينس صاحبنا قط أنه أجلس في مكانه من القطار حين بلغ روما وقد انتصف الليل، فلم يربح مكانه ذاك إلى جانب النافذة إلا حين بلغ القطار باريس بعد ثلاثة ساعات كاملة لم يتحرك، وإنما كان أشبه بمتاع قد أُلقي في ذلك الموضع، وانتظر حتى يبلغ القطار غايته لينقل إلى موضع آخر. لم يتحرك، وكان أشبه شيء بالمتاع، ولكنه كان متاعاً مفكراً، يفكّر مرة فيما حفظ من قول أبي العلاء: إن العمي عورة، وقد فهمه الآن على وجهه وهو يرفع يده بين حين وحين ليتحقق من أن ذلك الغطاء الرخيص الحقير ما زال يسّتر عينيه اللتين كان يجب أن تسترها.

ويفكر مرة أخرى في الفقر والغنى، وفي الذين لا يعرفون كيف ينفقون ما يتاح لهم من المال، فيكتسونه أكاسًا أو ينتزونه نثرًا فيما لا يجدي عليهم ولا على غيرهم شيئاً. والذين لا يجدون ما ينفقون ليقيموا أودهم ويستروا جسمهم ويستروا عورة العمى حين تفرض عليهم آفته. وفي الذين تسمو همهم إلى أكثر من إقامة الأود وستر الجسم وتغطية العينين المظلمتين إلى الاغتراب في طلب العلم، ثم لا يجدون أيسر ما يحتاجون إليه في ذلك؛ يدخل عليهم القادرون ويدخل عليهم الأقربون، وبهم بالإحسان إليهم بعض الأخيار فيرددون عن ذلك رداً.

ويفكر مرة ثالثة في ذلك الصوت العذب الذي كان ربما ألمًّ به بين حين وحين مواسياً له متوفقاً به، قارئاً عليه هذا الفصل أو ذاك من هذا الكتاب الفرنسي أو ذاك، منبئاً له بين ذلك بأنه ينتظره في باريس ليقرأ عليه، وما أكثر ما سيقرأ عليه! لبث في مكانه ذاك لم يبرحه ثلاثين ساعة كاملة، يعرض الرفاق عليه الطعام حين يأتي موعده فيرده في رفقٍ ولكن في تصميم، ويعرض عليه الرفاق الشراب بين وقت ووقت فيرده في رفق وفي تصميم أيضاً. ويريد الرفاق أن يراجعوه في ذلك فيجدون منه إعراضًا وصمتاً، حتى ظنوا به الظلون، وحتى يقول له رفيقه الدرعمي: ما رأيت كالاليوم رجلًا لا يخاف البحر على هوله وعلى ما كان يُذكر من أمر الغواصات، فإذا ركب القطار امتلأ قلبه رعباً ورغبة حتى عن الطعام والشراب. أشجاعة حين كان يستحب الجن، وجبن حين يصبح الجبان مثيراً للهزء والسخرية؟ ما الذي تخاف من القطار؟ إن قطار أوروبا كقطار مصر لا فرق بينهما، ألم تأكل قط حين ركبت القطار في مصر؟ ثم ينصرف عن هذا الحديث إلى غنائه ذاك الذي كان يتغنى به أمام بعض الفتيات الفرنسيات، فيرضي عنده أشد الرضا، ويُعجب به أشد الإعجاب، ولا يُقينيه إلا تمنيَّن عليه أن يعيد عليهن غناءه ذاك، وكأنَّ يسميه «أعرابي»، فيقلن له في إلحاد: غنْ لنا «أعرابي»! يلغين العين ويبلغن بالراء ويقصرن الألف وبين الباء، ويرتاح صاحبنا إلى إلحادهن فيندفع في غنائه على نحو ما يصنع بعض المنشدين في الأذكار:

يارب صل على الهادي  
أعرابي جاء إلى الهادي  
واغفر ما أنت به أعلم  
معه ضب لا يتكلّم

يقع هذا الغناء على نغم مرقص، وكان الفتى لا يسمعه إلا أغرق في ضحك متصل، وكان ربما تمنى عليه بين حين وحين أن يغنى له أعرابي، ينطقها كما ينطق بها الفتيات

الفرنسيات. ولكنه في ذلك القطار لم ينشط حتى لهذا الغناء، واستيأس منه صديقه الدرعمي، فخلَّ بينه وبين ما أحب من السكون والصمت. وأعرض عنه كما كان يعرض عن متابعه، يرمقه بين حين وحين ليأمن عليه من السرقة والضياع، ولكنه لا يتحدث إليه ولا يعرض عليه شيئاً حتى إذا بلغ القطار باريس في أول الضحى أقبل على الفتى متضاخغاً وهو يقول: ستنقل المتاع الصامت الهامد أولاً، ثم ننقل المتاع الحي الناطق بعد ذلك!

وأسلم الأمة إلى الحمَالين ثم أقبل على الفتى كأنه يريد أن يحمله، ولكن الفتى نهض ومضى معه كأنه لم يسكن ثلاثين ساعة كاملة.

وبعد قليل كان الفتى في غرفة جميلة رائعة بفندق من فنادق الحي اللاتيني، ولم يك يستقر في غرفته حتى أصلح من شأنه، وتهيأ لاستقبال شخص طالما نازعه نفسه إلى لقائه منذ شهور، وطالما أشفع من لا يلقاء أبداً.

ويطرق الباب طرقة رفيقاً في آخر الضحى، فإذا أذن بالدخول دخل عليه شخصان لم يك يسمع صوت أحدهما حتى انجل عن حزنه، وانجذب عنه يأسه، وانصرف عنه الهم، كأنه يستأنف حياة جديدة لم يحيها من قبل، ولم لا؟ لقد بدأ منذ ذلك اليوم حياة ليس بينها وبين حياته الأولى سبب أو صلة.

## الفصل الرابع عشر

### قصة حب

كانت حياة الفتى في باريس حلوة مرّة ويسيرة عسيرة، لم يعرف فيها سعّةً ولا دعّةً، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضا الضمير ما لم يعرفه من قبل وما لم ينسه قط. كانت حياته المادية شاقة، ولكنه احتمل مشقتها في شجاعة ورضاً وسماح. لم يكن مرتبه يتراوح ثلثمائة من الفرنكـات، كان يدفع ثلثيه في اليوم الأول أو الثاني من كل شهر؛ ثمناً لسكنه وطعامه وشرابه. وكان يدفع نصف الثلث الذي كان يبقى له أجراً لسيدة كانت تصحبه إلى السوربون مصباً وممسيّاً؛ ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذي كان قد رتّب له ساعاتٍ بعيتها في النهار؛ ليقرأ له فيها روائع الأدب الفرنسي. وكان يستيقى فضل مرتبه بعد ذلك؛ لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية. فأما أمر كسوته فقد تركه إلى الله لأن مرتبه لم يكن يتسع له.

وأنفق السنة الأولى من حياته في باريس لا يخرج من بيته إلا إلى السوربون، فكان سجينًا أو كالسجنـين. لم يذكر قط أنه خرج من باريس إلى ضاحية من ضواحيها في أيام الراحة التي كان رفاقه ينفقون فيها أيام الآحاد. ولم يذكر قط أنه اختلف إلى قهوة من قهوات الحي اللاتيني التي كان رفاقه الجادون يلمون بها بين حين وحين. وكان أكثر الطلاب المصريـين يختلفون إليها أكثر مما كانوا يختلفون إلى الجامعة. وإنما كان يلزم بيته في أيام الراحة لا يُفارقه، وربما خلا إلى نفسه اليوم كله في غرفته، إلا أن يلمَّ به ذلك الصوت العذب فيقضي معه ساعة من نهار.

وكان يسمع أبناء المسارح ومعاهد الموسيقى والالهو، وكانت نفسه ربما نازعته إلى بعض هذه المسارح ليسمع هذه القصمة أو تلك، ولكنه كان يردد نفسه في يسر إلى القناعة والرضا. وكيف السبيل إلى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده إلى حيث يريد، ولا يستطيع أن يدعوه غيره إلى مرافقته، ولا يريد أن يكفل غيره من الناس عناء مرافقته من جهة، وتحمّل ما تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة أخرى. ولم تكن ذكرى أبي العلاء تفارقه في لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يُشغل عنها بالاستماع إلى الدرس أو إلى القراءة، كان يذكر دائمًا قول أبي العلاء في آخر كتاب من كتبه أنه رجل مستطيع بغيره، وكان يرى نفسه مستطيعاً بغيره دائمًا، ويحمل في سبيل ذلك من غيره — هذا الذي يتاح له الاستطاعة — أولئك من المشقة وفنوناً من الأذى بدون أن ينكر منها شيئاً؛ فهو مكره على احتمالها إكراهاً، وهو مُخَيَّر بين أن يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعيونه على ما يريد أو يرفضه، فيضطر إلى العجز المطلق اضطراراً، ويضيع حياته في باريس؛ بل حياته كلها في باريس أو غير باريس. وكيف السبيل له إلى أن يذهب إلى السوربون ليسمع الدروس فيها إذا لم تُعنِه على ذلك هذه السيدة التي لم يكن من معونتها بدُّ، والتي كانت ترقق به أحياناً وتعنف به أحياناً أخرى؟ وربما صحبته من البيت إلى الجامعة بدون أن تُلقي إليه كلمة أو يسمع لها صوتاً، وإنما كانت تعطيه ذراعها وتمضي معه صامتة كأنما تجرّ متأعاً لا ينطق ولا يُفكّر، حتى إذا بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه، ومضت به إلى بيته، حتى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب، وهي تقول له في صوتٍ خاطفيٍّ: «إلى اللقاء في ساعة كذا من النهار».

وربما اعتذرَت هذه السيدة من مهمتها بعد أن تجد له سيدة أخرى تقوم مقامها، فكانت هذه السيدة الثانية ثرثارة تؤديه بحديثها المتصل أكثر مما كانت تلك تؤديه بصمتها الملأ.

على أن عجز الفتى لم يكن مقصوراً على ذهابه إلى الجامعة وعودته منها، وإنما كان عاماً شاملاً يمس الفتى في أشد الأشياء لزوماً له، فهو كان يستحي من كل شيء ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والإشراق عليه. وكان شرطه حين سكن في البيت الذي أقام فيه ألا يشارك أهله في طعامهم، وإنما يخلو إلى طعامه الذي يحب أن يُحمل إليه في غرفته حين يأتي وقته، فكان الطعام يحمل إليه ويوضع بين يديه ثم يخلو بينه

وبينه فيصيّب منه ما يستطع لا ما يريد، يحسن ذلك أحياناً ويخطئه أحياناً أخرى. وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثراً العافية، محتملاً في سبيلها ما قد يتعرض له أحياناً من ألم الجوع.

وظل الفتى على هذه الحال أشهرًا، ولكن الله رفق به بعد ذلك فأتاح له من كان يهيء له طعامه ويعمله كيف يرضي منه حاجته.

واتخذ الفتى زياريًّا الأوروبيين، وما أسرع ما تعلّم الدخول فيه والخروج منه، إلا شيئاً واحداً لم يحسنه أعواماً طوالاً، وهو هذا الرباط السخيف الذي يديره الناس حول أنفاسهم ثم يعودونه بعد ذلك من أيام عقدة يتأنقون فيها قليلاً أو كثيراً! لم يفتح الله على صاحبنا بتعلم هذا الجزء من زيارته، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معاً في مونبلية.

فلما افترقا حار الفتى في أمره، ولكن صديقه الدرعمي أخرجه من هذه الحيرة، واحتوى له أربطة مهيأة لا تحتاج إلى عناء، وإنما تدار حول العنق في يسر ويجمع بين طرفيها في يسرٍ أيضاً، وقد هيئت عقدتها فليس محتاجاً إلى أن يتتكلّف عقدها وتسويتها والتأنق القليل أو الكثير فيها. ولكنه كان مضطراً إلى لا يفكّر مطلقاً في الملامة بين هذه الأربطة وبين ما كان يتخذ من ثياب. وربما اتّخذ منها رباطاً واحداً يديره حول عنقه في كل يوم ويمضي على ذلك الأسابيع المتصلة. وربما لاحظ هذا الرفيق أو ذاك من رفاقه اختلافاً بين ثوبه ورباط عنقه. وربما أعنانه صديقه الدرعمي فتقدّم إليه في أن يغير هذا الرباط واختار له ما يلائم زيه مما كان عنده من هذا السخف الذي لم يفهم له معنىًّا قط.

وكذلك عاش الفتى عامه الأول أو أكثر هذا العام، مضطرباً في هذه الحياة المادية الخلخلة المعقدة من جميع نواحيها. وربما كان يجد بعض الألم في ذلك، ولكنه كان يمر به مرّاً سريعاً لا يقف عنده ولا يفكّر فيه إلا قليلاً. كان يعزّيه عن ذلك إقباله على الدرس، وإحساسه الانتفاع به والتقدّم فيه، وشعوره بأنه قد أخذ يفهم الفرنسيّة في غير مشقة ولا عسر، ويقرأ كتب التاريخ والأدب والفلسفة، فلا يجد في فهمها جهداً ولا عناء. قد انقطع لذلك انقطاعاً تاماً، فهان عليه منه ما كان صعباً، ويسّر له منه ما كان عسيراً. ولم تكن حياته العقلية أقلّ تعقيداً والتواء من حياته المادية، فلم يك يختلف إلى دروس التاريخ والأدب في السوربون حتى أحسَّ أنه لم يكن قد هب لها، وأنه لا يفهمها ولا يسيغها كما كان ينبغي أن تفهم وتساغ، وأن درسه الطويل في الأزهر وفي الجامعة لم يهيء للانتفاع بهذه الدروس.

وكانت آماله عِرَاضاً، فكان ينبغي أن يتخد إليها أسبابها. وأول هذه الأسباب أن يعذ نفسه لفهم الدروس التي تلقى في الجامعة، وسبيل هذا الإعداد أن يقرأ في أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الأعوام الطوال في درسه بمدارسهم الثانوية، فليس له بدُّ إذن من أن يكون تلميذاً ثانويًا إذا أوى إلى بيته، وطالباً جامعيًا إذا اختلف إلى دروس السوربون.

وما أسرع ما نظر في برنامج المدارس الثانوية الفرنسية، واستخلص منه ما يحتاج إليه، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة، وهذه الخلاصات الموجزة التي كانت تلقى إلى التلاميذ عن الآداب الأجنبية الأوروبية قديمها وحديثها.

قد أقبل على ذلك كله في عزم لا يعرف الضعف، وتصميم لا يعرف التردد ولا الفتور، واستطاع في وقت قصير أن يحصل من هذا كله ما يحصله التلميذ الذي كان يتقدم إلى الشهادة الثانوية مطمئناً إلى أن المتخذين لن يردوه عن هذه الشهادة خزياناً أسفًا.

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسيغها كما كان يفهمها ويسيغها زملاؤه الفرنسيون. واختار لنفسه أستاذًا من أساتذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليماً منظماً، فلم يكن يكفيه أن يفهم إذا سمع، وأن يفهم الناس عنه إذا تحدث إليهم، وإنما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عنمن يقرؤها.

وكان يقدر أن الأساتذة في السوربون، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب. فلم يكن له بدُّ إذن من أن يتهيأً لتحرير هذه الواجبات حين تطلب إليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء. وما أكثر ما كان الأساتذة يسخرون من طلابهم إذا كتبوا لهم الواجبات فقصروا في بعض نواحيها!

وكان الأساتذة يقرءون بعض هذه الواجبات، يختارون من بينها للقراءة أشدّها تعرضاً للنقد، ثم يأخذون في هذا النقد على نحو لاذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يحسنو العناية حين يكتبون. وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء وتخرجهم أحياناً عن أطوارهم.

فكرة الفتى أن يتعرّض لبعض هذه السخرية، ولكنه تعرّض ذات يوم لشُرّ منها؛ كلّه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية في فرنسا بعد سقوط نابليون. فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع في الكتب التي نبه إليها الأستاذ، وفكّر فيه كما استطاع أيضاً. ثم كتب عنه ما أتيح له أن

يكتب، وقدّمه إلى الأستاذ في اليوم الموعود. وجاء يوم النقد فاستعرض الأستاذ ما قدّم إليه من الواجبات ناقداً ساخراً متندراً موبخاً بعض الطلاب أحياناً، حتى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن ألقى إليه واجبه معقباً بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط: «سطحى لا يستحق النقد». وكان لهذه الكلمة وقوع لاذعٌ في نفس الفتى أمضه بقية يومه، وأقض مضجعه حين أقبل الليل، وأشاره بأنه لم يتنهياً بعد كما ينبغي ليكون طالباً في السوربون، فألحَّ في درس الفرنسية، وكاف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس، وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات حتى تتم له أداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسية.

وبينما كان الفتى يُمتحن بأتقال هذه الحياة المادية والعقلية العسيرة، مجاهداً ما استطاع الجهاد، مروعاً بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يتراه له من وقت إلى وقت فيشقيه ويضئيه، فُتح له باب من أبواب الأمل لم يكن يقدّر أنه سيفتح له في يوم من الأيام؛ ألمت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة، فأقبل يعودها وجلس يتحدث إليها، ثم لم يدرِّ كيف التوى به الحديث، ولكنه سمع نفسه يلقي إليها في صوتٍ أنكره هو قبل أن تذكره هي؛ أنه يحبها.

ثم سمعها تجبيه بأنها هي لا تحبه.

قال: وأيُّ بأس بذلك؟

إنه لا يريد صدىً ولا جواباً وإنما يحبها وحسب.

فلم تجبه، وغيَّرت مجرى الحديث، وانصرف عنها بعد ساعة، وقد استقرَّ في نفسه أن حياته ستسلك منذ ذلك اليوم طريقاً جديدة.

وليس من شكٍ في أن نفسه كانت قد تعلقت بذلك الصوت العذب ثم بصاحبته منذ وقت طويل ... وإلا فما جزعه حين اضطر إلى العودة إلى مصر؟ وما ابتهاجه بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه؟ وما شوقة العنيف إلى العودة إلى فرنسا ليسمع فيها ذلك الصوت؟ وما خروجه عن طوره حين وجد الرسالتين اللتين كانتا تنتظرانه في نابولي؟ وما إلحاحه على صاحبه الدرعمي في أن يقرأ عليه هاتين الرسالتين مرة ومرة حتى أملأه؟ ثم ما حرصه على أن يسمع هذا الصوت في باريس؟ وما نزوله في بيته ذاك الذي كان يسمع فيه هذا الصوت يتردد في كل ساعة من ساعات النهار، ويلقي فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها دون أن يتتكلف لذلك جهداً أو سعيًا أو انتظاراً؟ وما سعادته بأنه كان يقيم في هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذي كان يلقي عليه تحية

الصباح، حين يخرج من غرفته ذاهبًا إلى السوربون، ويلقي عليه تحية المساء حين يتقدم الليل ويأوي أهل البيت إلى مصالحهم، ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الأدب الفرنسي؟

ولكن حبه كان يستحي حتى من نفسه فينكرها، وكان الفتى يخفي شعوره ذاك في أبعد ما يمكن أن يستقر في أعماق ضميره، ويكره أن يتحدث به إلى نفسه، وقد استيقن أنه لم يخلق مثل هذا الشعور، وأن مثل هذا الشعور لم يُخلق له ... وأين هو من الحب؟ وأين الحب منه؟

إنما كتب عليه أن يعيش كما عاش مَثْلُه الأعلى ذلك الذي وقف حياته منذ قرون طوال في دار من دور المعرفة على الدرس معنًا فيه، غير مَعْنِي إلا به، مُحرّمًا على نفسه ما أباح الله للناس من طبيات الحياة.

كان الفتى يطوي نفسه على شعوره ذاك يائسًا منه ومن عواقبه، راضياً بما يتاح له من سمع ذلك الصوت ومن الحديث إلى صاحبته حين يتاح له الحديث إليها، واثقاً بأن هذا أقصى ما يمكن أن يساق إليه من النعيم ... غير طامع في أكثر منه، وكان واجداً على الحياة والظروف؛ لأنها تحول بينه وبين أكثر منه.

ولكن العلة الطارئة التي ألت بصاحبته، والصوت العذب الذي أدركه الضعف وشاع فيه الفتور، والإشراق من الألم والجهد، على ما كان يكره له أن يحسّ الألم أو يحمل ثقل الجهد. كل ذلك ملك عليه أمره، وملاً عليه قلبه، وأنساه تحفظه وتحرجه، وأجري على لسانه تلك الكلمة التي أنكرها. وليس غريباً بعد ذلك أنه لم يجد حزناً ولا شقاءً ولم يحسّ لوعةً ولا ألمًا حين بلغ مسمعه الردُّ على كلمته تلك مؤسساً مقنطاً، فهو لم يكن ينتظر إلا اليأس والقنوط، قد وطن نفسه عليهمما وعزّي نفسه عنهما بما كان يمعن فيه من الدرس والتحصيل.

وهو قد انصرف عن صاحبته في ذلك اليوم راضياً عن نفسه ساخطاً عليها. راضياً عنها؛ لأنها قالت ما لم يكن بدًّ من أن يقال، ساخطاً عليها؛ لأنها عرضته بهذه الكلمة لشر عظيم، فهي قد عرضته لإشراق تلك الفتاة عليه ورثائها له وضيقها به. ومن يدرى لعلها تريد أن تصرفه عنها صرفاً، وأن تلقي بينها وبينه حجاباً يقطع تلك الأسباب العذاب التي كانت تتيح لهم اللقاء والاستمتاع العقلي والشعوري بما كانوا يُقرأنِ معًا من آيات الأدب الفرنسي.

ومن يدرى لعل هذه الكلمة التي ألقاها في تدبرٍ وعن غير إرادة أن ترده إلى تلك الظلمة المظلمة التي ظن أنه قد خرج منها، وأن تضطره في يوم قريب أو بعيد إلى أن

يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكنًا آخر لا يسمع فيه ذلك الصوت، ولا يلقى فيه ذلك الشخص، ولا يجد فيه شعور الرضا والنعيم ... وإنما يجد فيه شعورًا آخر كله سخط مرّ وحزن ممضٌ وألم مفسد للحياة.

عاش صاحبنا بين هذا السخط وذلك الرضا أيامًا لم يك ينتفع فيها بقراءة أو درس، ولم يك يذوق فيها الحياة طعمًا.

ولكنه يلقى صاحبته بعد أن انجلت عنها غمرة العلة، فإذا هي كعهدہ بها لم تتغير، لم تزدد إقبالاً عليه، ولم يجد منها إعراضاً عنه ولا نفوراً منه. وإنما هي تلقاء كما تعودت أن تلقاء رفيقة به عطوفاً عليه، وتقرأ له كما تعودت أن تقرأ له، وتبنين له ما يُشكل عليه في أثناء القراءة، كما تعودت أن تفعل من قبل، فيردُ ذلك إلى شيء من الأمن، ثم إلى شيء من الدَّعة وراحة البال. وتنقضي أيام، وإذا ذلك الشعور الخفي العميق الذي ظهر فجأة في ساعة من الساعات ثم استحيا وعاد إلى مستقره ذاك من أعماق الضمير، يظهر مرة أخرى، ولكن في تحفظ وتردد وأناء، لا يتحدث إلى الفتاة بشيء، ولا يتحدث إلى الفتى بشيء حين يلقاءها، وإنما يكمن في مستقره من أعماق الضمير.

حتى إذا تقدم الليل وخلا صاحبنا إلى نفسه، وهو أن يستقبل النوم خرج ذلك الشعور من مكمنه، وزاد النوم عن صاحبه، وجعل يسامره حتى يوشك الصبح أن يسفر، ثم يعود إلى مكمنه ذاك، ويسلم الفتى إلى نوم قصير.

ولم تلبث آثار هذا الأرق المتصل أن تظهر، وأن يلحظها أهل البيت، وتلاحظها معهم ذات الصوت العذب، وهو يسألونه عن أمره فيلتوى بالجواب، وهو يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون، وإنما يزعم لهم أن ليس به بأس.

وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الشر، وتسأله الفتاة ذات يوم — وقد خلت إليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرأان — فيريد أن يلتوى بالجواب، فتلألأ عليه، وإذا هو ينبعها مريداً أو غير مريد بأمره كله.

فتسمع له، ثم تسكت عنه، ثم تأخذ في القراءة حتى إذا أتمتها وهمت أن تصرف  
قالت له في رفق: وإنْ فمَا ترِيد؟

قال الفتى: لا أريد شيئاً.

قالت: فإني قد فَكَّرت فيما أنبأتك بي، وأطلت فيه التفكير، ولم أنته بعد إلى شيء، وقد أوشك الصيف أن يظلانا وسنفترق، فاصبر حتى إذا كان افتراقنا فستحصل بيننا الرسائل كما تعودنا أن نفعل، فإذا قرأت في بعض رسائلي أني أدعوك إلى أن تنفق معنا

بقية الصيف فاعلم أنني قد أجبتك إلى ما تريده، وإن لم تقرأ هذه الدعوة حتى ينقضي الصيف فاعلم أنها الصداقة الصادقة بينك وبيني ليس غير. ولم يسعد الفتى بشيء قط كما سعد بهذا الحديث، وكانت آية سعادته أنه أطرق ولم يقل شيئاً.

وأقبل الصيف وكان الافتراق، وذهبت هي إلى قرية في أقصى الجنوب، وأقام هو في باريس، واتصلت بينهما الرسائل، ولكنها قبل أن تفارقها كلفت زميلة لها أن تكون هي الكاتبة القارئة لرسائهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه. واتصل الفراق شهراً ... ولكن رسالة تصل إليه في آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة إلى أن يقضي معها ومع أسرتها بقية الصيف. وإن فقد تحقق أمله، أو كاد أن يتحقق، وهو يعلن إلى زملائه المصريين أنه سيترك باريس إلى حيث يقضي الصيف مع تلك الأسرة، وهم يصدّونه عن ذلك مشفقين عليه.

ولكنه مصرُ على ما أراد، فيصبحه صديقه الدرعميُ ذات مساء إلى حيث يضنه في القطار، ويوصي به بعض من فيه، وينصرف عنه ويدعه وحيداً، وينفق الفتى ليلاً في القطار، لا يدري أقصر أم طال؛ لأنه لم يفكر في أثنائه إلا في هذا اللقاء الذي سيكون حين يرتفع الضحى ويبلغ القطار غايته، وإذا الصوت العذب يدعو صاحبنا في رفق وعطف وحنان، ويشعر بأنه منذ اليوم سيخلق خلقاً جديداً.

## الفصل الخامس عشر

المرأة التي أَبْصَرْتُ بعينيها!

واستأنف الفتى حياة جديدة، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها! كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال: إنه إنسُ الولادة، وحشُ الغريزة.

كان يرى نفسه إنساناً من الناس ولد كما يولدون، وعاش كما يعيشون، مقسم الوقت والنشاط فيما يقسمون فيه وقتهم ونشاطهم. ولكنه لم يكن يأنس إلى أحد، ولم يكن يطمئن إلى شيء، قد ضرب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضا والأمن، وباطنه من قتله السخط والخوف والقلق واضطراب النفس، في صحراء موحشة لا تحدُّها الحدود، ولا تقوم فيها الأعلام، ولا يتَّبَعُ فيها طريقه التي يمكن أن يسلكها، وغايته التي يمكن أن ينتهي إليها.

ولكنه ينظر ذات يوم فإذا هو قد أخذ يتحفَّف قليلاً قليلاً من غريزته تلك الوحشية القلقة، ويحسُّ شيئاً من الأنس الرفيق إلى بعض الناس، ثم يحسُّ هذا الأنس يقوى في نفسه من يوم إلى يوم، وإذا هو لا يطمئن إلى ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه، وإنما يطمئن إلى غيره من الناس أيضاً.

كان يرى نفسه غريباً أينما كان وحيثما حلَّ، لا يكاد يفرق في ذلك بين وطنه الذي نشأ فيه، وبين غيره من الأوطان الأجنبية التي كان يلُمُّ بها؛ لأن ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذي ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطاً به، يأخذه من جميع أقطاره في كل مكان، فكان الناس بالقياس إليه هم الناس الذين يسمع أصواتهم، ويحس

بعض حركاتهم، ولكنه لا يراهم ولا ينفذ إلى ما وراء هذه الأصوات التي كان يسمعها والحركات التي كان يحسها.

كان غريباً في وطنه، وكان غريباً في فرنسا، وكان يرى أن ما يصل إليه من حياة الناس ليس إلا ظواهر لا تكاد تغنى عنه شيئاً.

وكانت الطبيعة بالقياس إليه كلمة يسمعها ولا يعقلها، ولا يتحقق من أمرها شيئاً، لأنما أغلق من دونها بالقياس إليه باب لا سبيل له إلى النفوذ منه. كان ينكر الناس وينكر الأشياء، وكان كثيراً ما ينكر نفسه ويشك في وجودها!

كانت حياته شيئاً ضئيلاً نحيلًا رقيقًا لا يكاد يبلغ نفسه. وكان ربما تسأله بين حين وحين عن هذا الشخص الذي كان يحسه مفكراً مضطرباً في ضروب من النشاط ما هو؟ وما عسى أن يكون؟ وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه وقتاً يقصر أو يطول، فإذا ثاب إليه أو ثابت إليه أشدق من هذا الذهول وظن بعقله الظنون، وتسأله: أيجد الناس من الذهول عن أنفسهم مثل ما يجد، ويحسون من إنكار أنفسهم مثل ما يحسن؟!

كانت حياته حيرةً متعلقة كلما خلا إلى نفسه، وكان لا يملك أمره إلا حين كان يتحدث إلى الناس أو يسمع لهم أو يختلف إلى الدروس، أو يُصفعي لما كان يُقرأ عليه. فأخذ كل هذا ينجب عنه وأخذ يدخل في الحياة كأنه لم يعرفها من قبل، وكان ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه هو الذي أخرجه من عزلته تلك المنكرة، فألغى في رفق وفي جهد متصل أيضاً ما كان مضروباً بينه وبين الحياة والأحياء والأشياء من الحجب والأسفار!

كان يحدّثه عن الناس فيلقي في روعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم، وكان يحدّثه عن الطبيعة فيشعره بها شعور من يعرفها من قرب.

كان يحدّثه عن الشمس حين تملأ الأرض نوراً، وعن الليل حين يملأ الأرض ظلماً، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض، وعن الجبال حين تتخد من الجليد تيجانها الناصعة، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال، وعن الأنهر حين تجري عنيفة، والجداول حين تسعى رشيقه، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح وال بشاعة فيمن كان يحيط به من الناس، وفيما كان يحيط به من الأشياء.

فكان يخيلي إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفيةً عليه، ولم تكن غريبة بالقياس إليه، كأنه قد عرفها في الزمان الأول البعيد، ثم نسيها دهراً طويلاً، فهو يذكرها بعد أن طال عهده بها.

وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه وراحته إلى غيره، وأخذ ينجلِّي عنه الشعور بالغرابة، والضيق بالوحدة والأسأم من العزلة. وليس من شك في أنه قد صدق كلَّ الصدق وأعرب عن ذات نفسه في غير تكثُر ولا غلو حين قال في بعض ما كتب إن فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة وبؤسه نعيماً وظلمته نوراً.

ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك فيما تعود الفتىان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبهم الأولى من تلك الحياة الهائمة التي تخلص من المشقة وتتحفَّف من الجهد وتفرغ لرضا النفوس وغبطة القلوب والذهباء مع الخيال الهائم في كل مذهب. وإنما عرفا أن وقتهم أضيق من الفراغ للحب ونعميه، فوقت الفتى في فرنسا محدود، وعليه واجبات يجب أن تؤدي، وله مهمة يجب أن تتم، وهو مسئول عن هذا كله أمام جامعة في مصر لا تعرف السماح ولا المزاح مع الذين ترسلهم إلى أوروبا ليطلبوا العلم فيها.

ولها الحق كل الحق في ذلك، فهي إنما ترسلهم إلى أوروبا ليتعلموا لا ليحبوا، وليجدوا في طلب العلم لا ليعملوا بأسباب الخيال. وما أكثر ما ذكر الفتى أشهر الصيف تلك في أقصى الجنوب الفرنسي، وما جاء بعدها من الشهور في باريس، فرضي عن صاحبته وعن نفسه رضا لا تشوبه شائبة من سخط أو إنكار.

وانظر إلى فتاة وفتى في أول عهدهما بالخطبة ينفقان أكثر النهار في درس اللاتينية حين يصihan، وفي قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى. فإذا جاء وقت الغداء أللأ على المائدة فأصابا شيئاً من طعام، ثم أقبلَا على تاريخ اليونان والرومان فقرأا منه ما شاء الله أن يقرأ.

إذا كانت الساعة الخامسة انصرفوا عن تاريخ اليونان والرومان إلى الأدب الفرنسي فقرأا منه ما شاء الله أن يقرأ كذلك، لا ينصرفان عن القراءة إلا ريثما يخرجان للتروض خارج القرية التي يعيشان فيها، ينفقان في تروضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة، ثم يعودان إلى المائدة فيصييان شيئاً من طعام ثم تجتمع الأسرة كلها إلى كتابٍ يقرؤه عليهما ذلك الصوت العذب.

حتى إذا تقدم الليل شيئاً تفرقت الجماعة، وأوى كل واحد منها إلى غرفته، وخلا صاحبنا إلى نفسه يذكر ماضيه الغريب، وينعم بحاضره السعيد، ويفكر في مستقبله المجهول.

ينفق في ذلك أكثر الليل مؤرقاً لا يكره الأرق ولا يدعو النوم. ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل، فإذا أسفر له الصبح استقبل يومه آخذاً في الدرس كما فعل من أمس.

وعلى هذا النحو أنفق الأشهر الأولى لخطبته، ثم يعود مع الأسرة إلى باريس فيستأنف فيها حياته الجامعية مختلفاً إلى السوربون حين يصبح وحين يمسي، خالياً إلى قارئته بين ذلك وإلى أستاذ الفرنسيّة يوماً وأستاذ اللاتينية يوماً آخر، مقدراً عسر المهمة التي تكلفها وبعد الغاية التي يسعى إليها.

وكان قد أزمع أن يظفر قبل كل شيء بدرجة الليسانس ثم يتقدم لدرجة الدكتوراه بعد ذلك، ولم يكن الطلاب المصريون إلى ذلك الوقت يحاولون الظفر بدرجة الليسانس هذه؛ لأنها كانت تكلف الذين يطلبونها عناءً ثقيلاً ... كانت تتكلفهم إتقان الفرنسيّة أولاً ليؤدوا الامتحان التحريريًّا فيما يدرسوه من العلم، ولি�ؤدوه كما يؤديه الطلاب الفرنسيون، يكتبون ما يرادون على كتابته في لغة فرنسيّة مستقيمة لا عوج فيها ولا خطأ. وكانت تتكلفهم درس اللاتينية ليؤدوا فيها امتحاناً تحريريًّا كذلك.

ولم تكن اللاتينية تدرس في مصر لا في المدارس الثانوية ولا في المدارس العالية.

فكان المصريون يردون أنهم لن يستطيعوا مجاراة زملائهم من الطلاب الفرنسيين في هذه اللغة التي لم يسمعوا بها قبل وصولهم إلى فرنسا، على حين كان الطلاب الفرنسيون يدرسوها ست سنين في مدارسهم الثانوية، ثم يدرسوها في الجامعة قبل أن يتقدموا لامتحان الليسانس.

من أجل ذلك كان المصريون يعرضون عن درسها إنرعاضاً لا تكلف فيه، ويعرضون بالطبع عن درجة الليسانس التي لا سبيل إليها من غير هذه اللغة.

وكان ثلاثة من المصريين قد أزمعوا أن يقهروا هذه الصعوبة، ويقتربوا هذه العقبة، ويدرسوا اللغة اللاتينية، ويظفروا بدرجة الليسانس مما يكلفهم ذلك من الجهد والعناء. فأما أحدهم: فقد جدَّ وكَدَ وتقدم للامتحان فأخفق، ثم أخذ يستعد ليؤدي الامتحان في العام المقبل، ولكن الأسباب تقطعت بينه وبين ذلك؛ أدركته العلة فاضطرب أمره، واختلط عقله، ورددَ إلى مصر فأنفق فيها أيامًا كثيرة يائسة، فاستأثرت به رحمة الله فأراحته من أثقال الحياة.

وأما الآخر: فكان الأستاذ الدكتور صبري السوربوني.

وقد جدَّ وكَدَ وتقدم للامتحان مرة ومرة، ولكن عقدة اللاتينية أدركته، فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتينيًّا الذي يجب أن يترجمه إلى الفرنسيّة ألقى عليه

نظرة سريعة، ثم طواه وقدم إلى المتحندين صفحة بيضاء لم يمسها خطأً أو صواب. وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيت لاتيني قديم يصور اليأس والقنوط، ولكنه لم يعرف يائساً ولا قنوطاً، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة، وإنما حاول وطاول وألح في المحاولة والمطاؤلة حتى تقدم للامتحان ذات يوم وتلقى النص اللاتيني فلم ينظر فيه نظرة سريعة، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم إلى المتحندين صحفاً أتاحت له الفوز والنجاح.

وكان صاحبنا ثالث هذين الزميين، وكان قد عرف من أمر صاحبيه ما يحتملان من مشقة وما يبذلان من جهد، وما يلقيان من إخفاق، فلم يفل ذلك من عزمه، وإنما مضى في درس اللاتينية في بيته وفي السوربون مصمماً على أن يظفر بهذه الدرجة مهما يكن دونها من العقاب.

ولكن مشكلة خطيرة عرضت له، وكانت خلقةً أن تفسد عليه أمره كله، ولم يكن بينها وبين الدرس صلة، فهو قد خطب تلك الفتاة إلى نفسها وإلى أسرتها، وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردد طويل، وقبلتها الأسرة بعد امتناع وإباء، ولكن صاحبنا لم ينس إلا شيئاً واحداً، وهو أنه قد أعطى الجامعة قبل أن يسافر إلى أوروبا ذلك العهد الذي كان يعطيه أعضاء البعثة جميعاً قبل سفرهم لا يتزوج في أثناء إقامته في الخارج طالباً العلم.

وهو لم ينقض هذا العهد؛ لأنه خطب ولم يتزوج ولكنه عجل إلى الزواج، فليس له بد إذن من استئذان الجامعة أو نقض العهد الذي أعطاه لها، وقد أزمع أن يستأذنها، وكتب إليها في ذلك، ولكنه كان يطيل التفكير في عواقب هذا الكتاب، كان يرجح لا تأذن له الجامعة، وكان يسأل نفسه فيطيل السؤال عمّا يكون من أمره إن رفضت الجامعة إذن له فيما يريد.

وكان ذلك ربما نفّعه عليه حياته من حين إلى حين، ولكن الجامعة كانت أرأف به وأرحم له مما قدّر، فأذنت له بعد خطوبٍ لم يعرفها إلا بعد أن أتم درسه وعاد إلى مصر. أذنت له الجامعة إذن، ولكنه هو لم يأذن لنفسه ولم تأذن له الفتاة حتى يظفر بدرجة الليسانس هذه التي لم يظفر بها مصري بعد، وحتى يشعر الجامعة بأنه صاحب جدًّا ونشاطاً وإنتاجاً لا صاحب لعب وكسيل واستغلال بنفسه عما يجب عليه من الدرس والتحصيل.

والغريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن في ذلك العام يتھيأً لامتحان الليسانس وحده، وإنما كان في الوقت نفسه يعُد رسالته للدكتوراه، وقد زاده إذن الجامعة له بالزواج جدًا

وكذا ونشاطاً، حتى كان العام الأول لخطبته غريباً حقاً، كلف فيه نفسه وخطيبته من الأمر أسره وأشد مشقة.

ولم ينس الفتى قط ولم تنس صاحبته، أنهم كانوا يخرجان بين حين وحين في أيام الآحاد من باريس يطلبان النزهة والتروض، فلم يخرجا قط وحدهما وإنما صحبهما دائمًا كتاب من هذه الكتب الثقال التي ترهق القارئين فيها من أمرهم عسراً؛ والذين يعرفون كتب أو جست كونت ويقدرون ما فيها من العسر الذي يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها، يرحمون هذين الخطبيين اللذين كانوا يختلفان إلى هذه الغابة أو تلك من الغابات التي تحيط بباريس، فيأويان إلى ظل شجرة من أشجارها ويأخذان في هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة التي لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلبيهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد.

وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام وجعل الفتى يستعد للامتحان، ثم دفع إليه في شهر يونيو فلم يتعدد ولم يتلاكم، وإنما أقدم في عنادٍ أيّ عناد، لم يكن واثقاً بنفسه ولا مطمئناً إلى نتيجة هذه المغامرة التي يقدم عليها، ولكنه كان يقول لنفسه إن أتيح لي النجح فرمية من غير رام، وإن كُتب على الإخفاق فما أكثر الذين يخفقون!

وكان مزمعاً إن ظفر بالنجاح أن يبرق به إلى الجامعة، وإن كتب عليه الإخفاق أن يكتمه و يجعله سراً بينه وبين نفسه إن أمكن أن يكتم الإخفاق في الامتحان، ومن حوله زملاؤه المصريون يرقبونه رفاقاً به مشجعين له عاطفين عليه.

وقد أتيح له النجح ... وكان الأستاذ الدكتور صبري السوربوني هو الذي أقبل ذات مساء فرحاً يكاد يخرج الفرح عن طوره، مكدوداً يقطع الإعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى، ولشدة ما أسرع في صعود السلم إلى بيت الفتى في الطبقة السادسة، فلم يكاد يفتح له الباب حتى أعلن من فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس، ولم يدخل وإنما رجع أدراجه ولم يُرُدْ أن يستريح.

وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان، ولم يكن ينظر في النص اللاتيني حتى طواه وقدم صحفه البيضاء ضاحكاً متمثلاً ببيته اللاتيني ذاك الذي يصور اليأس والقنوط، فكان رائعاً حقاً أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملك له وأشد استئثاراً به من إخفاقه هو في الامتحان!

## الفصل الخامس عشر

وألقى نبأ النجح إلى الفتى، فلم يصدقه حتى صحبته خطيبته إلى السوربون وقرأت له اسمه بين أسماء الناجحين، ثم لم تعد به إلى البيت حتى حجزت أمكنته للأسرة كلها في بيت مولير تكافئ بذلك صديقها وخطيبها على هذا النجح الذي لم يكن مرتقباً. وأصبح الفتى من غده فأبرق إلى الجامعة، ولم يمض يومان حتى أبرقت إليه الجامعة تهنئه وترسل إليه مكافأة قدرها عشرون جنيهاً.

في ذلك اليوم قرر الخطيبان أن يتما زواجهما قبل رحلة الصيف إلى الجنوب.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل السادس عشر

### طلب تأجيل الامتحان للزواج!

وكان أمر الفتى في عامه الدراسي ذاك عجباً كله، فهو لم يتهيأً لامتحان الليسانس وحده على ما فيه من عسرٍ ومشقةٍ، وإنما جعل يعُد رسالته الدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية. فقرأً لذلك ما شاء الله أن يقرأً في اللغتين العربية والفرنسية، وترجمت له نصوص أخرى من لغات أوروبية مختلفة، ثم أخذ في إملاء رسالته، يقول هو وتكلب صاحبته، وتقوم في أثناء ذلك ما يعوج من لغته الفرنسية. ولا يكاد يفرغ من إملاء فصل من فصول هذه الرسالة حتى يعيد قراءته، ثم يعرضه على أستاذه المستشرق الفرنسي كازانوفا، فإذا أقرَّه أخذ في إملاء الفصل الذي يليه. ولم تكن الجامعة قد فرضت عليه هذه الرسالة، بل لم يكن بين هذه الرسالة وبين برنامجه الدراسي سبب؛ فهو قد أرسل ليدرس التاريخ، وكُلِّفَ الحصول على درجة الليسانس، وتطوع هو بهذه الرسالة لأنَّه سمع دروس الاجتماع التي كان يلقِيها الأستاذ دوركيم، فشغف بهذا العلم أَيْ شغف، وأراد أن تكون له مشاركة فيه، وأن يشرف الأستاذ على هذه المشاركة. فاتفق معه على موضوع الرسالة، وعلى أن يكون هو مشرفاً عليها من الناحية الفلسفية، وأن يشاركه في الإشراف مستشرق يحسن العلم بالشئون العربية والإسلامية، فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرؤه أستاذان؛ يقرؤه الأستاذ المستشرق أولاً، ثم يقرؤه الأستاذ دوركيم بعد ذلك.

ولما استقام أمر هذه الرسالة للفتى كتب إلى الجامعة ينبعها بما صمم عليه، وبأن هذا لن يغير من برنامجه المرسوم شيئاً، بل ينبعها بأنه يزمع أن يضيف إلى هذا البرنامج

المرسوم شيئاً آخر: يريد — إن ظفر بالليسانس — أن يظفر بالإجازة التي تليه، وهي دبلوم الدراسات العليا. واستأنف الجامعة في أن يتهيأ لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، على أن ذلك يستلزم أن تتمد إقامته في أوروبا أربعة أعوام بعد حصوله على الليسانس والدبلوم.

فكتبت إليه الجامعة تأذن له ببنيل الدبلوم إن استطاع بعد الليسانس، وتعفيه من دكتوراه الدولة في التاريخ؛ لأنها تطيل إقامته في أوروبا وتكلف الجامعة من النفقات أكثر مما طريق.

ثم أذنت له بتقديم رسالته عن ابن خلدون لنيل دكتوراه الجامعة، وذكرته بالعهد الذي قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر وهو: ألا يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها إلا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن في تقديمها، وكان الصديق الكريم الدكتور منصور فهمي هو الذي اضطر الجامعة إلى أن تأخذ طلبها في أوروبا بأن يعطوا على أنفسهم هذا العهد.

والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التي حصل بها على الدكتوراه من ضجيج وعجب أثارا سخط الهيئات الرسمية أولاً، وسخط الرأي العام بعد ذلك. وأضطر الصديق الكريم إلى أن ينأى عن مصر قريباً من عام، ولا يعود إليها إلا حين اضطرته الحرب إلى أن يعود، وحيل بينه وبين التعليم في الجامعة أعواماً، حتى إذا كانت الحركة المصرية سنة تسع عشرة وتسعمائة ألف، وما نشأ عنها من الأحداث ومن تحرر العقول، أذن له بما كان ينبغي أن يؤذن له فيه منذ أتم درسه في فرنسا، وكان ثروت باشا رحمه الله هو الذي أذن له في ذلك.

ولم ينس الفتى مساء يوم من الأيام جلس فيه بين زملائه إلى بعض الأساتذة في الجامعة حين كان طالباً، وإنه لمصح إلى الأستاذ وإذا يُتمسّه مساً رفيناً ثم تحاول إقامته مكانه، فيلتفت فينبئه صوت بأن الذي يريد أن يقيمه هو علوى باشا، فيستجيب الفتى لهذه اليد وهو يشقق في نفسه من بعض الشر، فهو قد أقيم مرة من درسه في الأزهر مع أصحابين له ليقدما للمحاكمة أمام شيخه الأكبر الشيخ حسونة رحمة الله. وقد سأله الفتى إلى من سيقدم، وفيم يمكن أن يحاكم هذه المرة، ورأى الفتى نفسه قد أجلس على كرسيٍّ وقيل له: إنك أمام مجلس إدارة الجامعة، وإن المجلس يريد أن يسألك عن بعض الأمر، وإذا صوت رقيق يتحدث إليه في رفق، فينبئه أولاً باسمه: عبد الخالق ثروت، ويسأله بعد ذلك عن حكم الدين في أشياء تليت عليه من رسالة طالب من طلاب الجامعة في أوروبا.

قال الفتى: فإنه لا يملك الإفتاء في أمور الدين.

قال محدثه: فإننا نريد أن نعرف رأيك.

قال الفتى وهو يبسم في شيء من غضبٍ ساخرٍ: كنت أظنُ أنتي في الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم، فإذا أنا أراني في الأزهر لا أسأل عن رأي نفسي وإنما أستفتني في رأيٍ غيري من الناس.

قال صوتٌ غليظٌ: رده يا علوى باشا إلى درسه فلن نأخذ منه شيئاً.

وردَ الفتى إلى درسه لم يصحبه في عودته علوى باشا وإنما صحبه خادم من خدم الجامعة.

ومنذ أثار الدكتور منصور ذلك **الضجيج** أقامت الجامعة نفسها رقيباً على رسائل طلابها، وأخذت عليهم العهد ألا يقدموا رسائلهم إلى الجامعات الأجنبية حتى تأذن لهم هي في ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرّرها. فلما استأنفها الفتى في تقديم رسالة عن ابن خدون ذكرته بعهده ذاك، فوقَ به وأرسل نسخة من الرسالة بعد أن أتمها، وأحالها مجلس الإدارة إلى الأستاذ أحمد لطفي السيد فقرأها ورضي عنها، وأذنت الجامعة في تقديمها إلى السوربون.

ولم ينقض شهر يوليو من ذلك العام حتى كان الفتى قد نجح في الليسانس من جهة، وأذنت له السوربون في طبع رسالته توطئة لمناقشتها بعد الصيف.

وقد تخفف الفتى من عبئين ثقيلين: عباء الليسانس وما فيه من امتحان اللغة اللاتينية، وعبء الرسالة وما فيها من رقابة الجامعة والإذن في تقديمها. على أن فوزه بالليسانس لم يكن كاملاً، فهو قد نجح في الامتحان التحريري نجاحاً حسناً، ولكنه كان قد شق على نفسه بالاستعداد لهذا الامتحان وكتابة الرسالة، وهو بعد ذلك مشغول متصل التفكير في زواجه الذي أذنت به الجامعة والذي كان يجب أن يتم في ذلك الصيف. فخادع الفتى نفسه شيئاً، وقرر أن يرجئ الامتحان الشفهي إلى الدور الثاني في أول العام الدراسي، وما هي إلا أن يعرض نفسه على طبيب فيشهد كتابة بأنه مكدوّد الأعصاب يحتاج إلى الراحة، ويقدم هذه الشهادة إلى السوربون فتؤجل ما بقي من امتحانه إلى شهر نوفمبر، ويفرغ الفتى لنفسه وخطيبته، وما كان يعنيهما من أمر الزواج.

فإذا كان اليوم التاسع من أغسطس من ذلك العام، أصبحا زوجين حين انتصف النهار، وتركا باريس إلى الجنوب حين أقبل الليل، ولم يفرغا مع ذلك لحياتهم الجديدة

في أثناء الصيف، وإنما استقرا في مدينة هارئة من مدن الجنوب، وأقبلًا فور استقرارهما على ما لم يكن بُدًّ من الإقبال عليه وهو الاستعداد للامتحان الذي يجب أن يؤدى بعد شهرين.

وكان الاستعداد عسيرةً حَقًّا، فلم يكن بُدًّ لطالب الليسانس في التاريخ من أن يكون مستعدًا بعد نجاحه في الامتحان التحريري لأن يسأل فيما يريد الأساتذة أن يسألوه فيه من تاريخ العصور القديمة، وتاريخ القرون الوسطى، والتاريخ الحديث، والتاريخ المعاصر، والجغرافيا، والفلسفة، ولغة أوروبية غير اللغة الفرنسية، وحسبك بهذا كله عبئًا ثقيلاً وعنةً طويلاً، وحسبك به أو بالاستعداد له نعيمًا يلائم حياة عروسين قد أتما زواجهما منذ أيام!

وهما مع ذلك يقبلان على هذه المحنـة الثقيلة لا يضيقان بها ولا ينفران منها، وإنما يصبحان في التاريخ ويمسيان في الجغرافيا ويلمان بالإنجليزية بين ذلك، ويتركان أمر الفلسفة إلى الله وإلى ذاكرة الفتى، وما يمكن أن يكون قد استقر فيها مما سمع في السوربون أثناء العام.

وينقضـي الصيف ويعود الزوجان إلى باريس، ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفـقاً منه أعظم الإشـفاق، مرؤـغاً به أشد الروع لا يخافـ التاريخ القديم، وإنما يخافـ أشدـ الخوفـ أساتذـةـ التاريخـ الحديثـ والتـاريخـ المـعاـصرـ، ولا يـكـادـ يـذـكـرـ الجـغرـافـيـاـ حتـىـ يـجـنـ جـنـونـهـ، فـقدـ كـانـ وـاثـقـاـ بـأـنـ مـخـفـقـ فـيـهاـ مـنـ غـيرـ شـكـ، وـقدـ كـتـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـضـيـ فـيـ يـوـمـ منـ أـيـامـ الـامـتـحـانـ كـلـ الرـضاـ مـصـبـحـاـ وـأنـ يـسـخـطـ فـيـهـ كـلـ السـخـطـ مـمـسـيـاـ.

وأقبل من ضـحـىـ ذلكـ الـيـوـمـ عـلـيـ أـسـتـاذـ تـارـيـخـ القـرـونـ الوـسـطـيـ وـكـانـ منـ أـعـظـمـ أـسـاتـذـ السـورـبـونـ قـدـرـاـ، وـهـوـ أـسـتـاذـ شـارـلـيـ دـيلـ، فـإـذـ أـسـتـاذـ قدـ كـتـبـ عـلـيـ أـورـاقـ صـغـيرـةـ أـسـئـلةـ كـثـيرـةـ وـضـعـهـاـ أـمـامـهـ، وـجـعـلـ الطـلـابـ كـلـمـاـ أـقـبـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ عـلـيـ أـسـتـاذـ يـرـمـقـونـهـ وـيـرـقـبـونـ مـاـ يـسـعـفـهـ بـهـ الحـظـ، وـيـقـبـلـ صـاحـبـنـاـ تـرـافـقـهـ زـوـجـهـ، فـإـذـ أـحـذـنـ وـرـقـةـ وـدـفـعـتـهـ إـلـىـ أـسـتـاذـ نـظـرـ فـيـهـ ثـمـ اـبـتـسـمـ ثـمـ قـالـ فـيـ صـوتـ عـذـبـ: لـقـدـ أـسـعـدـ الـحـظـ بـمـرـاقـقـةـ هـذـهـ الـآنـسـةـ، حـدـثـنـيـ إـذـنـ عـنـ إـمـبرـاطـورـيـةـ الـعـربـيـةـ أـيـامـ بـنـيـ أـمـيـةـ، وـمـاـ أـرـىـ إـلـاـ أـنـ تـعـرـفـهـاـ خـيـرـاـ مـاـ أـعـرـفـهـاـ.

واندفعـ الفتـىـ فـيـ حـدـيـثـهـ لـاـ يـلوـيـ عـلـىـ شـيءـ حـتـىـ وـقـفـهـ أـسـتـاذـ قـائـلـاـ: حـسـبـكـ فـقدـ طـفـرـتـ بـالـدـرـجـةـ الـعـلـيـاـ.

فـيـ ذـكـيـرـهـ لـمـ يـعـدـ الزـوـجـانـ إـلـىـ الـبـيـتـ لـيـصـيـباـ غـداءـهـمـاـ، وـإـنـمـاـ أـلـحـ الفتـىـ عـلـيـ صـاحـبـتـهـ فـيـ أـنـ يـرـفـعـهـاـ عـنـ نـفـسـيـهـمـاـ بـتـنـاـولـ الـغـدـاءـ فـيـ مـطـاعـمـ الـحـيـ الـلـاتـيـنـيـ،

يجدان فيه من لين الطعام ما لم يكن مقدراً أن يجدها إن عادا إلى البيت. وكانت صاحبته تكره له أن يسرف فيما يبقى له من مرتبه بعد أداء ما عليه فيه من الحق، فامتنعت عليه وألحت في الامتناع، ولكنه ما زال بها حتى استجابت له، فأصاباها في ذلك اليوم غداء قلماً كانوا يصيّبان مثله في سائر أيامهما.

وعادا بعد ذلك إلى السوربون، وإن قلب الفتى ليحقق فرقاً وقلقاً؛ وكيف لا وهو مقبلٌ على امتحان الجغرافيا بعد قليل؟ وكان قد قدر في نفسه أن الأستاذ الذي سيتحنه لن يراه مقبلاً عليه حتى يرافق به ويعرف أن مثاله لا ينبغي أن يسأل إلا فيما يفهمه العقل وتحفظه الذاكرة بدون أن يحتاج إلى الإبصار، يسألها في الجغرافيا السياسية أو الاقتصادية أو البشرية، ولا يسألها في الجغرافيا الطبيعية مثلاً. ولكن الأستاذ يدعوه فيسعي إليه ويجلس بين يديه، ويقول الأستاذ في هذه المداعبة الرفيعة التي يتکلفها المتحنون عادة: مسيو حسين، صف لي مجرى نهر الرون.

ويسمع الفتى هذا السؤال فيسرع إليه الوجوم، ولكن العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقلبه جميغاً، وإنما هو يرفض الإجابة عن هذا السؤال في صوت لا تردد فيه ولا اضطراب. قال الأستاذ متلطفاً: فإن من الحق عليك أن تجيب حين تأسأل.

قال الفتى: ولكنني لن أجيب.

قال الأستاذ: فقد اكتفيت.

ودعا طالباً آخر.

فانصرف صاحبنا محزوناً مدحوراً، مستيقناً أنه قد أخفق في الامتحان، وأن نجمه في أول الصيف قد ذهب هباء، مشفقاً في الوقت نفسه على صاحبته من هذا الحزن الذي سيسعى إليها من غير شك، ولكن صاحبته تخرج به من هذه الغرفة مترفقة به قائلة له في ابتسامة عذبة: وما رأيك في فنجان من القهوة تتهيأً به للقاء أستاذ الفلسفة! وقال: وفيم لقاء هذا الأستاذ وقد ذهب الامتحان كله هباء؟

قالت متضاحكة: لا عليك، فقد كان هذا المتحن غليظ الطبع قليل الحظ من الذوق. وما زالت به حتى سقته القهوة، ثم عادت به إلى السوربون، فلقي أستاذ الفلسفة وسمع منه وقال له غير محقق في نفسه شيئاً مما سمع أو مما قال. وراح إلى بيتهما وهو يضمّر اليأس ويظهره، وهي تظهر الأمل، والله يعلم ما كانت تضمر.

وتتكلّف صاحبنا أن يشغل نفسه عن التفكير في الامتحان بالتفكير في مناقشة الرسالة التي تم طبعها وقدمت إلى السوريون، والتي سيُحدد لمناقشتها فيما كان يُقدر موعد قريب.

ولم تتحدث إليه صاحبته في أمر هذا الامتحان، وإنما جعلت تتحدث إليه في أشياء كثيرة ليس بينها وبين السوريون وعنهما صلة، ثم تقبل عليه ذات يوم فلا تكلمه ولا تلقي إليه تحيتها وإنما تقبله ثم تهمس في أذنه: لقد نجحت!

ولم يصدق الفتى ما سمع حتى أربأته بأنها عائدة من السوريون حيث أعلنت أسماء الناجحين وفيها اسمه.

وعلم الفتى بعد ذلك أن الأستاذ ريمونجون أستاذ الجغرافيا لم يكن غليظ الطبع ولا قليل الحظ من الذوق، فلم يمنحه الصفر الذي كان يستحقه، وإنما منحه درجتين اثنتين ليعصمه من الإخفاق إن أتيح له النجح في غير الجغرافيا من مواد الامتحان.

وتريد الظروف بعد سنتين أن يعقد في مصر مؤتمر للجغرافيا، وأن يكون هذا الأستاذ من الذين مثلوا وطنهم في هذا المؤتمر، وأن يلقاء صاحبنا في حفلة من حفلات الشاي التي تكثر حول المؤتمرات، فإذا قدّم إليه صافحة وأطال النظر إليه وإلى صاحبته ثم قال متضاحكًا: يخيل إليّ أنني رأيت!

قال الفتى مغرقاً في الضحك: نعم رأيتني، وكدت تضيع عليّ درجة الليسانس.  
قال الأستاذ: الآن ذكرتك ... ولعلك راضٍ عنِّي؛ لأنني لم أعطك الصفر الذي كنت له أهلاً!

ولم يضحكا وحدهما، وإنما ضحك معهما من كان حولهما من الناس.  
وكذلك خالص الفتى من مشكلات الليسانس، وأقبل على الرسالة يتهيأ لمناقشتها مستريح القلب هادئ النفس راضي الضمير، ولكنه لم يلبث أن رُوع بوفاة الأستاذ دوركيم المشرف الفلسي على رسالته، وكان الفتى لأستاذه محباً وبه معجبًا إعجاباً يوشك أن يبلغ الفتون، فأدركه للخطب فيه حزن عميق، ولكن للحياة حقائقها وتعبياتها، وليس بدًّ لهذه الرسالة من أن تناقش، وليس بدًّ لمناقشتها من فيلسوف متخصص في الاجتماع.

وقد استطاعت السوريون أن تندب لمناقشة الفتى في رسالته أستاذًا من أساتذتها كان من تلاميذ الأستاذ الفقيد وهو الأستاذ بوجليه. وكذلك تم الاستعداد لمناقشتها، ولكن الدكتوراه الجامعية في فرنسا لا يكفي فيها أن تقدم الرسالة وأن تناقش، بل يجب أن ينافش الطالب قبل ذلك في موضوعين يختاران له قبل اليوم الموعود ليتهيأ للخوض فيهما.

ويتصل الفتى بأسانته الذين سيمتحنونه ليعرف منهم هذين المسؤولين، فاما الأستاذ المستشرق فلم يقترح شيئاً واكتفى برسالة الطالب عن ابن خلدون، وأما الأستاذ الفيلسوف فاقترح على الفتى موضوعاً رآه في أول الأمر عسيراً أشد العسر، ثم لم يلبث أن رأه يسيراً كل اليسر بعد أن عرف الموضوع الثاني الذي اقترحوه أستاذ التاريخ، اقترح الأستاذ الفيلسوف: «علم الاجتماع كما يتصوره أجوست كونت»، واقتراح أستاذ التاريخ – وكان من مؤرخي الرومان وهو الأستاذ جوستوف بلوك – «القضايا التي رفعت على حكام الأقاليم كما يصورها بلينوس الشاب في رسائله». وقال الأستاذ وهو يلقي هذا الموضوع إلى الفتى: وأريد أن أناقشك في النصوص فلا تكتف بفهم التاريخ.

في ذلك اليوم عاد الفتى إلى أهله يرعد من الخوف والسطخ جميعاً. كان يظن أنه قد فرغ من اللغة اللاتينية وعنائتها، وإذا أستاذ التاريخ ذاك يرده إليها ويفرض عليه أن يدرس طائفه من رسائل ذلك الكاتب اللاتيني القديم.

وأقبل الفتى على رسائل ذلك الكاتب فقرأها كلها مترجمة إلى الفرنسية أولاً، واستخرج منها الرسائل التي تمُّسُ موضوعه فعاد إليها يدرسها في نصوصها اللاتينية درساً دقيقاً عميقاً؛ لأنَّه كان يعرف الأستاذ، ويعلم أنه لا يحب المزاح ولا يكتفي بالقليل. ولم يرتعد الفتى في امتحان قط إلا في هذا الامتحان حين أخذ الأستاذ يناقشه في هذه الرسائل، ونبيَّ حكام الأقاليم وقضاياهم، ولم يحفل إلا بالنص اللاتيني من حيث هو نص أدبي يجب فهمه أولاً وذوقه ثانياً وتحليله ونقده بعد ذلك.

ولولا فضل من شجاعة واستحياء من الرفاق ومن زوجه التي كانت تشهد الامتحان ومن سائر النظارة لاصطكت أسنانه ذعراً وهلاعاً، ولكنه ثبت للخطب على كل حال، وإن رأى الأساتذة والناظرة أن فرائصه كانت ترتعد، وأنه كان شديد الاضطراب، وثبت نفسه إليه حين سكت عنه أستاذ التاريخ وأخذ أستاذ الفلسفة في مناقشته وجرت ريح الامتحان له رُخاء حتى رفعت الجلسة.

وخلت اللجنة للمداولة وعادت بعد لحظات فأعلن إليه رئيسها، وهو أستاذ التاريخ، أن الكلية ترشحه لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف المتたزة ومع تهنئة اللجنة. ولأول مرة سمع الفتى تصفيق النظارة من الفرنسيين لشخصه المتضائل الضعيف. وعاد إلى أهله جذلان فرحاً، وظنَّ أن قد حُطَّت عنه أثقال الدراسة، وأن ما بقي له منها لن يكون شيئاً ذا بال.

## الأيام

ولكن الأيام كشفت له عن أنه كان مغالياً في تفاؤله بل مسرفاً في الغلو؛ فقد بقي عليه أن يظفر بdiploma الدراسات العليا، وأراد حظه أن يعده رسالته لهذا diploma بإشراف أستاذ التاريخ ذلك الذي أرهقه من أمره عسراً.

## الفصل السابع عشر

يوم سقطت القنبلة على بيتي!

ولم يمهل صاحبنا نفسه بعد أن فرغ من امتحان الدكتوراه إلا أياماً قليلة، ثم أقبل على درس أستاذ التاريخ ذاك كما تعودَ أن يفعل منذ أقام في باريس، وكان على هذا الدرس حريصاً ولصاحبه محبّاً، بل كان إعجابه بصاحب هذا الدرس عظيماً، فلما انتهى الأستاذ من درسه سعى إليه صاحبنا خزياناً وجللاً، وأنباءً بأنه يودُّ لو أذن له في أن يهيء بإشرافه رسالة في التاريخ القديم يتناول بها دبلوم الدراسات العليا.

وقد قبل الأستاذ طلب تلميذه أحسن قبول، وضرب له موعداً بعد درس الغد ليتحدث معه في موضوع هذه الرسالة، وانصرف الفتى راضياً مشفقاً؛ راضياً عن العمل مع هذا الأستاذ العظيم، مشفقاً من مشقة هذا العمل، فقد كان الأستاذ معروفاً — على حبه للتلاميذه — بالشدة عليهم وتکليفهم من الأعمال أشقها وأشدتها عسراً ومحاسبتهم بعد ذلك حساباً لا رفق فيه.

ولقي الفتى أستاذه من الغد فقال له متضاحكاً: لقد وجدت لك موضوعاً قيماً حقاً؛ لأنك سيتيح لك من القراءة ما ستنعم به أحسن النعيم موقعاً في النفوس.  
قال الفتى متشوقاً: وما ذاك؟!

قال الأستاذ: ستدرس القضايا التي أقيمت في روما على حكام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الروماني وغضوا من شرفه، كما صورها المؤرخ العظيم تاسيت، وأؤكد لك أنك ستسعد بقراءة هذا المؤرخ كما لم تسعد قط بقراءة مؤرخ أو أديب.

ثم أحصى له طائفة من الكتب يجب أن يقرأها، وطائفة أخرى يجب أن يرجع إلى بعض فصولٍ فيها، ولم يستطع صاحبنا أن يناقش الأستاذ أو يجادله في هذا الموضوع العسير، وإنما سمع وأطاع، وانصرف قلقاً مستخدماً.

ثم فكر حين خلا إلى نفسه في هذه الكتب التي ينبغي أن يقرأها أو يراجع فصولاً فيها، فرأى أنه لا يستطيع أن يستعيدها؛ لأن مثل هذه الكتب لا تعار من مكتبة الجامعة لكثرة حاجة الطلاب إليها، وليس له بدُّ إذن من شرائها، وفي شرائها المعضلة الكبرى، فثمنها لا يقل عن المرتب الذي يتقاده أثناء شهرين كاملين!

وكتب إلى الجامعة يستعينها على شراء هذه الكتب، فأبَت عليه، وكانت الجامعة شديدة البخل على طلبها، تكرهها ظروفها المالية على ذلك إكراهاً، فهي لم تكن تعينهم على ما يعرض لهم من المرض، ولا على ما يحتاجون إليه من الكتب. وإنما كانت تعطيهم مرتباتهم وأجر ما يحتاجون إليه من الدروس الخاصة إذا تبيَّنت أن ليس لهم من هذه الدروس بدُّ، ثم تخلي بينهم وبين حياتهم يصنعون بها ما يريدون، أو تصنع هي بهم ما تريده. وعلى الطالب مع ذلك أن يثبتوا جدَّهم في الدرس وتقديمهم فيه، فإن ثبت لها تقصير أو قصور فليس بدُّ للطالب من أن يعود إلى مصر ويوفر ما تنفقه الجامعة عليه من المال.

وقد راجع صاحبنا الجامعة في أمر هذه الكتب فأذنت له — بعد خطوب — في أن يشتريها وينتفع بها على أن تكون ملگًا للجامعة تردُّ إليها بعد عودته إلى مصر. وكذلك أحد يتهيأً لهذا الموضوع الخطير، وأي شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله لم يعرف اللاتينية إلا بأخرَة، ولم يسمع في مصر إلا دروس الأزهر في علومه الموروثة ودروس الجامعة التي ليس بينها وبين تاريخ اليونان والروماني صلة — أي شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله من العكوف على هذا المؤرخ الرومانى العظيم العسيرة يقرؤه ويحصي ما فيه من أخبار هذه القضايا، ثم يفهم هذه القضايا من نواحيها القانونية الخالصة، ثم يعرضها بعد ذلك عرضاً واضحاً مستقيماً؟! لقد أحس في نفسه شيئاً من التدمى على أنه لم يختر لرسالته موضوعاً في التاريخ العربي الذي يحسن، والذي لا يكله قراءة في اللاتينية ولا فيما يشبه اللاتينية، ولكنه قد ورَّط نفسه في هذا الموضوع، وليس له بدُّ من أن ينفذ من مشكلاته، مهما يكلفه ذلك من جهد أو عناء.

وإنه لما بدأ في قراءته تلك العسيرة، إذا حدُّ يحدث ذات ليلة فيقطع هذه القراءة فجأة، ويضطره إلى أن يترك باريس، ويغادر بنفسه وبزوجه إلى جنوب فرنسا، طلباً للأمن

واجتناباً للخطر، وكان ذلك حين انتصفت ليلة من ليالي فبراير أو كادت تنتصف، وكان كل شيء هادئاً من حول صاحبنا، وكان قد انصرف عن القراءة وأوى إلى مضجعه، وأخذ النوم يسعى إليه أو أخذ هو يسعى إلى النوم، ولكن التذير بالغارة الجوية يوقيط أهل البيت جميعاً، وصاحبنا شجاع لا يحفل بالغارة ولا يريد أن يظهر أهل البيت منه على ذعر أو شيء يشبه الذعر، فهو يأبى أن ينهض من مضجعه ساخراً من الغارة والمغirين، وما أكثر ما سمع أهل باريس هذا التذير! وما أكثر ما اهتم له المهتمون، وسخر منه الساخرون، وانجلت غمرته عن باريس دون أن تلقى منه كيداً! مما يمنع هذه الغارة أن تكون كغيرها من سابقاتها؟ وصاحبنا معتذر بنفسه معتذر بشجاعته، يرى أهل البيت من حوله يتهيؤن للهبوط من طاقتهم السادس ليئعوا إلى مخبئهم ذاك، وهو ثابت في مضجعه لا يريم، ولكنه يسمع فجأة صوتاً مريراً، وينظر فإذا هو يهبط مع الهاطبين مسرعاً، لا يحفل بما يمكن أن يلقاء من عقبات، ولا يثوب إلى نفسه إلا بعد أن استقرَ في مجلسه من المخا بين اللاجيئين إليه من أهل الحي، وهو مستخدِّ في نفسه، ومستخدِّ من أهله، ولكن ماذا يصنع وقد كانت الغريزة أقوى من عقله وإرادته جميعاً؟

وتنجلي الغمرة، ويأوي الناس إلى مضاجعهم، فإذا أصبحوا رأوا شرّاً عظيماً، فقد سقطت القنابل في الحي اللاتيني نفسه، ودمرت أبنية قريبة من الدار التي كان يسكنها صاحبنا، وهو يحس آثار هذا التدمير في طريقه مصباحاً إلى السوربون، ويسمع من أبناءه الشيء الكثير، ولم يخطر له أن في هذا الحادث ما يضطره إلى ترك باريس والهجرة إلى الجنوب، ولكن ظروف زوجه تفرض عليه ذلك بأمر الطبيب، فيهاجر معها إلى مونبليه مقدرين أن يقيما فيها إلى أن يصل الطفل الذي كانا يتظارعانه، ثم يعودا بعد ذلك إلى باريس.

وهم صاحبنا بعد أن استقر في مونبليه أن يدرس الحقوق ويخرج في القانون، بيدأ الدرس في فرنسا ويتمه في مصر بعد أن يعود إليها. ولكن إعداد رسالته تلك شغله عن ذلك، وما أكثر ما لام نفسه وشق عليها في اللوم بأنه لم يتم ما حاول من دراسة القانون! فقد ألمت به في حياته محن وخطوب.

وكان ينظر فيري نفسه مسؤولاً عن أسرة فيها صبيان بريئان لم يخاصما السلطان ولم يثيرا غضبه، وعن زوج بريئة غريبة لا شأن لها بما كان يحدث في مصر من الأحداث، ويرى نفسه مع ذلك اضطر إلى شيء يشبه العجز عن رعاية هذه الأسرة والقيام بحقها عليه في تلك الأيام. وكان يذكر رغبته في درس القانون، وكان يقدر أنه لو فعل لاستطاع

أن يتتجنب التبطل وأن يعصم هذه الأسرة مما كانت تتعرض له من البوس والضيق، ولكن هذا حديث لم يأتي وقته بعد.

أقبل الفتى إذن على درسه، وأقبل في الوقت نفسه على درس اللغة اليونانية، وشاركته زوجه في هذا الدرس، فكانت حياتهما في مونبلييه راضية حقاً، فيها نعيم العقل بهذا الإيمان في الدرس والأخذ في كل يوم بسبب جديد من أسباب المعرفة. وفيها نعيم الأمل بانتظار هذا الطفل الذي كان يسعى إلى الحياة في أناة ورفق، وفيها نعيم الرضا بالقليل والقناعة بالرزق الذي مهما يكن مقترناً فيه فقد كان يقيم الأود ويعصم من الحاجة ويرضي الزوجين عن نفسهما؛ لأنهما يحسنان التدبير والاحتمال، وكان ربما تعرضاً لبعض الهم حين يوشك الشهر أن ينقضى، ويوشك ما بين أيديهما من المال أن ينفد، فيثبتان لذلك في صرامة لا تعرف اللين وشدة لا تعرف الدعة حتى تنجلி عنهما الغمرة ويعود إليهما اليسير العسير مع أول الشهر، إن جاز أن يوصف اليسير بأنه عسير.

وكان الفتى قد أرسل نسخاً من رسالته عن ابن خلدون إلى صديق له في مصر بقيت له بعد أن أخذت السوربون خمسين ومئة نسخة، وأخذت الجامعة عشرين نسخة، وأهدى إلى بعض الرفاق والأصدقاء عدداً آخر من النسخ، وبقى له نحو مئة نسخة من هذه الرسالة، فأرسل إلى صديقه ذاك رحمة الله ليتصرف فيها كما يحب، ومضى على إرسال هذه النسخ وقت غير قصير حتى نسيها الفتى، ولكنه يتلقى ذات ضحى كتاباً من صديقه ذاك ومعه حواله على أحد المصارف بمقدار من المال لا بأس به كاد يبلغ عشرين جنيهاً.

ما كان أسعد ذينك الزوجين بهذا الكتاب، وبما حمل إليهما من معونة، كانا في أشد الحاجة إليها! ولا سيما أنه قد قرب مقدم الطفل المنتظر، ولا بد من التهؤل للقاء، ومن لقاءه حين يقبل في إكرام له وعتاية به وحفاوة تلائم ما كانا يجدان في مقدمه من السعادة. وكان ربما أدركهما حزن عميق يخفيه كل منهما على صاحبه رفقاً به وإشفاقاً عليه، فكانت هذه المعونة الطارئة منقذًا لهما من هذا العذاب.

وفي يوم من أيام شهر يونيو أقبلت أمينة مع الصبح، واختلط صياحها بغناء الطير المستيقظة، فكان لهذه الموسيقى الحلوة موقع أي موقع في قلب الزوجين أنساهمَا أو سلاهما عما وجدا في ليتهمَا تلك من رُوعٍ وما تعرّضا له من هول.

الفصل السابع عشر

ولم تجد أمينة أبويها حزينين ولا مهتمين ولا مضيقاً عليهم في استقبال زائيرهما العزيز؛ فقد أتاح لها ابن خلدون رحمة الله من السعة ما مكّنها من أن يلقيا ابنتهما كأحسن ما يكون اللقاء.

وأنقضى الصيف ثقيلاً طويلاً يضطرب فيه الزوجان بين السُّعة في أول الشهر والضيق في آخره، ولكنهما يستعينان على السُّعة والضيق جمِيعاً بتنشيءِ أمينة من جهة، والجُدُّ في إعداد الرسالة ودرس اليونانية من جهة أخرى، ولم يقبل شهر سبتمبر حتى عاد الزوجان ومعهما جوهورتهما إلى باريس.

وكان صاحبنا يقدر أنه سيفرغ الفراغ كله لرسالته إذا استقر في باريس، ليلقي أستاذه من أول العام الجامعي مستعداً للتحدث إليه بما قرأ وما فهم وما يريد أن يفعل، وليلتقى منه ما يمنحه من التوجيه والإرشاد.

ولكنه لا يكاد يبلغ باريس حتى يُصرَف عن الرسالة صُرفاً عنيفاً، ويشغل عنها شغلاً متصلًا أكثر من شهرين؛ فهذا رفيق مصرى من رفاقه في الدرس، وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها، قد ألمَ به مرضٌ عصبيٌ خطير، وليس له في باريس من يرعاه أو يهتم ل شأنه. وقد انتقلت إدارة البعثة الجامعية من باريس إلى لندن فلم يكن بد للفتى من أن يُعنِي بصديقه وزميله في الدرس، ويقوم منه مقام مدير البعثة. وهو يعرضه على الطبيب بعد الطبيب، ويكتب في شأنه إلى مدير البعثة مرة وإلى الجامعة في القاهرة مرة أخرى. وينفذ أمر الأطباء، فينقل صديقه من باريس إلى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة في الهواء الطلق والحياة الهدئة التي لا عجيج فيها ولا ضجيج. وهو مضططر إلى أن يزوره بين حين وحين، وقد يدعوه فجأة صاحب الفندق الذي يقيم فيه المريض فيسرع إليه، ويسمع من أبناء صديقه ما يملأ قلبه لوعةً وحزناً، وينثير أمامه من المشكلات ما لا يعرف إلى التفود منه طريقاً. وهو في أثناء هذا كله يتلقى الرسائل المتناقضة من الجامعة ومن مدير البعثات، ويتلقي المال القليل لينفق منه على المريض الذي كان يصرف في الإنفاق، ولم تكن حاجاته تتضمن، ويتلقى في الوقت نفسه من الجامعة مطالبه بتأدية الحساب الدقيق عما أنفق، ولا تنجلِي عنه هذه الغمرة حتى يتلقى، أمر الجامعة بإعادته الصديق المريض إلى القاهرة.

وفي أثناء هذا كله تضع الحرب أوزارها، وتعلن الهدنة، ويبيت وج الفرنسيون ونزلاء فرنسا بمقدم السلم، ولا يكاد صاحبنا يمضي فيما عاد إليه من الدرس بعد تلك المحن في صدقة الكريم عليه، الأثير عنده، حتى تأتي، الأنباء من مصر فتصرفة مرة أخرى عن

رسالته وإعدادها صرفاً عنيفاً، ولكنه لم يكن حزيناً ولا مروعاً، وإنما كان سعيداً يملأ القلب غبطة والضمير رضاً والنفس ثقة وإعجاباً، فقد جاءت الأنباء بأن مصر تطلب استقلالها إلى المحتلين المنتصرين.

ثم جاءت الأنباء بأن مصر تلقى من المحتلين عنتاً أثيناً وجحوداً أثيناً جحود، وبأن بعض المصريين قد أخرجوا عنوة من وطنهم، واتخذوا رهائن في مالطة، وبأن مصر قد غضبت لأنبائها وثارت بأعدائها.

فتتعز هذه الأنباء كلها من قلب الفتى ومن قلوب زملائه الطلاب المصريين موقع الماء من ذي الغلة الصادي. ليس الأوروبيون وحدهم إذن هم الذين يثورون غضباً للكرامة الوطنية وطموحاً إلى استقلال الوطن، بل إن مصر الأفريقية تثور هي أيضاً كما ثار الإنجليز والفرنسيون والأمريكيون وأمم غربية أخرى.

ما أوسع الآمال التي ملأت قلوب أولئك الطلاب الغرباء! وما أعظم الكبرياء التي ملأت نفوسهم! وما أكثر ما أضاعوا من الوقت في أحاديث لا تنقضي عن هذا كله! وما أكثر ما أعرضوا عن الدروس ليفرغوا لحديث الثورة والثائرين!

وكان صاحبنا مؤثراً للعزلة لا يلقى رفاقه المصريين إلا قليلاً، فقد كثر اقاؤه لهم وخوضه معهم في أحاديث الثورة والثائرين منذ جعلت الصحف الفرنسية تنشر أنباء مصر وما يجري فيها من الأحداث.

ولكنه على هذا كله لم يهمل الرسالة ولم يعرض عن درس أستاذه المشرف عليها، وإنما مضى في عمله حفيتاً به حريضاً على الجلد فيه، لأن أنباء مصر قد زادته إقداماً على إقدامٍ وجداً على جدٍّ، وهي على كل حال قد شوقته أشد التشويق إلى أن يتم درسه ويعود إلى مصر ليشهد الأحداث عن كثب؛ ومن يدرى لعله يستطيع أن يشارك في بعضها مما يتاح له أن يشارك فيه.

ولم ينس صاحبنا قط كيف كان يتلقى قارئته مع الصبح، فيغمرق معها في قراءة الفقه المدني والفقه الجنائي والمدني الروماني في كتابي المؤرخ الألماني العظيم ممش. ولم يكن الفتى يصدق – بعد أن مضت على ذلك السنون – أنه قرأ هذه المجلدات الأحد عشر في وقت قصير على ما في قراءتها من العسر وكثرة ما في هذه المجلدات من التعليقات ومن النصوص اللاتينية.

وما أكثر ما كان يسمع للقارئة وقد حمل أمينة بين ذراعيه ليتيح لزوجه أن تفرغ لما كان ينبغي أن تفرغ له من شؤون البيت!

## الفصل السابع عشر

وما أكثر ما كان ي ملي فصول هذه الرسالة وصبيته بين ذراعيه يمشي بها في غرفته الضيقة ممليًا وقارئته تسمع منه وتكلب عنه! وربما طلبت إليه أن يريح نفسه من الإملاء ويريحها من الكتابة دقائق، وأخذت منه الصبية فحملتها ومشت بها في الغرفة وغنت لها بعض ما يُغني للأطفال، وأتاحت له بذلك أن يجلس ويستريح، وزوجه في أثناء هذا كله في مطبخها مقبلة على تهيئة الغداء أو العشاء.

وفي ذات يوم يقبل الرفاق فينبئونه بأن سعدًا رحمة الله وأصحابه سيصلون إلى باريس، وأنهم يتهدّون لاستقبالهم، ويطلبون إليه أن يشاركهم في ذلك فيعتذر؛ لأنّه لا يحسن من هذه الأمور شيئاً.

ولكنه ينتظر حتى إذا استقر الوفد في باريس ذهب ذات ضحي إلى حيث كان أعضاؤه يقيّمون، فلقي سعدًا رحمة الله بعد أن لقي رفقاء، وفيهم أستاذه الرفيق به العطوف عليه أحمد لطفي السيد.

وفيهم صديقه المشجع له الذي طالما شمله بالعناية والرعاية حين كان طالبًا في الجامعة، وكانتا في الجريدة، ثم شمله بالعناية والرعاية حين كان عضواً في البعثة الجامعية بباريس، وهو عبد العزيز فهمي رحمة الله.

وفيهم غير هذين الصديقين الكريمين آخرون كان يعرفهم بأسمائهم، ثم اتصلت المودة بينه وبينهم بعد ذلك، كما اتصلت الخصومة أيضاً بينهم وبينه بعد ذلك.

لقي هؤلاء جميعاً ومعه زوجه، ثم أذن له في لقاء سعد، وكان لسعد عنده دين منعه الحياة من أدائه، حين كان طالباً في الجامعة وأتيح له أن يؤديه بعد أن كاد يتم دراسته في باريس.



**Free for development. Licenses from \$499**

<https://ironpdf.com/licensing/>

## الفصل الثامن عشر

أطول الناس لساناً!

وكان دين سعد عند صاحبنا قدّما يرجع تاريخه إلى العام الذي قدم فيه رسالته عن أبي العلاء إلى الجامعة، وظفر بعد مناقشتها بدرجة الدكتوراه، وكثير حديث الصحف والناس عن هذه الرسالة وصاحبها. وفي تلك الأيام قدّم عضواً من أعضاء الجمعية التشريعية اقتراحاً يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة؛ لأنها خرّجت ملحداً هو صاحب رسالة «ذكرى أبي العلاء».

وكان سعد رحمة الله رئيس لجنة الاقتراحات فيما يظهر، فلما عرض عليه هذا الاقتراح دعا المقترح للقاء، وطلب إليه أن يعدل عن اقتراحته. فلما أبى قال له سعد: إن أصررت على موقفك فإن اقتراحاً آخر سيقدم، وسيطلب صاحبه إلى الحكومة أن تقطع معونتها عن الأزهر؛ لأن صاحب هذه الرسالة عن أبي العلاء تعلم في الأزهر قبل أن يتعلم في الجامعة.

واضطر الرجل إلى أن يسترد اقتراحته، وسلمت للجامعة معونتها، ولم يتعرض الفتى لشّرٍ، وكان الأستاذ أحمد لطفي السيد هو الذي أبأ صاحبنا بهذه القصة، وطلب إليه أن يسعى إلى سعد بشكر هذا الجميل، ولكن الفتى استحيى إذ ذاك فلم يسع إلى سعد، وأين هو من سعد؟

فلما أتيح له لقاء رئيس الوفد في باريس شكر له تلك العارفة، وأثنى على جهده الخصب في خدمة مصر وتضحيته في سبيل الوطن والشعب. فسمع منه سعد ولكنه أجابه في فتور وضيق بأن جهده وجهد أصحابه وجهد الشعب كله لن يغنى عن الوطن

شيئاً، ألا ترى إلى كل هذه الأبواب التي غلقت من دوننا؟ وها نحن أولاء قد وصلنا إلى باريس فقط عيناً الطريق إلى مؤتمر الصلح، وألقيت الحجب الكثاف بيننا وبين مثلي الدول المشركة فيه؟

قال الفتى: ولكن هذه الجهود توقظ الشعب، وتنبهه لحقه، وتدفعه إلى المطالبة به والجهاد في سبيله.

قال سعد محولاً الحديث عن مجراه: ماذا تدرس في باريس؟

قال الفتى: أدرس التاريخ.

قال سعد: أؤمن أنت بصدق التاريخ؟

قال الفتى: نعم، إذا أحسن البحث عنه والاستقصاء له، وتخليصه من الشائبات.

قال سعد: أما أنا فيكفي أن أرى هذا التضليل، وهذه الأكاذيب التي تنشرها الصحف في أقطار الأرض، ويقبلها الناس في غير ثبت ولا تمحيص، لأقطع بالأسبيل إلى تصفيية التاريخ من الشائبات، ولأقطع بعد ذلك بالأسبيل إلى استخلاص التاريخ الصحيح من هذه الشائبات، وانظر إلى ما ينشر عنا في مصر وفي باريس، وحدثني كيف تستطيع أن تستخلص منه التاريخ الصحيح؟!

وهم الفتى أن يتكلم، ولكن سعداً مضى في حديثه قائلاً: لقد أقبلنا إلى باريس والأمل يملأ نفوسنا فلم نقم فيها أياماً حتى استأثر بنا اليأس.

قال الفتى: وكيف نيارس وقد أيقظتم الشعب فاستيقظ، ودعوتموه فاستجاب؟

قال سعد: وماذا يستطيع الشعب أن يصنع وهو أعزل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلاً عن أن يثور بأصحاب القوة والبأس؟

قال الفتى: هو الآن أعزل، ولكنه سيجد السلاح غداً.

قال سعد: وأين يجده؟

قال الفتى: إن الذين يهربون لنا الحشيش يستطيعون أن يهربوا لنا الأسلحة. فأغرق سعد في الضحك، وقال وهو ينهض: ألا تعلم أن الذين يراقبون تهريب الحشيش سيراقبون تهريب الأسلحة؟

وانصرف الفتى عن سعد فلم يره إلا بعد عام، بل أكثر من عام، ولم يلقه سعد في تلك الزيارة الثانية بباريس لقاء الهاشِّ له المرحب به، وإنما لقيه في شيء من الفتور، قال له وسمع منه، ولكنه لم يقل شيئاً ذا باٍل، ولم يسمع منه شيئاً ذا باٍل، وإنما كان لقاء قصيراً قوامه المجاملة ليس غير.

وقد عرف الفتى مصدر هذا الفتور، فلم يضق به، ولم يبتهج له، وإنما هز رأسه ورفع كتفيه. وكان مصدر هذا الفتور أن جماعة من تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أحيا ذكرى وفاة أستاذهم في الجامعة، وخطب صاحبنا في ذلك الحفل فرغم أن مصر مدينة بما أتيح لها من اليقظة لثلاثة رجال لا ينبغي أن تنساهم: **أولهم: الأستاذ الإمام الذي أحيا الحرية العقلية.**

**والثاني: مصطفى كامل الذي أذكى جذوة الحرية السياسية.**

**والثالث: قاسم أمين الذي أحيا الحرية الاجتماعية.**

وقرأ سعد هذا الحديث فوجد على الفتى؛ لأنه لم يذكره بين هؤلاء العظاماء. وتواترت خطوب السياسة بعد ذلك، وكان صاحبنا أطول الكتاب لساناً وأجرأهم قلماً في مهاجمة سعد ونقد سياساته قبل أن يلي الحكم وبعد أن ولية، وبعد أن اضطر إلى اعتزاله. وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أي مكروه، ولكنه لقي سعداً بعد ذلك للمرة الثالثة والأخيرة في دار شوقي، رحمة الله.

كان شوقي يستقبل الشاعر الهندي العظيم تاجور، وقد دعا لهذا الاستقبال من شاء الله أن يدعوه من أصحاب الثقافة ورجال السياسة والحكم، وكان صاحبنا أحد المدعويين. وإنه لبين جماعة من أصحابه وإذا سعد بقيا، فيخُف الناس جميعاً للقائه ويهُم صاحبنا أن يتأخر ولكن أصحابه يدفعونه دفعاً، وكان أشد هم في ذلك الشيخ عبد العزيز البشري رحمة الله، ويجد الفتى نفسه يصافح سعداً ويسمع سعداً يلقاء لقاءاً حسناً، ثم يعود الناس إلى أماكنهم ويقيم سعد ساعة أو بعض ساعة ثم ينصرف إلى مجلس النواب، وكان له رئيساً.

وقد كاد الفتى يلقي سعداً مرة أخرى لو أريد الفتى على أن يلقي سعداً مرة أخرى، ولكنه امتنع وألح في الامتناع فلم يتم هذا اللقاء. كان ذلك حين أراد بعض النواب الوفديين أن يثير قصة الشعر الجاهلي مرة أخرى في المجلس، فرده سعد عن ذلك قائلاً: لقد انتهى هذا الموضوع فلا معنى للعودة إليه.

قرأ صاحبنا ذلك في الصحف فلم يك يحفل به أو يلقي إليه بالاً، ولكن الأستاذ أحمد لطفي السيد كان مدير الجامعة ورفيقاً بصاحبنا. فألح عليه في أن يمر بدار سعد ويترك بطاقة، وعسى أن يلقاء فيشكر له كلمته الطيبة في مجلس النواب، ولكن صاحبنا أبي وأصرّ على الإباء، وقال: إن سعداً لم يزد على أن أدى واجبه وكفَّ سفيهاً أحمق من نوابه عن سفهه وحمقه.

واشتد الجدال في ذلك بين الأستاذ وتلميذه ولكنهما لم يصلا إلى شيء، فاحتكمَا في المساء إلى عبد العزيز فهمي رحمة الله، ولم يلبيث هذا أن قضى لصاحبنا في غير مشقة ولا جدال. وما أسرع ما استحال الأمر كله إلى دعاية بين الأستاذين الكبيرين حول ما كان يملأ قلب عبد العزيز فهمي وعقله ويجري على لسانه من سخط على سعد، وإنكار لكل ما كان يصدر عنه من قول أو فعل، لا لشيء إلا لأنه صدر عن سعد.

وذلك كانت صلة صاحبنا بسعد يسيرة كلَّ اليسير في ظاهرها، عسيرة أشد العسر في حقائقها ودخائلها، جرَّت على الفتى شرًّا كثيرًا، وأنابت له مع ذلك خيراً كثيرًا، وتقلبت به بين ضروب من الرضا والسخط، وفنون من الأمل واليأس، وألوان من الشدة واللين، ولكن حديث هذا كله لم يأتِ إبانه بعد.

فلنعد إلى صاحبنا في باريس لنراه مقبلاً على حياته، غارقاً في مشكلتها، مثقلًا بأعبائها، يعُد رسالته، ويختلف إلى دروسه، ويلقى أستاذه، ويحمل ضرورياً من الجهد في إجراء حياة أسرته على ما ينبغي أن تجري عليه من السعة اليسيرة التي تقييم الأود ولا تعرض للباس أو الشقاء.

وأقبل الصيف وقد قدَّم صاحبنا رسالته إلى السوربون فرضيت عنها. ولكنه لم يرسلها إلى الجامعة، ولم تأسَّلُه الجامعة عنها، وإنما أقبل على امتحانه فنجح فيه نجاحًا حسناً، وظفر بالدبلوم، وأتم بذلك أداء واجبه الذي كلفته الجامعة أن يؤديه، وأن له أن يعود إلى مصر.

ولكن عودته إلى مصر أثارت بينه وبين المدير الإنجليزي للبعثة خلافاً طويلاً ثقيلاً سخيفاً في وقت واحد؛ فقد كان نظام البعثة يقضي بأن يعود الطالب إلى مصر على نفقة الجامعة إن أتم دراسته على الخطة المرسومة له، ولكن صاحبنا لن يعود وحده، بل ستتصحبه زوجه، فعلى نفقة من تعود هذه الزوج؟

هنا حار المدير الإنجليزي للبعثة، فكتب إلى الجامعة مستفتياً، وأذنت له الجامعة في أن يعيد الزوجين جميعاً، ولكن الزوجين لن يستطيعا العودة إلا إذا عادت معهما أشقاليهما. وكانت الكتب أهم هذه الانتقال، فهي أكثر وأضخم من أن توضع في الحقائب، وكثير منها ملك للجامعة سيسقطر في مكتبتها آخر الأمر، والانتقال من باريس إلى القاهرة لا يتم بمجرد أن يتسلَّم المسافر بطاقات السفر في القطار والسفينة، ولكنَّه يحتاج إلى فضل من النفقـة، فمن يؤدي هذا الفضل من النفقـة؟ وكذلك احتاج مدير البعثة أن يكتب إلى الجامعة مستفتياً مرة أخرى، وليس شيء أضيق للوقت ولا أقلَّ للجدٍ ولا أدعى إلى

السأم والضيق من الجدال الطويل المتصل حول الموضوع السخيف الذي لا خطر له ولا طائل فيه.

وكم ضاق الفتى بما كان يكتب وما كان يتلقى من الرسائل حول هذا السخف الذي لا يغنى عنه شيئاً، ولكنه وصل مع زوجه إلى مارسيليا عشية اليوم الذي حدد لإبحار السفينة.

ولا يكادان يصلان إلى هذه المدينة حتى يعلم، ويما ثقل ما علمَا! أن سفينتهم لن تبحر من الغد؛ لأن إضراباً يحول بينها وبين الإبحار، واتصل بالإضراب يوماً ويوماً. ثم اتصل بعد ذلك حتى بلغ خمسة وعشرين يوماً، وليس مع صاحبنا وزوجه وطفلهما ما ينفقان، ولا أمل في الاتصال بمدير البعثة، ولا سبيل إلى الاتصال المباشر بالجامعة، فليقترض إذن من زميله ذاك الذي سيعود معه على السفينة نفسها، والذي ينتظر مثله أن ينقضي الإضراب، والذي لا يخلو جيبيه من مال كثير، لا لأنه كان غنياً، بل لأنه كان مدبراً مقتصداً أروع تدبير واقتصاد، وقد أخذ يفترض، وببدأ الزوجان حياتهما المستقلة بالدين وأيّ دين.

ويبلغان الإسكندرية بعد لأيٍ وقد شقّ عليهما السفر، وعنف بسفينتهما البحر، ونفذ ما اقتراضا من المال، ولكن الفتى كان قد كتب إلى صديقه الكريم عليه المؤثر له حسن باشا عبد الرزاق محافظ الإسكندرية إذ ذاك بمقدمه، فلا تكاد السفينة ترسو حتى يقبل رسل المحافظ الصديق فيستخلصوا الأسرة من الضيق والشدة والحريرة إلى السعة والدعة والاطمئنان في ذلك البيت الرائق الجميل الذي كان المحافظ قد اتخذه في رمل الإسكندرية.

وفي هذا البيت تقيم الأسرة مع الصديق الكريم رحمة الله أسبوعاً قبل أن تمضي إلى القاهرة، ولكنها تؤثر الإقامة في الإسكندرية وتشفق من شظف العيش الذي ينتظرها متى هبطت من القطار، ومن لها بالقطار وصاحبنا لا يملك أجره ولا يجرؤ على أن يتحدث إلى صديقه في ذلك، ولا يستطيع أن يكتب إلى أخيه في القاهرة؛ لأن زوجه لا تكتب العربية، وأن أخاه لا يقرأ الفرنسية!

وإن الزوجين لفي سمرهما مع المحافظ الصديق ذات ليلة، وإنما هو ينبعهما بأن قد آن لهما أن يسافرا، وأن للفتى أن يقدم نفسه إلى الجامعة التي تعرف وصوله إلى مصر وتنظر مقدمه إليها.

وقد أعد كل شيء لسفرهما في القطار الذي يبرح الإسكندرية ضحى الغد، فإذا أصبحا وفرغا من طعام الإفطار أقبل الصديق متلطفاً يقول لزوج الفتى: أترغبين النقد المصري؟

قالت متضاحكه: لا.

ـ هاهو ذا فادرسيه على مهلٍ.

ثم دعهما وانصرف مسرعاً فركب عربته إلى مكتبه.

وتدرس زوج الفتى هذا النقد، فإذا الصديق قد جمع لها أوراقاً تصور النقد المصري إلى العشرة من الجنيهات، وقد فهم الزوجان عن صديقهما، وأضافا في حسابهما دينًا بؤدّ قط، إلى دين ما أسرع ما طالب صاحبه بأدائه ومعه فوائد على قلة ما لبث الدين في ذمتها من الأسابيع!

ويتجاوز النهار نصفه قليلاً ويبلغ القطار محطة القاهرة، وينظر الزوجان فإذا هما في غمرة من الأهل والصديق، ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب حياتهما الجديدة بأسباب مصر.

## الفصل التاسع عشر

رفضت أن أحضر مؤتمراً للعميان!

وبدأت حياة الزوجين في مصر متغيرة، يبسم لها الأمل فتحفُ وتشرق، وتعبس لها الضرورة فتنقل وتظلم. كانا ضيفاً على أخي الفتى، ولكنهما كانا يعلمان أن هذه الضيافة لا ينبغي لها أن تطول، وأن ليس لهما بدُّ من أن يستقللاً بحياتهم ولا يكونا عياً على قريبي أو غريب. واستقلال الأفراد كاستقلال الجماعات، لا يهبط لهم من السماء ولا ينجم لهم من الأرض، وإنما يكتسب اكتساباً، وتبتغى إليه الوسائل، وتسلك إليه السبل التي تستقيم بأصحابها حيناً وتلتوي بهم حيناً آخر. وكانوا يعرفان هذا كلَّه، ويعرفان السبيل إلى استقلالهما، ولكن صاحبنا لم يكن يملك الوسائل إلى سلوك هذه السبيل؛ فهو لا يملك درهماً ولا ديناراً، وقد بخلت الجامعة عليه بما كانت تمنه الناجحين من طلابها إذا عادوا إلى مصر من المكافأة ليهياً أنفسهم لاستقبال حياتهم الجامعية. وأكبر الظن أنها لم تبذل عليه بهذه المكافأة عن رضا واختيار، بل عن كره واضطرار، فقد رأى صاحبنا نفسه إذن مضطراً إلى أن يفترض من المال ما يتاح لزوجه وله أن يأويا إلى دارِ يعيشان فيها كما يريدان، لا كما يُراد لهما.

وهوَنْ عليه الأمر صديقُ كريمُ هو الأستاذ محمد رمضان رحمة الله صحبه إلى شركة كانت تسمى شركة التعاون المالي، وضمنه عند هذه الشركة، فأقرضته مئة من الجنيهات واقتطعت منها الفائدة وأعطته سائرها. وظن الفتى حين وقع في يده هذا المال أنه أصبح على رأس ثروة ضخمة، فهو لم يملك مثل هذا المقدار من المال قبل اليوم. وقد

أُتى عليه حين من الدهر كان أقصى ما يمكن أن يقع في يده من المال لا يبلغ الجنيه غالباً ولا يتجاوزه بحال من الأحوال، ثم أُتى عليه حين آخر من الدهر كان أقصى ما وصل إليه من المال لا يزيد على عشرين جنيهاً.

أتيح له هذا المقدار الذي كان يراه ضخماً حين نجح في الجامعة بمصر، وحين نجح في السوربون بباريس، وهو اليوم يعُد الجنيهات التي صارت إليه بالعشرات الكثيرة، على أنه لم يلبث أن رأى هذه العشرات تتناقص شيئاً فشيئاً، فقد أدى دينه إلى زميله ذلك الفتى الذي أعاذه على انتظار آخر الإضراب في مارسيليا.

ومَرَّ مع زوجه بمصرف الكريدي ليونييه، ولا أدرى كيف كان ذلك، فقرأت عليه زوجة إعلاناً ينبيء بأن المصرف يعرض منذ اليوم للبيع سهاماً في قرض فرنسي جديد. ومن مزايا هذه السهام أن القرعة تجري بينها من حين إلى حين، وأن بعض هذه السهام يمكن أن يربح مليوناً من الفرنكـات، وكانت قيمة هذا المليون في تلك الأيام عشرين ألفاً من الجنيهـا. ولم يسمع الفتى هذا الإعلان حتى عزم على زوجه لتدخلن معه المصرف وليشترين لها سهماً من هذه السهام، وقد أبـت عليه أشد الإباء، ولكنه أحـ وغلا في الإلـاح حتى استجابت له كارهة. وما هي إلا ساعة حتى رأـ الفتى زوجه مسـهمـة في هذا القرض الفـرنـسي، وجعلـ الآمال تداعـبهـ، وجعلـ يقيـسـ ما بـقـيـ لهـ منـ مـالـ إـلـىـ الـأـلـفـ العـشـرـينـ التيـ يـمـكـنـ أـنـ تـسـاقـ إـلـىـ زـوـجـهـ إـنـ رـبـحـ سـهـمـهـاـ بـعـدـ حـينـ، فـيـأـخـذـهـ شـيءـ يـشـبهـ الدـوارـ.

ولكن الاقتراض الأول قد أُجْرِيَ، وربح فيه سهم مصرى لم يكن سهم زوجه، وإنما كان يملكه مظلوم باشا رحمه الله.

وَمَا أَكْثَرُ مَا ضَحِكَ الزَّوْجَانِ حِينَ قَرَأُوا ذَلِكَ النَّبَأً، وَهِينَ صَحَ لَهُمَا مَا كَانَا يَسْمَعُانَ  
مِنْ أَنَّ الْمَالَ يَدْعُو الْمَالَ، وَمِنْ أَنَّ الْعُسْرَ لَا يَدْعُو الْيُسْرَ إِلَّا قَلِيلًا!

وقد مرت الشهور والأعوام وجعل الفرنك ينحدلُ ويتساءل، وتنحدل معه قيمة هذه الأسهم ويتتساءل، حتى بلغت قيمة السهم الذي اشتراه الفتى لزوجة سبعة جنيهات، ثم خمسة، ثم انتهت إلى ثلاثة، ثم انقطعت أنباءه وذاب كما يذوب الملح في الماء. مهما يكن من شيء فقد نظر صاحبنا بعد أداء دينه وشراء سهمه إلى ما بقي له من المال، فإذا هو لا يبلغ العشرات الخمس، وإذا هو أقصر يدًا وأضيق ذراعًا من أن يبلغ ما يريده ويؤسس لزوجة ولنفسه دارًا يرضيyan عنها وعما فيها، ولا بدّ لها مع ذلك من دارٍ ومن أثاثٍ في تلك الدار، فاستأجر لها الأستاذ محمد رمضان دارًا في حيِّ السكاكيَّيْنِ، وعمداً

## الفصل التاسع عشر

ومعهما الأستاذ محمد رمضان إلى سقط الماتع، فاشتريا منه ما يقوم بأمر تلك الدار من الأثاث.

وما أشد ما شقيت نفس الفتى حين كان يرى زوجه تغالب دموعها وهي تخثار بين ذلك السخف الذي لم يكن بدُّ من الاكتفاء به حتى يجعل الله بعد عسِّيرٍ يسراً، وبعد ضيقٍ سعة، وبعد حرج فرجاً.

وقد أوى الزوجان آخر الأمر إلى دارهما، وخداعاً نفسيهما عما فيها، واطمأنا إلى ما لم يكن بدُّ من الاطمئنان إليه.

وكان صاحبنا قد صرف هذا الوقت الطويل عما كان ينبغي أن يفكر فيه منذ بلغ القاهرة. فستبدأ الدراسة في الجامعة بعد أيام، وليس له بدُّ من أن يعد درسه الأول ويتهيأً للقائه في ذلك الحفل الذي سيقدمه فيه إلى المستمعين عضو من أعضاء مجلس الإداره. وما أسرع ما عاد إلى الكتب، وعاد الصوت العذب إلى القراءة، وعاد اشتراك الزوجين في هذه الحياة الصافية النقية التي لا يذكرها المال ولا ينفعها الحرمان، والتي تسلي عن اليأس والبؤس والحرمان.

وجاء اليوم الموعود، وأقبل صاحبنا إلى قاعة الدرس، فتلقاء ثروت باشا رحمة الله، وقدَّمه إلى المستمعين أحسن تقديم، وألقى صاحبنا درسه، فرضي عنه الناس، ورضي عنه هو أيضاً.

وعاد الزوجان من ليتلهمَا تلك موفورين محبورين، قد ملأ الأمل قلبيهما، وأزالا عنهما وَضَرَ ما احتملا من شقاء، وكان حظهما من السعادة والغبطة والرضا أعظم وأعمق بعد أن ألقى صاحبنا درسه الثاني.

وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذي اختاره صاحبنا لدروسه في هذا العام، ولا سبيل إلى الأخذ في درس التاريخ إلا إذا قُدِّم بين يديه وصف جغرافي للبلاد التي يدرس تاريخها، فكان على صاحبنا أن يعرض الوصف الجغرافي لبلاد اليونان، وشهد الله لقد عرض هذا الوصف فملك قلوب الذين استمعوا له، وملا نفوسهم رضا عنه وإعجاباً به، وهو لم يصنع في إعداد هذا الدرس إلا أن سمع لزوجه وأطاع.

أرادت زوجه أن تفهمه الوصف الجغرافي لبلاد اليونان، فأخذت قطعة من الورق وصاغتها في شكلها على نحو ما صاغت الطبيعة تلك البلاد، ثم أرادت أن تصوّر ما في هذه البلاد من الجبل والسهل الذي يضيق حيناً ويتسع حيناً، ومن البحار التي تأخذها من أكثر جهاتها. فصوّرت ذلك بارزاً في هذه القطعة من الورق ثم أخذت يد الفتى

وجعلت تمرّها على هذه الورقة، بعد أن افترضت معه أنها تبدأ من الجنوب وتمضي إلى الشمال، وتتحرف مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب، لت BIN له موقع البحر، ولتبين له الأماكن التي تصيق حيناً وتتسع حيناً، والتي كانت تقوم فيها المدن القديمة، وما زالت به حتى فهم ذلك حق الفهم وأعاده عليها فاطمانت إليه.

وكان أول ما عجب له الموظفون في الجامعة أن صاحبنا طلب قبل الدرس أن تعرّض الصورة الجغرافية لبلاد اليونان في قاعة الدروس. سمع الموظفون ذلك فأنكروه، ولكنهم أضمرموا إنكارهم وأجابوه إلى ما أراد، وأقبل الفتى على مجلسه فأناب المستمعين بأنه سيصف لهم بلاد اليونان من جنوبها إلى شمالها، وليس عليهم إلا أن يتبعوه بأبصارهم على هذه اللوحة المصورة. ثم أخذ في الحديث فلم يلجلج ولم يتردد، والطلاب يسمعون بآذانهم ويتابعون بأبصارهم حتى انقضت ساعة الدرس وقد أتم الفتى ما أراد من الوصف الجغرافي لبلاد اليونان.

وكان ثروت باشا حاضراً هذا الدرس، فلما تفرق الطلاب دعا الفتى إليه فأشبعه ثناءً وتقريرياً وتشجيعاً.

ولم تمض أيام بعد تلك الليلة السعيدة حتى أقبل على دار الفتى ذات ضحي شاب من موظفي القصر، فأنبأه بأنه قد أقبل يدعوه للقاء رئيس الديوان.

قال الفتى: وماذا يريد مني رئيس الديوان السلطاني وأنا لم أعرفه، وما أظنه رأني قط؟

قال الموظف: لا أدرى، ولكنه أمرني أن أدعوك للقاء، وأن أصحبك إلى مكتبه. وبعد ساعة كان الفتى عند رئيس الديوان شكري باشا رحمه الله فرأى رجلاً سمح النفس، عذب الحديث، خفيف الظل، له مشاركة في الأدب العربي، ولكن في الأدب العربي الذي كان الناس يحبونه في القرن الماضي، فهو كان يتحدث عن الجنس والطباق وحسن الفكاهة وبراعة التورية، ويروي لكل هذا أمثلة من الشعر المتأخر لم يحفظ الفتى منها إلا بيتاً واحداً؛ لأنه لم يك يسمعه حتى غلبه الضحك على ما كان ينبغي له من الأدب والوقار في ذلك المجلس المهيّب، وضحك شكري باشا لضحك الفتى، وقال في نغمة لا تخلو من حزن: كان هذا البيت يملئنا رضاً وإعجاباً وهو أنتم أولاء شباب اليوم تضحكون وتتندرنون به وبأمثاله، والبيت هو:

أخذ الكِرا مُنِّي وأحرمني الكَرَى      بيّني وبيّنك يا ظلّوم الموقف

ويجب أن تقرأ الكِرا مكسور الكاف في أول البيت وهو الأجر ومفتوح الكاف في آخر الشطر الأول وهو النوم، وأن تعرف أن «الموقف» هو ذلك المكان الذي كانت تجتمع فيه الحُمُر لتحمل إلى حيث يريدون من المدينة.

والشاعر يريد أن يقول: إن صاحب الحمار قد أخذ منه الأجر، واشتَطَ عليه فيه، فزاد عنه النوم، ثم هو يشكو من ظلم صاحب الحمار، ويجعل موقف الحساب يوم القيمة بينه وبينه لينصفه الله منه.

وظاهر أن الجناس بين الكِرا والكَرَى والتورية بالموقف لموقف الحُمُر هما مصدر الجمال الذي فتن رئيس الديوان وأضحك الفتى؛ ولا عليك من هذه الهمزة التي زيدت في حرمي فقد دعت إليها ضرورة الوزن، والضرورات تتبع المحظورات!

وطال مجلس الفتى عند رئيس الديوان حتى إذا أقبل بعض الزائرين، استأذن في أن ينصرف، فأذن له الرئيس وهمس في أذنه: إن مولانا يحب أن يراك.

ولم يعرف صاحبنا كيف يقول، ولكنه لم يُمْسِ من ذلك اليوم حتى عاد إليه موظف القصر يحمل إليه كتاباً من كبير الأماء بأن المقابلة التي التمس التشرف بها قد حُدد لها تمام الساعة الحادية عشرة من صباح غدٍ.

وسمع الفتى ذلك الكتاب فلم يملك نفسه أن قال: ولكني لم التمس شيئاً.

قال موظف القصر في صوتٍ يجري فيه الخوف: لا تقل هذا، فمراسم التشرف بمقابلة مولانا تقتضي دائمًا أن تطلب المقابلة.

وসكت الموظف قليلاً ثم قال: هل عندك سترة الردنجوت؟

قال الفتى: نعم.

قال الموظف: ما شاء الله! كنت أريد أن أغيرك سترتي.

قال الفتى: لقد اتخذت هذه السترة حين كنت أتهيأ للزواج.

ولم تتم الساعة العاشرة من صباح غد حتى أقبل موظف القصر ذاك رحمه الله فصاحب الفتى إلى حيث أسلمه لأحد الأماء الذي أخذ يحده حتى حان موعد المقابلة، فصحبه إلى مكتب السلطان، وخفَّ السلطان للقائه كأحسن ما يكون اللقاء، ثم أجلسه غير بعيد من المائدة التي كان يجلس إليها، وتلطّف له في الحديث، وشمله بعطفٍ كثيرٍ، وسألته: ماذا درس في فرنساً؟ وماذا نال من الدرجات الجامعية؟ فلما أ Nichols الفتى بما درس وما نال من الدرجات أظهر الرضا، وأثنى على الفتى ثناءً حسناً لأنه درس اللغتين القديمتين، ثم قال مترافقاً: تعلم أنني كنت رئيس الجامعة حين كنت أنت طالباً فيها

فأطرق الفتى ولم يُجب، قال السلطان: إنما ذَكْرُك بذلك لادعوك إلى أن تلجا إلى  
كلما ضقت بشيء أو احتجت إلى عنون.

واضطرب لسان الفتى بالشくる، ولكن السلطان دقَّ الجرس ووقف، فوقفت الفتى،  
وأقبل الأمين فصحبه إلى خارج الغرفة، وأسلمه إلى موظف القصر ليردَّه إلى داره.  
وكان الفتى مضطرباً قبل أن يلقى السلطان لقصة كانت له معه حين كان رئيساً  
للجامعة، وكان صاحبنا طالباً فيها.

انعقد في مصر مؤتمر للمكتوفين في سنة من تلك السنين، واهتم له سكرتير الجامعة  
أحمد زكي «بك»، فألقى فيه حديثاً وقدم إليه كتاباً عربياً قديماً ينبغي فيما يظهر بأن  
العرب قد سبقوا إلى اختراع الكتابة البارزة.

وفي ذات مساء كان الفتى يسعى إلى غرفة الدرس، وإنما رجل يأخذ بمجامع جبهة  
وقفطانه ويقول له في لغة ملتوية: تعرف أن في مصر الآن مؤتمراً منعقداً يبحث في شؤون  
العميان!

قال الفتى في عنف: وما أنا وذاك؟!

قال الرجل: تلقي فيه خطبة.

قال الفتى: لن ألقى شيئاً.

فخلال الرجل ومضى وهو يقول: مش فاهم، مش فاهم.

ولم يكِد الفتى يبلغ غرفة الدرس حتى أحاط به ثلاثة أو أربعة من أعضاء مجلس  
إدارة الجامعة وجعلوا يسألونه: أتعرف من حدثك؟

قال الفتى: لا أعرفه، ولا يعنيني أن أعرفه.

قال قائلاً منهم وهو يضع يده على كتف الفتى: إنه أفندينا الأمير! إنه رئيس  
الجامعة، فلا أقل من أن تجيئه في أدب حين يتحدث إليك.

وهزَ الفتى رأسه ولم يقل شيئاً، فتفرقوا عنه، وإن أحدهم ليقول: «دعوه فإنه  
شيخ!»

ذكر صاحبنا هذه القصة في طريقه إلى القصر فاضطرب لها، فلما ذكره السلطان  
بأنه كان رئيساً للجامعة وقع في نفسه أن السلطان يريد أن يذكره بتلك القصة، فكاد  
الاضطراب يغلبه على أمره لولا أن السلطان ردَّه إلى الهدوء بما مضى فيه من حديثه  
ذاك.

ولم يمض وقت طويل حتى تعقدت الأمور بين الجامعة وبين صاحبنا، فهو قد تبين  
أن زوجه لا تستطيع أن تمنحه من وقتها كل ما يحتاج إليه للقراءة وإعداد الدروس،

ولا تستطيع أن تصحبه دائمًا إلى الجامعة، ولا أن تخرج معه كلما أراد الخروج، فليس لها بدًّ من أن تُعني بصبيتها ومن أن تقوم على دارها، وإنْ فَهُو محتاج إلى رفيق يقرأ له أكثر النهار، ويغدو معه ويروح كلما أراد عدُواً أو رواحًا، ولا سبيل إلى أن يقطع أجر هذا الرفيق من مرتبه، وكان ثلاثة وثلاثين جنيهاً يقطع منه في كل شهر ما يؤدي به بعض دينه لشركة التعاون، فطلب إلى الجامعة أن تزيد في مرتبه ما يعينه على أجر ذلك الرفيق، وأبْتَأْت عليه الجامعة ما طلب كأنها ضاقت بكثره مطالبه، فاستقال في لهجة شديدةٍ غضب لها مجلس الإدارة أشد الغضب.

وقال سكرتير الجامعة لصاحبنا ذات مساء: إن المجلس ممزع أن يقبل استقالتك وأن يطالبك بأن تردد على الجامعة ما أنفقت عليك في أثناء إقامتك في فرنسا.

وسمع صاحبنا ذلك فضاق به، واكتأب له، وراح إلى أهله محزوناً كاسف البال؛ فلما قصَّ الأمر على زوجه هُوتَت عليه الصعب، ويسرت عليه العسير، وأقنعته بأنه كغيره من الناس يخطئ ويصيب، وبأنه أخطأ حين أسرع إلى الاستقالة، والرجوع إلى الصواب خيرٌ من الإصرار على الخطأ، وأسرف حين أساء إلى الجامعة التي أحسنت إليه، والرجوع إلى القصد خيرٌ من التمادي في الإسراف، فليس عليه بأس أن يسترد استقالته، وليس عليه بأس أن يعتذر من لهجته تلك القاسية.

وأصبح صاحبنا فاستردَ استقالته راغماً، واعتذر إلى الجامعة راغماً أيضاً، واقطع من مرتبه منذ ذلك اليوم أجر ذلك الرفيق الشيخ الذي كان يقرأ له ويفدو معه ويروح، ولم يعلم الفتى كيف ارتفع أمر هذه الخصومة بينه وبين الجامعة إلى السلطان، ولكن موظف القصر يزوره ذات مساء ويقول له في صوتٍ متضايقٍ: لقد التمسَّت التشرف بمقابلة عظمة السلطان، وقد حدد لهذه المقابلة منتصف الساعة الثانية عشرة من الغد.

ويدفع إليه كتاباً من كبير الأمناء بهذا المعنى، فإذا انصرف عنه قال: سأصحبك غداً إلى القصر.

وتلقى السلطان صاحبنا لقاءً حسناً، وتحدث إليه فأطّال الحديث، ثم قال له فجأةً: لقد بلغني نباءً استقالتك من الجامعة، وقد أحسنت بالعدول عن هذه الاستقالة، ولا بد من صبرٍ طويلٍ واحتمال كثيرٍ من الجهد، وبين هؤلاء الناس وبين حسن الذوق وقت ما زال طويلاً، ولكن اذكر دائمًا ما قلت له حين لقيتك في المرة الأولى.

ثم دق الجرس ووقف، فوقف الفتى، وأقبل الأمين فقاده إلى خارج الغرفة.

وشعر صاحبنا بأن عليه منذ اليوم للسلطان دينًا يجب أن يؤدى، ولم تمض شهور حتى كان قد أتم أول كتاب أصدره بعد عودته من أوروبا: «صحف مختارة من الشعر التمثيلي اليوناني»، فأهداه إلى السلطان، ورفعه إليه في مقابلة ثلاثة التمسها هو وأجيب إليها، وظن أنه قد أدى إلى السلطان حقه وشكر له عطفه عليه وبرّه به، ولكن السلطان كان يرى شيئاً آخر، وينتظر شكرًا آخر غير إهداء كتاب مهما يكن موضوعه.

## الفصل العشرون

إيمان بالثورة!

لم يكن صاحبنا قد أتم العقد الثالث من عمره حين عاد من أوروبا وأصبح أستاداً في الجامعة، ولكنه كان يعتقد أن تجاربه الكثيرة التي بلا حلوها ومرّها في أثناء إقامته في فرنسا قد تجاوزت به هذه السن، ونفيَّت به على الأربعين؛ فهو قد أنفق في فرنسا أعوام الحرب العالمية كلها، وهو لم يعش تلك الأعوام لاهياً عما كان يجري حوله من الأحداث، ولا غافلاً عما كان في هذه الأحداث من عبر وعظات. وهو لا يذكر أنه صُرف عن أحداث الحرب وأصدائها في الأمة الفرنسية وغيرها من الأمم المحاربة يوماً من الأيام. كان يقرأ الصحف الفرنسية معنِّياً بقراءتها، وكان يطيل التفكير فيما يقرأ.

وهو لم يعد إلى مصر إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وامتاز المنتصر من المهزوم، وظهرت آثار الانتصار عند الغالبين، وأثار الهزيمة عند المغلوبين، وثلث عروش كان الناس يقدرون لها الخلود، وذلت شعوب كان الناس يقدرون لها سلطاناً لا يزول. وفي أثناء تلك الحرب كانت ثورة لم يعرف التاريخ لها نظيراً إلا الثورة الأمريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر. وقد حاولت هذه الثورة أن تحقق نظاماً كان الناس

يقرءونه في الكتب، ويعتقدون أنه من هذه المثل البعيدة التي لا سبيل إلى تحقيقها.

كل ذلك عرفه صاحبنا وتتبع أنباءه وأثاره في عنایة لم تكن أقل من عنايته بالدرس والتحصيل، وهو في هذا الدرس وهذا التحصيل قدقرأ وسمع أستاذته يعرضون ويفسرون تاريخ الأمم القديمة والحديثة، وما اختلف عليها من الأحداث التي تطورت لها نظم الحكم على اختلاف العصور. وكان شديد التأثر بدوروس الأستاذ دوركيم في علم

الاجتماع، وكان الأستاذ دوركيم قد أنفق عاماً كاملاً يدرس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسي سان سيمون الذي يقوم على أن أمور الحكم الصالح المنتج الذي يحقق العدل، ويکفل رقى الشعب، ويتتيح للإنسانية أن تتقدم إلى أمام، يجب أن تصير إلى العلماء؛ لأنهم هم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقيّ.

فليس غريباً أن يعود صاحبنا إلى وطنه مؤمناً بالثورة التي نشبت فيه، ومؤمناً في الوقت نفسه بأن عبّا خطيراً من أعباء هذه الثورة سيقع على العلماء والمثقفين من أبناء هذا الوطن. فهم قد عرفوا تجارب الأمم، وعرفوا حقائق العلم، واستطاعوا أن يميزوا بين ما يمكن من الأمر وما لا يمكن، وهم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير، ويسلكوا به قصد السبيل، ويعصموه من التورط فيما تورطت فيه شعوب كثيرة فلم تجن منه إلا شرّاً.

وكان صاحبنا يقدر أن الساسة الذين يقودون الثورة سيختلفون في يوم قريب أو بعيد، ويعتقد أن العلماء والمفكرين سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون، وسيقضون بينهم فيما يضطرون إليه من الاختلاف.

كان مؤمناً بهذا، وكان مستيقناً أن العلماء والمفكرين لن ينحازوا إلى الأحزاب، ولن يكونوا كغيرهم من عامة الناس، الذين يقادون ولا يقودون. ولم يكن يقدر أن سيشارك في السياسة من قرب أو بعد، ولكنه لم يكن يتَرَدَّد في أنه لن يحجم عن أداء الواجب، وقول كلمة الحق إن اضطر إلى ذلك غير حاسب للظروف ولا للعواقب حساباً.

على أنه لم ينفق في مصر شهوراً حتى تبين أنه كان واهماً في كل ما قدر، وأن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التي يعيشون فيها، فيخطئون مثلها ويصيبون. بل هم قد يرون الخطر ويعتمدون إليه متابعين للجماعات التي يذهبون مذهبها أو يرون رأيها، وهنالك تبين أن ذلك الشاعر الجاهلي إنما صور حقيقة خالدة من حقائق الجماعات حين قال:

فلم يستبينوا الرُّشد إِلَّا ضُحَى الغِدْ  
غَوَيْتُهُمْ أَوْ أَنْتَيْ غَيْرُ مُهْتَدِي  
غَوَيْتُ إِنْ تُرْشَدْ غَزِيَّةُ أَرْشِدِ

أَمْرُتُهُمُوْ أَمْرِي بِمُنْعَرِجِ اللُّوى  
فَلَمَّا عَصَوْنِي كَنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى  
وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةِ إِنْ غَوَتْ

وكان أول ما لاحظ بعد أن أقام وقتاً قصيراً في مصر، أن الأمر كان مختلفاً بين الذين كانوا يَرُون أنفسهم علماء وملائكة، وبين عامة الناس والشباب منهم خاصة. فأما أولئك فكانوا يؤمنون بالثورة، ولكنهم كانوا يؤمنون بأنفسهم أيضاً؛ وهو من أجل ذلك لا ينظرون إلى الأحداث ولا يشاركون فيها خالصين لها في غير تردد، وإنما كانوا يقدرون لأرجلاهم مواضعها قبل الخطوة، ولا يتحرّجون من نقد الساسة والقادة والتذرّع بهم حين يقولون وحين يفعلون، وكان هذا الموقف يعرضهم للانقسام على أنفسهم ومشاركة الساسة في الاختلاف حين يتورّطون فيه.

وأما عامة الناس – والشباب منهم خاصة – فكانوا مؤمنين بالثورة، قد أخلصوا لها نفوسهم وقلوبهم وأيديهم أيضاً، لا يفكرون في عاقبته ولا يخافون هولاً مهما يكن. وهم كانوا يعرضون صدورهم لرصاص الإنجليز، ويغامرون بحياتهم مغامرة رائعة على حين كان بعض الساسة القائمين بالحكم في تلك الأيام لا يحفلون بهم ولا بما يلقوه، وإنما يصانعون الإنجليز حيناً، ويصانعون القصر حيناً آخر، ويسيرون من أولئك الذين كانوا ينتظرون في باريس أن تفتح لهم أبواب وزارات الخارجية أو يحاولون في لندن أن يصلوا مع الإنجليز إلى كلمة سواء.

ولم يك الإنجليز يعلّون زهدهم في الحماية وميلهم إلى إلغائها وإقامة نظام خير منها، ولم تكن وزارة الثقة – كما كانت تسمى في تلك الأيام – تنهض بأعباء الحكم، ولم يك سعد رحمة الله يعود إلى مصر، حتى نجم الخلاف بين الوزارة وبين الوفد حول المفاوضات؛ من الذي يجريها؟!

أتجرّيها الوزارة لأنها تمثل السلطان الشرعي النظامي؟  
أم يجريها الوفد لأنه يمثل الشعب التائر؟

وكان الغريب من أمر هذا الخلاف أنه كان يتصل بالظاهر والصور لا بالواقع وحقائق الأمر، كان أعضاء الوزارة وأعضاء الوفد يؤمنون جميعاً بحق مصر في الاستقلال، وبأن هذا الاستقلال يجب أن يستخلص من الإنجليز بالمقاومة الحرة؛ إيثاراً للسلم ورغبة في العافية وبخالاً بالدماء على أن تراق وبالنفوس على أن تزهق قبل أن تستنفذ وسائل السلم. ولكنهم على هذا الاتفاق والإجماع كانوا يختلفون في مظاهر هذه المقاومة؛ لأن من يجريها سيتاح له تحقيق الاستقلال إن قدر له النجاح.

وكذلك انقسم المصريون وثارت بينهم فتنة منكرة جعلت بأسمهم بينهم شديداً. ونظر صاحبنا فإذا العلماء والمفكرون كغيرهم من الناس قد انقسموا إلى فريقين: فريق منهم مال إلى الوفد وقال مع القائلين: «لا رئيس إلا سعد». وفريق آخر مال إلى

الوزارة وقال مع القائلين: «إنما المفاوضات ملن ولـي الحكم». ثم نظر صاحبنا فإذا هو كغيره من عامة الناس، وإذا هو مع الفريق الذي مال إلى الوزارة ورئيسها عدلي باشا رحمة الله.

وما أسرع ما اضطرمت الفتنة حتى مس لهبها كل نفس وكل عقل وكل ضمير، وإذا الوفد يتمنى الإخفاق للوزارة في مفاوضاتها، ويذير لهاـذا الإخفـاق، وإذا أتباع الوفـد يجهـرون في غير تحفـظ بـدعائـهم ذاك البـغيـض: «الـحـمـاـيـةـ عـلـىـ يـدـ سـعـدـ خـيـرـ مـنـ الـاسـتـقـالـلـ عـلـىـ يـدـ عـدـلـيـ!»

وإذا صاحبنا ينفق أقصى ما كان يملك من العنف في مهاجمة هؤلاء الوفـديـنـ الذين اتـخذـواـ منـ بـغـضـهـمـ لـعـدـلـيـ وأـصـحـابـهـ، وـمـنـ حـرـصـهـمـ عـلـىـ رـيـاسـةـ الـمـفـاـوضـاتـ دـيـنـاـ، وـإـذـاـ هوـ يـكـتـبـ ذاتـ يـوـمـ فيـ صـحـيـفةـ «ـالـقطـمـ»ـ سـاخـرـاـ مـنـ السـعـديـنـ: «ـيـقـولـ الـوـفـدـيـوـنـ: لاـ رـئـيـسـ إـلاـ سـعـدـ كـمـاـ يـقـولـ الـمـسـلـمـوـنـ: لاـ إـلـهـ إـلاـ اللهـ»ـ.

وقد بلـغـ الشـرـ أـقـصـاهـ بـيـنـ الفـرـيقـيـنـ حتـىـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ إـخـفـاقـ الـمـفـاـوضـاتـ، وـلـمـ يـنـزـلـ الإنـجـلـيـزـ لـعـدـلـيـ عـنـ الـاسـتـقـالـلـ وـكـثـرـ الـمـصـرـيـيـنـ لـاـ تـؤـيـدـهـ بلـ لـاـ تـحـبـهـ بلـ تـبـغـضـهـ وـتـبـغـضـ أـصـحـابـهـ أـشـدـ الـبغـضـ وـأـنـكـرـهـ.

ويـعودـ عـدـلـيـ مـخـفـقاـ، فـيـفـرـحـ بـإـخـفـاقـهـ الـوـفـدـ وـأـتـبـاعـهـ، وـيـزـعـمـ أـصـحـابـ عـدـلـيـ أـنـ صـاحـبـهـمـ قـدـ كـانـ أـبـيـاـ كـرـيمـاـ قـدـ ثـبـتـ لـلـإنـجـلـيـزـ فـلـمـ يـنـزـلـ لـهـمـ عـنـ حـقـ الـوـطـنـ، وـلـمـ يـقـبـلـ مـنـهـمـ الدـيـنـيـةـ، وـعـادـ أـشـمـ مـرـفـوعـ الرـأسـ.

وـيـرـىـ صـاحـبـنـاـ نـفـسـهـ ذاتـ يـوـمـ فيـ مـحـطةـ الـقـاهـرـةـ معـ الـمـسـتـقـبـلـيـنـ لـعـدـلـيـ وـهـوـ يـصـيـحـ معـ الصـائـحـيـنـ: «ـلـيـحـيـ عـدـلـيـ باـشـاـ!»ـ

وـقـدـ حـمـلـ الـعـدـلـيـوـنـ صـاحـبـهـمـ عـلـىـ الـأـكـتـافـ حتـىـ وـضـعـوهـ فيـ سـيـارـتـهـ، وـلـاـ يـكـادـ الـمـسـتـقـبـلـوـنـ لـلـمـخـفـقـ الـعـظـيمـ يـخـرـجـونـ منـ الـمـحـطةـ حتـىـ تـنـهـاـلـ عـلـيـهـمـ اللـعـنـاتـ وـيـصـبـ عـلـيـهـمـ الـاسـتـهـزـاءـ صـبـاـ، ثـمـ يـقـذـفـونـ بـالـحـجـارـةـ وـالـعـصـيـ، وـيـصـابـ صـاحـبـنـاـ بـبعـضـ الـأـذـىـ، وـلـوـلـاـ أـنـ رـفـيقـهـ كـانـ مـاـهـراـ لـبـقـاـ لـتـعـرـضـ لـشـرـ كـثـيرـ، وـلـكـنـ رـفـيقـهـ انـعـطـفـ بـهـ إـلـىـ حـارـةـ الـحـارـاتـ، ثـمـ نـفـذـ بـهـ إـلـىـ حـيـثـ أـمـنـ الـحـصـىـ وـالـحـجـارـةـ وـالـشـتـمـ، وـأـعـادـهـ إـلـىـ دـارـهـ مـوـفـورـاـ مـكـدوـداـ مـعـ ذـلـكـ.

وـيـنـفـيـ سـعـدـ بـعـدـ إـخـفـاقـ عـدـلـيـ بـقـلـيلـ، وـيـنـكـرـ عـدـلـيـ هـذـاـ إـخـفـاقـ، وـيـلـحـ فيـ قـبـولـ استـقـالـتـهـ، وـيـرـىـ أـصـحـابـ عـدـلـيـ أـنـ نـفـيـ سـعـدـ إـهـانـةـ لـلـوـطـنـ كـلـهـ، وـتـوـشكـ الـكـلـمـةـ أـنـ تـجـمـعـ، وـيـوـشـكـ الـمـصـرـيـيـوـنـ أـنـ يـصـبـحـوـاـ يـدـاـ وـاحـدـةـ عـلـىـ خـصـمـهـمـ مـنـ الـإنـجـلـيـزـ، وـلـكـنـ الـعـصـاـ لـاـ تـلـبـتـ

أن تنشق، والخلاف لا يلبث أن يعود كأعنف ما كان، لم يغير أحد الفريقين من رأيه ولا من خطته شيئاً.

يقول العدليون: إن حب الوفد للرياسة قد أضاع المفاوضات!

ويقول السعديون: إن ازدراء عدلي للشعب وممثله قد أضاع الاستقلال، ويوشك الاستقلال أن يُنسى وتنصرف عنه النفوس بفضل هذه الفتنة المظلمة التي كان المصري فيها يخرج يده فلا يكاد يراها.

على أن تصريح الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وألف يرد إلى العدليين شيئاً من ثقة وكثيراً من أمل، فقد ظفر ثروت باشا رحمه الله ببعض الحق، وشيء خير من لا شيء!

وقد أتيح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها، وأن يتح للشعب أن يكون له دستور، وأن يحيا حياة ديموقراطية كريمة ... وأصبح السلطان ملكاً، وأصبح مصر أن ترسل ممثليها السياسيين إلى البلاد الأجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التي أغاثها الإنجليز حين أعلنوا الحماية.

وكل هذا يتاح لصر مظاهر الاستقلال وشيئاً من حقائقه مهما يكن قليلاً فإن له ما بعده، ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح ويرونه شرّاً ونكرًا ويرون قبوله جريمةً وإنما.

والخلاف يمضي في طريقه لا تهدأ ثورته ولا تزداد ناره إلا اضطراماً، وصاحبنا ماضٍ مع أصحابه في إذكاء هذه النار لا يعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يسخط عليه الساخطون، وإنما هو مقتنع بأن شيئاً خيراً من لا شيء، وبأن القليل صائب إلى الكثير، وبأن هذه المظاهر ستتصبح في يوم من الأيام حقائق إن عرف المصريون كيف يحزمون أمرهم وكيف يجمعون كلمتهم وكيف يحسنون انتهاز الفرصة.

وقد أخذ ثروت باشا رحمه الله يهبي لوضع الدستور فألف لجنة الثلاثين، وأخذت هذه اللجنة في عملها، ولكن شرّاً آخر يظهر في أفق مصر.

فهذه اللجنة قد أخذت عملها على أنه حدٌ، وجعلت تضع دستوراً ديموقراطياً يخول الشعب من الحقوق ما لا يريد القصر أن ينزل عنه، وإذا سلطان الأمس وملك اليوم يمكر بالوزارة واللجنة جميعاً، وإذا الخلاف يظهر بين القصر وبين ثروت باشا، وتكون ديموقراطية الدستور هي أصل هذا الخلاف. وصاحبنا ماضٍ في تأييد الدستور الديمقراطي غير ملقٍ بالاً إلى القصر ولا إلى صاحب القصر الذي أحسن لقاءه ومنحه كثيراً من العطف والبر والت تشجيع.

وفي ذات يوم ينبع ثروت باشا صاحبنا بأن القصر ساخطٌ عليه، وبأنه يحاول أن يصلح الأمر.

قال صاحبنا متضاحًّا: فأصلاح الأمر بين الوزارة وبين القصر إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فهذا أجر بعنتيك من إصلاح الأمر بين القصر وبيني!  
ولم يستطع ثروت باشا أن يصلح الأمر بين القصر والوزارة، ولا بين القصر وصاحبنا، وإنما استقال.

ونظر صاحبنا فإذا هو بين عدوين لا يدرى أحهما أنى له من صاحبه.  
يراه السعديون مارقاً مالاً المارقين.

ويراه القصر كافراً بالنعمة جاحداً للجميل.

ويرى هو أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه ول يكن بعد ذلك ما يكون.  
وكذلك غرق صاحبنا في السياسة إلى أذنيه، وكان جديراً أن يفرغ للعلم والتعليم  
وألا يفكر إلا في طلابه وكتبه، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة  
بالقياس إلى بعض أبنائها إنثما لا يُغترف، ولا تمحى آثاره.  
وكان صاحبنا يرى الحيدة في ذلك الوقت جيناً ونفاقاً. والمهم أنه غرق في السياسة  
أو احترق بنارها، ولم يكن له بدًّ من أن يتحمل تبعات هذا الغرق أو هذا الحريق، وهل  
كانت حياته كلها منذ تلك الأيام إلا نتيجة طبيعية لإنقاده على السياسة وغرقه فيها  
واصطلطاته نارها؟

كل ما لقيه بعد ذلك في حياته من خيرٍ أو شرًّ، ومن عرف أو نكر، ومن رضا  
أو سخط، لم يكن إلا أثراً من آثار تلك السياسة التي أقدم عليها غير حاسبٍ لأعقابها  
ونتائجها حساباً. وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة وما احتمل من أثقالها، وما  
تعرض لسخط المطردرين حيناً والمعتدلين حيناً آخر، لم ينكر من سيرته شيئاً ولم يننم  
على فعلٍ فعله أو قوله أو قوله قاله.

وكثيراً ما كان الناس من صديقه يلومونه على أنه عَرَض نفسه لسخط هذه الفتنة أو  
تلك، فلم يكن يزيد على أن يهز رأسه ويرفع كتفيه ويجيب هؤلاء الصديق بما كان يديره  
بينه وبين نفسه دائمًا: لو استؤنف الأمر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها، لم  
يغير منها شيئاً ولم ينكر منها قليلاً أو كثيراً؛ ذلك لأنه لم يستجب فيما قال أو فعل إلا  
لما كان يدعوه إليه ضميره من الإنقاد في غير تهيبٍ ولا وجِلٍ، ولا سيما حين يبلغ الشر  
أقصاه وتنتهي الفتنة إلى غايتها.

ولقد رأى نفسه ذات يوم وليس بينه وبين المحنّة إلا خطوة إلى أمام، وليس بينه وبين العافية إلا خطوة إلى وراء، وأنَّ أصدقاءه المحبين له العاطفين عليه الذين لم يكونوا يملكون له في تلك الأيام إلا المشورة والنصائح، ليلُحُونُ عليه في أن يؤثر العافية، ولو وقتاً قصيراً، فلا يسمع لشورتهم ولا يحفل بـالحاجهم، وإنما يخطو خطوه تلك إلى أمام، فيُلْقِي بنفسه بين ذراعي وجبهة الأسد كما يقول الشاعر القديم، وما أمضَ ما وجد ووجد أهله معه من ألم! وما أمرَ ما ذاق وذاق أهله معه من شقاء! ولكنَّه كان يستحب تلك الشدة الشديدة والقسوة القاسية على العافية واللين.

كان يعرف نفسه حين يشقى في سبيل ما يرى أنه الحق، وينكرها أشد الإنكار بل يبغضها أشد البغض إذا نعم بالشخص واللين؛ لأنَّه صائِعٌ أو داجِي أو جهر بغير ما يسرُّ أو آثر رضا السلطان على رضا الضمير، وكان شعاره دائمًا الشعار الذي كان يبادي به من يخاصمه، كما كان يبادي به من يغريه قول أبي نواس:

وَمَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ ضَرْبَةً لَازِبٍ      وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ أَمِيرٍ!

